التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم

أول تفسير موضوعي لـ (١٢٦٠) استفهاماً في القرآن كله

تأليف الدكتور
عبد العظيم إبراهيم المطعني

الجزء الأول

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: التفسير البلاغى
للاستفهام فى القرآن الحكيم
أول تفسير موضوعى لـ (١٢٦٠)
استفهام فى القرآن كله
الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
الدكتور عبد العظيم المطعنى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٤٥٢صفحة : (جـ ١) ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٩٨/١٤٢٥٦
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-225-124 - 8

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الاستفهام فن عظيم من فنون القول، يسرى فى أنماط الكلام سريان النسيم فى الرياض العطرة، ويزداد تألقاً وبهاءً فى الأساليب الأدبية الرفيعة، يكشف عن خبيئات المعانى ودقائق الأسرار، ويعرضها عرضاً رائعاً يحمل النفس على الانتشاء، والمشاعر على التوقد، والقلوب على اليقظة، والعواطف على الاستمتاع، والعقول على الاقناع، ويريك المعانى فى معارض مجلوة، وألوان زاهية، ومذاقات متفاوتة، فتصبح النفوس - بما فيها من ملكات الإدراك - لوحة شديدة الإحساس تنعكس عليها تلك المعانى فتقرأها الأسماع والقلوب قبل أن تقرأها الأبصار.

ولهذا احتل درس الاستفهام عند البلاغيين والنقاد منزلة الثريا.

البلاغيون يرصدون صوره، ويحددون أهدافه، ويقننون دلالاته ومعانيه.

والنقاد يكشفون عن أثره فى أجناس الأدب وفنون التعبير الراقى.

ومن أروع ما كتبه البلاغيون النقاد حول وظيفة الاستفهام فى رقى البيان، ما كتبه شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه الذائع الصيت: (دلائل الإعجاز)[1] الذى فتق فيه أكمام البلاغة وهو بصدد وضع الأسس لنظرية النظم، التى أشار إليها من قبله كالجاحظ والقاضى عبد الجبار، ثم أقام هو فيها صرحاً شامخاً سبق به زمنه كما ألمح إلى هذا ناقدان كبيران فى العصر الحديث وهما: محمد غنيمى هلال، ومحمد مندور، فقد أجمع هذان الناقدان الكبيران على أن الإمام عبد القاهر الجرجانى (م٤٧١هـ) كان قد سبق عصره بوضعه أسس نظرية النظم، وأن النقد الأروبى توصَّل فى عصر النهضة الحديثة على يد الناقد العالمى الشهير (بند توكروتشيه)

---

(١) دلائل الإعجاز (٨٩) ط: رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

إلى ما كان قد فرغ منه الإمام عبد القاهر الجرجانى منذ ستة قرون[1].

والاستفهام - عموماً - له دلالتان كسائر أساليب اللغة:

الأولى: دلالة وضعية، وهى طلب الفهم، يعنى أن المستفهم يطلب فهم شئ يجهله من المخاطب بالاستفهام، كقول السائل: أين الطريق؟ وما اسمك؟ ومتى حضرت وإلى أين تسير؟

إذا كان المستفهم يجهل الطريق، واسم المسئول، وزمن حضوره والجهة التى يقصدها.

الثانية: دلالة مجازية، وضابطها أن يكون المستفهم ليس فى حاجة إلى فهم شئ من المخاطب بالاستفهام، بل هو ينشئ معانى يقتضيها المقام قاصداً إعلام المخاطب بها، لا أن يستعلم هو من المخاطب عن شئ، ومثاله قولك لمن تراه ينهر أباه:

أتنهر أباك؟ تريد أن تنكر عليه نهره أباه وتوبخه على ذلك.

وقول الشاعر:

أأترك إن قلت دراهم خالد
زيارته؟ إنى إذاً للئيمُ

ينفى الشاعر أن يكون من خلقه قطع وده عن الناس من فقر أصابهم، يعنى أنه على نهج واحد فى معاملته للناس لا طمعاً فى نفع منهم، أو دفعاً لضرر.

وقول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راحِ

لم يرد الشاعر أن يستعلم منهم إن كانوا كراماً أو غير كرام، ولكنه يمدحهم فيثبت لهم الفروسية فى الحروب، والكرم فى السِّلم.

ومزايا أسلوب الاستفهام تكمن فى هذه الدلالة المجازية، لكثرة ما فيها من

---

(١) ينظر (أصول النقد الأدبى) للدكتور محمد غنيمى هلال، والنقد المنهجى عند العرب، للدكتور محمد مندور.

الأغراض واللطائف، وهـذا ما يسميه البلاغيون بـ«خروج الاستفهام عن معانيه الوضعية إلى معان أخرى مجازية تُفْهم من السياق ومقامات الكلام»[1].

وللاستفهام - بهذا الاعتبار - قسمان كبيران:

الأول: الاستفهام التقريرى، ويكون الاستفهام تقريرياً إذا كان المستفهم عنه مثبتاً فى المعنى، مثل قوله تعالى يخاطب الرسول الكريم ﷺ ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾.

وقول فرعون لموسى - عليه السلام -: ﴿**ألم نربك فينا وليداً**﴾؟

وقولك لمن سبق منك إليه إحسان ومعروف: أأحسنت إليك؟

ومن ضوابط الاستفهام التقريرى حلول (قد) محل أداة الاستفهام، أى: قد شرحنا لك صدرك، قد ربيناك فينا وليداً، قد أحسنت إليك.

القسم الثانى: الاستفهام الإنكارى، ويكون الاستفهام إنكارياً فى صورتين:

الأولى: أن يكون ما بعد أداة الاستفهام منفياً لا وجود له فى الواقع، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿**أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**﴾؟ أى: لم نجعل ذلك قط.

وقوله عز وجل فى الرد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة إناث:

﴿**أشهدوا خلقهم**﴾؟ أى لم يشهدوا خلق الله للملائكة حتى تكون شهادتهم سنداً لهم فى دعواهم.

الثانية: أن يكون ما بعد أداة الاستفهام مثبتاً له وجود فى الخارج، لكنه كان ينبغى أن لا يكون أصلاً.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون**﴾ فالقول الواقع بعد الاستفهام واقع وله وجود فى الخارج، لكنه كان لا ينبغى أن يكون لأن القول إذا لم يصدقه عمل مخلص لله كان مذموماً، وقوله تعالى فى توبيخ المشركين: ﴿**أتقولون على الله مالا تعلمون**﴾؟

هذان هما القسمان الكبيران للاستفهام الخارج عن دلالاته الوضعية إلى دلالات مجازية تفهم من السياق ومقامات الكلام.

---

(١) انظر الإيضاح (٣/٦٨) ط: د. محمد عبد المنعم خفاجى، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٤م.

ويتولد عن هذين المعنيين الكبيرين: التقرير والإنكار معانٍ أخرى تناسب المقام، وتراها كثيرة الدوران على ألسنة المفسرين لكتاب الله العزيز، مثل: التوبيخ، التقريع، التكذيب، النفى، التنديم، التحسير التيئيس، التشويق، التسلية، التعزية، التسرية، الأمر، التعجيز، النهى، الحث، التحضيض، الاستبعاد، الامتنان، التبهيج، الزجر، التنبيه على الخطأ. . إلخ، وهذه المعانى صالحة للردف على كل من التقرير والإنكار، وفى بعض المواضع يتبع التقرير الإنكار، والإنكار يتبع التقرير، ولهذا شيوع فى صور الاستفهام فى القرآن الحكيم.

وفى هذا يقول الإمام عبد القاهر معقباً على أمثلة ذكرها: (واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لِمَ كان، وتوبيخ لفاعله عليه)[1].

* * *

وهذه الدراسة التى بين يديك مقصورة على دراسة صور الاستفهام التى وردت فى القرآن الكريم، وعددها كما نص الأستاذ الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة، ستون ومائتان بعد الألف (١٢٦٠) صورة استفهام فى القرآن كله.

وقد تقدمت على هذه الدراسة دراسات بلاغية وغير بلاغية للاستفهام فى النظم القرآنى، منها:

* دراسة لغوية لأستاذنا المغفور له عبد العظيم الشناوى أستاذ اللغويات فى كلية اللغة العربية، وهى دراسة لغوية لا بلاغية، وهذا ما يبدو من عنوانها:
(الهمزة وأثرها وأحوالها فى لغات العرب) يعنى لهجات العرب.

والدراسة الثانية للأستاذ عبد العليم فودة (أساليب الاستفهام فى القرآن)، وهى دراسة موجزة تقوم على الوصف الجُمْلى وصغيرة الحجم.

* والدراسة الثالثة لصاحب هذه الدراسة، وكان قد صدر منها جزء واحد، تحت عنوان: (التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم. الهمزة المجردة مع الفعل الماضى)، قصرناه على أداة استفهام واحدة هى الهمزة، وعلى مستفهم عنه واحد،

---

(١) دلائل الإعجاز (٨٩) مرجع سبق ذكره.

هو الفعل الماضى، كما هو واضح من العنوان، وقصدنا من (الهمزة المجردة) التى لم يفصل بينها وبين الفعل واحدة من أدوات العطف الثلاثة، وهى: (الواو - الفاء - ثم)، مثل:

(**أأنذرتهم**..) وقد كان لها رواج بين الدارسين فى مصر وفى خارج مصر، ووصلتنى رغبات كثيرة من طلاب الدراسات العليا فى مصر والبلاد العربية كلها ترجو استكمال دراسة الاستفهام فى القرآن على نمط ما صدر عليه الجزء الأول.

وبعد عودتى من العمل فى الخارج عام ١٤١٦ هـ الموافق ١٩٩٥م عقدت العزم، واستعنت بالله على مواصلة الجهد خدمة لكتاب الله العزيز، وتلبية لرغبات طلاب الدراسات القرآنية فى مرحلتى الماجستير والدكتوراة، فاستأنفت جمع المادة وتنسيقها، ولكن على منهج مخالف لما صدر عليه الجزء الأول المشار إليه.

فآثرت دراسة صور الاستفهام فى القرآن حسب ورودها فى القرآن مراعياً فى ذلك الترتيب المصحفى: (البقرة - آل عمران - النساء - المائدة) وهكذا حتى آخر سورة ورد فيها استفهام، وهى سورة: (الماعون) صدرت الدراسة الأولى عن دار الأنصار بالقاهرة عام ١٣٩٩ هـ الموافق ١٩٧٩م، ونفدت بعد صدورها بزمن قصير.

أما هذه الدراسة التى صدرت عن مكتبة وهبة هذا العام ١٤١٩ هـ الموافق ١٩٩٨م فإن منهجها أقوم من منهج الدراسة الأولى للمميزات الآتية:

أولاً: أنها تفسير موضوعى يصدر لأول مرة فى تاريخ الدراسات القرآنية يتتبع صور الاستفهام فى تسلسل مرتب ترتيب السور فى المصحف، وترتيب الآيات فى كل سورة، ومن اليسير الرجوع إلى الاستفهام المراد الإطلاع عليه لدى الباحث إذا عرف رقم الآية فى السورة.

ثانياً: الدراسة الأولى كانت تقوم على التجزئة، فمثلاً قوله تعالى فى سورة النور ﴿أفى قلوبهم مرض؟ أم ارتابوا..﴾ [٥٠] يدرس فيه الاستفهام الأول ﴿أفى قلوبهم مرض﴾ فى فصل الهمزة الداخلة على حرف الجر (فى).

ويدرس فيه الاستفهام الثانى: (أم ارتابوا) فى فصل (أم) الداخلة، على الفعل

الماضى، وهذا قد يسبب صعوبة فى البحث والدرس، فضلاً عما فيه من بتر صور الاستفهام الواردة فى سياق واحد، ومقام واحد، وهذا يحجب دقائق من المعنى لا تظهر إلا بالنظر إلى نظم الآية كلها دفعة واحدة.

أما فى هذه الدراسة التى بين يديك، فإننا ندرس الاستفهام فى إطار الآية التى هو فيها، مع النظر فى ما قبلها وما بعدها من آيات إذا كان للاستفهام صلة مباشرة بسياق الكلام السابق أو اللاحق، كما ندرس صور الاستفهام إذا تعددت فى الآية الواحدة دراسة متآخية يشد بعضها أذر بعض، وتتجلى لنا من خلال هذا المنهج ما يحمله الاستفهام من معان ودقائق ولطائف وأسرار وبلاغيات.

منهجنا فى الدراسة:

وقد التزمنا فى هذه الدراسة منهجاً راعيناه بكل دقة من أول الدراسة إلى آخرها، **وتتمثل سمات هذا المنهج فى العناصر الآتية:**

أولاً: التزمنا بالرجوع إلى آراء كبار المفسرين لكتاب الله العزيز، وبخاصة من عُرِف عنهم الاهتمام بعرض المعانى البلاغية فى آيات الذكر الحكيم، وراعينا فى اختيارهم الاعتبارات الآتية:

(أ) الجمع بين التخصصات المختلفة، فكان من المفسرين الذين عنوا بالمباحث البلاغية: الإمام جار الله الزمخشرى، والإمام أبو السعود العمادى، والإمام الألوسى، وكان من المفسرين الذين عنوا بالدراسات اللغوية والنحوية الإمام أبو حيان صاحب البحر المحيط، وكان من المفسرين المهتمين بالدراسات الفقهية الإمام القرطبى صاحب الجامع لأحكام القرآن، وكان من المفسرين المبرزين فى علم الكلام الإمام فخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير.

(ب) الجمع بين القدماء والمحدثين، فكان من المحدثين الشيخ محمد رشيد رضا صاحب تفسير المنار ثم سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور وهو أحدث المفسرين، صاحب التفسير المشهور: (التحرير والتنوير)، هذا بالإضافة إلى مفسرين آخرين كالإمام أبى البركات النسفى، والإمام البيضاوى، والشهاب الخفاجى والسمين

الحلبى، وابن عطيـة، وإن كان الرجوع إليـهم ليس منتظماً مـثل الأولين، وإنما نرجع إليهم عند الحاجة الملحة فى أى مسألة نريد استقصاء القول فيها.

ثانياً: اتبعنا فى دراسة كل صورة استفهامية الخطوات الآتية:

(أ) ذكر الآية التى ورد فـيهـا الاستفـهام مشـكولة الكلمات فى صـدر المبحث، مع الإشارة إلى السورة التى وردت فيها ورقم الآية.

(ب) إذا وردت صورتا استفهام فى آيتين، وكـانتا شديدتى الصلة، ذكرنا الآيتين معاً أو الآيات فى مبحث دراسى واحد، وإذا توسطتهما آية لا اسـتفهام فيها حرصنا على ذكرها فى موضعـها، ودرسناها معهما أو مـعها إن كانت الآيات التى ورد فيها الاستفهام أكثر من اثنتين.

(جـ) بعد ذكر الآية أو الآيات نثبت عنوان مبحث مطرد، وهو: (الدراسة والتحليل) وفيه نتناول مباحث فرعية، مـثل: تمهيد لمعنى الآية أو الآيات، إبراز ما فيها من صور الاستفـهام، ذكر آراء الأئمة فى المراد ثم خلاصة لما قـيل أو يقال فيه، ثم إبداء ما نراه إن كان لنا رأى خاص.

(د) نذكـر بعـد ذلك عنوان مـبحث دورى فى جـمـيع الآيات وهو: (أسـرار النظم وبلاغياته)، وفيه نحلل نظم الآية، أو الآيات تحليلاً بلاغـياً واسعاً، يشمل البيان والمعانى والبـديع، وما يتصل بنظرية نظم الكلام على هدى مـا كتبه الإمـام عبد القـاهر فى هذا الصدد، وهذا المبـحث من أهم مـباحث الدراسـة كمـا سيـرى القارئ.

(هـ) قدمنـا المفسرين البـلاغيين على من عـداهم فى الرجوع والوقـوف على آرائهم، بادئين بشيـخهم الإمام جار الله الزمخـشرى، ثم أتبعناه الإمام أبا الـسعود، ثم الإمام الألوسى.

وأحياناً نكتفى بصـياغة ما قالوه أوبالإشارة إليه دون نقل أقوالهم بالـتفصيل، وقد نكتفى بما قاله واحد منهم إذا كان ما قاله وافياً بالمراد، ثم تابعه عليه الآخرون.

وإذا لم نجد لبعضـهم رأياً معيناً فى إحدى صور الاستفـهام أهملنا الإشارة إليه فى

الهوامش، وأشرنا فى صلب الصفحة إلى ذلك، وقد لا نشير البتة.

أما المواضع التى نحرص فيها على ذكر ما قالوه - جميعاً - فهى المواضع التى تتباين فيها آراؤهم تبايناً شديداً.

ثالثاً: لن نقف عند ما يقوله الأئمة المفسرون، بل نكتفى به إذا كان وافياً بالمراد، فإذا لم يكن وافياً بالمراد اجتهدنا ما وسعنا الاجتهاد فى المسألة، ولو أدى ذلك إلى الاختلاف الكامل بين ما يقولونه وبين ما يهدينا إليه النظر الفاحص الملتزم بالمعايير الدينية، والأصول البلاغية، ولن يحملنا على الخروج عما يقولونه حب الخروج فى نفسه، بل حب الوصول إلى الحقيقة، وتقرير ما يثبت النظر المخلص أنه هو الأليق بكتاب الله، والأنسب بمقام الحديث والأقضى بلاغة وذَوْقاً.

وسيرى القارئ الكريم نماذج كثيرة لهذه الاجتهادات نطمع أن يرى ما رأيناه فيها، وفى كل فنحن مدينون للأئمة الأعلام الذين أفنوا أعمارهم فى محاريب العلم، وعكفوا على كتاب الله وغاصوا وراء معانيه، وتجلية مقاصده، واختلافنا معهم فى بعض المواضع لن يؤثر فى أستاذيتهم لنا وتلمذتنا عليهم، ولولا جهودهم المبذولة لتوقفنا فى بداية الطريق رحمهم الله رحمة واسعة.

رابعاً: لم ندخل فى حساب هذه الدراسة ما جاء على أسلوب الاستفهام فى اللفظ، وليس هو استفهاماً فى المعنى مثل (كم) الخبرية، فهى ليست استفهاماً، بل هى خبر معناها: كثير، ومن أمثلتها فى القرآن الحكيم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله تعالى حكاية عن الذين كفروا: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا، قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ، إن نظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وقوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان - عليه السلام - يقول للهدهد: ﴿اذهبْ بِكتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيهِمْ، ثُمَّ تولَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

وقوله عز وجل حكاية عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرةٌ بِمَ يَرجِعُ المُرسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

هذه الصور استفهامية فى اللفظ لا فى المعنى، ومع ذلك فقد تناولنا بعضاً منها ووضعنا لها ضابطاً سيأتى توضيحه فى الدراسة، وفى الخاتمة، مع أنها ليست استفهاماً اصطلاحياً، كما سيأتى فى غضون هذه الدراسة، وسماحة الشيخ الطاهر بن عاشور يطلق على مثل هذا الاستفهام، الاستفهام الصورى، يعنى أنه استفهام فى الصورة اللفظية دون المعنى.

وقد ارتضينا هذه التسمية، وحاولنا من جانبنا أن نضع لها ضوابط بلاغية تميز بينها وبين الاستفهام الاصطلاحى، وأحسب أننا وُفقْنا فى وضع تلك الضوابط ولله الحمد، وسنشير إليها فى خاتمة هذه الدراسة.

خامساً: إذا تكرر تركيب استفهامى متحد اللفظ والمعنى مثل **﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾**، وقد ورد فى القرآن عدة مرات، فى هذه الحالة نوليه عناية تامة فى الدراسة والتحليل، وإبراز الأسرار والبلاغيات النظمية فيه، وذلك عند وروده لأول مرة، فإذا تكرر أحلنا على موضع دراسته، دون أن نطيل بتكرار القول فيه.

ولهذا التركيب نظائر كثيرة تكررت على وزن: (أفلا تفعلون) مثل: ﴿أفلا تذكرون - أفلا تعقلون﴾ ونعترف أن هذه الصيغة كررنا دراستها مرات بهدف ترسيخ معناها ومغزاها البلاغى، وفى بعض مواضعها أحلنا إلى ما سبق قوله فيها.

وبعد.. فهذه الدراسة تفسير موضوعى يصدر لأول مرة عن الاستفهام فى القرآن الحكيم، وهو دراسة بلاغية بيانية عمدتنا فيها - بعد آراء سادتنا المفسرين - الاجتهاد المخلص لوجه الله، والقائم على مخزوننا من القواعد البلاغية، والدلالات اللغوية، أردنا أن نخرجها فى أسلوب واضح، بعيداً عن التعقر والتوعر الأكاديمى ليستفيد منها عامة القراء، وكان قصدنا منه توقيف القارئ توقيفاً مباشراً على تذوق بلاغة القرآن الفطرية التى تهز المشاعر، وتمتع العواطف، وتقنع العقول، وتسير مع الفهم سيراً هَيِّناً لَيِّناً، فى غير التواء ولا تقحُّم، فإن كنا قد وصلنا إلى هذه الغاية فالحمد والمنة لله،

وإن قصرنا دون الوصـول إليها فحسـبنا أننا حاولنا، واجتهـدنا وأخلصنا، ولم ندخر وسعاً، ولا بخلنا بطاقة، والله وحده يعلم مدى الجهد الذى بُذل، والزمن الذى أُفنى، والعرق الذى تصـبب، والسهـر الذى اتصل، وكل ذلك فى حب الله وكتـابه يهون، والله أسأل أن يبارك ما فيه من صواب وينفع به، وأن يعفو عما عسى أن يكون فيه من خطأ غير مقصود وأن يكتب لهذه الدراسة قبولاً وخلوداً بين الأسفار التى كتبت خدمة لكتابه العزيز، (إنه سميع مجيب).

وفى ختام هذه الدراسة أتقدم بخالص الـدعاء إلى الله أن يهب الأستاذ وهبة حسن وهبة الصـحة وطول العمـر، وأن يمتعه بنعم الدنيـا والدين، جزاء ما قـدم ويقدم من مطبوعات هادفة عفيفة شريفـة تخدم الحق وترغب فيه، وعلى ما تحمل من مشاق فى إخراج هذه الدراسـة على الوجه الذى تراه فيـها، وهذا من أنجح أساليب الجـهاد فى العصر الحديث.

كما أتقدم بخالص الـدعاء للأستاذ محمد شحاتة إبراهيم - رئيـس قسم التصحيح والمراجـعة بالمطابع الأمـيـرية - الذى أشرف على بروفـات الطبع وبذل فـيهـا جهـداً مشكوراً، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

عفـا الله عنـه

سورة البقرة

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

هذه الآية الحكيمة تناظرها فى القرآن الحكيم خمس آيات أُخر، آثرنا ذكرها هنا لأن الحديث عنها ذو سمات وملامح مشتركة، سواء من حيث التركيب الذى ورد فيه الاستفهام، أو من حيث المعنى الذى يؤول إليه هذا التركيب، **والآيات الخمس هى على ترتيب المصحف:**

الأولى فى [سورة الأعراف: ١٩٣]:

﴿سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾.

الثانية فى [سورة إبراهيم: ٢١]:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

الثالثة فى [سورة الشعراء: ١٣٦]:

﴿سَواءٌ عَلَيْنَا أَوَ عَظْتَ أَمْ لَمْ تكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾.

الرابعة فى [سورة يس: ١٠]:

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذرهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

والخامسة فى [سورة المنافقون: ٦]: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الدراسة والتحليل:

هذه ست آيات جاءت فى القرآن الحكيم على نسق واحد فى بناء التركيب الاستفهامى، تصدَّرت فيه كلمة **(سواء)** الجملة، وتلتها كلمة **(على)** جارة لضمير جماعة الذكور الغائبين فى ثلاثة مواضع: البقرة، يس، المنافقون.

كما جاءت جارة لضمير الجماعة المخاطبين فى موضع واحد هو: **الأعراف**، وجارة لضمير الجمع المتكلم فى موضعين، هما: **إبراهيم والشعراء.**

ثم جاءت الهمزة داخلة على الفعل الماضى فى الآيات الست هكذا:

(أأنذرتهم) فى البقرة ويس. **(أدَعوتموهم)** فى الأعراف. **(أجزعنا)** فى إبراهيم، **(أوعظت)** فى الشعراء، **(استغفرت)** فى المنافقون، والهمزة فيها مقدرة.

أما (أم) فقد جاءت داخلة على الفعل المضارع فى أربعة مواضع، هى:

البقرة، الشعراء، يس، المنافقون.

وجاءت داخلة على الفعل الماضى فى موضع واحد، هو آية إبراهيم: **(أم صبرنا)**.

وعلى الجملة الاسمية فى موضع واحد هو آية الأعراف: **(أم أنتم صامتون)**.

هذه هى الملامح والسمات الأسلوبية لهذا التركيب وهى تجمع بين الاتفاق والاختلاف، وهذا بيانهما.

الاتفاق والاختلاف بينها:

وعلى هذا، فإن هذه الآيات الست اتفقت فى الخصوصيات الآتية:

(أ) تصدُّر سواء للصورة الاستفهامية فيها.

(ب) وقوع الجر بـ(على) بعدها جاراً لمحل ضمير الجمع.

(جـ) دخول همزة الاستفهام على الفعل الماضى فى الآيات الست.

(د) وقوع (أم) المعادلة عاطفة ما بعدها على ما بعد الهمزة.

الاختلاف:

واختلفت هذه الصور فى الملامح الآتية:

(أ) فى الضمير المجرور - محلاً - بـ (على) بين الغيبة والخطاب، والتكلم.

(ب) فى الجملة، التى دخلت عليها (أم) بين الجملة الفعلية، والجملة الاسمية، والجملة الفعلية بين المضارعية والماضوية، ولكل هذه السمات دواعٍ بيانية ستأتى الإشارة إليها بإذن الله.

من هو صاحب الضمير المجرور فيها؟

تقدم أن (على) جرَّت ضمير (الجماعة) فى الآيات الست، وفى الإضمار - عموماً - نوع من الخفاء، فيا ترى من هو صاحب الضمير فى الآيات الست؟

إن صاحب الضمير المجرور بـ (على) هم مخالفو الرسل فى خمس آيات باتفاق، أيًّا كانت صورة الضمير: للغيبة أو الخطاب أو التكلم، أما الآية السادسة وهى آية الأعراف: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ فإن للعلماء فى صاحب الضمير فيها رأيين: أحدهما مرجوح، وهو كون الضمير المجرور بـ (على) المقصود به النبى ﷺ والمؤمنون معه. أشار الإمام الألوسى إلى هذا الرأى، وردَّه قائلا: «إن روايته عن الحسن لا تصح، أما الطبرسى فحاطب ليل»[1]، استند الإمام الألوسى فى رده هذا الرأى إلى القدح فى سند الرواية، فنفى صحة نسبته إلى الحسن، وطعن فى رواية الطبرسى بأنه حاطب ليل: لا يميز بين الغث والسمين.

كما استند إلى دلالة السياق، وهذا أقوى من الأول؛ لأن مقام الحديث هو بيان ضلال المشركين فى عبادتهم للأصنام واعتمادهم عليها فى إجابة الدعاء.

ومن الخير أن نذكر سياق الآيات التى كانت هذه الآية واحدة منها:

﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُم يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وإن تَدعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٠ - ١٩٤].

فالحديث فى الآيات متصل فى شأن المشركين، وهذا ما يرجح عود الضمير فى (عليكم) على مخالفى الرسل، ولذلك قال الألوسى: «مستو عليكم فى عدم الإفادة دعاؤكم للأصنام وسكوتكم عنه، فإنه لا يتغير حالكم فى الحالين، كما لا يتغير حال الأصنام بحكم الجمادية الثابتة لها»[2].

وعلى هذا يكون الضمير المجرور بـ (على) مراداً به المشركون، أما الضمير المنصوب فى (**أدعوتموهم**) فراجع إلى الأصنام.

كل ما فى الأمر أن فى الآية التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب، وسره البلاغى فيما نرجح هو زيادة التبكيت بمواجهتهم بالإقناط والتيئيس وخيبة الرجاء.

---

(١) ينظر روح المعانى: (٩/ ١٤٣).

(٢)نفس المصدر والموضع.

وبهذا يطَّرد عود الضمير المجرور بـ (على) فى الآيات الست على مخالـى الرسل.

تنوُّع الضمير:

ومن السمات البلاغية البارزة فى هذه الصـور الست هو تباين نوع الضمير المجرور بـ(على)، على النحو الآتى:

الغيبـــة:

جاء الضميـر المجرور بـ(على) للغائب فى آيات البقرة ويس والمنافـقون؛ لأن المقام مقام إخبار من الله لرسوله ﷺ.

وجاء ضميـر تكلم فى سورتى إبراهيم والشعراء؛ لأن المقام يتحدث فـيه المشركون عن أنفسهم.

وفى مـوضع واحد جـاء ضـميـر خطاب، وهو فى آية الأعـراف ﴿سَوَاءٌ عَلَيكُمْ أَدعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾، وقد تقدم أن فى هذا الأسلوب التـفاتاً سره البلاغى زيادة التبكيت بمواجـهة المخاطبين بخيبـة رجائهم فى أصنامهم، والضمـير الغائب فى (عليهم) له دلالة بلاغية ذات شأن، فمثلاً قوله تعالى فى سورتى البقرة ويس: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ لم يَقُل: (عليك) لأنه لو جاء الأسلوب على هذا النسق لكان فيـه ترخيص لصاحب الدعـوة بترك الإنذار، وهذا لا يصح فى مقـام النبوة؛ لأن فى الإنذار مع اليـأس من إيمانهم إقامـة لحجـة الله عليهم، وإقـامة الحجة للهِ شطر الرسالة، فكيف يُرخَّص فى التقاعس عنها؟

خصائص هذا الأسلوب ودلالاته:

نعنى بهذا الأسـلوب التركيب اللغـوى الذى جاءت عليه الآيات الـست، وقد بينا تلك الخصـائص اللغوية وبقى علينا بيان دلالاته، وقـد أفاض العلماء والباحـثون فى تحليلاته الدلالية، ومـهما قيل فإنهم مجـمعون على أن هذا الأسلوب هو فى الأصل للاستـفهام، ولكنه خـرج عن هذا المعنى إلى معنى آخر، وهذه خـلاصة لما أجمـعوا عليه، قـالوا: إن الهمـزة فى الأصل للاستـفهام الخـالص، أى الحقـيقى الذى يورده المستفهم للحصول على معنى هو به جـاهل، كقولك لمن لا تعرف اسمه: ما اسمك؟

وأم للاستفهام كذلك مع إفادة العطف، كقولك: أظهر الهلال أم لم يظهر؟

فقد وقع الاستفهام هنا عن أمرين: ظهور الهلال وعدم ظهوره، الأول استُفْهِم عنه بالهمزة، والثانى بأم، ثم عطفت أم الأمر الثانى على الأول، بعد إفادتها الاستفهام عنه وحين تجتمعان، أعنى الهمزة وأم - كما فى هذه الآيات التى صُدِّرت صورة الاستفهام فيها بـ (سواء) فإن الهمزة تكتسب معنى جديداً، وتصبح أم معادلة لها فى اكتساب هذا المعنى الجديد، الناشئ عن اجتماعهما بعد كلمة (سواء) وتسمى (أم) هنا: أم المتصلة؛ لأن ما قبل (أم) وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر فى الكلام الفصيح.

ومن ضوابط (أم) المتصلة أن تقع بين مفردين، أو بين جملتين فى قوة المفردين، ويطلب بها فى هذه الحالة تعيين أحد الأمرين المستفهم عنهما، كما فى قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وفى الآيات الست خرجت كلٌّ من الهمزة وأم عن أصلهما الذى هو الاستفهام، وكذلك كل ما جاء على نسق هذه الآيات، خرجتا إلى معنى جديد فما هو ذلك المعنى الجديد؟

المعنى الذى خرجتا إليه:

يقول الإمام جار الله الزمخشرى - رحمه الله -:

«الهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً، قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام، كما جرى على حرف النداء قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يعنى: هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء، ومعنى الاستواء استواؤهما فى علم المستفهم عنهما، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن، إما الإنذار، وإما عدمه، ولكن لا يعينه، فكلاهما معلوم بعلم غير معين»[1].

هذا ما قاله الزمخشرى عن المعنى الذى خرجت إليه كل من الهمزة وأم، ولنا عليه

(١) الكشاف: (١/ ١٥٣) وما بعدها.

ملاحظة، لأن قوله: «ولكن لا يعينه، فكلاهما معلوم بعلم غير معين»، لا يصح حمله على الصيغ الإلهية، ومنها آيتا البقرة ويس، لأن علم الله محيطٌ بكل شئ، وإنما يصح حمله على كلام البشر ومن فى حكمهم، فكان حرياً بصاحب الكشاف أن لا يمثل بما هو معنى كلام الله، وهو الإنذار وعدم الإنذار.

ويختصر الإمام القرطبى الحديث فيقول: «سواء عليهم معناه: معتدل عندهم الإنذار وتركه، وجئ بالاستفهام من أجل التسوية»[1].

هذا قوله، ولو قال: (متعادل) بدل (معتدل) لكان أصوب، لأن معتدل معناه: مستقيم، وهذا المعنى غير مراد فى النظم الحكيم.

ونقل الرازى كلام صاحب الكشاف مصرحاً بالنقل عنه[2].

ويقول أبو حيان: «سواء عليهم: إخبار بانتفاء إيمانهم على تقدير إنذارك وعدم إنذارك سواء، وأم حرف عطف، فإذا عادل الهمزة، وجاء بعده مفرد أو جملة فى قوة المفرد سميت أم متصلة، فإذا انخرم هذان الشرطان أو أحدهما سميت منفصلة»[3].

وفات أبا حيان أن أَمْ إذا عادلت الهمزة أفادت الاستفهام مع العطف.

ويتابع الإمام النسفى صاحب الكشاف فى بعض عباراته فيقول:

«وسواء بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر، مثل قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ أى مستوية، فكأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام»[4].

ويمزج الإمام الألوسى بين المعانى النحوية والبلاغية، ومما قال:

«الأمران سواء، ثم بيَّن الأمرين بقوله سبحانه ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ. . .﴾، «أى إنذارك وعدمه سيان»[5].

وهكذا نرى إجماعهم على أن المعنى الذى خرجتا إليه هو التسوية، وكان أبو السعود - قبل الألوسى - قد قرر ما قرره سابقوه من خروج الهمزة وأم عن الاستفهام

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ١٨٤). (٢)التفسير الكبير: (٢/ ٤٣).

(٣) البحر المحيط: (١/ ٤٥). (٤) تفسير النسفى: (١/ ١٦). (٥) روح المعانى (١/ ١٢٨).

الذى هو أصلهما إلى معنى الاستواء الذى اكتسباه باجتماعهما فى نسق واحد بعد كلمة سواء، وهذا نص كلامه:

«سواء هو اسم نُعِت به كما ينعت بالمصادر مبالغة، قال تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، والهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما كما جرد الأمر والنهى لذلك عن معنييهما فى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وحرف النداء فى قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، «عن معنى الطلب لمجرد التخصيص كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه»[1].

تأثر أبو السعود فى هذا التوجيه بكل من الإمامين الزمخشرى والنسفى، وأضاف إلى ما قالاه خروج بعض الأساليب الإنشائية، وهما الأمر والنهى عن معنييهما الحقيقيين وهما الفعل والترك إلى معنى التسوية بين هذين المعنيين: أى استغفارك وعدم استغفارك سواء فى عدم المغفرة لهم من الله، وهذا المعنى الذى خرجتا إليه لم نر أحداً من أهل العلم لم يقل به، بلاغيين وغيرهم. بله المفسرين.

فهذا السيد الشريف يدلى بدلوه فى الموضوع مع تأثره بما قرره الزمخشرى، فقد نقل ما قاله بالحرف، وعالج بعض المشكلات الناشئة عن عبارات بعض المفسرين، ومن ذلك مناقشته للعبارة التى أوردها الزمخشرى وغيره وهى قولهم:

«ومعنى الاستواء استواؤها فى علم المستفهم عنهما؛ لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن، ولكن لا يعينه»، وقد ترتب على هذه العبارة مُشكلتان:

إحداهما: خاصة بقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك لأن المستفهم - هنا - هو الله، فكيف يصح أن يقال إنه علم أن أحد الأمرين كائن ولكنه لا يعينه؟

والثانية: عامة فى كل تركيب جاء على هذا النسق، وهى كيف يقال استواؤهما فى علم المستفهم مع أنهم أجمعوا على انسلاخ معنى الاستفهام عنهما؟

---

(١) تفسير أبى السعود (١/ ٤٣).

رد السيد الشريف:

وقد رد السيد الشريف على المشكلتين فقال:

«ومعنى الاستواء أراد به أن هذا معناهما فى الأصل ليظهر تضمنهما للاستواء، فيصح الحكم بتجريدهما، لا أن الاستواء فى علم المستفهم مقصود منهما، كيف وهما بعد التجريد لا يقعان فى كلام المستفهم.. فالاستواء فى علم المستفهم إنما هو باعتبار أصل الدلالة، أما بعد التجريد فالاستواء إنما هو فى عدم الجدوى مع حصول أى الطرفين سلباً وإيجاباً، فالمؤدى واحد فيهما».

ونضيف إلى ما قاله الشريف أن الاستواء فى علم المستفهم إنما يكون فى الاستفهام الحقيقى لا الذى خرج عن المعنى الحقيقى، كما فى هذه الآية، والحق ما قاله الشريف من أن معنى الاستواء فى هذه الآية ونظائرها خرج من الاستواء فى العلم إلى الاستواء فى عدم الجدوى بدليل قوله تعالى فى نهاية الآية: **(لا يؤمنون)**، وهذا معناه أن إنذار النبى ﷺ للذين كفروا لا يفيد كما لا يفيد عدم إنذارهم[1].

وممن أدلى بدلوه فى هذه المسألة أبو على الفارسى، وفى هذا يقول: **(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم)** لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام وإن كان خبراً، لأن فيه التسوية التى فى الاستفهام، ألا ترى أنك إذا استفهمت فقلت: أخرج زيد أم أقام، فقد استوى الأمران عندك وعدم علم أحدهما بعينه، كما أنك إذا أخبرت فقلت: سواء علىَّ أقمت أم قعدت، فقد سويت الأمرين عليك، فلما عمتهما - أى الاستفهام والخبر - التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته له فى الإبهام»[2].

هذا توجيه طيب لأبى على، وخطوة لها وزنها بلاغياً.

وقوع الفعل موقع المبتدأ:

من الخصائص البيانية لأسلوب سواء مع الهمزة وأم، وقوع الفعل فيه موقع المبتدأ، والإخبار عنه، وهذا خلاف الأصل المقرر عند النحاة، فالمبتدأ عندهم اسم دائماً،

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف: (١/١٥٣). (٢) الحجة فى القراءات السبع: (١/١٩٨).

والمشهور فى إعراب هذا التركيب - كما يقول صاحب روح المعانى - أن (سواء) خبر مقدم، و(أنذرتهم أم لـم تنذرهم) فى موضع المبتدأ، والتـقدير: إنذارك وعدم إنذارك سواء. فكيف ساغ ورود المبتدأ فعلاً؟

أجاب الزمخشرى على هذا فقـال: هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، وقـد رأينا العرب يميلون فى مواضع من كـلامهم مع المعانى مـيلاً بيّناً، من ذلك قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وإن كان ظاهر اللفظ على مالا يصح من عطف الاسم على الفعل[1].

ويبين السيد الشريف وجه الاستشهاد بهذه العبارة فيقول:

«فإنه إن أجرى على ظاهره لزم عطف الاسم، وهـو تشرب بالنصب على الفعل، بل (لزم) عطف مفرد على جملة لا محل لها من الإعراب، فهو من قبيل ما هجر فيه جانب لفظه إلى جانب معناه، أى: لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن»[2].

يريد السيـد أن يقول: أن «تشرب» بالنـصب مؤول بمصدر والمصـدر اسم، فيكون عطفه على «لا تأكل» من عطف الاسم على الفعل أو على الجـملة، التى لا محل لها من الإعـراب، وفـراراً من هذه المحظورات حـمل اللفظ (لا تأكل) وهو فـعل، على التأويل بالاسم ليـصح العطف، وهذا هو ميل العرب إلى جانب المعنـى وهجر جانب اللفظ.

ومن هذا القبيل قـولهم المأثور: تسمعَ بالمعيدى خـير من أن تراه، بنصب «تسمع» فهذا الفعل مؤول بمصدر والمصدر اسم ولذلك ساغ الإخبار عنه.

ويقول العلامة أبو السعود:

«والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه عند بقائه علـى حقيقتـه، أمـا إذا أريـد بـه اللفـظ، أو مطلق الحـدث المدلـول عليــه ضمنــاً على طريقـة الاتسـاع فـهـو كـالاسـم فـى الإضافـة والإسناد إليه كما فى قـوله تعالـى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِـدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا...﴾ [البقرة:١١]، وقولهم:

---

(١) الكشاف: (١/ ١٥٢).

(٢) المصدر السابق.

«تسمعَ بالمعيدى خير من أن تراه»[1].

فقه هذه الشواهد:

فى آية المائدة وردت الإضافة إلى الفعل فـ(يوم) مضاف، و(ينفع) مضاف إليه، وهو فعل، بدليل ترك التنوين فى (يوم).

وفى آية البقرة وقع الفعل (**لا تفسدوا**) نائب فاعل، وهذا من الإسناد إلى الفعل.

أما المثال: تسمعَ بالمعيدى خير من أن تراه، فالشاهد فيه الإخبار عن الفعل، بعد وقوع الفعل فى حكم المبتدأ.

ما تقدم كان من حيث الصناعة النحوية، والذى يعنينا البحث عن السر البلاغى فى العدول إلى الفعل عن الاسم فى مواضع يتعين فيها الاسم دون الفعل.

التوجيهات البلاغية:

بين أيدينا ثلاثة توجيهات بلاغية للعدول عن الاسم إلى الفعل فى أسلوب (سواء):

الأول: للإمام أبى السعود، وفيه يقول:

«والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادلها - يعنى: أم - عليه، لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده، لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لمعنى الاستواء بين مدخوليهما»[2].

الثاني: للإمام الرازى، وفيه يقول:

«فإن قيل العدول عن الحقيقة إلى المجاز لابد أن يكون لفائدة زائدة، إما فى المعنى وإما فى اللفظ فما تلك الفائدة هنا؟».

«قلنا: معناه: سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لهم بعد ذلك» ولو قال ابتداء: سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لما أفاد أن هذا المعنى حصل فى هذا الوقت دون.

ما قبله، ولما قال: (**أأنذرتهم أم لم تنذرهم**)، أفاد أن هذه الحالة إنما حصلت فى هذا الوقت، فكان ذلك يفيد حصول اليأس، وقطع الرجاء منهم[3].

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/ ٤٥).   (٢) تفسير أبى السعود: (١/ ٤٣).   (٣) التفسير الكبير: (٢/ ٤١).

الثالث: وهو للإمام الألوسى: وسميناه ثالثاً وإن كان لم يخرج عما سبق ذكره عن أبى السعود والرازى، لأن الألوسى صاغ ما قالاه فى عبارة موجزة لخص فيها كل ما قاله الإمامان، وهذه عبارته:

«وإنما عدل المولى - سبحانه - عن المصدر، فلم يأت به - صريحاً - على الأصل لوجهين:

لفظى: وهو حسن دخول الهمزة وأم على الفعل لأنهما للاستفهام، وهو بالفعل أولى.

ومعنوى: وهو إيهام التجدد نظراً لظاهر الصيغة، وفيه إشارة إلى أنه ﷺ أحدث ذلك الإنذار وأوجده[1].

فقد أخذ الألوسى معنى التجدد عن الرازى، ومعنى إمكان دخول الهمزة وأم من أبى السعود، وكلا هذين التوجهين وجيهان بلاغياً، لأن فى الفعل من الحركة، والنشاط المتجدد ما يناسب مقام النبوة وهذا - وحده - كاف فى الإفصاح عن السر البلاغى فى العدول إلى الفعل، (**أأنذرتهم أم لم تنذرهم**) عن الاسم إنذارك وعدم إنذارك.

وخطرت لنا - الآن - خاطرة لها مساس بالمغزى البلاغىْ من العدول إلى الفعل من الاسم، وهى أن فى العدول إلى الفعل توطئة بليغة لانسجام النظم بين فاصلة الآية (**لا يؤمنون**) وبين (**سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم**) لتجانس الكلمات الثلاث فى الفعلية: (أنذرتهم - لم تنذرهم - لا يؤمنون).

ولو جئ بالمصدرين هكذا: سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك، لأحست النفس بشئ من الاضطراب بين المصدرين وبين الفعل (**لا يؤمنون**) ولن يزول هذا الاضطراب إلا بتقدير كلمة، لا وجود لها فى نظم الآية وهى: (**لأنهم**) لا يؤمنون[2].

وهذا الاضطراب الذى أشرنا إليه يشمل اللفظ والمعنى معاً.

---

(١) روح المعانى: (١/١٢٨).

(٢) للإحساس بهذا الاضطراب حاول النطق بجملة (لا يؤمنون) بعد النطق بالمصدرين: سواء عليهم انذارك وعدم إنذارك.

فهذا توجيه بلاغى نرجو أن يكون قميناً بالقبول يضم إلى ما قاله المفسرون أجزل الله ثوابهم.

أخبرٌ هذا التركيب أم إنشاء؟

من المقطوع به عند علماء البيان أن الاستفهام - عموماً - فن من فنون الإنشاء كالأمر والنهى، وكان مقتضى هذا العموم أن يكون الاستفهام فى هذه الآيات الست إنشاء لا خبراً، ولكن إجماع العلماء على أن المعنى: إنذارك وعدم إنذارك عليهم سواءٌ فى عدم الجدوى، وهو أقوى ما يقال فى معناه، هذا الإجماع ينأى بالاستفهام فى الآيات الست وما كان على شاكلتها عن الإنشائية، ويدرجه فى الأساليب الخبرية، لأن هذا التركيب على جميع ما قيل فى إعرابه:

إخبار من المتكلم للمخاطب باستواء الأمرين فى تحقق عدم الجدوى أو الاعتداد بهما[1]

وإلى هذا أشار أبو على الفارسى - كما تقدم - بقوله: «لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر».

وإنما استفاد هذا التركيب معنى الخبرية من كلمة (سواء) بدليل أن التركيب إذا خلا منها صار استفهاماً محضاً، محتملاً للحقيقة والمجاز، ولا يخلص لأحدهما إلا بقرائن الأحوال، فإذا قلت لمن تجهل حاله: أبلغك الخبر أم لم يبلغك؟ كان استفهاماً حقيقياً، وإذا قلت هذه العبارة لمن تعلم أن الخبر بلغه كان استفهاماً مجازياً يراد منه تقرير المخاطب ببلوغ الخبر إياه.

نوع المجاز فى هذا التركيب:

أهل العلم مجمعون على أن الاستفهام فى الآيات الست ليس حقيقياً، بل هو مجاز، وإنما وقع الخلاف بينهم فى نوع المجاز فيه، هو عندهم مجاز سواء منه ما كان من مقول الله الخالص، كآية البقرة: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ أو كان محكياً عن

---

(١) الاستواء فى عدم الجدوى بالنسبة إلى الآيات الست، أما الاستواء فى عدم الاعتداد بهما فيكون فى مثل: سواء علىَّ رضيت أم كرهت.

قائل آخر، كمـا فى آية إبراهيم - عليه السلام -: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ وإن اختلفت قرائن التجوز فيهما.

فهى فى قول مخالفى الرسل: **(سواء علينا)** أنهم استفهموا مريدين الإخبار، وهى فى قول الله تعـالى - فوق ما تقدم - أن الله لا يخـفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، فمحال فى حقه أن يستفهم استفهاماً حقيقياً.

أما خلافهم فيه حول منشأ المجاز ونوعه وموطنه فالفخر الرازى يقول:

إن منشأ المجاز فيه هو استعمال الفعل فى موضع الاسم[١].

وعند الإمام البيضاوى: أن منشأ المجاز فيه أن اللفظ استعمل فى جزء معناه، وهو المصدر أو الحدث المجرد عن الزمان[٢].

يعنى أن الفعـل أنذر لما أريد منه المصدر كان هذا المصـدر جزء معـنى هذا الفعل، والجزء الثانى غير المراد من الفعل هو: الزمن.

وعلى هذا يكون نوع المجاز فى هذا التـركيب لغوياً مرسـلاً علاقته الكليـة، حيث أُطلق الكل وأُريد الجزءُ.

أما الألوسى فقد أشار إلى هذا الرأى ولم يرتضه فقال:

«ويوهم قولهم بالتجـريد - أى تجريد الفعل عن الزمن - أن هناك مجـازاً مرسلاً، استعمل فيه الكل فى جزئه»[٣] ثم يقول: «والتحقيق أنه إما استعارة، أو مستعمل فى لازم معناه»[٤].

ومؤدى ما قالوه يدور حول ثلاثة تخريجات:

الأول: أنه مجاز لغوى مرسل علاقته الكلية.

الثانى: أنه مـجاز لغـوى استعـارى، ولم يبين الألوسى وجـه الاستـعارة فـيه ولا نوعها.

الثالث: أنه كناية، بناء على قول الألوسى السابق، لأن الاسـتعمال فى لازم المعنى من خواص الكناية على المشهور.

---

(١) التفسير الكبير: (٣/ ٤٠).
(٢) تفسير البيضاوى: (١/ ٢٢).
(٣) روح المعانى: (١/ ١٣٩).
(٤) روح المعانى: (١/ ١٣٩).

وكونه مجازاً مرسلاً ليس فى حاجة إلى توضيح أما كونه كناية فهذا بعيد، لأن مدلول الكناية لا يستساغ فى هذا التعبير.

أما القول بأنه استعارة فلا وجه له، إلا أن يقال شُبِّه فيها الأخص، وهو المصدر، بالأعم وهو الفعل، فتكون تصريحية تبعية، والعلاقة هى امتناع كون الفعل مسنداً إليه، إلا بهذا التأويل.

وظاهر مما تقدم أن كلامهم متردد بين أن يكون بياناً لمجازية التركيب جملة، أو لمجازية استعمال الفعل فى موضع الاسم، وهو جزء من جملة التركيب وبقى التركيب كله فى حاجة إلى إيضاح جهة التجوز فيه.

والذى أراه نصاً فيه هو قول ابن المنير على الكشاف وهذا نصه:

«وحاصل هذا النقل هو استعمال الحرف فى أعم معناه:

فالهمزة المعادلة لأم موضوعة فى الأصل للاستفهام عن أحد متعادلين فى عدم التعيين، فنقلت إلى مطلق المعادلة، وإن لم يكن استفهاماً، واستعملت فى الجزء الحقيقى»[1].

ومؤدى كلامه هنا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون التركيب من باب المجاز المرسل، وقد أشار هو إلى علاقته وهى الإطلاق.

والثانى: أن العبارة من باب الاستعارة فى الحرف شُبِّه فيها مدخول الهمزة وأم الآن، بمدخولهما الأصلى، وهو الاستفهام الحقيقى المستوى طرفا التعادل فيه لدى المستفهم - بحسب الأصل - فى إدراك أحدهما بلا تعيين، فتجرى عليها قاعدة الاستعارة فى الحرف.

وكل هذه المحاولات لم تشف للدارس غليلاً؛ لأنها محاولات لتوجيه بعض جزئيات التركيب، والمقام فى أمس الحاجة إلى قول كافٍ شافٍ يبين مجازية التركيب كله ولا يقف عند جزئياته كالهمزة، وأم ووقوع الفعل موضع الاسم، وهذا القول الكافى الشافى يكمن فى الإجابة على هذا السؤال:

---

(١) الكشاف: (١/١٥٣).

من أى أنواع المجاز وضع أسلوب إنشائى موضع أسلوب خبرى أو العكس؟

والجواب فى إيجاز:

هو من المجاز المرسل الذى علاقته الإطلاق والتقييد، فإذا طبقنا هذا على إحدى الآيات الست، ولتكن آية البقرة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ قلنا:

الاستفهام موضوع وضعاً حقيقياً لطلب حصول فهم جديد لم يكن حاصلاً عند المستفهم، ثم يُطلق الاستفهام من هذا القيد الوضعى، وبعد هذا الإطلاق يعاد تقييده مرة أخرى بالمعنى الخبرى، وهو فى الآية الكريمة: الإخبار بالتسوية بين الأمرين المتعادلين - الإنذار وعدمه - فى عدم الجدوى، ومثل هذا يقال فى استعمال الأساليب الخبرية فى المعانى الإنشائية، وقد فصلنا القول تفصيلاً وافياً فى غير هذه الدراسة بعد عرض مذاهب العلماء فيها، فليرجع إليه من شاء[1].

مضارعة التركيب للشرط والجزاء:

ومن خصائص هذا التركيب، والمباحث البيانية المتعلقة به مضارعته للشرط والجزاء، وفى هذا يقول أبو على الفارسى:

«وذلك نحو: لأضربنه ذهب أو مكث، لزم حذف الحرف هنا - أى أداة الشرط فلم يقل: إنْ ذهب - لإغناء حرف الاستفهام عنه - أى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لمقاربة الاستفهام للشرط فى اجتماعهما فى أنهما ليسا بخبر، وأنهما تقتضيان جواباً، وبعض الحروف قد يغنى عن بعض، فكذلك حروف المجازاة، لما كانوا قد حذفوه فى قولهم: لأضربنه ذهب أو مكث، واستمر حذفه مع أنه لا حرف يكون بدلاً منه كان حذفه فى سواء وما أبالى للزوم «ما ذكرنا. . . »[2].

وقال الرضى فى شرح الكافية[3]:

---

(١) المجاز فى اللغة وفى القرآن الكريم بين ما نعيه ومجوزيه، مكتبة وهبة - القاهرة.

(٢) الحجة فى القراءات السبع: (١/ ١٢).

(٣) (٢/ ٣٠٥).

وإنما غلب فى سواء وما أبالى الهمزة وأم المتصلة مع أنه لا معنى للاستفهام هنا - بل المراد الشرط - لأن بين لفظى سواء ولا أبالى وبين معنى الهمزة وأم المتصلة جامعاً ومناسبة، وهى التسوية، التى جوزت الإتيان بهما بعد اللفظين بتجريد الهمزة وأم عن معنى الاستفهام وجعلهما بمعنى إنْ وأو، ويجوز مع هذا أن تأتى بعد سواء ولا أبالى بأو مجرداً عن الهمزة، نحو: سواء علىَّ قمت أو قعدت، ولا أبالى قمت أو قعدت، بتقدير حرف الشرط.

قال:

ولست أبالى بعد آل مطرف حتوف المنايا أكثرتْ أو أقلّتِ

ويرى الألوسى هذا الرأى فيقول وهو يوجه العطف بأو فى المثال الذى ذكره الرضى:

«وإنما دخلت أو على الفعل بغير استفهام لما فى ذلك من معنى المجازاة، فتقدير المثال: إن قمت أو قعدت فهما سيان علىَّ»[1].

إذن، فهذا الأسلوب شبيه بأسلوب الشرط، وإذا وضعنا هذا فى الاعتبار تولد لدينا مجاز آخر متصل بهذا التركيب، وهو استعارة أداة الاستفهام لمعنى أداة الشرط، بجامع أن كلا منهما يقتضى جواباً.

توسط (أم) بين الفعلين فيه:

ومن المباحث المتعلقة بهذا الأسلوب توسط (أم) بين الفعلين فيه، بحيث يتقدم عليها فعل هو مدخول الهمزة، ولم يأت إلا ماضياً، وشذ كما يقول الأخفش فيما يرويه عنه الرضى فى شرح الكافيه، أن يأتى مضارعاً، ويتأخر عليها فعل وهو مدخولها - أى مدخول (أم) وهو فى الآيات الست جاء مضارعاً منفياً فى أربع آيات، وجملة اسمية فى ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ فى سورة الأعراف، وماضياً مثبتا فى سورة إبراهيم: ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾، وتوسط (أم) الفعلين فيه لما تقدم من أن الفعل بالاستفهام أولى، وقد رأينا أنهم حملوا هذا الأسلوب على أسلوب الشرط، ونزّلوا فيه حرف

---

(١) روح المعانى: (١/ ١٢٩) بتصرف.

الاستفهام منزلة حرف الشرط ومعلوم أن جزئى الشرط (الفعل والجزاء) لا يكون أولهما إلا فعلاً، أما الثانى فالفعلية هى الأصل فيه كذلك وجاز مجيؤه جملة اسمية، وهو خلاف ذلك الأصل.

وفى الآيات الست اطرد توسط (أم) للفعلين إلا فى آية الأعراف، فقد خولف فيها هذا الأصل، وتلاها جملة اسمية هكذا:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ وهذا سائغ بلاغياً لما فى الجملة الاسمية هنا من مغزى بلاغى يفوت لو جاء التالي لـ(أم) فعلاً.

بيان ذلك أن الصمت هو الأصل، وأن التكلم خروج عن ذلك الأصل، وفى حياة كل إنسان تجد لحظات التكلم أقل من لحظات الصمت، فالصمت يكاد يكون ثابتاً والتكلم عارض.

ولما تلا (أم) فى آية الأعراف الجملة الاسمية: **(أم أنتم صامتون)** والدلالة الاسمية تفيد الثبوت، كما هو مقرر بلاغياً، كان فى ذلك إشارة إلى رسوخ حالة الصمت، وكأن الله يقول للمشركين: لا تنفعكم أصنامكم سواء توجهتم إليها بالدعاء أم ظللتم على حالتكم الأصلية صامتين، وقدَّم الدعاء على الصمت لأنه مظنة تحقيق المطلوب عند المشركين، فكان تقديمه فى مقام عدم الجدوى أهم بلاغياً.

ومخالفة الأصل فى البلاغة لابد فيها من توافر أمرين:

الأول: وجود قرينة تدل على ذلك الأصل الذى خولف.

والثانى: الداعى البلاغى الحامل على ذلك الخروج. وهذان الأمران فى البيان القرآنى لا يخلو منهما موضع واحد من مواضع مخالفات الأصول. فاسم الفاعل فى قوله **(صامتون)** قرينة دالة على الأصل، وهو الفعل الذى صيغ منه اسم الفاعل.

والداعى البلاغى هو ما ذكرناه من قبل، وفيه يقول الإمام الألوسى:

«الصمت هو الأصل فدُلَّ عليه بالاسمية، والدعوة محدثة فدُلَّ عليها بالفعلية المناسبة لمعنى التجدد»[1].

---

(١) روح المعانى (٩/ ١٤٣).

توارد العطف (بأم وأو والواو) فى هذا التركيب:

من أهم المباحث اللغوية المتصلة بهذا التركيب، توارد العطف بين المتعادلين بأدوات مختلفة، هى: (أم - أو - الواو). وهو مبحث دقيق يرجع إلى تناسب أداة العطف مع سياق الكلام، بالنظر إلى اعتبارات دقيقة ترجح عاطفا على عاطف. فإذا اقتضى المقام العطف بـ (أم) قبح العطف بـ (أو) أو (الواو) وهكذا. . . وإذا اقتضى المقام العطف بـ (أو) أو (بالواو) يكون العطف بغير ما يقتضيه المقام قبيحا أو فيه شىء من الإخلال.

فالإمام الألوسى يقول:

«والمشهور أنه لا يجوز العطف بعد سواء بـ (أو) إن كان هناك همزة التسوية، حتى قال فى المغنى إنه من لحن الفقهاء»[١].

ثم نقل عن السيرافى من كتابه شرح كتاب سيبويه ما يأتى:

«سواء إذا دخلت بعدها همزة الاستفهام لزم (أم) كسواء علىَّ أقمت أم قعدت، فإذا عطف بعدها أحد اسمين على آخر عطف بالواو لاغير نحو: سواء عندى زيد وعمرو. فإذا كان بعدها فعلان بغير استفهام عطف أحدهما على الآخر بـ (أو) كذلك: سواء علىَّ قمت أو قعدت. وإن كان بعدها مصدران مثل: سواء قيامك وقعودك. فلك العطف بـ (الواو) و(أو)[٢].

وحاصل هذا الكلام:

(أ) أن العطف بأم لازم فى عطف أحد الاسمين على الآخر إذا دخل على الفعل الأول همزة الاستفهام.

(ب) إذا خلا النظم من همزة الاستفهام عطف الثانى على الأول بـ (أو).

(جـ) إذا كان المتعاطفان اسمين ليس مصدرين وجب العطف بالواو دون أم وأو.

(د) إذا كان المعطوف مصدرا على مثله جاز العطف بـ (الواو) و(أو).

وأبو على الفارسى ذهب إلى امتناع العطف بغير (أم) فى أسلوب الآيات الست،

(١ - ٢) روح المعانى (٩/ ١٤٣).

لأن المعنى - كما قدره هو - سواء عليهم هذان، والعطف بالواو فقط إذا كان المتعاطفان مصدرين أو اسمين غير مصدرين[1].

وهذا مخالف لما نقله الألوسى عن السيرافى، الذى التزم العطف بالواو فى الاسمين، وجوز العطف به وبـ (أو) فى المصدرين.

والحامل لهم على امتناع العطف بـ (أو) فى أسلوب الآيات الست - فيما أرجِّح - أن من معانى (أو) التنويع، والمقصود فى الآيات هو التسوية وهى لا تكون إلا بين شيئين فأكثر، فلو جاز العطف فيها بـ (أو) لاحتمل أن يكون المعنى: سواء عليهم أحدهما غير معين، وهذا كلام محال كما يقول أبو على نفسه فى الموضع المشار إليه، والخلاف بين السيرافى والفارسى يسير، لأنه محصور فيما إذا كان المتعاطفان مصدرين. السيرافى يجوِّز العطف فيهما بالواو وأو، والفارسى يلزم فيهما الواو، ويمنع العطف بـ (أو) ويراها مفسدة للمعنى كما تقدم. وهذه لمحة طيبة تحسب لأبى على، واستشهد أبو على بقوله تعالى:

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

والشاهد فى هذه الآية العطف بـ (أو) مع خلو النظم من همزة الاستفهام. قال أبو على موضحا هذا:

«لو أظهرت المصدرين اللذين دل عليهما لفظ الفعلين (فى الآية السابقة) لقلت: سواء عليكم الجزع والصبر. ولم تقله بـ (أو) كما فى قوله تعالى:

﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥].

وفى تمثيله بالعاكف والباد حمل للمشتقين على المصدرين، لاشتمالهما على معنى (الحدث) الذى هو دلالة المصدر. ويخرج ما جاء على خلاف ذلك بما ينصر مذهبه فيقول فى قول الشاعر:

وكان سيَّان إلا يسرحوا نَعَماً ... أو يسرحوه بها واغبرت السوحُ

إن (أو) هنا وقعت موقع (الواو) حملا لها على مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين،

---

(١) الحجة في القراءات السبع: (١/ ١٩٨).

مع جواز مجالستهما معاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤].

ويفصل ابن هشام فيقول:

«إذا كانت الهمزة للتسوية لم يجز العطف بـ(أو)، وإذا كانت لغير التسوية جاز، ولهذا علق على قراءة ابن محيصن ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بـ(أو) بدل (أم) فحكم عليها بالشذوذ؛ لأن الهمزة فيه للتسوية، وجوز أن يقال: أعندك زيد أو عمرو؟ على معنى أأحدهما عندك؟ ويكون الجواب بلا أو نعم، أو بالتعيين[1].

وخلاصة ما يمكن رصده فى هذا المبحث هو الآتى:

(أ) تعيين العطف بـ(أم) بين الفعلين إذا تلا سواء همزة الاستفهام.

(ب) وجوب العطف بـ(أو) إذا خلا النظم من همزة الاستفهام وكان المعطوف فعلاً على مثله.

(جـ) وجوب العطف بـ(الواو) إذا كان المعطوف مصدراً أو اسماً على مثله.

(د) تعيين الواو فى عطف الاسم على الاسم، وجواز العطف بـ(أو) إذا كان الاسم مصدراً، وقد تقدمت أمثلة هذا كله وبيان مذاهب العلماء فيها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العطف بـ(أم) إذا كان المعطوف عليه مستفهماً عنه هو المتعين بلاغة، بخلاف ما إذا خلا الكلام من الاستفهام، فلا حرج من العطف بـ(أو).

معادلات (سواء) فى هذا التركيب:

وهذه مسألة أخرى لها صلة بأسلوب (سواء) والاستفهام الواقع بعدها.

فقد عرفنا من قبل أن التسوية بين المتعادلين فى أسلوب الآيات الست استفيدت من كلمة سواء، وهذا يقودنا إلى سؤال حاصله: هل فى اللغة العربية أداة أخرى غير سواء تفيد ما تفيده سواء؟

يقول العلامة أبو حيان: إن الأصل فى سواء أن تدخل على مالا استفهام فيه، وأورد على هذا الأصل قول الشاعر:

---

(١) المغنى (٢/ ٤٢).

وقدَّم له بقوله: «وهو الأصل»[1].

ويقوى هذا المـذهب أن الأصل فى الجملة أن لا يدخل عليـها استـفهـام، ودخول الاستفهام على الجملة عمل طارئ يكون إذا دعت إليه دواع فى نفس المتكلم.

فمن غير الأصل دخول سواء على الاستفهام ومنه الآيات الست التى تقدم ذكرها، وليس فى نظم القرآن غيرها.

فإذا كان مـدخولها الاستفـهام فأكثر مـا جاء بعدها - كما يقـول أبو حيان - فى الموضع المذكـور آنفاً: الجـملة المصـدرة بالهـمـزة المعادلـة لأم، وشـواهـده هى هذه الآيات الست، وقـد تحـذف تلك الجـملة للدلالة عليـهـا، كمـا فى قـولـه تعـالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْـبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾، أى سواء عليكم أصـبرتم أم لـم تصبروا.

وقد تأتى بعدها الجملة الفعلية المتسلطة على اسم الاستفهام، نحو: سواء علىَّ أى الرجال ضربت، ومنه قول زهير بن أبى سلمى:

سـواء عليـــه أى حـين أتيتـــه   أساعـة نـحْس تتـقى أم بأسـعـد

ولـم يرتض أبو حيان قول ابن عطية فيه: «إنه استفهام لفظاً، خبر معنى»[2].

ورد أبى حيان على ابن عطية مدفوع بما تقدم نقله عن أهل العلم من أنه إنشاء مراد منه الخبر، ولم نر مخالفاً لهذا الإجماع، سوى أبى حيان فى هذا الموضع، فقول زهير هذا إنما هو إخبار منه بالتسوية بين الأمرين عند الممدوح، فهو جار على منهج الآيات الست فى إفادة الخبرية سواء بسواء.

والخلاصة: أن الأصل فى سواء ورودها فيما لا استـفهام فيه، ومن غير الأصل أن تدخل على ما فيه استفهام.

وقد عـودلت سواء فى هذه الخـصائص بأدوات أخـرى جرين مجـراها فى الدلالة والاستعمال.

---

(١) البحر المحيط: (٤٧/١).   (٢) المصدر السابق ذكره.

وقد أشار السيد الشريف فى حاشيته على الكشاف إلى هذا فقال:

«وإنما خص استعمال الهمزة وأم فى هذا المعنى بعد سواء ولا أبالى وما يجرى مجراهما، لأن المراد التسوية فى الشرط بين أمرين، فاشترط فيما يقع موقع الجزاء أن يشتمل على معنى الاستواء، قضاء لحق المناسبة»[1].

فقرن «لا أبالى» بسواء، وأشار إلى ما سواهما بقوله: «وما يجرى مجراهما» فدلَّ بذلك على أن لسواء معادلات فى هذه الخصائص التى يمتاز بها أسلوبها.

وجاء أبو البقاء العكبرى فأضاف موضعين آخرين، فقال:

ويقع ذلك بعد سواء، وبعد ليت شعرى كقولك: ليت شعرى أقام أم قعد، وبعد لا أبالى، ولا أدرى، فالذى أضافه هو لا أدرى وليت شعرى، وقد فاته أن يمثل لما ذكره بمأثور القول، واكتفى بمثال مصنوع هو ما تقدم. وكان من الميسور أن يمثل للفعل درى بقوله تعالى حكاية عن الجن:

﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن: ١٠][2].

وقد وقعت الهمزة وأم بعد (ما أدرى) شعرا، ولكن (أم) توسطت جملتين اسميتين على خلاف ما تقرر فى هذا التركيب، وذلك فى قول زهير بن أبى سلمى:

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وقد خطأ ابن هشام ابن الشجرى فى عده هذا البيت من قبيل أسلوب الآيات الست فى الهمزة وأم عن معنى الاستفهام إلى معنى التسوية المحضة، لأن الهمزة وأم فى بيت زهير باقيتان على أصلهما من الاستفهام، وإن خرج عن الحقيقة إلى المجاز، وإنه دل على التسوية فى الوصف بين الرجال والنساء فمراد زهير هو ذم آل حصن[3].

فمن فى كفه منهم سلاح كمن فى كفه منهم خضاب

وهذا من الفن البديعى المعروف بـ(تجاهل العارف).

---

(١) الكشاف: (١/ ١٢٥).

(٢) وانظر: التبيان فى إعراب القرآن (٢/ ٢٢).

(٣) المغنى: (١/ ٤٠).

والخلاصة - مرة أخرى - أن معادلات سواء فى الاستعمال والدلالة ثلاث:

الأولى: لا أبالى وما جرى مجراهـا من: ما أبالى ولست أبالى؛ لأن العبرة بالمعنى لا باللفظ.

الثانية: ليت شعرى.

الثالثة: لا أدرى، أو ما أدرى، أو لست أدرى، والمقـام يتسع لأدوات أخرى قيـاساً على مـا ذكروه، مـثل: لست أعلم، والعبـرة فى ذلك بورود الشواهـد عن فصـحاء اللغة.

ما اختص به التركيب القرآنى فى الآيات الست:

الذى تقدم من الخصـائص الأسلوبية فى سواء الداخلة على الاستـفهام على النسق الذى مر، هذه الخصـائص عامة فى تركيب سواء هذه، سـواء كانت وردت فى كلام الله العـزيز، أو كلام البـشر، **أمـا ما ورد منهـا فى كـلام الله فإنه يختـص فـوق ما تقـدم بخاصتين بارزتين، هما:**

الخاصة الأولى: أن الحديث فى الآيات الـست كان مقـصوراً على مخـالفى الرسل باتفاق جميع أهل العلم، إلا فى موضع واحـد تردد عند بعضهم بين أن يكون حديثاً فى شأن مخـالفى الرسل، وهو الأقرب إلى الصواب، وبين أن يكون حـديثاً فى شأن المؤمنين، وهو مرجوح، وهذا التردد كان موضعه آية الأعراف، وهى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾، وقد تقـدم بحث هذه المسألة بـاستقـصاء وإفـاضة فليرجع إليه من أراد[1].

الخاصة الثانية: أما الخاصـة الثانية فيهـا، فإن هذا الأسلوب ورد فى ست سور أربع منها مكية النزول، وهى: الأعراف، إبراهيم، الشعراء، يس، واثنتان مدنيتان، وهما: البقـرة، والمنافقـون، فهـذا الأسلوب عهـده بمكة أوثق كمـا ترى، ومن اللطائف أن الموضعين اللذين نزلا بالمدينـة بعد الهجرة، واحـد منهما ورد - صراحـة - فى شأن الكافرين، وهو آية البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) انظر صفحة (٥) من هذه الدراسة.

وواحد ورد فى شـأن المنافقين، وهم وإن كان نفاقـهم نفاق كفـر، فإنهم تظاهروا بالإيمان وهى آية المنافـقون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾.

صورتان للاستفهام المعادل فى القرآن الحكيم

نختتم هذه المباحث المتصلة بأسلوب سواء والهـمزة وأم بالإشارة إلى أن للاستفهام المتعادل الطرفين له فى التنزيل الحكيم صورتين إحداهما كثيرة فى القرآن بل وفى اللغة العربية بوجه عام، وهما:

الصورة الأولى: أن يتقـدم على الاستفهـام المتعادل الطرفين كلمـة (سواء) ولم يرد منها فى النظم القرآنى سوى ما درسناه فى الآيات الست.

الصورة الثانية: أن يرد هذا الاستـفهام غـير مسـبوق بكلمـة، (سواء)، وهو كثـير الورود فى القرآن وفى تراث العربية عامة، ومن أمثلته فى القرآن هذه الآيات:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨، ٥٩].

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

﴿أَفَـرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْـرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُـمُـوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

أما التراث العربى فمن أمثلته قول زهير بن أبى سلمى:

. . . . أقـوم آل حـصـن أم نسـاء

* * *

٢ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

هذه الآية الكريمة تواصل الحديث عن الذين كفـروا - وهم - هنا - المنافقون وكان الحديث عنـهم قد بدأ من قولـه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُـولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَـوْمِ الأَخِرِ وَمَـا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِيـنَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُـسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

الدراسة والتحليل:

ورد فى هذه الآية أسلوب استفهام حكاه القرآن عن اليهود، هذا الأسلوب واجهوا به دعوة الداعى الذى دعاهم للإيمان، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، ولم يذكر القرآن فاعل (قيل) بل بناه للمجهول، وفى هذا الحذف (حذف الفاعل) حكمة بيانية رائعة، فمن المعروف أن الذى دعاهم للإيمان فى عصر نزول القرآن هو الرسول ﷺ، ولو كان قد قيل: وإذا قال لهم الرسول، أو محمد، لكان موقف المنافقين من رفض الإيمان مقصوراً على دعوة النبى لهم، ولجاز أن يكون لهم موقف آخر إذا دعاهم أحد آخر غير الرسول، فى عصره أو بعد عصره.

ودفعاً لهذه الاحتمالات حذف الفاعل المخصوص وبُنى الفعل للمجهول ليكون هذا الموقف الرافض للإيمان، هو الموقف الدائم للمنافقين، سواء دعاهم الرسول، أو دعاهم غيره، وسواء كانت الدعوة للإيمان فى عصر النبوة أو بعدها إلى قيام الساعة.

إنهم يقفون أمام كل الدعاة، وفى جميع الأوقات رافضين للحق، متبعين خطوات الشيطان، فتأمل هذه المعانى الناشئة عن حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول، لأنها من سمات الإعجاز البيانى فى الكتاب العزيز.

ومن دواعى حذف الفاعل الصريح هنا أن ذكره يتعلق به غرض بلاغى، لأن المراد هو بيان موقفهم من الدعوة للإيمان، أياً كان ذلك الداعى، أى المراد إثبات الفعل فى نفسه، لا ممن وقع، وقد أجمل القرآن ردهم على داعيهم إلى الإيمان فى هذه العبارة:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

أُسند الفعل (قال) إلى واو الجماعة العائد على الذين كفروا، ولم يُحذف الفاعل - هنا - كما حذف فى (قيل) فما السبب؟

إن الحكمة البيانية التى اقتضت حذف الفاعل فى (قيل) أوجبت ذكره فى (قالوا) لاعتبارين:

الأول: أن (قال) فاعله معروف وله ذكر فى الكلام **(الذين كفروا)** فحسن التصريح بذكر الفاعل فيه.

الثانى: أن المقام مقام تسجيل للجرائم التى ارتكبها هؤلاء المنافقون، فَذِكْرُ الفاعل لإلصاق جريمتهم بهم، ومواجهتهم بها.

الغرض من الاستفهام

أما الغرض من الاستفهام، فيكاد يجمع المفسرون والبلاغيون على أنه استفهام إنكارى، ومن الإنكار فيه أنهم يرفضون الإيمان الذى يدعوهم إليه الدعاة.

يقول الإمام جار الله الزمخشرى: والاستفهام فى (**أنؤمن**) فى معنى الإنكار[1].

ويتابعه السيد الشريف فى حاشيته على الكشاف، فيقول: «ومعنى الإنكار فى (**أنؤمن**) أن ذلك لا يكون أصلاً»[2].

ويقول العلامة أبو السعود: «أرادوا لا يكون ذلك أصلاً، فالهمزة للإنكار الإبطالى»[3]، اقتبس أبو السعود عبارة السيد الشريف المذكورة آنفاً: لا يكون ذلك أصلاً، ووصف الإنكار بأنه إبطالى، أى أبطلوا به - فى زعمهم - دعوتهم للإيمان فى قول داعيهم إليه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

كما يرى الطاهر بن عاشور هذا الرأى فى قوله: «استفهام للإنكار، قصدوا منه التبرؤ من الإيمان على أبلغ وجه، وجعلوا الإيمان المتبرأ منه شبيهاً بإيمان السفهاء، تشنيعاً له، وتعريضاً بالمسلمين»[4].

وقول الطاهر «على أبلغ وجه» لم يرد به فى الواقع وحقيقة الأمر، بل المقصود منه إحكام الحيلة التى ردوا بها على الداعى للإيمان، وهذه طبيعة المنافقين فى تزيين أعذارهم، والعناية بإحكام كلامهم بالباطل ليستميلوا به عواطف الناس، وقد سجَّل لهم القرآن هذه الطبيعة، وقرنها بطبيعة أخرى هى الاهتمام بمظهرهم، وذلك فى قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ. . .﴾ [المنافقون: ٤].

وسمى القرآن هذه الطبيعة بـ(اللحن) فى قوله تعالى:

(١، ٢) الكشاف (١/ ١٨٢).

(٣) روح المعانى: (١/ ١٥٥).

(٤) التحرير والتنوير: (١/ ٢٨٧).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ. . .﴾ [محمد: ٣٠].

والحيلة التى سلكوها فى آية ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ أنهم لم يظهروا إنكارهم للإيمان المطلق، وإنما ضمَّنوا ردهم أن الذى يزهدهم فى الإيمان الذى يدعوهم إليه الداعى أنه إيمان سفهاء، والسَّفه هو نقص فى الإدراك يؤدى إلى فقد التمييز بين الحق والباطل كأنهم قالوا: نحن لا نرفض الإيمان لأنه إيمان، بل نرفض الإيمان الذى نشأ عن السفه وعدم التمييز، وهذه حيلة أرادوا بها إماتة دعوة الداعى الذى استمالهم إلى الإيمان الذى تسارع إليه الناس غيرهم لما لاحت لهم حقائقه، وحثهم أن يتخذوا من سبق الناس إلى الإيمان قدوة حسنة فجاء ردهم:

﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فكان قولهم: **(أنؤمن)** إنكاراً للإيمان من حيث إنه إيمان، وقولهم: ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ احتقاراً للقدوة التى لَفَتَهم إليها الداعى.

وهذه حرب ألفاظ منهم لا حرب معان، والذى نراه أن المراد من الاستفهام هنا هو: **الإنكار والاستخفاف**، وليس الإنكار وحده كما قال المفسرون، ثم التعجب من حال الدعوة إلى الإيمان وهو استفهام مجازى لا حقيقى، لأن المتكلم به لا يسأل عن شئ يجهله.

ثم كان رد الله عليهم: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾.

اتهموا المؤمنين بالسَّفه، وهذه مجرد دعوى، فأثبت الله فى الرد عليهم أنهم هم - وحدهم - السفهاء، وأكد هذا الحكم بعدة أدوات:

* حرف الاستفتاح «ألاَ» وهو - كما يقول البلاغيون - قرع عصى للإثارة والتنبيه، وتهيئة الأذهان لتلقى الكلام.
* حرف التوكيد «إنَّ» فى **(إنَّهم)**.
* ضمير الفصل «هم» بعد **(إنهم)**.
* تعريف الطرفين: المسند إليه، وهو ضمير الجماعة الغائبين، وهو، **(هم)**، فى (إنهم). ثم المسند، وهو **(السفهاء)**، حيث عُرِّف بالألف واللام، أما جملة الفاصلة

(ولكن لا يعلمون) ففيها دلالة على غرور المنافقين وانخداعهم بأنفسهم، حيث يظنون أنهم فوق كل الناس، وهم أحقر الخلق اعتقاداً وسلوكاً.

وحَذْفُ مفعول (لا يعلمون) فيه ميزتان بلاغيتان:

الأولى: لفظية، وهى توافق رءوس الآيات قبلها وبعدها، لأنها منتهية إما بالواو والنون، أو الياء والنون، فحسن حذف المفعول ونُزِّل الفعل منزلة اللازم الذى لا مفعول له، ليتم التناسق الصوتى.

والثانية: ودل حذف المفعول - كذلك - على التعميم فهم لا يعلمون أى نوع من أنواع العلم، وهذه ميزة من حيث المعنى، ولو ذكر المفعول لفاتت هاتان الميزتان.

* * *

٣ - ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً، يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

الدراسة والتحليل:

سبب نزول هذه الآية - كما ذكر الواحدى وغيره - أن الله لما ضرب المثل بالذباب فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وبالعنكبوت فى قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

لما ضرب الله المثل بالذباب والعنكبوت فى الضعف والهوان سخر خصوم الدعوة من اليهود والمشركين من هذا الكلام، وقالوا - فيما قالوا - أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فنزلت هذه الآية فى الرد عليهم، ولما كانوا منكرين هذا اللون من ضرب الأمثال بالمحقرات، أكدَّ لهم الخبر بحرف التوكيد (إن) واسمية الجملة؛ لأنهم قالوا ما قالوا مكابرة ومعاندة، وكانوا يرون - بلا نزاع - براءة هذه

الأمثال من العيوب، بل ويؤمنون بروعتها وسحر بيانها، وكانوا يقولون مثلها فى كلامهم البليغ، ولهم فى ذلك أقوال يرددونها فى محادثاتهم مثل:

أجرأ من ذبابة، يضربونه مثلاً فى الشجاعة.

وأسمع من قراد، يضربونه مثلاً لحدة السمع.

وأطيش من فراشه، يضربونه مثلاً فى الحماقة.

وأضعف من بعوضة، يضربونه مثلاً فى الضعف.

وإنما كان هدفهم من هذا اللغو الذى أثاروه حول القرآن التشكيك فيه، وصرف الناس عنه.

ثم بيَّن الله تعالى أن الناس أمام هذا اللون من البيان فريقان:

فريق المؤمنين، وشعارهم هو الإيمان بكل ما أنزل الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ سواء كان المثل مضروباً بالبعوضة: (الذبابة) أو بما فوقها فى القوة أو الضعف، أو كان مضروباً بغيرها من المخلوقات، ويدركون معنى هذه الأمثال ويتذوقون سحر بيانها..

وفريق الكافرين، وموقفهم هو الطعن فى سلامة هذه الأمثال، والسخرية منها، ومحاولة تعريتها من كل قيمة بيانية وإصلاحية.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾.

الذين آمنوا يعلمون أنه الحق من ربهم، ولذلك لم يسألوا عن المراد من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، وعلمهم به كان لبنة فى صرح إيمانهم الشامخ.

أما الذين كفروا فيتساءلون هكذا: ماذا أراد الله بهذا مثلاً»؟

فما المراد من استفهامهم هذا؟

يرى الإمام الزمخشرى أن المراد من هذا الاستفهام المحكى عن الذين كفروا هو: الاسترذال والاستحقار[1]، ولعل مراده أن فى تسائلهم عن ثمرة هذا المثل نفى لتلك الثمرة، وأنه - أى المثل - ضرب من اللغو الفارغ الذى لا فائدة له.

---

(١) الكشاف (١/ ٢٦٦).

ويتابعه الإمام أبو السعود فيقول: «غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت إرادته تعالى على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه»[1]، ما قاله أبو السعود يدل على أنهم يروجون التشكيك فى أن نزول القرآن من عند الله، لأنه لو كان نازلاً من عنده لخلا من هذا اللغو الحقير.

ويرى الفخر الرازى أن الاستفهام - هنا - يحتمل ثلاثة أغراض، هى: «الاستغراب، والاستبعاد والاستهزاء»[2].

لكن الاستغراب والاستبعاد مدفوع بما تقدم من أن العرب كانوا يمارسون بكثرة هذه الفنون البلاغية ولم يبق إلا السخرية والتحقير والاستهزاء، وهذا ما سبق قوله عند الإمامين الزمخشرى وأبى السعود، اللهم إلا إذا كان الاستغراب والاستبعاد على وجه المعاندة والجحد.

والاستهزاء هو المراد من هذا الاستفهام وهو ناشئ عن إنكارهم لضرب هذا المثل مسنداً إلى الله عز وجل.

أسرار النظم وبلاغياته:

عبِّر بالمضارع (**فيقولون**) للدلالة على هذا القول دأبهم وعادتهم، ولو قيل بدل (فيقولون): فقالوا لأحتمل اللفظ أنهم قالوا هذا القول مرة واحدة، وهذا لا يطابق الواقع من عنادهم الذى يواجهون به الحق مرات ومرات.

وفى تقديم الحديث عن المؤمنين مغزيان بلاغيان:

الأول: للدلالة على شرف الإيمان والعلم، وحقارة الكفر والعناد.

والثانى: ليجاور الجواب السؤال، لأن تساؤل الذين كفروا ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ جوابه قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، ولذلك أتى بـ (**يضل به كثيراً**) عقب موقف الذين كفروا، لأنهم هم أهل الضلال، وفى تقديم الإضلال على الهدى - فوق ما تقدم لف ونشر غير مرتب[3].

---

(١) تفسير أبى السعود (١/ ٧٤).

(٢) التفسير الكبير: (١/ ٢٠٨).

(٣) اللف هو ذكر أمرين، والنشر هو ذكر ما يخص كل واحد من الأمرين من معان، فإذا ورد النشر على ترتيب اللف: الأول للأول والثانى للثانى سمى مرتباً، وإن عكس كان غير مرتب.

والسبب فى اقتضاء عدم الترتيب شدة التناسب بين **(يضل به كثيرا)** وبين **(فأما الذين كفروا فيقولون. . .)**.

ولما ورد نوع من الإبهام فى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جاءت جملة الفاصلة مبينة لأهل الإضلال الذين تسلس قيادتهم للشيطان فقال:

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ فالإضلال المسند إلى الله إنما هو للذين يرفضون الهدى، ويشترون به الضلالة.

وفيه قصر صفة الإضلال على موصوف هم الفاسقون ووصلت جملة **(ويهدى)** وما بعدها **(وما يضل به)** بجملة **(يضل به كثيرا)** لما بين هاته الجمل من التوسط بين الكمالين، لأنها خبرية لفظاً ومعنى.

إسناد الحياء إلى الله؟

الحياء انفعال نفسى يعرض للإنسان فى بعض المواقف. وقد عرفوا الحياء بأنه: تَغَيُّر وانكسار فى النفس وانقباض عما يُعاب به أو يذم عليه، وهو بهذه الضوابط من أفعال المخلوقين لا من أفعال الله عز وجل، ولذلك استشكلوا إسناده إلى الله فى هذه الآية، وإن جاء منفيا عنه بـ (لا) لأن نفى الشىء لا يكون إلا إذا جاز إثباته. أما الشىء غير المتوقع إثباته قطعا فلا ينفى، وقد مثل الشيخ رشيد رضا لذلك بقوله: «عينى لا تسمع، وأذنى لا ترى»[1] يعنى أن هذا كلام لا يمكن أن يقال لعدم حاجة العين إلى نفى السمع عنها، وعدم حاجة الإذن إلى نفى الرؤية عنها.

وقد ورد مسندا إلى الله وهو مثبت فى الحديث النبوى مرتين: الأولى فى قوله ﷺ: «إن الله يستحى من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه».

والثانية فى قوله: «إن الله حيى كريم، يستحى إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا، حتى يضع فيهما خيرا»[2].

وقد عالج أهل العلم هذه المسألة على الوجوه الآتية:

الأول: أن إسناد الحياء إلى الله جاء على سبيل المشاكلة التقديرية؛ لأنه واقع رداً

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٩٧). (٢) أخرجهما أحمد وأبو داود وغيرهما.

على قولهم: أما يستحى رب محمد أن يضرب المثل بالذباب والعنكبوت. كما قال أبو تمام:

من مُبلغ أفناء يعرب كلها. . . . أنى بنيت الجار قبل المنزل.

فقد أوقع البناء على الجار، والجار لا يُبنى كما تبنى الحوائط، ولكن لما وقع «الجار» صحبة بناء الدار ساغ إطلاق البناء على الجار على سبيل المشاكلة[1].

الثانى: أن إسناد الحياء إلى الله وارد على سبيل التمثيل المجازى لا الحقيقة، والمراد منه الترك، فمثلا استحياء الله من تعذيب ذى الشبية المسلم معناه ترك تعذيبه لا أن الله يعتريه ذلك الانفعال الذى يعترى المخلوقين حين يغشاهم الحياء. فشُبِّه ذلك الترك بالحياء بجامع أن كلا منهما يؤديان إلى نتيجة واحدة. نص على ذلك كثير من المفسرين منهم أبو السعود.

الثالث: إجراء هذا الإسناد على ظاهره مع تنزيه الله سبحانه عن صفات الحوادث وتفويض الأمر إليه فى حقيقة المراد.

وممن يرون هذا من المفسرين الإمام الألوسى. وفى ذلك يقول:

«نمر هذا وأمثاله مما جاء عنه سبحانه فى الآيات والأحاديث على ما جاءت، ونكل علمها بعد التنزيه إلى عالم الغيب والشهادة»[2].

والبلاغيون يكادون يجمعون فى مصنفاتهم على أنه من باب المشاكلة التقديرية. وهذه الآية من أشهر شواهدهم عليها[3].

* * *

٤ - ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية الحكيمة التفات من الغيبة إلى الخطاب، فقد جرى الكلام فى الآيتين اللتين قبلها على الغيبة بدءًا من: ﴿وَأَمَّا الَّذِين كَفَرُوا فَيَقُولُونَ. .﴾. إلى قوله:

---

(١) انظر الكشاف: (١/ ٢٦٣) وتفسير أبى السعود (١/ ٧٢).

(٢) روح المعانى: (١/ ٢٠٦).

(٣) انظر معجم المصطلحات البلاغية.

﴿. . . أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ وعدل عن الغيبة إلى الخطاب فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ. .﴾ ولهذا الالتفات مغزى بلاغى وهدف تربوى، هو مواجهة الذين كفروا بهذه الجريمة، وهى الكفر بالله، التى هى أشنع الجرائم على الإطلاق.

وقد صدرت الآية بهذا الأسلوب الاستفهامى الذى أداته كيف؟ وهو استفهام مجازى قطعًا، وقد دخل على الفعل المضارع ﴿**تكفرون**﴾ بدلا من الماضى: كفرتم؛ لأن فى المضارع إشارة إلى كفرهم المتلبسين هم به ساعة الخطاب، كما يدل المضارع على أن كفرهم هذا لم ينقطع، بل هو يتجدد مع كل مطلع شمس. كما أن فيه - كما يقول البلاغيون - استحضار لصورة كفرهم الشنيع.

وفى المراد من هذا الاستفهام قال الإمام جار الله الزمخشرى، وقد كان قوله سياحة ممتعة فى الكشف عن دقائق النظم القرآنى. وها نحن نقتبس فقرات مما قال:

«معنى الهمزة التى فى (**كيف**) مثله فى قولك: أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر، ويدعو إلى الإيمان؟ وهو الإنكار والتعجب. ونظيره قولك: أتطير بغير جناح، وكيف تطير بغير جناح؟

«فإن قلت: أتطير بغير جناح إنكار للطيران لأنه مستحيل بغير جناح. وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإماته والإحياء؟ قلت: قد أخرج فى صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر، والداعى إلى الإيمان»(١).

يقرر الإمام أن (**كيف**) متضمنة لمعنى همزة الاستفهام لأن الهمزة هى أم هذا الباب. وقد ساق مثالين سوَّى فيهما بين دلالة الهمزة ودلالة كيف، وهى: إنكار الطيران بغير جناح، والتعجب من دعوى من يدعيه.

ولما كان هذان المثالان يفيدان استحالة الطيران بغير جناح استشعر الإمام اعتراضا عليه فى قياس وقوع الكفر، لأنه غير مستحيل مع ذكر الدلائل الصارفة عن الكفر والداعية إلى الإيمان. وهى تكرار الإحياء والإماتة، ثم دفع هذا الاعتراض بأن الكفر مع الدلائل القوية الصارفة والداعية إلى الإيمان نُزِّل منزلة استحالة الطيران بغير جناح وصُوِّر فى صورته، ثم قال:

---

(١) الكشاف (١/ ٢٦٩).

«فإن قلت: قد تبين أمر الهمزة، وأنها لإنكار الفعل والإيذان باستحالته فى نفسه، أو لقوة الصارف عنه، فما تقول فى كيف حيث كان انكارٌ للحال التى يقع عليها كفرهم؟

«قلت حال الشيء تابعة لذاته، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال، فكان إنكار حال الكفر، لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ. وتحريره إنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها - وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده. ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهانى»[1].

خلاصة الاعتراضات التى أوردها الإمام الزمخشرى فى هذه الفقرة ملحوظ فيها تفاوت الدلالة بين الهمزة وكيف، فالهمزة قد تأتى لنفى الفعل من أساسه، ومن أمثلتها ما ذكره الإمام من قبل، وهو قوله: أتطير بغير جناح. أما كيف فتكون للاستفهام عن الحال فى صورها المستعملة، فى معناها الحقيقى الوضعى، وهو طلب حصول ما لم يعلمه المستفهم، وتكون لإنكار الحال - أى الصفة القائمة بموصوف فى الاستفهام المجازى، كما فى الآية التى نحن بصددها، وتطبيق هذا على قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ يقتضى أن يكون الإنكار فيها لحال الكفر دون الكفر نفسه. وحاصل الاعتراض: أن إنكار الكفر فى نفسه كان هو الأولى؛ لأن إنكار حال الكفر لا يلزم منه إنكار الكفر نفسه؟ وقد أجاب الإمام على هذا الاعتراض إجابة سديدة كل السداد رحمه الله.

وحاصل الإجابة: أن الإمام قرر أن كل موجود لابد أن تكون له صفة يوجد عليها ومحال أن يوجد موجود بدون أى صفة من الصفات. فإذا نفيت جميع الصفات والأحوال عن أمر ما من الأمور، كان هذا النفى للصفات والأحوال نفيا للأمر نفسه من الأساس. هذا هو حكم العقل الذى أشار إليه الإمام جار الله بأنه طريق برهانى.

---

(١) المصدر السابق (نفس الموضع).

ولما كان الإنكار فى الآية منصبا على أحوال الكفر وصفاته. فقد لزم منه إنكار الكفر فى نفسه على طريق الكناية. والكناية عند علماء المعانى أبلغ من التصريح لاقتران الدعوى فيها بدليل صدقها. وهذا وجه آخر لما سماه بالطريق البرهانى فى الآية الحكيمة. . وقد كان من كنايات العرب عن الكرم أن يثبتوه للكريم بقولهم: «فلان كثير الرماد» إذا أرادوا وصفه بالكرم وصفا ثابتا لا يقبل الجدل. . لأن كثرة الرماد تدل على كثرة إيقاد النار فى بيته، وكثرة إيقاد النار فى بيته تدل على كثرة طهو الطعام وكثرة طهو الطعام تدل على كثرة الآكلين عنده وكثرة الآكلين تدل على كثرة الكرم.

إذن فدعوى وصف إنسان ما بالكرم فى هذه الكناية اقترنت بحشد هائل من أدلة صدقها وصحتها فرحم الله هذا الإمام الجليل. فقد كان عبقريا فى فهم كتاب الله العزيز. غواصا على دقائق معانيه وأسراره.

وينحو الإمام أبو السعود منحى الإمام جار الله ولكنه مختصر العبارة، قال:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾: التفات إلى خطاب المذكورين مبنى على إيراد ما عدد من قبائحهم السابقة، لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع، والاستفهام إنكارى لا بمعنى إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ بل بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجب منه، وفيه من المبالغة ما ليس فى توجيه الإنكار إلى نفى الكفر بأن يقال: أتكفرون؛ لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا. فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى»[1].

أضاف الإمام أبو السعود جديداً إلى ما قاله الإمام الزمخشرى، من ذلك الجديد:

* الإشارة إلى الالتفات فى الآية وسره البلاغى وهو - كما قال - لبيان اشتداد السخط عليهم الموجب للمشافهة - أى الخطاب الملتفت إليه من الغيبة - بالتوبيخ والتقريع» وهذا ما كنا قد أشرنا إليه من قبل فى أول مبحث الدراسة والتحليل.
* تنويع الإنكار نوعين: إنكار وقوع، وإنكار واقع أما عدا ذلك فقد تابع الزمخشرى فيه.

---

(١) تفسير أبى السعود (١/ ٧٦ ، ٧٧).

إنكار الوقوع والواقع :

هذا التنويع للإنكار الذى تطرَّق إليه الإمام أبو السعود فـى حاجة إلى إيضاح لبيان الفرق بينهما فنقول وبالله التوفيق:

إذا كان الأمر الذى سُلِّط عـليه الإنكار لا وجود له. فهذا هو إنـكار الوقوع، وقد مثل له الإمام بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَـهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِه﴾ [التوبة:٧] والمعنى: أنه لن يكون هذا العهد أبداً. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْـتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] فالاستفهام الأول: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ لإنكار أن يكون الأذن لهم بتحليل ما حللوا وتحريم ما حرموا واقعا فعلا من الله.

ونظيره من الشعر قول امرئ القيس:

أيقـتلنى والمـشـرفىُّ مـضـاجـعـى ... ومـسنونة زرق كـــأنيـاب أغـوالِ

أى هذا لا يكون أبدًا.

أما إذا كان الأمر المسلط عليه الإنكار واقعـافعلا، وكان ينبغى أن لا يقع. فهذا هو إنكار الواقع. وقـد طبَّق الإمام أبو السعـود هذا النوع من الإنكار على قـوله تعالى: ﴿كَـيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْـوَاتًا فَـأَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيـتُكُمْ ثُمَّ يُحْـيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهى الآية التى ندرسها فى هذه السطور.

وأبو السعـود موفق كل التـوفيق فى هذا، لأن الكفر الذى سلِّط عـليه الإنكار فى هذه الآية واقع فعلا. ودلَّ على وقوعه فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾.

هو كـفر واقع، فـكان ينبغى ألا يقـع، لقوة الصـوارف عنه، وقـوة الدواعى إلى الإيمان.

ونظيـره من القـرآن قوله تعـالى: ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْـتَرُونَ﴾ فـالافتـراء واقع من المخاطبين فِعْلا وكان ينبغى أن لا يقع.

ومثاله من الشعر قول أبى نواس لأبى العتاهية:

أتـرانى يـا عـــتــــاهـى ... تـاركــــــا تلـك المـلاهـى

أترانـى مُـــفْـــســـدا بالنـسك ... بـين المـرد جـــــــــاهـى

ينكر أبو نواس دعوة أبى العتاهية إياه إلى ترك اللهو، والإقلاع عن الغزل بالولدان الذكور، ويتعجب من هذه الدعوة فينكرها ويصر على مخالفتهالأنها منكر عنده.

ونرى الإمام الألوسى يضم إلى ما تقدم عن صاحب الكشاف وأبى السعود إضافات لم ترد عندهما، ومن أبرزها عدوله عن إرادة التعجب من الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ. . .﴾ إلى: التعجيب، بناء على أن التعجب يكون مما يُجْهل أسبابه، وهو فى حق الله تعالى محال. أما التعجيب فهو دعوة الله عباده أن يتعجبوا من حال هؤلاء الكفرة، حيث كفروا مع قوة الصوارف عن الكفر، وقوة الدلائل الداعية إلى الإيمان وأيا كان فإن هذا الاستفهام عنده مجازى لا حقيقى مراد منه: الإنكار والتوبيخ والتعجيب[1].

أما الفخر الرازى فيقول: (**كيف تكفرون بالله**) وإن كان بصورة الاستخبار فالمراد به التبكيت والتعنيف؛ لأن عظم النعمة، يقتضى عظم معصية المنعم (فيها)»[2].

لم يذكر الفخر الانكار الذى ذكره المتقدمون، وهو الدلالة الأم فى هذا الاستفهام، واكتفى بذكر التبكيت والتعنيف وهما معنيان تابعان للإنكار، ويمكن الاعتذار عن الفخر بأنه لم يذكر الإنكار بناء على دلالة التبكيت والتعنيف عليه. والإمام القرطبى، وهو رجل ضالع فى الفقه، ينحو فى هذا الاستفهام منحى مغايرا لما عليه الأكثرون من المفسرين والبلاغيين، فقد ذهبوا إلى أن هذا الاستفهام للإنكار مع ما أضافوا إلى الإنكار من معان تابعة. أما القرطبى فيقول: إن الاستفهام فى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ للتقرير وهذا نصه:

«وقيل (كيف) لفظه لفظ الاستفهام، وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ. . . قال الواسطى: وبخهم بهذا غاية التوبيخ»[3].

التقرير مختلف عن الإنكار اختلاف الاثبات والنفى، فهل بين ما ذكره القرطبى وبين ما ذكره غيره اختلاف النقيض مع النقيض، أو الضد مع الضد؟

---

(١) انظر روح المعانى: (١/ ٢١٢ - ٢١٣). (٢) التفسير الكبير: (٢/ ١٤٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن : (١/ ١٤٩).

الواقع أن هذا الاختلاف بين القرطبى وغيره منشؤه الاختلاف فى النظر والتقدير، وما ذكره القرطبى غير ممتنع - هنا -؛ لأن كفر المخاطبين ثابت لا محالة. هذا الكفر الثابت يجوز بلاغة أن تواجه صاحبه بإنكاره، بمعنى أنه لا ينبغى أن يكون ثم توبخه عليه. وهذا ما نظر إليه غير القرطبى من المفسرين.

ولك - مرة أخرى - أن تواجه صاحب هذا الكفر فتقرره بكفره وتلزمه بوجوده، ثم تُكر فتوبخه عليه وتبكته وهذا ما نظر إليه القرطبى رحمه الله. فاختلاف المراد من هذا الاستفهام عند الفريقين كان ناشئا عن اختلاف الجهة التى اعتبرها كل منهما فى هذا الموضع.

- نقول هذا، وإن كنا إلى مذهب الجمهور أميل، لأن التقرير الذى ذهب إليه القرطبى لا يحسن بلاغيا إلا إذا كان المخاطب يحاول التنصل مما يُوبَّخ عليه، وهو هنا الكفر. وهم لم يحاولوا أن يقولوا إنهم غير كافرين. ومن المحدثين الذين جاروا الجمهور فى المراد من الاستفهام الشيخ رشيد رضا، وهو وإن اقتصر على «التعجب» ولم يقرنه بالإنكار فإن التعجب من توابع الإنكار الذى نص عليه الجمهور. فقد قال:

«ثم بعد هذا البيان جاء بالاستفهام التعجبى عن صفة كفرهم مقترنا بالبرهان الناصع، على أنه لا وجه له ولا شبهة تسوغ الإقامة عليه»[1].

أجمل صاحب «المنار» ما قاله المتقدمون من برهانية الدليل، وتسليط الإنكار على حال الكفر وصفته ليترتب على هذا الإنكار العَرَضى إنكار ذات الكفر.

ثم وضع التعبير بـ «المضارع»: **(تكفرون)** فى الاعتبار فقال:

«إنه لا وجه له ولا شبهة تسوغ الإقامة عليه» لأن معنى الإقامة على الكفر مستفاد من مضارعية الفعل **(كيف تكفرون)**.

ومنهم الشيخ الطاهر بن عاشور، مع اختلاف فى الصياغة. قال:

«والاستفهام هنا مستعمل فى التعجيب والإنكار بقرينة قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أى أن كفركم مع تلك الحالة شأنه أن يكون منفيًا»[2].

---

(1) تفسير المنار (١/ ٢٠٥). (2) التحرير والتنوير: (١/ ٣٧٤).

والخلاصة: أن الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ استفهام مجازى المراد منه: الإنكار والتوبيخ والتعجيب، والإنكار فيه مسلط على الواقع؛ لأن المخاطبين كافرون فِعْلا. وزاد من شناعة كفرهم أنهم ليس لهم فيه عذر، بل كل الدلائل والبراهين ناطقة بالدعوة إلى الإيمان بلسان الحال قبل وبعد لسان المقال. أما ما قاله الإمام القرطبى - فمع عدم امتناعه - فإنه مرجوح؛ لأن التقرير يُواجَه به مَنْ يتوقع منه إنكار ما يقرر به. وهذا ليس واردا هنا فليس التقرير به من مقاصد الكلام البليغ.

* * *

٥ - ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الدراسة والتحليل:

بهذه الآية بدأ الله الحديث عن قصة آدم، بالمدينة المنورة بعد الهجرة، بعد أن تقدم الحديث عنها بمكة المكرمة قبل الهجرة فى ست سور، هى:

الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ثم سورة (ص) وجاء الحديث عنها فى سورة البقرة المدنية مختلفا اختلافا بيّنا عما جاء فى السور المكية الست، ولهذا الاختلاف فى المرحلتين خصائص ودواعٍ بلاغية فصلناها تفصيلا واسعًا فى غير هذه الدراسة(١).

ومن الجديد الذى ورد فى سورة البقرة أن القرآن فيها قال: **(جاعل)** ولم يقل: (خالق) وقال: **(خليفة)** ولم يقل (بشرا).

ومنه هذا الاستفهام الذى حكاه القرآن عن الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ...﴾.

ثم قَرْنُ هذا الاستفهام بأمر الخلافة، وكان فى القرآن المكى (السجود) مقرونا بأمر (الخلق) تم اختفاء دور (إبليس) هنا، وكان له وجود ظاهر فى العهد المكى، هذا

---

(١) انظر كتابنا: خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية (الجزء الأول) مبحث التكرار - مكتبة وهبة - القاهرة.

الاستفهام يبدو فى الظاهر أنه استفهام اعتراض من الملائكة على شىء أراده الله، والاعتراض ضرب من ضروب المعصية، والمعصية من الملائكة، معدومة؛ لأن الله أخبر عنهم - وخبره محض الصدق - فقال: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] كما قال ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]. لهذا كان لهذا الاستفهام مزيد عناية عند الدارسين فقال الزمخشرى فى توجيهه:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾: تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذى لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير»[1].

وقول الزمخشرى: «لا يفعل إلا الخير، ولا يريد إلا الخير» مناصرة منه لمذهب أهل الاعتزال، وهو من رءوسهم، أجراه على قاعدتهم من تنزيه الله عن فعل الشرور وإرادتها ولو كان قال: كل أفعاله حكمة.. لما كانت لنا عليه هذه الملاحظة أما قوله: «تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية» فهذا ظاهر مما حكاه الله عن الملائكة، فى هذه الآية الكريمة. لأنهم أثبتوا للخليفة رذيلتين: الإفساد فى الأرض وسفك الدماء.

وأثبتوا لأنفسهم فضيلتين: التسبيح بحمد الله. والتقديس له. فهم - إذن - أهل الطاعة وغيرهم أهل المعصية[2]. فالملائكة أحق - فى نظرهم - بالخلافة.

وأبو السعود أكثر إيضاحًا للمراد من الاستفهام من الإمام جار الله، وهذا قوله بعد أن قرر أنَّ الاستفهام للتعجب: «وإنما أظهروا تعجبهم استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التى بدت على تلك المفاسد وألغتها، واستخباراً عما يزيح شبهتهم، ويرشدهم إلى معرفة ما فيه - عليه السلام - من الفضائل التى جعلته أهلاً لذلك.. لا اعتراضا على فعل الله سبحانه، ولا شكا فى اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالاً، ولا طعنا فيه - أى آدم - عليه السلام، ولا فى ذريته»[3].

---

(١) الكشاف: (١/ ٢٧١).

(٢) يورد المفسرون هنا سؤالا: من أين علم الملائكة، بمعاصى بنى آدم قبل أن يوجدوا؟ وحاولوا الإجابة فقالوا: إما من الإطلاع على اللوح المحفوظ. وإما قياسًا على حال الشياطين الذين كانوا يسكنون الأرض قبل الملائكة فعاثوا فيها فسادًا.

(٣) تفسير أبى السعود (١/ ٨٢).

هذا ما قـاله الإمام أبو السعود، وهو قـول كاف شاف لو لم يكن فى توجـيه هذا الاستفهام غيره لكفى وشفى.

ويقـول الإمـام الألوسى: ﴿أَتَجْعَلُ فِـيهَا مَن يُـفْسِدُ فِـيهَا وَيَسْـفِكُ الدِّمَاءَ﴾: استكشاف عن الحكمـة الخفية، وعما يزيل الشـبهة، وليس استفهـاما عن نفى الجعل والاستخلاف لأنهم علموه قبل. فالمسـئول عنه هو الجعل، ولكن لا باعتبار ذاته، بل باعتبار حكمته، ومزيل شبهته، أو تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الفساد - يعنى الشياطين - مثلهم - يعنى آدم وبنيه... وقيل الاسـتفهام محـض - أى حقيقى - حذف فـيه المعادل، أى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أم تجعل من لا يفسد»[1].

لم يأت الإمام الألوسى بجـديد يذكر لم يقله سـابقاه أو يتضـمنـه ما قـالاه، إلا مـا أشار إليه مـن أن هــذا الاسـتفهام قيل أنه اسـتفهام محض - يعنى حـقيقى - طلب فيـه الملائـكـة فـهم شـىء لم يكونـوا عالمين به، ولهـذا حـمـل الكـلام على حذف المعادل:

اتجعل فـيها مـن يفسد فـيها أم من لا يفـسد؟ وهذا القـول لا وزن له، لأن ما لا يحتاج إلى تقديـر محذوف أولى مما يحتاج إلى ذلك التقدير. وقـد أمكن توجيه هذا الاستفهام عند الأئمة الثلاثة - حتى الآن - دون أن يحتاج إلى تقدير ذلك المحذوف.

ومما يحمد للألوسى قـوله: «وعلى كل تقدير ليست الهمزة للإنكار، كمـا زعمته الحشوية مستدلين بالآية على عدم عصمة الملائكة لاعتراضهم على الله تعالى وطعنهم فى بنى آدم»[2].

وهذا من جهل الحـشوية بمرامى الكلام ومـقاماته فـتمسكوا بظـاهر العبارة لقـصر نظرهم، واتباع ما فيه شبهة.

وللإمام الرازى كلام طويـل فى عصمة الملائكة مهَّـد به للقول بأن الاستفـهام كأنه للتعـجب من كمال علم الله تعـالى، وإحاطة حكمـته بما خفى على كل العـقلاء»[3]

---

(١) روح المعانى (١/ ٢٢١).

(٢) الحشوية: إحدى فرق أهل الكلام.

(٣) التفسير الكبير: (٢/ ١٦٨).

ونحا الإمام القرطبى منحى الإمام الألوسى فجوز أن يكون الاستفهام حقيقيا على حذف المعادل الذى حكاه الألوسى ولكن بعبارة مختلفة، وزاد عليه إرادة الاستعظام والإكبار فقال:

«جاء قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ على جهة الاستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟.. وإما أن يكون للإعظام والإكبار للفعلين جميعا: الاستخلاف والعصيان»[1] يعنى أن الملائكة لما علموا وقوع المعصية من ذرية هذا الخليفة استعظموا وأكبروا جعله خليفة فى الأرض، ومهمة الخليفة الإصلاح لا الفساد. فحملهم هذا العلم على أن يسألوا عن حكمة الله فى هذا الجعل الذى لم يفهموا مؤهلاته.

ويشير رشيد رضا إلى المراد من الاستفهام فى إيجاز فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب و**(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء)** فيغفل بذلك عن تسبيحك وتقديسك»[2].

وهذا ما سبق نقله عن الإمام القرطبى الفقيه. ومعنى هذا أن الملائكة أدهشوا لما سمعوا هذا الكلام فاستفهموا ربهم وهم دهشون عن الحكمة التى خفيت عنهم وراء هذا النبأ العظيم. ولم يستفهموا منكرين أو معترضين.

وفى نهاية هذا الشوط جاء الشيخ ابن عاشور، وحوّل ما كان قد جعله الإمامان الألوسى والقرطبى احتمالاً من حمل الاستفهام على حقيقته بتقدير حذف المعادل الذى تقدم ذكره، حول الشيخ الطاهر هذا الاحتمال إلى الوجوب المتعين المصير إليه فى بيان معنى الاستفهام فى قول الملائكة:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وفى ذلك يقول بالحرف:

«والاستفهام المحكى عن الملائكة محمول على حقيقته مضمن معنى التعجب والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك، فدلالة الاستفهام على ذلك - هنا - بطريق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٢٧٤).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢١٧).

الكناية مع تطلب ما يزيل إنكارهم واستبعادهم، فلذلك تبين بقاء الاستفهام على حقيقته، خلافا لمن توهم أن الاستفهام هنا لمجرد التعجب»[1].

فقد جعل الدلالة المرادة من الاستفهام - هنا - هى الإنكار المشوب بالتعجب، مضمنا التطلع إلى ما يزيل بواعث هذا الإنكار التعجبى؛ ولأن الشيخ يعلم غرابة هذا المعنى لمنافاته لعصمة الملائكة من عصيان الله، بادر إلى حيلة تجعله مقبولا. تلك الحيلة أن هذا الإنكار كان مبعثه خفاء الحكمة عنهم. فأنكروا لما وجدوه فى أنفسهم من غرابة ذلك الجعل والاشتياق إلى بيان الحكمة فيه، وليس إنكارا للجعل نفسه.

أما الكناية التى أشار إليها فلعله أراد بها دلالة هذا الاستفهام (الإنكارى عنده) على التعجب والتشوق إلى معرفة الحكمة الإلهية فيه.

ولا أرى الشيخ مصيبا فى ذلك؛ لأن سياق الكلام نفسه فى هذا النظم الحكيم تشع بالتعجب الذى غمر مشاعر الملائكة، يضاف إلى هذا أن الاستفهام سواء كان تقريريا أو إنكاريا تتبع معانى التقرير والإنكار فيه معان أخرى تنبثق من سياق الكلام نفسه، ومثل هذا لا يقال إنه من الكناية الاصطلاحية التى يستعمل فيها اللفظ فى لازم معناه أو حتى ملزومه على الخلاف المعروف فى ضوابط الكناية. اللهم إلا إذا كان الشيخ يريد الكناية اللغوية فلا تعليق لنا عليه.

والخلاصة:

أن الاستفهام فى الآية استفهام تعجب واستعظام نشأ عن دهشة الملائكة من أمر الخلافة مع الصفات التى يعرفونها عن المرشح لها، واستطلاع إلى معرفة الحكمة التى يسلمون بوجودها وراء هذا الأمر ولكن لا يعرفونها على التفصيل، ولا يجوز أن يكون هذا الاستفهام إنكاريا، أو مشوبا بالإنكار، ولا مرادًا منه المعنى الحقيقى، بل هو مجازى، وبلاغة القرآن لا تأباه وله نظائر أخرى وردت على ألسنة أنبياء سنعرض لها فى مناسباتها.

---

(١) التحرير والتَنوير: (١/ ٤٠٢).

أسرار النظم وبلاغياته:

وفى هذه الآية من الصور البلاغيـة ما يأتى: فَصْلُ جملة: **(قالوا أتجعل)** عما قبلها **(قال ربك)** لوقوع الجملة المفصولة موقع جواب لسؤال مقدر - كما يقول البلاغيون - نشأ عن الجملة الأولى المفصول عنها، تقدير ذلك السؤال: ماذا قالت الملائكة؟

* توكيـد الخبر **(إنى جاعل)** لتنزيل المخـاطب المستـغرب منزلة المنكر، فـأكد الخـبر بمؤكدين: إن، واسمية الجملة.

* تكرار الجـار والمجرور فى **(أتجـعل (فيها) من يفـسد (فيها))** لأن سلامـة المعنى - بلاغـيا - تقـتضى هذا التكرار؛ لأنه لو حُـذِف الأول لما تعين جَـعْلُ الخليفـة فى الأرض» ولفات تؤكيد هذا الجار والمجرور لقوله: **(جاعل فى الأرض)** ولو حذف الثانى لما تعين أن يكون الإفساد وسفك الدماء فى الأرض، لذلك كان تكرار الجار والمجرور فى الموضعين واجبا فى بلاغة التنزيل المعجزة.

* عطف**(ويسفك الدماء)** على **(من يفسد فيها)** من عطف الخاص على العام. وهو من صور الإطناب؛ لأن الإفسـاد فى الأرض يتضمن سفك الدمـاء. والمغزى البلاغى من هذا العطف التنبيه على فظاعة الخاص (سفك الـدماء) فيخيل إليك أن الإفساد كله بجميع صوره قسم، وسفك الدماء قسم آخر يماثله فى القبح.

* عَطْـفُ ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ علـى ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ من عطف العـام على الخـاص (عكس الأول) لأن تقـديس الله أعم من التسـبيح بحـمده. والمغزى البـلاغى من عطف العام على الخـاص - هنا - هو التدرج فى الثناء. وهذا منهج مـعروف فى البلاغة والنقد.

* إيثار الاسم الموصول (مَنْ) فى قـوله تعالى المحكى عن الملائكة ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على «الذى» سمة من سمات البلاغة القرآنية الرفيعة.

لأن «الذى» يحسن فيـما عرفت صلة الموصول فـيه معرفة ظاهرة، تقـول: «حضر الذى استضافنا بالأمس» إذا كان مخاطبك يعرف وقـوع استضافته لكما، وأنها وقعت فعلاً منه بالأمس.

والإفساد فى الأرض وسـفك الدماء، اللذان هما صلة الموصول لم يكونا قـد وقعا

بالفعل، فحصولهما كان فى الذهن فحسب، لذلك - والله أعلم - أوثر اسم الموصول (مَنْ) هنا - على (الذى) لعدم ظهور الصلة ظهوراً بيِّنا.

* سفك الدماء كناية عن قتل النفس التى حرَّم الله قتلها إلا بالحق. وأوثرت الكناية عن التصريح، وهو القتل، لما فى سفك الدماء، وهو إسالتها على الأرض، من فظاعة وشناعة.

* توكيد الخبر فى ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ لإزالة ما فى نفوس الملائكة، من دهشة واستغراب من أمر الاستخلاف الذى غابت عنهم الحكمة فيه.

* * *

٦ - ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية بمثابة الإجابة العملية على تساؤل الملائكة الذى درسناه فى الآية المتقدمة. وفيها ظهرت للملائكة، قسمات من ملامح الحكمة التى خفيت عنهم فى جَعل الله آدم خليفة فى الأرض، فقد عقد رب العزة بين طرفى الخصومة اختباراً شاقا أعجز الملائكة، الذين فضَّلوا أنفسهم على آدم، ورأوا أنهم أحق بالخلافة منه.

وبعد أن أعلنت النتيجة عن نفسها قال الله لهم:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وهذا الاستفهام ليس فى توضيح معناه خلاف بين الدارسين، فقد أجمعوا على أن المراد منه هو: التقرير والتذكير[1].

وقد يتولد عن هذين الغرضين غرض ثالث: هو العتاب الرقيق من الله للملائكة على ما كانوا أبدوه قبلا من تساؤل، والبلاغيون يقولون - عادة - فى مثله: التوبيخ، فعدلنا عنه إلى العتاب لأن التوبيخ لا يليق بملائكة الله الكرام.

---

(١) انظر - مثلا - الكشاف (١/ ٢٧٣) وتفسير أبى السعود (١/ ٨٩) وروح المعانى (١/ ٢٢٨).

أسرار النظم وبلاغياته:

* فَصْلُ جملة ﴿قَالَ يا آدَمُ﴾ عما قبلها لأنها استئناف بيانى كما هو الشائع عند البلاغيين، حيث أجابت على سؤال مقدر نشأ عما قبلها، وهو: فماذا قال الله؟

* وَضْعُ المظهر (آدم) موضع المضمر (له) لأن فى إظهار اسم آدم من إقامة الحجة على الملائكة، ما ليس فى المضمر، لأن الصراع بين طرفى الخصومة دار حول اسم (آدم) الظاهر لا الضمير. وهو الطرف الغالب هنا، فكان النص الصريح على اسمه أدخل وأقوى فى إقناع الملائكة، وهم المقصودون بهذا الاحتجاج ولم يُظهر اسمهم الصريح (الملائكة) بل المضمر (أنبئهم) لأنهم منشأ الخصومة، وهم - هنا - الطرف المغلوب فعبِّر عنهم بالاضمار - دون الإظهار ليناسب الإظهار الغلب فى (آدم) والاضمار المغلوبية فى (هم).

* توكيد الخبر فى ﴿إِنِّى أَعْلَمُ﴾ لتنزيل الملائكة، منزلة المنكر لما بدا عليهم من علامات الإنكار وإن لم يكونوا منكرين أصالة.

* فى قوله (غَيبَ) وُضِع المصدر موضع الصفة وهى (مغيِّب) لأن العلم بحقيقة الحدث يتضمن العلم بجميع الموصوفات بهذا الحدث، بحيث لا يخرج منها شىء على الإطلاق. وهذا الأسلوب أبلغ، وقد قال علماء المعانى إن الوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالصفة، فعندهم: «رجل عَدْل» أبلغ من «رجل عادل» لأن الوصف بالمصدر فيه تخييل بأن الموصوف صار هو العدل نفسه.

* تقديم السموات على الأرض فى قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لأن غيوب السماء أصل غيوب الأرض، فالأمور تكون غيوباً فى السماء ثم تكون فى الأرض فى مرحلة التنفيذ، لقوله عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

* عَطْفُ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ على قوله: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأن غيب السموات والأرض يشمل ما

تبدى الملائكة وما تكتم، والداعى البلاغى لهذا العطف وإفراد الخاص بالذكر بعد العام، لأن الملائكة - بناء على موقفهم السابق - هم الموجه إليه الخطاب بتقرير إحاطة علم الله بكل شئ.

* * *

٧ - ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

الدراسة والتحليل

هذه الآية واحدة من الآيات التى خاطب الله بها بنى إسرائيل، وقد بدأت هذه المخاطبات فى سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ.....﴾ ثم استمر الحديث عن بنى إسرائيل ما بين خطاب لهم وإخبار عنهم من هذه الآية رقم (٤٠) إلى الآية رقم (١٠٣) من سورة البقرة.

وآيتنا هذه ورد فيها استفهامان: أولهما فى صدر الآية **(أتأمرون)**، والثانى فى فاصلة الآية **(أفلا تعقلون)!**

ولا خلاف فى أن الاستفهام الأول ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ استفهام توبيخ وتقريع، وكذلك الثانى فى قول الزمخشرى الآتى.

(أتأمرون) الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم، و**(أفلا تعقلون)** توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول»[1] فالاستفهام الأول عنده استفهام مجازى لا حقيقى قطعاً، لأنه وارد فى كتاب الله من قول الله الخالص غير المحكى، وكل استفهام فى الكتاب العزيز وارد فى كلام الله الخالص فهو استفهام مجازى، ومحال أن يكون حقيقياً، لأن الاستفهام الحقيقى لا يصدر إلا عمن يجهل الأمر المستفهم عنه، والله بكل شئ عليم، أما المعانى المجازية المرادة من هذا الاستفهام: **(أتأمرون)** فهى ثلاثة عند الإمام جار الله:

* التقرير.

---

(١) الكشاف: (١/ ٢٧٦).

* التوبيخ.

* التعجيب.

أما الاستفهام الثانى (**أفلا تعقلون**) فهو عنده للتوبيخ العظيم.

ويتابع **أبو السعود** صاحب الكشاف فى الاستفهام الأول فيقول: (**أتأمرون**) الهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب[1]، أما الثانى فيقول فيه:

(**أفلا تعقلون**) أى أتتلونه - الكتاب - فلا تعقلون ما فيه، أو قبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه، فالإنكار متوجه إلى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه - أى ما يوجب التعقل - أو: ألا تتأملون فلا تعقلون» فالإنكار متوجه إلى الأمرين[2].

ومعنى هذا أن الاستفهام الثانى - عنده - للإنكار وللإنكار فيه حالتان:

إما أن يكون مسلطاً على شئ واحد، هو عدم التعقل، وإما أن يكون مسلطاً على أمرين هما: ترك التأمل أصلاً، ثم ترك التعقل.

وقد تقدم أن **الزمخشرى** قصره على التوبيخ العظيم، والتوبيخ - بلاغة - يكون مصاحباً للتقرير، ويكون مصاحباً للإنكار، وكل من **الإمامين** اكتفى بأحد الأمرين:

الزمخشرى اكتفى بالتوبيخ، ولم يذكر الإنكار، وأبو السعود اكتفى بالإنكار ولم يذكر التوبيخ.

ولأبى السعود فى الاستفهام الأول رأى ثان غير التقرير الذى ذكرناه من قبل، هذا الرأى الثانى قال فيه معلقاً على قول لابن جريج:

«ومدار الإنكار والتوبيخ الجملة المعطوفة، أى: وتنسون أنفسكم، دون ماعطفت هي عليه[3].

فيما تقدم قال تقرير، وهنا قال: إنكار، وكلاهما صواب باختلاف النظر إلى جهة دون أخرى فى نظم الكلام ومقامه، فقد ينظر دارس إلى جهة أن الله تعالى يقرر اليهود بأمر غيرهم بالبر، وهم لا يأتمرون به ثم يوبخهم عليه ويدعو إلى التعجيب من حالهم.

وينظر دارس آخر إلى أن الله يُنكر عليهم ما هم عليه دون الاحتياج إلى تقرير، ثم

(١، ٢) تفسير أبى السعود: (١/ ٩٧).

(٣) المصدر السابق.

يتبع هذا الإنكار ما يناسبه من توبيخ وتعجيب.

ويقتفى الإمام الألوسى أثر الإمامين الزمخشرى وأبى السعود في المعنى المجازى المراد من الاستفهام الأول: تقرير مع توبيخ وتعجيب، أما الاستفهام الثانى: **(أفلا تعقلون)** فيشير إلى أنه للإنكار والتوبيخ[1].

«إعلم أن الهمزة فى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ للتقرير مع التقريع والتعجيب من حالهم».

وهذا ما قاله الإمام فخر الدين الرازى فى الاستفهام الأول في الآية، أما الثانى فقد قال فيه: **(أفلا تعقلون)** فهو تعجيب للعقلاء من أفعالهم»[2]، وأنت خبير أن فى هذا قصوراً من الإمام الفخر لأن فى هذا الاستفهام: **(أفلا تعقلون)** إدانة لهم، ورمياً بالسفاهة ثم توبيخاً عظيماً كما قال صاحب الكشاف من قبل. «وقال الإمام القرطبى: هذا استفهام معناه التوبيخ، والمراد فى قول أهل التأويل علماء اليهود...»[3].

هذا ما قاله الإمام القرطبى فى إيجاز - كما ترى - وله بعد ذلك كلام طويل فى استقباح الأمر بالبر ممن لا يمتثل ما يقول.

وللشيخ رشيد رضا كلام وجيز يفهم منه أن كلاً من الاستفهامين مراد به التوبيخ[4].

أما خاتمة المفسرين فى هذا العصر، الطاهر بن عاشور فيقول عن الاستفهام الأول:

«والاستفهام - هنا - للتوبيخ لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقى، فاستعمل فى التوبيخ مجازاً بقرينة المقام، وهو مجاز مرسل لأن التوبيخ يلازم الاستفهام، لأن من يأتى ما يستحق التوبيخ عليه من شأنه أن يتساءل الناس عن ثبوت الفعل له، ويتوجهون إليه بالسؤال، فينتقل من السؤال إلى التوبيخ، ويتولد منه معنى التعجيب من حال الموبَّخ، أما **(أفلا تعقلون)** فهو للتوبيخ والإنكار لتنزيل المخاطبين منزلة من لا يعقل[5].

---

(١) ينظر روح المعانى (١/٢٤٨).

(٢) التفسير الكبير: (٣/٤٥).

(٣) جامع أحكام القرآن: (١/ ٣٦٥).

(٤) تفسير المنار: (١/ ٢٤٦).

(٥) التحرير والتنوير: (١/ ٤٧٥).

هذا ما قاله الأئمة المفسرون فى المراد من الاستفهامين فى الآية، ولنا على ما قالوه فى الثانى (**أفلا تعقلون**) ملاحظة:

فقد أجمعوا على أنه للتوبيخ وإن ضم إليه بعضهم الإنكار، لكن بقى شئ مهم لم يشيروا إليــه فيه وهو أن مثل هذه التراكـيب فيها حث وحض على تحـقيق ما وقع فى حيز الاستفهام، وهو - هنا - التعقل والتأمل.

وقد يسمى هذا الحث والحض بـ«التهيـيج والإلهاب» أى إثارة المخاطب وترغيبه فى تحقيق ما أُخرج مخرج المنفى عنه، وسيأتى لهذا وفير عناية فيما يأتى من هذه الدراسة المعنية بالتفسير البلاغى فى القرآن الحكيم.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول اسـتفهام مجازى مرسل علاقتـه الإطلاق والتقييد، والمعانى المجازية المستعمل فيها هى كما تقدم. التقرير والتوبيخ والتعجيب.

أما الثانى (**أفلا تعقلون**)، فمثل الأول فى المجازية، والمعانى المرادة منه هى:

التوبيخ والتـهييج والإلهاب، وهذان المعنيـان قد يكونان متولدين عن الإنـكار كما ذهب إلى هذا بعـضهم، أى ينكر عليـهم إهمال إعمـال عقـولهم ثم يحثهـم عليه، ويوبخهم على تركه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* وضع العام موضع الخـاص وهو واو الجماعة، فى (**أتأمرون**) فلفظه عام يتناول بنى إسرائيل كلهـم، والمراد به الخاص، وهم علماء بنى إسـرائيل، ومغـزاه البلاغى أن الفعل وإن كان صادراً من بعضهم فـقد نسب إلى جمعهم لسكوت ذلك الجمع عن لوم علمائهم على أمرهم بالبر وتركهم العمل به.
* من إيجاز (القصـر) كلمة (البر) لأن المراد بها الأمر بجـميع الطاعات، والنهى عن جميع المعاصى.
* الكناية فى ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ كناية عن صفة «الترك» المتقدم ذكرها، وهى أبلغ مما لو قيـل (ولا تعملون به) لأن من نسى نفـسه صـار كالمعدوم الـذى لا وجود له، والمعدوم لا يصدر عنه عمل، ويجـوز أن يكون استعارة شبه فيهـا «الترك» بالنسيان

بجـامع انعدام النفع فى كل، وهى اسـتعـارة تصريحـية تبـعيـة لجريانهـا لفظاً فى الأفعال.

* قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أوثر نفى التعقل - هنا - علـى ما سواه، مثل: أفلا تتقون، للإشارة إلى أن الأمـر بالمعروف مع ترك الآمر فعلـه، والنهى عن المنكر مع ممارسة الناهى فعله مما يدرك قـبحه بالعقل والنقل معـاً، فقد وافق صحـيح المنقول صريح المعقول فى تقبـيح هذا السلوك، وفى الإتيان بالمضارع (**أفلا تعقلون**) تمثيل وتصوير حاضر لجرائمهم.

* * *

٨ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من مـخاطبات الله فى هذه الـسورة لبنى إسرائـيل، تذكرهم ببـعض ما حدث منهم، ويمتن عليهم ببـعض ما أنعم به عليهم، وتحقيق رجـاءاتهم التى توجهوا بها إلى نبيهم موسى عليه السلام من تنويع طعامهم بدلاً من الطعام الواحد الذى كانوا يعيشون عليه. وفى نهاية هذا الشطر من هذه الآية ذكر الله عز وجل قول موسى لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾.

وهو أسلوب اسـتفهـام كمـا ترى، فمـاذا كان مـوسى عليه السـلام يقصـد بهذا الاستفهام؟

سكت الأئمة الذين نتتبع تفسيراتهم للاستفـهام فى كتاب الله، فلم يقولوا فيه شيئاً إلا اثنين، هما الألوسى والطاهر بن عاشور، وقد اتفقا على أنه للإنكار[1].

وفيـما ذهبا إليـه قصـور؛ لأن هذا الاستفـهام لم يرد منه مـجرد الإنكار، بل هو للإنكار والتسفيه، وهذا ظاهر كالشمس من سياق الكلام.

---

(١) روح المعانى: (١/ ٢٧٤) والتحرير والتنوير (١/ ٥٢١).

فبنوا إسرائيل زهدوا فى الطيب اللذيذ، ورغبوا فى الخسيس، وهذا لا يفعله الراشدون من ذوى العقول، لذلك أنكر عليهم رسولهم موسى - عليه السلام - هذا المسلك، ورماهم بالسفه ونقص الإدراك.

أما الذين أهملوا القول فيه من الأئمة، فلعلهم استندوا إلى وضوح المراد منه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* عطف جملة: **(وإذ قلتم)** على ما قبلها لترابط هذه الجمل وما تلاها فى نظم الآيات، لأنها سرد قصصى محكم لجانب من قصة بنى إسرائيل، يضاف إلى هذا ذلك النسق المعروف عند علماء المعانى بالتوسط بين الكمالين لاتفاق هذه الجملة مع ما قبلها فى الخبرية لفظاً ومعنى.
* إيثار **(لن)** على غيرها من أدوات النفى لما فيها من توكيد النفى واستمراره فى المستقبل، وهى بعد ذلك تكشف عما فى طوايا بنى إسرائيل من قوة الإصرار على التمرد واللجاجة فى الطلب حتى مع الله ورسله الكرام.
* إيثار **(رب)** فى الدعاء لما فى معنى **(رب)** من الألطاف والإنعام وحسن الرعاية.
* المجاز العقلى فى **(تنبت الأرض)** والمنبت هو الله، وعلاقة هذا المجاز هى المكانية؛ لأن الأرض مكان الإنبات.
* الاستعارة التصريحية التبعية فى **(أتستبدلون)** استعير الاستبدال للأخذ بجامع التمكن فى كل.
* الطباق بين **(أدنى)** و**(خير)** لأن «خير» أفعل تفضيل بمعنى «أفضل» وأدنى مفضول، ومن المفسرين من قال فى أدنى أدنأ، وعلى كل فالتقابل بينهما من الطباق.
* التنكير فى **(مصرا)** للتعميم: أى؛ أىُّ مصر تدخلونها تظفروا بما طلبتموه.
* المجاز المرسل فى **(سألتم)** بمعنى: طلبتم، من إقامة المسبب مقام السبب، لأن السؤال سبب حصول المطلوب.
* المجاز المرسل فى **(اهبطوا)** لأنه أمر استعمل فى الإرشاد والتوجيه ولم يرد منه الإيجاب.
* الاستعارة فى **(اهبطوا)** بمعنى ادخلوا بجامع ما يترتب على كل من الدنو من إنعامه، وهى استعارة تصريحية تبعية.

* الاستعارة المكنية فى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ حيث شبهت الذلة والمسكنة فى إحاطتهما بهم، وملازمتهما لهم بالخيمة المضروبة بإحكام حول قوم، فحذف المشبه به ورمز له بالضرب لأنه من لوازمه.
* تنزيل بُعْدَ المكانة منزلة بُعْدِ المكان فى اسم الإشارة المكرر مرتين (ذلك) إشارة إلى بلوغ كفرهم وعنادهم مبلغاً عظيماً فى العصيان، هذا فى (ذلك) الأول.

أما ذلك الثانى ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ ففيه إشارة إلى شناعة العقاب الذى نزل بهم، جزاء وفاقاً لجرائمهم فى حق الله وفى حق رسله، وفى أنفسهم.
* وفى عطف **(يعتدون)** على **(عصوا)** بيان لنوع عصيانهم المتعمد المنتهك للحرمات قصداً.

* * *

٩ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

الدراسة والتحليل:

لايزال الحديث متصلاً عن مساوئ بنى إسرائيل ومخازيهم مرة بطريق المخاطبة، وأخرى بطريق الإخبار عن الغائب، وآيتنا هذه من طريق الإخبار **(وإذ قال موسى لقومه)**.

والسبب فى هذا القول أن رجلاً موسراً من بنى إسرائيل كان له ابن فقتله أولاد أخيه ليرثوا عمهم بعد موته، ثم طالبوا بدية ابن عمهم، وهم قاتلوه، فبحثوا - أى بنو إسرائيل - عن قاتله، وكان فيهم موسى رسولاً، فأخبره الله أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها فيحيا فيخبرهم بقاتله.

فلما بلغهم موسى - عليه السلام - بما أمر به الله سخروا من موسى وظنوا أنه يهزأ بهم فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً. . .﴾، ولم يبين الزمخشرى إن كان الاستفهام - هنا - مجازياً أو حقيقياً.

لكن الإمام أبا السعود كان أول من وضح هذا فقال: إنه للاستبعاد والاستخفاف[1].

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/ ١١٠).

ونحا الألوسى منحاه فحمله على الاستبعاد والاستخفاف، وقدر معناه بقوله: (**أتسخر بنا**)[1] وهذا فهم صائب من الإمامين.

والفخر الرازى ينقل عن القفال أن الاستفهام فى ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ استفهام إنكار[2].

هؤلاء الأئمة الذين حملوا الاستفهام على الاستبعاد والاستخفاف والإنكار، يرون - بلا نزاع - أنه استفهام مجازى صاحوا به فى وجه موسى - عليه السلام - لما فاجأهم بهذا الأمر الغريب.

أما الشيخ ابن عاشور فقد نحا منحى مختلفاً تماماً عن منحاهم وجزم بأن الاستفهام فى (**أتتخذنا هزواً**) استفهام حقيقى لا مجازى، وعلل هذا بأن بنى إسرائيل ظنوا أن موسى يهزأ بهم ويسخر منهم[3].

والذى نميل إليه ما قاله الأولون، وسياق الكلام يدل عليه دلالة قوية، لأن ما أخبرهم به موسى من أمر ذبح البقرة كوسيلة يتوصل بها إلى معرفة القاتل «المجهول» من شأنه - لغرابته - أن يثير مشاعر الإنكار والاستبعاد وأن تصور لهم أنفسهم أن موسى - عليه السلام - يسخر بهم ويهزأ منهم، لجهلهم بمقامات النبوة وأدبها.

والخلاصة أن الاستفهام فى (**أتتخذنا هزواً**) استفهام مجازى معناه - فعلاً -: الإنكار والاستخفاف.

أسرار النظم وبلاغياته:

* وضع المظهر موضع المضمر فى (**وإذ قال موسى**)، وكان الأصل أن يقال: (**وإذ قال**)[4] لذكر اسم موسى صريحاً قبل هذه الآية مرات، والداعى البلاغى لهذا الإظهار يتمثل - فيما نرى - فى أمرين:

الأول: طول الفصل بين ذكر موسى فيما تقدم وبين ذكره هنا.

الثانى: الاهتمام بهذا الاسم الكريم؛ لأنه المرتكز الأهم فى سرد وقائع القصة.

* إيثار (**قومه**) على (**بنى إسرائيل**) فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وذلك لبيان قوة الصلة - لفظاً ومعنى - بين القائل - موسى وبين المقول له - قومه.

---

(١) روح المعانى: (١/ ٢٨٥). (٢) التفسير الكبير (٣/ ١١٧). (٣) التحرير والتنوير: (١/ ٥٤٧).

(٤) فيكون الفاعل ضميراً مستتراً فى الفعل «قال» عائداً على موسى - عليه السلام.

* توكيد الخبر فى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ لدفع الإنكار الذى تولد عن هذا الأمر غير المألوف عند قومه.

* فَصْلُ جملة ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا﴾ عما قبلها لأنها استئناف بيانى وقع جواباً عن سؤال مقدر - كما يقول البلاغيون - تقديره: فماذا قال قومه؟

* ثم فَصْلُ جملة (قال أعوذ بالله) عما قبلها للعلة نفسها التى فُصِلَتْ من أجلها جملة (قالوا...).

* * *

١٠ - ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِيَ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

[البقرة: ٦٨ - ٧٠].

الدراسة والتحليل:

الاستفهامات الثلاثة التى فى هذه الآيات وهى على الترتيب:

(**ما هى؟ - ما لونها؟ - ما هى؟**) استفهامات حقيقية لا مجاز فيها، والاستفهام الحقيقى - بوجه عام - واضح الدلالة على المراد منه، لذلك فإننا لن نقف أكثر من هذا أمام هذه الاستفهامات الثلاثة لوضوح معناها وبقيت كلمة نقولها، وهى:

إن تكرار الاستفهام من قوم موسى هكذا: سؤال عام عن البقرة، ثم سؤال خاص عن لونها، ثم عودة إلى سؤال عام عنها، هذا التكرار فيه دلالة واضحة على لجاجة بنى إسرائيل وتلكؤهم فيما يطلب منهم من أوامر ونواهٍ وتكاليف، ولو سارعوا إلى تنفيذ الأمر وذبحوا أى بقرة لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وهذا دأبهم إلى الآن.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الفعل الماضى (**قالوا - قال**) الذى لم يسبق بعاطف له مخرج واحد عند البلاغيين، هو ما أشرنا إليه من قبل: الاستئناف البيانى الواقع جواباً عن سؤال مقدر نشأ عن

الجملة السابقة عليه وفيه توجيه آخر نرجئ بيانه الآن.

* توكيد الإخبار بـ (إن) الواقع مسنداً إلى موسى - عليه السلام - سببه ومقتضاه تقرير تلك المعانى المقولة لأن اليهود - المخاطبين - أهل جدل وريب.

* الجمع بين المضمر والمظهر لشئ واحد هو البقرة فى كلام الله الذى بلغه موسى لقومه هكذا: (**إنها بقرة**) ثلاث مرات، وكان يكفى أن يقال: (إنها) دون أن يذكر المظهر (**بقرة**) فيه إيماء إلى غباوة اليهود وأن مقتضى حالهم الإطناب، كما أن فيه تقريراً لشأن تلك البقرة وقطع طرق التحايل أمامهم.

* المجاز العقلى فى (**تسر الناظرين**) وعلاقته السببية.

* توكيد الخبر فى كلامهم لموسى (**إن البقر تشابه علينا**) مبالغة منهم فى الاعتذار لئلا يظن موسى - عليه السلام - أنهم يماطلون، كما أن فى الاعتراض بجملة المشيئة - إن شاء الله - بين المسند إليه (إنا) والمسند (**المهتدون**) وتوكيد الخبر فيه تلويحاً منهم لموسى بأنهم سيمتثلون الأمر بعد هذا التلكؤ المريب.

* * *

١١ - ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

الدراسة والتحليل:

هذا خطاب من الله للمؤمنين، بعد سلسلة من المخاطبات مع اليهود، وبعد أن كان الله يخاطبهم فى الآيات السابقة، بدأ يُخبر عنهم فى هذه الآية والآيات التى تتلوها، فالحديث مايزال متصلاً بهم مرات بمخاطباتهم، ومرات بالإخبار عنهم.

واجههم الله فى الآيات السابقة بجرأتهم ووقائعهم مع رسلهم ومع أنفسهم.

وبدءاً من هذه الآية اتخذ من تحويل الخطاب لهم إلى المؤمنين وسائل للكشف عن بعض مخازيهم وانحرافاتهم، وفى مطلع آيتنا هذه جاء هذا الاستفهام ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ. . .﴾ والذى يبدو أنه استفهام إنكار، وكان موقف الأئمة منه على الوجه الآتى: الزمخشرى لم يقل فيه شيئاً، وأبو السعود أورد النص الآتى:

(**أفتطمعون**). . . الهمزة لإنكار الواقع واستبعاده كما فى قولك: «أتضرب أباك» - يعنى لمن يضرب أباه فعلاً - لا لإنكار الوقوع، كما فى قوله: أأضرب أبى؟ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الإنكار إلى المعطوفين معاً. . بل إلى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه. . أى أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم فتطمعون، ومآل المعنى:

«أبعد أن علمتم تفاصيل شئونهم المؤيسة منهم تطمعون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا. . .﴾.

حمل الاستفهام فى الآية عند أبى السعود على الإنكار والاستبعاد ظاهر، لكنه أشار إلى قضية جديدة لم نعرض لها من قبل، وهى قوله: «والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، ويستدعيه نظام الكلام. . .»[1]، يشير بهذا إلى أحد مذهبين فى كل استفهام اجتمعت أداته مع حرف عطف، وهو: الواو، والفاء، وثم وكلها وردت فى استفهامات القرآن، والذى فى آيتنا هذه هو: الفاء: (**أفتطمعون**)، وفى هذا مذهبان:

الأول: مذهب الجمهور، وهو أن أداة الاستفهام تقدمت من تأخير على حرف العطف، لأن الاستفهام له الصدارة فى الكلام، وأصل: (**أفتطمعون**) عند الجمهور هو: فأتطمعون»، فقدمت همزة الاستفهام لما تقدم فصار الكلام هكذا: (أفتطمعون).

والمذهب الثانى: هو مذهب الزمخشرى وجماعة كما قال ابن هشام، وخلاصة هذا المذهب أن كلاً من أداة الاستفهام وحرف العطف فى موضعه، فلا تقديم ولا تأخير فى النظم، وأداة الاستفهام داخلة على مقدر محذوف يدل عليه السياق، هذا المذهب هو الذى جرى عليه أبو السعود فى توجيه الاستفهام هنا، وقدر ما دخلت عليه الهمزة فقال:

«أى أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم فتطمعون» والزمخشرى، وهو صاحب هذا المذهب، لم يتطرق إليه فى تفسيره حتى الآن[2]، ولكنه سيفصح عنه فى مواضع قادمة.

أما الإمام الألوسى فيوجز فى البيان هكذا:

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/١١٦).

(٢) نقصد بالآن بلوغ هذه الآية حسب الترتيب المصحفى.

(أفتطمعون) الاستفهام للاستبعاد، أو للإنكار التوبيخى[1] ويحذو حذوه الإمام الفخر، ويثبت أن الاستفهام للاستبعاد ثم يطيل فى مبررات هذا الاستبعاد، وينقل فيه أقوالاً عن السلف لا نطيل بذكرها[2].

وختام ما ننقله عن الأئمة، كلام نفيس لابن عاشور قال فيه:

«الفاء - يعنى فى **(أفتطمعون)** لتفريع الاستفهام الإنكارى أو التعجبى على جملة **(ثم قست قلوبكم)** أو على مجموع الجمل السابقة، لأنها جميعاً مما يقتضى اليأس من إيمانهم بما جاء به النبى ﷺ، فكأنه قيل: فلا تطمعوا أن يؤمنوا لكم، أو فأعجبوا من طمعكم، وسيأتى تحقيق موقع الاستفهام مع حرف العطف فى مثله عند قوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾[3].

ونحن - بإذن الله - سنثبت ما وعد به فى حينه.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام وردت فى بيانه التوجيهات الآتية:

* الإنكار - الاستبعاد - التعجيب، ونحن نضيف إلى ما قالوه:

أن هذا الاستفهام فيه إشارة إلى تبصير المؤمنين بحقيقة اليهود وعنادهم الدائم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المصدرالمؤول **(أن يؤمنوا)** على الصريح: (فى إيمانهم) نكتتان بلاغيتان:

(أ) الحديث خاص بالمستقبل، والذى يناسبه المصدر المؤول.

(ب) لو جىء بالمصدر الصريح لقيل: أفتطمعون فى إيمانهم بإضافة إيمان إلى ضمير المتحدث عنهم، وهم لا إيمان لهم حتى يضاف إلى ضميرهم، وبهذا تحقق نفى الإيمان عنهم واقعا ولفظا.

* إيثار حرف العطف (ثم) فى **(ثم يحرفونه من بعدما عقلوه)** على **(الفاء)** هنا، لما فى (ثم) من التراخى الزمنى الذى تمكنوا فيه من سماع كلام الله - التوراة - وفهموها ثم تجرؤا على تحريفها. وهذا أبلغ فى التشنيع عليهم.

* فى جملة الفاصلة **(وهم يعلمون)** زيادة تشنيع عليهم وتسجيل لخيانتهم أمانة الوحى على أبلغ وجه، لأنهم أقدموا على جريمة التحريف، وهم يعلمون مخالفتها لله

---

(١) روح المعانى: (١/٢٩٨). (٢) التفسير الكبير: (٣/١٣٤). (٣) التحرير والتنوير: (١/٥٦٦).

ورسوله. ولو كانوا جهلة لكان لهم بعض العذر.

* وفى حذف مفعول (**يعلمون**) لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب، ولموافقة فواصل الآيات.

* * *

١٢ - ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ٧٦].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية استمرار للحديث عن بنى إسرائيل (اليهود) بعد المخاطبات التى وُجهت إليهم فى الآيات السابقات، وقد عرضت آيتنا هذه جانبين من سلوكهم، الأول من حيث علاقتهم بالذين آمنوا، والثانى من الأسرار التى كانت تدور بينهم مما يتصل بعلاقاتهم الخارجية مع المؤمنين.

فى الجانب الأول تراهم مخادعين يلبسون لكل حالة لبوسها، يقولون إذا لقوا الذين آمنوا فى طريق أو ناد أو سوق:

إنَّا آمنا بما جاء به محمد ﷺ، وقد يبالغون فى المخادعة ليوهموا المسلمين فيذكرون شيئا عن الإسلام ورسول الإسلام ورد فى التوراة.

وفى الجانب الثانى يسارعون إلى لوم بعضهم بعضا على ما أفضوا به للمسلمين من معلومات وردت في التوراة تبشر بالإسلام ورسوله. ويقول الحرصاء منهم: أتحدثون المسلمين بما اختصكم الله به ليحتجوا عليكم به يوم القيامة عند ربكم فيغلبوكم، أليس لكم عقول تحميكم من هذا السَّفه؟ يقولون هذا وهم فى عزلة عن المسلمين، فيسفههم القرآن جميعا فيقول: ﴿أَوَ لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا الملوم منهم عاقل، ولا اللائم منهم عاقل لأنهم - جميعا - نسوا أن الله مطلع على سرهم وعلنهم، ألم يفكروا، وبخاصة اللائمين منهم أن الله يسمعهم ويحصى أعمالهم سواء تلاوموا فى الملأ أو فى السر.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان أولهما (**أتحدثونهم**) والثانى (**أفلاتعقلون**) وهما استفهامان مجازيان قطعا. ولكن ما المراد من كل منهما؟

«أتحدثونهم إنكار عليهم» هذا ما قاله الزمخشرى فى الاستفهام الأول. أما الثانى فلم يعرض له[1].

أما أبو السعود فالاستفهام الأول عنده للإنكار والتوبيخ، والثانى (**أفلا تعقلون**) لزيادة الإنكار والتوبيخ، وقدكرر هنا فى (**أفلا تعقلون**) ما قاله فى مثله من قبل من أن الفاء عاطفة على محذوف[2]. . .

«والاستفهام إنكار» هكذا قال الإمام الألوسى فى الاستفهام الأول. أما الثانى (**أفلا تعقلون**) فقد قال فيه:

«والجملة مؤكدة لإنكار التحديث»[3].

ثم جوز فى تركيب الجملة مذهبى الجمهور والزمخشرى اللذين أشرنا إليهما من قبل. فعلى مذهب الجمهور قال: (**أفلا تعقلون**) عطف إما على (**أتُحدثونهم**) والفاء لإفادة عدم عقلهم على تحدثهم»[4] هذا التحليل يقتضى أن العطف على مذكور لامقدر، وأن همزة الاستفهام قُدِّمتْ من تأخير لأن الاستفهام له الصدارة فى الكلام. وهذا هو مذهب الجمهور، وعلى مذهب الزمخشرى قال: «وإما على مقدر، أى: ألا تتأملون فلا تعقلون»[5].

وعلى هذا فإن أداتى الاستفهام والعطف كل منهما مستقرة فى موضعها، لم تقدم الهمزة، ولم تؤخر الفاء. وهذا هو مذهب الزمخشرى.

أما العلامة ابن عاشور، فقد حمل الاستفهامين: (**أتحدثونهم**) - (**أفلا تعقلون**) على الإنكار والتوبيخ أو التقرير والتوبيخ[6]، والتوبيخ كما قلنا من قبل يصح ردفه على الإنكار وعلى التقرير. فلك أن تستفهم منكراً موبخا، ولك أن تستفهم مقررا وموبخا، فما قاله صاحب التحرير والتنوير مقبول. ومدار الأمر على مقاصد البلغاء من كلامهم.

---

(١) الكشاف (١/ ٢٩١).

(٢) تفسير أبى السعود (١/ ١١٧، ١١٨) وانظر ص ٥٠ من هذه الدراسة.

(٣، ٤، ٥) روح المعانى: (١/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٦) التحرير والتنوير: (١/ ٥٧٢).

والخلاصة أن الاستفهام فى الآية فى الموضعين استفهام إنكار وتوبيخ، ونضيف إلى المراد من الاستفهام الثانى أنه للتسفيه. فاليهود الذين لم يتحدثوا مع المسلمين بما فى التوراة من حقائق تتصل بصحة الإسلام رموا اليهود الذين حدثوا المؤمنين بتلك الحقائق - وهم منافقو اليهود - رموهم بالسفه وسلب عقولهم.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ايثار **(إذا)** على «إنْ» فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ لتوكيد حرص اليهود على مخادعة المؤمنين، وأن كل لقاء منهم بالمؤمنين يقع هذا الخداع من اليهود، لما فى **(إذا)** من تحقق وقوع شرطها، بخلاف «إن» المؤذن بتخلفه.
* إيثار الفعل الماضى **(آمنا)** زيادة فى المخادعة بإخراج دعوى الإيمان مخرج الواقع المتحقق.
* إيثار **(إذا)** الثانية ﴿وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهى واقعة فى كلام الله الخالص غير المحكى عنهم، لتوكيد حرص اليهود على تشديد اللوم لمن يُفضى منهم إلى المسلمين بحديث فيه ما يدل على صحة الإسلام وصدق رسوله الخاتم ﷺ، ولو قيل «إن» بدل «إذا» لجاز أن يقع منهم بعض التهاون فى مثل هذه الأمور، وهذا ما تأباه طبيعة اليهود الماكرة الخبيثة. وكلا الأمرين: الحرص المؤكد على مخادعة المسلمين. والتلاوم المؤكد على إفشاء ما يؤيد الإسلام فيه تشنيع على اليهود وتحذير من الاطمئنان إليهم.
* الضمير فى **(لقوا)** للمنافقين من اليهود، وفى **(بعضهم)** يشمل اليهود كلهم، وفى **(قالوا. .)** لبعض اليهود، وهم الذين يلومون المتحدثين منهم مع المؤمنين. وواو الجماعة فى **(أتحدثونهم)** للملومين منهم. والضمير «هم» فى **(أتحدثونهم)** للمؤمنين وفى هذه الضمائر إيجاز قِصَرى بديع. وهو من طرائق القرآن البديعة، حيث يؤتى بالضمائر مسرودة سرداً حكيماً، دون قرائن لفظية تحدد مراجع الضمائر، والتعويل على العقل فى الوصول إلى معرفة مرجع كل ضمير بمعونة المقام كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ. .﴾ فالتاء فى **(طلقتم)** للأزواج المطلقين. والواو فى **(فلا تعضلوهن)** لأولياء أمور النساء،وسيأتى لهذا مزيد بيان إذا شاء الله.

* * *

١٣ - ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة٧٧].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية تعقيبا من الله على حماقة اليهود جميعا: الملوم منهم واللائم؛ لأنهم تلاوموا على إفشاء بعض حقائق الإيمان المسطورة عندهم فى التوراة قبل تحريفها. وودوا كتمان تلك الحقائق حتى لا تكون سندا عند المؤمنين يغالبونهم بها عند الله. وهذا منهم حماقة وسفه؛ لأن الله يعلم تلك الحقائق سواء أفشوها أو كتموها.

وقد صدرت هذه الآية بهذا الاستفهام معطوفا بالواو هكذا:

(أولا يعلمون) وفى المراد منه قال الأئمة رضى الله عنهم:

فأبو السعود يقول: «الهمزة للإنكار والتوبيخ .. والواو للعطف على مقدر ينساق إليه الذهن[١] .. أى يلومونهم على التحديث مخافة المحاجة، ولايعلمون .. ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٢].

ويذهب الألوسى مذهبا قريبا مما قرره أبو السعود فى المراد من الاستفهام، وهو تجهيل اليهود فيما حدث منهم[٣].

ويرى الفخر الرازى أنه للزجر عن النفاق وكتمان دلائل نبوة محمد ﷺ[٤].

أما الطاهر بن عاشور فقد ردده بين وجوه أظهرها عندنا أن المراد منه التوبيخ[٥].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام فيه تعريض باليهود ووصفهم بالجهل، وتنزيلهم منزلة من لايعلم إحاطة علم الله بكل شىء. وأن التوبيخ والتسفيه ورميهم بالحماقة معان لاتنفك عن هذا المقام، فهم إذا كانوا لايعلمون فالجهل آخذ بتلابيبهم، وإن كانوا يعلمون فالسفه محيط بهم.

أما من قال: إنه للإنكار فلعله أراد أن الله تعالى ينكر عليهم هذا التلون فى المواقف، وكتمان ما أنزله الله إليهم من دلائل الحق على صدق الإسلام.

(١) هذا إشارة إلى مذهب الزمخشرى فى مثل هذا التركيب المذكور قبلا.

(٢) تفسير أبى السعود: (١/١١٨).

(٣) روح المعانى: (١/ ٣٠٠).

(٤) التفسير الكبير: (٣/١٣٨).

(٥) التحرير والتنوير: (١/ ٥٧٢).

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المضارع (**يعلمون**) للدلالة على أن العلم بصحة الإسلام ماثل بين أيديهم فى كل وقت.
* توكيد الخبر فى (**أن الله يعلم..**) لتنزيلهم منزلة المنكر لما بدا عليهم من علامات الإنكار.
* تقديم الإسرار على الإعلان فى (**ما يسرون وما يعلنون**) للف والنشر المرتب، لأنهم أسروا الكفر أمام المسلمين وأعلنوه أمام أنفسهم، فضلا عما فى هذا التقابل من طباق.

* * *

١٤ - ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة٨٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية وردت فى سياق الحديث عن اليهود، ولجاجتهم وتطاولهم على الحق، وزجهم بأنفسهم فى أمور لايملك تصريفها إلا الله وحده. عبثوا فى أمور الحياة الدنيا فحالفوا الباطل بكل صوره، ومن جهلهم الفاضح، وإفراطهم الوقح يتخذون من أنفسهم قضاة فى أمور الآخرة. ويدعون أنهم - إذا دخلوا النار - فلن يمكثوا فيها إلا بضعة أيام وهذا لم يعرف لطائفة من أهل الملل والنحل إلا لطائفة اليهود الضالين.

وبعد أن روى الله لرسوله - ﷺ - مقولتهم هذه.. لقنه الجواب المفحم الذى يواجههم به:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا... أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وفى هذا الجواب «المعجز» تطويق لدعوى اليهود الباطلة من كل جهة، وبرهان نقلى وعقلى يفضحهم على رءوس الأشهاد.

فقد طالبهم بالبينة التى تثبت صحة دعواهم، والدعوى - أى دعوى - إذا لم يكن لها دليل صادق - هى وهم من الأوهام كما قال الشاعر الحكيم:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها ... بيِّنات أبناؤها أدْعياء

فدخول النار والخروج منها أمر إلهى لا يملكه إلا الله، فهل لدى اليهود عهد من الله لهم بأنهم لن يمكثوا فى النار إلا بضعة أيام؟ كلا، ليس لديهم هم، ولا لدى أحد من الخلق عهد بشىء من الله. إلا عهوده ووعوده المنوطة بصفات أهل الإيمان والصلاح والتقوى.

وماداموا ليس لديهم عهد بما ادعوا، وهم قد قالوا فعْلا: (**لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**) فيلزمهم الكذب على الله، وهو من أقبح الآثام».

وقد صيغ هذا الرد فى صورة هذا الاستفهام:

﴿أَتَّخَذْتُمْ عِند اللهِ عَهْداً . . . . أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾.

الزمخشرى ساق فى هذا الاستفهام كلاما عاما لم يصب به المحز[1] والفخر الرازى يقول:

«قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ ليس باستفهام بل هو إنكار؛ لأنه لا يجوز أن يجعل الله حجة رسوله فى إبطال قولهم أن يستفهم. .»[2]

قوله: «ليس باستفهام، بل هو إنكار» يقصد منه أنه ليس استفهاما حقيقيا، بل مجازى بمعنى الإنكار: أى لم يتخذوا عند الله عهداً.

ولأبى السعود كلام طيب نجتزىء منه بما يأتى:

(**أم تقولون**) مفترين (**على الله ما لا تعلمون**) وقوعه، وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه - سبحانه - ما لا يعلمون وقوعه، مع أن ما أسندوه إليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه، للمبالغة فى التوبيخ والنكير، فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى. . . وأم متصلة، والاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت ليحقق العلم بالشق الأخير - أى الإفتراء على الله - كأنه قيل: أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى. وإما منقطعة - يعنى: أم - والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه[3]»

ويتلخص من هذا الكلام:

---

(١) الكشاف (١/ ٢٩٦). (٢) التفسير الكبير: (٣/ ١٤٢). (٣) تفسير أبى السعود: (١/ ١٢١).

أن الاستفهام الأول (**أتخذتم**) للإنكار، أى لم تتخذوا وهذا صواب. أما الاستفهام الثانى (**أم تقولون**) فهو للتقرير والإثبات؛ لأنه الشق الحاصل كما قال أبو السعود نفسه.

وأورد **الألوسى** تفصيلا طويلا يضيق المقام عن ذكره ويكفينا مما قال عبارته الآتية:

«ويحتمل أن تكون - يعنى: أم - منقطعة بمعنى بل والتقدير: بل: أتقولون. ومعنى بل فيها الإضراب والانتقال من التوبيخ بالإنكار. على الاتخاذ إلى ما تفيده همزتها من التوبيخ على القول[1]» يعنى: التقرير أى: الاستفهام الأول للإنكار والتوبيخ، والثانى (**أم تقولون**) للتقرير والتوبيخ. وهذا من أحسن ما قيل فى هذا الموضع.

ويخالف ابن عاشور فيجعل الاستفهام الأول تقريريا ملجأ للاعتراف بعدم الاتخاذ وينفى أن يكون إنكارياً ويقول إن وجود المعادل يمنع من الإنكار فيه لأن الاستفهام الإنكارى لا معادل له ولكى يصح له هذا الرأى منع أن تكون أم - هنا - منقطعة وجزم بأنها متصلة على معنى: أى الأمرين كائن[2]؟

وهذا تحكم من سماحة الشيخ، لأن غيره من الأئمة جوز فى (أم) هذه الانقطاع، وقدَّر المعنى عليه تقديراً مقبولاً.

والخلاصة: أن الاستفهام فى هذا الموضع إذا قلنا بأن (أم) فيه متصلة فيصير معناه: أى الأمرين كائن والمستفهم يعلم كينونة أحدهما، ولكن يخرج الكلام مخرج «الأسلوب المنصف» الذى مثلوا له بقوله تعالى: ﴿وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤] ليرجع الخصم إلى نفسه فيعرف - يقينا - عدم وقوع الاتخاذ، ويتعين وجوب وقوع الإفتراء على الله.

وإن كانت (أم) منقطعة كان الانتقال من التوبيخ المترتب على إنكار الاتخاذ إلى التوبيخ المترتب على التقرير بالإفتراء على الله.

وأيا كان الأمر فالاستفهام الثانى ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه.

---

(١) روح المعانى: (١/ ٣٠٥).

(٢) التحرير والتنوير: (١/ ٥٨١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار (**لن**) دون أدوات النفى الأخرى لإفادتها النفى المؤكد المستغرق لآماد طويلة من أزمنة المستقبل.
* إيثار (**تمسنا**) على تحرقنا أو تصيبنا لما فى المس من الخفة واليسر، وهذا ما يقتضيه المقام الذى يدعون فيه عدم خلودهم فى العذاب.
* المجاز العقلى فى إسناد المس إلى النار، وفاعله الحقيقى هو الله. وفى تحويلهم الإسناد من «الله» إلى «النار» للتهوين من شأنه، وإيهام أن الله لن يريد بهم سوءاً.
* وصف الأيام بـ(**معدودة**) كناية عن قلتها وأنها ليست ذات شأن حتى توصف بوصف العاقل (معدودات).
* الإيجاز بالحذف فى: حذف همزة الاستفهام من (**أأتخذتم**) وحذف أداة الشرط وفعله فى: إن كان الله أعطاكم عهداً (**فلن يخلف الله عهده**) لأن هذه الفاء (**فلن**) فاء الفصيحة، التى تنبئ عن شرط مقدر ينسحب عليه الكلام.
* إيثار المضارع (**تقولون**) على الماضى (قُلتم) للدلالة على أن هذا القول المفترى منهم على الله لم يقولوه مرة واحدة، بل دأبهم وعادتهم.
* إيثار حرف النفى (**لا**) فى (**ما لا تعلمون**) للدلالة على جهلهم الممتد مع كل الأزمان. وأن التمرد ملازم لهم.

ولو قيل: ما لم تعلموا. لجاز إنفكاكهم عن هذا الجهل الذى وصفوا به فى الماضى؛ لما هو معروف من أن (**لم**) تقلب معنى المضارع إلى المضى.

* * *

١٥ - ﴿. . أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ. . ﴾ [البقرة ٨٥].

الدراسة والتحليل:

ما يزال الحديث عن اليهود مستمراً، وقد عاد القرآن مرة أخرى إلى مخاطباتهم بعد أن توقفت هذه المخاطبات، وأجرى القرآن الحديث عنهم بالإخبار عن الغائب، وهذا الاستفهام (**أفتؤمنون**) جاء فى أعقاب جرائم أخرى ارتكبوها.

فقد أخذ الله عليهم ميثاقا بالكف عن سفك دمائهم وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم فأقروا هذا الميثاق وبعد فترة عادوا لما نهوا عنه فسفك بعضهم دماء بعض وأخرج بعضهم بعضا من ديارهم. وهذا نقض للميثاق الذى أقروه.

ولكنهم كانوا يفادون من يقع منهم فى الأسر كما ورد فى الشطر الذى لم ننقله من هذه الآية. وفيه يقول الحق عز وجل:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ. .﴾ وهكذا يصورهم القرآن:

ينتهكون أصول الميثاق انتهاكا فظيعا، ويلتزمون باليسير الهين منه. يقترفون أفظع الجرائم، ويفعلون أخف الطاعات.

إذ ماذا يكون فداء الأسرى إذا قورن بالقتل وإسالة الدماء، وتشريد الآمنين من مآويهم؟! بعد هذا العرض الأمين لغدر اليهود ونقضهم المواثيق الإلهية جاء هذا الاستفهام:

﴿. . أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهذا الاستفهام الذى مهدت له الآية تمهيداً رائعاً فى شطرها الأول يكاد ينادى على معناه، ومع هذا فإننا نستطلع ما قاله الأئمة فيه:

لم يعرض له الإمام جار الله اعتمادا على الوضوح الذى أشرنا إليه من قبل.

أما الإمام أبو السعود فقال:

«الهمزة للإنكار التوبيخى، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام، أى: أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب، وهو المفاداة، وتكفرون ببعض» وهو حرمة القتال والإخراج»[1]

ويستطرد فيقول: إن الإنكار منصب على مجموع الأمرين وهو الإيمان والكفر فى آن واحد.

---

(١) تفسير أبى السعود: (١ / ١٢٥) وقوله: الفاء للعطف على مقدر، تطبيق لمذهب الزمخشرى الذى أشرنا إليه من قبل مرات.

والاستـفهام فى هذه الآية - عند الألوسى - للتـهديد والتوبيخ على التـفريق بين أحكام الله تعالى؛ لأن العهد كان بثلاثة أشياء:

ترك القتل، وترك الإخراج، ومفاداة الأسرى، فقتلوا وأخرجوا على خلاف العهد. وفادوا بمقتضاه[1]

ويقول ابن عاشور:

«استفهام إنكارى توبيخى، أى كيف تعـمدتم مخالفة التوارة فى القتل والإخراج، واتبعتموها فى فداء الأسرى[2]» وهكذا أجمع من أدلى بدلوه فى توجيه هذا الاستفهام على أنه للإنكار والتوبيخ، وهم مصيبون فيما قالوا رحمهم الله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الذى نُسب إلى بنى إسرائيل طاعـة ومعصيـة، فسمى القرآن الطاعـة إيمانا، وسمى المعصية كفراً على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية لوقوعها فى الفعل: **تؤمنون - تكفرون**، والغرض البلاغى هو الترغيب فى الأولى والتنفير فى الثانية.
* إيثار التعبير بالمضارع ﴿**تؤمنون - تكفرون**﴾ إشارة إلى التجدد فى الموضعين.
* تقديم ﴿**تؤمنون**﴾ وتأخير ﴿**تكفرون**﴾ لشرف الإيمان على الكفر من جهة. وللتناسب بين الكفر والخزى الوارد فى الجزاء.
* أسلوب القـصر فى ﴿فَـمَا جَـزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِـزْيٌ﴾ وهو قـصر موصوف على صفة قصراً حقيقياً والاستثناء فيه مفرغ من جميع الجزاءات.
* الجملة الخبرية (القصرية) نقلت من الإخبار المحض إلى الوعيد والتهديد الشديدين.
* الانتقـال من أسلوب الإخبـار عنهم فى الآيات السابقـة إلى الخطاب فى هذه الآية والتى قبلها لمواجهتهم وتذكيرهم بالميثاق الذى أُخذ عليهم، وجرائمهم فى نقضه.
* الطباق الإيجابى بين (**تؤمنون - تكفرون. الحياة الدنيا - يوم القيامة**).
* ﴿وَ مَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خبر أُريد به التهديد والوعـيد على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته الإطلاق والتقييد.

* * *

---

(١) أنظر روح المعانى: (١/ ٣١٣).

(٢) التحرير والتنوير: (١/ ٥٩١) بتصرف.

١٦ - ﴿. . أفكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

الدراسة والتحليل:

هذا الشطر من الآية السابعة والثمانين من سورة البقرة امتداد للحديث مع بنى إسرائيل، والإخبار عنهم. وقد جاء هذا الاستفهام (**أفكلما جاءكم رسول..**) فى أعقاب تذكير سريع من الله لبنى إسرائيل بدأه مذكراً لهم بأكبر رسلهم موسى عليه السلام. . ثم ثنَّاه بتذكيرهم بالرسل الذين جاءوا بعده وقبل عيسى عليه السلام، ثم ختمه بالحديث عن عيسى هكذا:

﴿. . وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَّيْنَا مِن بَعْدِه بِالرُّسُلِ، وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾. ثم قال: ﴿أَفَكُلَّمَا. . ﴾.

فهذا الاستفهام وما ذُكر عقبه بيان لوقائح اليهود وخروجهم عن طاعة الله، وطاعة رسله. وقد وصل عنادهم إلى إيقاع الأذى الجسدى بالأنبياء والرسل: إما بقتلهم وسفك دمائهم، أو بأسرهم وحبسهم.

لقد بلغوا فى الكفر والمعاصى مبلغاً لم يصل إليه كافر أو عاص. لأنهم كانوا يريدون رسلاً يُحلون لهم المحرمات والرغبات الخسيسة. ويسيرون مع هواهم - هوى اليهود - حيث سار هواهم. هذا تاريخهم مع رسل الله الكرام. لم ينحرف عنه جيل من أجيالهم عبر التاريخ النبوى كله.

وفى المقصود من هذا الاستفهام يقول الإمام جار الله الزمخشرى:

« أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ منهم بالحق ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به، فوسَّط بين إلفاء، وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم. . ودخول إلفاء لعطفه على مقدر[1]» فالمراد من الاستفهام (المجازى) هنا عند الزمخشرى، هو التوبيخ والتعجيب من هذه الحال الغريبة لليهود. والإمام يُفصح - هنا - لأول مرة عن مذهبه فى مثل هذا الاستفهام الذى يُجمعُ فيه بين أداة الاستفهام: الهمزة، وبين واحد من أحرف

(١) الكشاف : (١/ ٢٩٤، ٢٩٥).

العطف الثلاثة: (الواو - الفاء - ثم). حيث لم يُشر إليه فى الاستفهامات التى تقدمت من هذا النوع. وكان اثنان من الأئمة، وهما أبو السعود والألوسى، قد طبَّقاه على بعض المواضع المتقدمة، وكنا قد أشرنا إلى هذا المذهب ومذهب الجمهور المقابل له مرات.

وكان الشيخ ابن عاشور قد أشار إليه - كذلك - ووعد بتفصيل القول فيه عند هذه الصورة: **(أفكلما)** وسنعرض ما قاله عند النقل عنه قريبا بإذن الله.

ولا يخرج ما قاله أبو السعود عما قاله الزمخشرى إلا فى بعض الإضافات مما ليس له صلة بالاستفهام. وهو عنده استفهام توبيخ وتعجيب.[1]

أما الإمام الألوسى فإنه بعد الاتفاق مع الزمخشرى وأبى السعود فى أن الاستفهام للتوبيخ والتعجيب، بعد هذا ذكر مذاهب أهل العلم فى موضع الهمزة إذا تقدمت على حروف العطف: (الواو - الفاء - ثم). هل الهمزة فى موضعها ومدخولها محذوف أم هى مقدمة من تأخير لأن الاستفهام له الصدارة[2]، وأبو حيان العالم النحوى اللغوى سار على نهج الزمخشرى وأبى السعود والألوسى فى أن الاستفهام مجازى المراد منه التوبيخ والتعجيب، ثم أشار إلى مذهبى الجمهور وصاحب الكشاف فى الخلاف المشهور بينهم، هل الهمزة فى موضعها عاطفة على مقدر، وهو مذهب الزمخشرى، أم مقدمة من تأخير، وهو مذهب الجمهور كما تقدم مرات[3].

والإمام فخر الدين الرازى لا يذكر التوبيخ والتعجيب كما ذكر الأئمة، بل المعنى المراد من الاستفهام - عنده - هو الذم البالغ النهاية[4].

ومن المفسرين المتأخرين الشيخ رشيد رضا، يدلى بدلوه فيقول:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فاتبعتم الهوى، وأطعتم الشهوات ، وعصيتم الرسل، واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى

---

(١) تفسير أبى السعود (١/ ١٢٧).
(٢) روح المعانى: (١/ ٣١٧-٣١٨).
(٣) البحر المحيط: (١/ ٣٠٠).
(٤) التفسير الكبير: (٣/ ١٨٧).

أحكام كتابكم ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كان المعهود فى التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ ثم يوبَّخون عليها، ولكن طواها - أى الله سبحانه - فى الخطاب وأدمجها فى الاستفهام، لتفاجئ النفوس بقوة التشنيع والتقبيح وتبرزها فى ثوب الإنكار والتوبيخ. وفى ذلك (إيماء) إلى أن هذه المعاملة (السيئة) مما لا يخفى خبرها، ولا تغيب عن الأفكار صورها «وهذا من إيجاز القرآن الذى لا يعرج إليه فكر الإنسان»[1] يريد الشيخ رشيد أن يقول:

إن القرآن لم يصرِّح بالتوبيخ والإنكار، وأن ذلك كما قال من إيجاز القرآن. ونحن لا نصادر ما قاله الشيخ رشيد هنا، ولكنا - مع هذا - نقول: إن ما ذكره خاصًا بهذا الموضع لا وجه له، بل هو عام فى كل صور الاستفهام المجازى، حيث لم يصرَّحْ معها بالمعانى المجازية المرادة منها. لأن تلك المعانى تُفْهَم منها عن طريق الإيحاء أو الإشارة.

فمثلاً قوله تعالى لليهود من قبل:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيه إنكار عليهم، وتوبيخ لهم، وتعجيب من شأنهم الغريب. ولم يصرح بذكر واحد منها، وإنما تُرك لفهم العقلاء.

والطاهر بن عاشور حمل الاستفهام على التعجيب والإنكار والتوبيخ، وتوسع قليلاً فى توجيه هذه الصورة من الاستفهام التى يُجمع فيه بين همزة الاستفهام وأحد أحرف العطف الثلاثة: الواو والفاء وثم، وكان قد وعد بهذا التوسع مرات فيما قبل.

وحاصل ما ذكره أربعة أمور هى:

* مذهب الجمهور القاضى بتقديم الهمزة من تأخير لتحقيق الصدارة للاستفهام على ما عداه.
* مذهب الزمخشرى الذى يُجَوِّزُ فى هذا الاستفهام أمرين:

(أ) مذهب الجمهور الذى تقدم ذكره.

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣١٢).

(ب) أن تكون الهمزة غير مقدمة من تأخير بل قارة فى موضعها، ويكون مدخولها محذوفًا ويقدَّرُ حسب ما يقتضيه الكلام بعدها. ويكون حرف العطف الذى بعدها عاطفًا ما بعده على المحذوف المقدر بعد أداة الاستفهام.

فيقدر المحذوف مع هذه الصورة: أتكذبونهم فكلما جاءكم رسول. . .

* اقتراح طريقة ثالثة تنسب إلى المؤلف نفسه، وهى أن يكون الاستفهام عن العطف، وقدَّر المعنى هكذا: أتريدون على مخالفتكم استكباركم كلما جاء رسول.

* أما الأمر الرابع الذى أضافه فهو أن هذا النوع من الاستفهام ملازم للاستفهام المجازى دون الحقيقى[1].

والخلاصة: أن الاستفهام - هنا - مراد منه المعانى المجازية الثلاثة: الإنكار، والتعجيب والتوبيخ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَفَّيْنَا﴾: استعارة تصريحية تبعية شبه فيها إرسال الرسل رسولاً إثر رسول إلى بنى إسرائيل دون فاصل زمنى بين الرسالات بسير قوم يسيرون فى طريق اللاحق فى قفا السابق، والعلاقة إحكام التتابع والتلازم. وسرها البلاغى استمراررسالات الهدى إلى بنى إسرائيل عبر الزمن كله، وإخراج المعنوى المعقول فى صورة المادى المحسوس.

ويتولد عن هذا معنى كنائى بديع هو إلزام اليهود بالحجة القاطعة وقطع طرق الاعتذار أمامهم، لظهور رسالات الله إليهم وملئها السمع والأبصار.

* اختصاص رسالة عيسى بالتفصيل بعد إجمال الحديث عن جميع الرسل الذين بعثوا بين موسى وعيسى عليهم السلام. هذه العناية روعى فيها ما يأتى:

(أ) أن الرسل بعد موسى كانوا متابعين للشريعة التى نزلت عليه ولم يضيفوا إليها شيئًا، بل كانوا حراسًا لها. أما عيسى عليه السلام فقد أضاف تشريعات جديدة كما حكى القرآن: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

[سورة آل عمران: ٥٠].

---

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٥٩٧).

(ب) أن عيسى عليه السلام كان أقـرب رسل بنى إسرائل فى عصر نزول القرآن إليهم زمنًا فكذبوه وآذوه هو وأمه ولم تثمر فيهم البـينات والتأييد بالروح القدس، فما أقبح ما صنعوه معه.

* ﴿كُلَّمَا﴾ هى فى اللغـة أداة حصـر. وهى - هنا- كناية عـن أن تمرد اليهـود على الرسل سجية راسخة فيهم يتوارثونها جيلا بعد جيل.

* ﴿تَهْوَى أَنفُسُكُمْ﴾ مجاز عـقلى علاقته الحاليّـة لأن فاعل «الهوى» ذواتهم. وفى تحويل الإسـناد إلى النفس دون الذات للدلالة على أن حب المعـاصى يجرى فـيهم مجرى الدم فى الشرايين..

* الإنكار فى ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ مسلط على مـجموع الأمور الثلاثة وهـى: مجىء رسول - مخالفة الرسالة لأهوائهم. الاستكبار. والفـاء فى «ففريقا» سببية، أى أن التكذيب والقتل كانا مسببين على استكبارهم وتعاليهم.

* التعبـير بالماضى: (**استكبرتم**) دون المضـارع (تسـتكبرون) إشـارة إلى تحـقق ذلك الاستكبار وتأصله فيهم، وكذلك دلالة الماضى فى (**جاءكم**).

* تقديم (**فريقًا**) فى الموضعين أفاد نكتتين بلاغيتين:

(أ) الاهتمام بالمقدم مع التشويق لمعرفة ما نزل بهذين الفريقين من حماقات اليهود.

(ب) موافقة بناء الفواصل على نسق واحد أو توافق رءوس الآى.

* تقديم التكذيب على القتل للتدرج فى إدانتهم من الشنيع إلى الأشنع.

* فى التخالف بين الفعلين (**كذبتم**) و (**تقتلون**) بين المضى والمضارعة فيهما تلويح بأن التكذيب هو الذى زين لهم القتل لتحقق وقـوع التكذيب فى الماضى مع استمراره، ولتصوير جريمة القـتل لأشنعيتها وكأنها تقع منهم فى كل زمان. إمـا بالفعل كقتل زكريا ويحيى وإما بالعزم كمحاولتهم قتل محمد ﷺ .

* * *

١٧ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

الدراسة والتحليل

يواصل القرآن الحديث فى هذه السلسلة الممتدة عن مواقف بنى إسرائيل من الدعاة، ومخازيهم التى دأبوا عليها فى كل العصور، وهذا واحد من مواقفهم المؤسفة كلما دعاهم داع إلى الله.

فبعد تاريخهم المخزى مع رسلهم، واجهوا داعيهم إلى الإسلام بالحيل الشيطانية، كما تسجل هذا آيتنا هذه.

إنهم رفضوا الإسلام، وبرروا هذا الرفض بأن القرآن لم ينزل عليهم، وهم إنما يؤمنون بما نزل عليهم، وهو التوراة، فأمر الله رسوله أن يواجههم فى ادعائهم الإيمان بالتوراة وما لحق بها من كتب، كالإنجيل، فيقول لهم:

إن كنتم مؤمنين حقا بالتوراة. فما الذى دعاكم إلى قتل الأنبياء المبعوثين إليكم؟! إن قضية الإيمان تمنع من قتل كل نفس حرَّم الله قتلها إلا بالحق، وأنتم تجاوزتم قتل عادىّ الناس، فقتلتم الأنبياء، وقتلة الأنبياء محال أن يكونوا مؤمنين.

حجج وبراهين عقلية لامناص من التسليم بها، ووقائع إجرامية تاريخية لاسبيل إلى التنصل منها. وهكذا فى هذه الكلمات القصار يفحم صوت الحق نعيق الباطل وكان لهذا الاستفهام: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أظهر الأدوار فى إفحام القوم وإلقامهم الصخر. وفيه يقول المفسرون:

حمله الإمام أبو السعود على التبكيت[١]. ويرى هذا الرأى الإمام الألوسى[٢].

وحمل الشيخ رشيد رضا معناه على: التقريع والتشنيع[٣]. لم يكترث بقية الأئمة ببيان المعنى المجازى المراد من هذا الاستفهام. وقد يكون الداعى إلى هذا وضوح المعنى المراد منه.

---

(١) تفسير أبى السعود (١/ ١٢٩). (٢) روح المعانى: (١/ ٣٢٤). (٣) تفسير المنار: (١/ ٢١٧).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام لايقف عند الحد الذى وقف به عنده الأئمة، من أن المراد التبكيت أو التقريع والتشنيع، لأن من يتأمل المراد منه - بمعونة السياق - يظهر له معنى آخر هو المقصود بالأصالة، وهو - فيما نجزم - التكذيب لهم فى ادعائهم الإيمان بأى وحى؛ فالتوراة تحرم قتل النفس عدوانا وظلما. فكيف يدعون الإيمان بها وهم قد قتلوا الأنبياء حماة الوحى الإلهى الأمين.

فحرى أن تكون تلك المعانى تابعة للتكذيب لا أنها المرادة أصالة.

أسرار النظم وبلاغياته

* الإيجاز فى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث حذف الفاعل وبنى الفعلْ للمفعول. لأن الغرض هو إثبات القول لهم فى نفسه. كما أن حذف الفاعل أفسح المجال ليشمل الدعاة فى كل عصر ومصر كما أفسح المجال لاتساع نطاق المقول لهم من اليهود فى كل زمان ومكان، ولو قيل: إذا قال لهم الرسول، مثلا لانحصر الفاعل فيه وحده. وانحصر المقول لهم فى من كانوا فى حياته، واتساع نطاق الفاعل والمقول له - كما هو مستفاد من الحذف هنا - هو المراد فى التسجيل على جنس اليهود بالكفر بالحق.

* . . . ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، عام أريد منه الخاص، وهو القرآن، وأوثر ذكر العام لنكات بلاغية؛ منها:

* . . اندراج الخاص فى العام، وإخراج الأمر بالإيمان مخرج العموم مع ذكر الْمُنزل إليه، واسم الْمُنزل. وتعيين الْمُنزل من أجل هدايتهم لبناء الأمر بالإيمان على علته الأولى وهى كون المنزل هو الله وهذا ألزم فى إقامة الحجة عليهم، وفيه إعدام لما يسبب الحساسيات لدى المطالبين بالإيمان، وهم اليهود؛ إذ لو ذُكِر اسم المنزل عليه وهو محمد ﷺ، واسم تابعيه، وهم المسلمون، واسم الْمُنزَّل المطلوب الإيمان به، وهو القرآن، لأحس اليهود بالكراهية والنفور، ولفرُّوا من الإيمان المطلوب فرار الحُمُر المستنفرة من الأسد.

ومع هذه الملاينة فى الخطاب، والتلطف فى التعبير أصروا على كفرهم وعادوا بالقضية إلى مضايق العصبية البغيضة، ووقعوا فيما تحاش القرآن أن يقعوا فيه فقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى نؤمن بالتوراة لا بالقرآن المنزَّل على محمد من أجل

المسلمين، ضاربين عـرض الحائط بوجوب الإيمان بما أنزل اللـه دون أى اعتبار لقـيود أخرى. فضلوا على عِلْم.

* إيثار المضارع فى **﴿ويكفرون﴾** للإشارة إلى أن كفرهم لايختص به زمن دون زمن. فهو صورة حاضرة متُجددة بتجدد دواعيه **﴿بما وراءه﴾** إما كناية عما رفضوا الإيمان به حيث جعلوه وراء ظهورهم فـغيبوه عن أبصارهم. وفيهـا اقتران الدعوى بالدليل لأن ما كـان مغـيبا عن الإنـسان لزم جهله به، وجـهله يستلـزم عدم الإيمان به أو استعارة شُبِّه فيها ما أهملوا الإيمان به بالشيء الذى خفى عنهم.

* **﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِـن رَبِّهِمْ﴾** احتـراس قاطع لايراد كل شبـهة للطعن فى مـا طولبوا بالإيمان به، وهو القرآن لأنه الحق، جيء به مـعترضـاً بين ما تقدم عليه ومـا تأخر وهو (**قل**) ونسبة الحق إلى (**ربهم**) لتشريف ذلك الحق، وتأكيد لوصفه بالحقيقة التى لا يتسرب إلـيها أدنى ريب، والتعـبير بـ: (**رب**) تودد ولطافة لما فـيه من مـعانى الرعاية كما أن فى إضافة (**رب**) إلى ضميرهم (**هم**) تلطف فى الخطاب مرة أخرى لما تشـعر به هذه الإضـافة من ترغـيب فى الطاعة، علهم يفـيقـون من غفلتـهم، ويثوبون إلى رشدهم.

* وإيثار المـضارع فى (**تقتلون**) لاستحضـار صورة القتل البشعة، وكـأن الدماء تسيل أمامهم الآن.

* وإضافة (**أنبياء**) إلى (**الله**) تصوير لشناعـة جرائم قتل اليهود لهم، وزيـادة فى تثبيت تكذيبهم بادعاء الإيمان. وهذا تاريخهم طافح بالكفر والتكذيب.

* وإسناد الكفر والقـتل لليهود فى عصـر النبوة الخاتمة والقاتل هم أسـلافهم؛ لأنهم راضون بجرائم أسلافهم فـصاروا شركاء لهم فى قتل الأنبياء مجـازاً كما شاركوهم فى الكفر بالحق حقيقة.

* (**من قبل**) لما أدى المضارع (**تقتلون**) معناه البلاغى فى استـحضار صور (**القتل**) أمام الأنظار، كأنهـا تقع فى عصر نزول القرآن، جـاءت عبارة (**من قبل**) لتستقيم وقائع التاريخ[1].

* * *

(١) كتب المرحوم الشيخ مـحمد عبد الله دراز فصلا إضافـيا فى أسرار النظم فى هذه الآية بما لم يعرف لغيره فى كتابه «النبأ العظيم». نوصى بالاطلاع عليه.

١٨ - ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

الدراسة والتحليل

وهذه جريمة أخرى من الجرائم الخلقية التى كانت - وما تزال - سجية وطبعا عند اليهود:

اضطهاد الأنبياء، وقتلهم، والكفر بهم وبالله الذى بعثهم، هذا ما ذكر فى الموضعين المتقدمين آنفا، وهنا يكشف القرآن عن قسمة من قسمات وجه تاريخهم الكالح. قسمة واضحة المعالم تنبىء عن غدرهم وخياناتهم ونقضهم العهود وإن كانت موثقة، وإن كانت مع الله ورسله. وانتهاكاتهم الحرمات وإن كانت مغلظة.

قوم طُبعوا على اللؤم والخسة، ساروا عبر تاريخهم الطويل فى مستنقعات من الدم، وأوحال من العار. وقد صُدِّرتْ هذه الآية بهذا الاستفهام:

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيق مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ فيالتعاسة قوم أكثرهم كافر، ومؤمنهم خائن غادر مخلاف للوعود، نقَّاض للعهود؟

وفيه يقول الإمام جار الله:

(أو كلما) الواو للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا..»[1].

هذا هو الموضع الثانى الذى يجريه على مذهبه المتقدم ذكره وكان الإمام أبو السعود أوضح من الإمام جار الله حيث قال: **(أو كلما)** الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر... أى: أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح، وكلما عاهدوا عهداً...»[2].

ويقول الإمام الألوسى: الهمزة للإنكار بمعنى ما كان ينبغى»[3].

«والمراد بهذا الاستفهام الإنكار، وإعظام ما يقدمون عليه من نقض عهودهم».

هذا ما قاله الإمام أبو حيان، ولكنه خلط بين معنى الهمزة وبين معنى (كلما) فجعل المعنيين للهمزة. مع أن المعنى الثانى لكلما، وهو: وإعظام ما يقدمون عليه من تكرار نقض عهودهم»[4].

---

(١) الكشاف (١/ ٣٠٠) اهتم بتحليل التركيب ولم يبين المراد من الاستفهام بلاغياً.

(٢) تفسير أبى السعود: (١/ ١٣٥).

(٣) روح المعانى: (١/ ٣٣٥). (٤) البحر المحيط (١/ ٣٣٣).

ويأخذ الإمام الرازى عبارة أبى حيان فيقول:

«المقصود من هذا الاستفهام الإنكار، وإعظام ما يقدمون عليه» ثم يردف:

«لأن مثل هذا إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ فى التنكير والتبكيت»[1].

وحاصل كلامه كله أن الاستفهام - هنا - معناه الإنكار وقد استتبعه معنيان، هما: التبكيت المستلزم للتوبيخ.

والخلاصة: أن الاستفهام فى هذا الموضع لإنكار الواقع لأن نقض العهد كان - وما يزال - واقعا ويقع منهم، وهذا الإنكار يتبعه أمران آخران متفرعان عنه وهما تبكيتهم على ماضيهم وحاضرهم الملىء بالنقائض والنقائص، والثانى توبيخهم على سوء صنعهم وتماديهم فى الباطل جيلا فجيلا.

أسرار النظم وبلاغياته

* إفادة **(كلما)** تأصُّل هذا الخلق البغيض فيهم فلم يكن خيانة العهد «بيضة الديك» فى سلوكهم، بل هو سجية وطبع.
* التعبير بـ **(النبذ)** فى **(نبذه فريق منهم)** تصوير فظيع لاستهانتهم بالعهود مهما كان آخذها منهم حيث شبَّه خيانتهم لها بإلقاء الشىء وطرحه على الأرض كما تُرْمى المحقرات للتخلص منها.
* العطف بـ **(بل)** التى هى للإضراب، لإفادة أن نقض العهود - مع شناعته - ليس هو كل مخازيهم لأن أكثرهم يكفرون بأصل الحق. وأنهم فريقان إما مؤمن آثم، وإما كافر بحقائق الإيمان، فمن هو الصالح التقى منهم؟ وهذا هو تصنيفهم فى قضية الإيمان.

* * *

---

(1) التفسير الكبير: (١/ ٢٠٠).

١٩ - ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان تمثلان نقلة بين لونين من الحديث. فما قبلهما كان حديثًا طويلاً عن اليهود الذين كانوا قبل الإسلام، والذين عاشوا فى عصر الرسالة الخاتمة. وهو حديث كثير التعاريج، كثير المضايق حقًا باعتبار حال القوم المتحدث عنهم، فكم صال القرآن معهم وجال. وكم كشف من مخازيهم، وكم أبطل من دعاويهم مذكرًا ومنذرًا ومحذرًا، وواعظا وزاجرًا.

وما بعد الآيتين، وهو شبيه بما قبلهما فى الطول والعمق، ولكنه ضم إلى اليهود النصارى فى بعض المواقف؛ مرات يتفقون على عداء المسلمين، وحينًا يخاصم بعضهم بعضًا، وقد انتصر صوت الحق - القرآن - على الفريقين معًا. انتصر بالحق للحق من أجل الحق.

وقد اشتملت كل آية منهما على استفهام أداته واحدة فيهما، ومعناه واحد فيهما. وهذا ما حدا بنا إلى جمع الآيتين فى مبحث واحد:

الاستفهام الأول جاء فى عجز الآية الأولى: ﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والاستفهامْ الثانى جاء فى صدر الآية الثانية: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؟

وقالوا فى سبب نزول هذه الآيات أن اليهود كانوا يسخرون من النبى ﷺ، فقد طعنوا فى النسخ فقالوا: «ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه» يريدون بذلك التشكيك فى صحة الدعوة، فتولى الله الرد عليهم من جهة، ومن جهة أخرى لتثبيت المسلمين وحمايتهم من لغط اليهود، وبين الحكمة من النسخ، وأنه لم يُرد به إلا المصلحة ولا يعلم المصلح على حقيقته إلا الله.

وقد ذهب الإمام جار الله إلى أن المراد من الاستفهام فى الموطنين هو التقرير: أى تقرير قدرة الله على كل شىء وملكية الله للسموات والأرض وما فيهما وما بينهما[1].

(١) ينظر الكشاف (١/ ٣٠٣).

ويزيد الإمام أبـو السعود المسـألة وضوحـًا، فبعـد اتفاقـه مع الزمخـشرى فى أن الاستفهام فى الموضعين للتقرير، أضاف أن الاستفهام الثانى يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون مؤكداً للتقرير الذى قبله فى عجز الآية الأولى.

والثانى: أن يكون تقريراً مـستقـلاً، فيكون الأول لتقـرير كمال قـدرة الله. والثانى لتقرير سعة ملكه[1] أما الإمام الألوسـى فنقل بصيغة التـمريض (قيل) أن الاستـفهام الأول للتقرير، أو الإنكـار، ثم سوَّى بينه وبين الثانى، كما جـوَّز فى الثانى أن يكون توكيداً للأول، وأن يكون مستقلاً كما قال أبو السعود من قبل[2].

لكن حملهما على الإنكار لا وجه له؛ لأن الهمزة إذا دخلت على أداة نفى، نفت ذلك النفى، وتحول المنفى إلى مـثبت، وله فى التنزيل الحكيم نظائر كثيـرة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فإن معناه بإجماع أهل العلم: شرحنا لك صدرك، ومن يقول إن الاستفهام فى **(ألم تعلم)** هنا فى الموضعين للإنكار فقد جانبه الصواب.

ويورد أبو حيان كلاماً عن ابن عطية صاحب الوجيـز حاصله أن الاستفهام حقيقى له معادل لما بعد الهمزة وهو ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾[3] ولكنه يحكم على هذا القول بأنه ليس بجيـد، ويجزم بأن الاستـفهام فى الموضـعين للتقرير، وقـد أورد له نظائر من القرآن مثل:

﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ و﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾[4] وما ذهب إليه أبو حيان هو الصواب.

أما الشيخ الطـاهر بن عاشور فيجـزم - وهو محق - بأن الاستفـهام فى الموضعين للتقرير، وقال: إن التقرير هو المقصـود من كل استفهام دخل على النفى، ومثل له بما سبق من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ثم قال: ولم يُسمع عن العرب استفهام دخل على النفى وأرادوا به غير التقرير[5].

قلت، ومنه قول الشاعر:

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود (١/ ١٤٣).

(٢) ينظر روح المعانى (١/ ٣٥٤).

(٣) وهو صدر الآية (١٠٨) من السورة نفسها.

(٤) البحر المحيط : (١/ ٣٤٤).

(٥) ينظر التحرير والتنوير: (١/ ٦٠٥).

ألســـــتم خـــــيـــــر من ركـــب المطـايا

وأنـدى الـعـــــــــــالمـيـن بـطـون راحِ؟

والخلاصة: أن الاستفـهام فى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ الله عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ وفى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ الـسَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ. .﴾ استفهام مـجازى لا حقيقى وليس له معادل كما قال ابن عطية، وليس للإنكار كما روى الألوسى.

بل هو استـفـهام تقـرير مراد به رسـوخ العلم بفوقـية قـدرة الله على كل شىء. وملكيته الخالصة للكون وما حوى من مخلوقات.

أسرار النظم وبلاغياته :

* التعبير بضمير الجمع فى: (ننسخ) و(نأت) للدلالة على عظم المتكلم عز وجل، جريا على طرائق العرب فى كلامهم.
* إيثار الاستفهام، وهو إنشـاء، على مجرد الخبر فى (ألم تعلم) فى الموضعين لما فى أساليب الاستفهام من تشـويق إلى عقبى الكلام كيف تكون. وإشراك المخاطب فى تصور المعنى المراد التقرير به، ثم توقع الإجابة الذهنية منـه على الاستفهام بالتقرير المقصود، والفرق جد كبير بين أن تقول لمخاطبك: أنت تعلم وبين أن تقول له: ألم تعلم. فالعبـارة الأولى لا تعدو أن تكون تذكيراً له من الخارج، أما العـبارة الثانية ففيهـا حركة، ونشاط داخلى فى نفس المخاطب فيـصدر هو الحكم بالإيجاب، وإن لم ينطق به.
* وتوكـيد الخبـر فى ﴿أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَـيءٍ قَـدِيرٌ﴾ ،وفـى ﴿أنَّ اللهَ لَهُ مُـلْكُ السَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ ليس لإزالة إنكار منكر، بل لأن مضمون الخـبر فى العبارتين حقيقة عظيمة الشأن، ومن حق الحقـائق العظيمة الشأن أن يُعَبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها، ولهذا نظائر كثـيرة فى القرآن منها قول الملائكة، لربهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1] [البقرة : ٣٢] والمخاطب هو الله.

* * *

(١) لأن الله لا ينكر أنه هو العليم الحكيم.

٢٠ - ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ، وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية هى التالية للآيتين اللتين تقدم الحديث عن الاستفهام فيهما قبل هذا مباشرة، وتابعة لهما فى سبب النزول الذى تقدم، وهو طعن اليهود فى وقوع النسخ فى القرآن، والنسخ هو إحلال حكم شرعى محل آخر لِحِكْمَةٍ تشريعية من العمل بالحكم الأول فترة، ثم بدء العمل بالحكم الثانى. كالتوجه فى الصلاة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف أولاً، ثم وقف العمل به وبدء العمل باتخاذ المسجد الحرام قبلة نتوجه إليها فى الصلاة، وهذا النسخ لم يكن عبثا، بل كان لحكمة اعتبرت المصلحة فى العمل بكلا الحكمين على التتابع لا على التداخل.

انتهز اليهود هذه الفرصة وراحوا يشغبون ويشككون فى صحة الرسالة، ويهزأون بهذا العمل، ويسخرون من صاحب الرسالة.

ويبدو أن بعض المسلمين تأثروا بدعايات اليهود فى هذا المجال، فنزلت هذه الآيات تعاتبهم فى هدوء، وترشدهم فى وضوح، هذا العتاب احتدت نبرته شيئا ما فى آيتنا هذه. فبدأت بهذا الاستفهام الذى لا يخلو من لوم، ولا يخلص من شدة، ولا يبرأ من تهديد.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ، وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وفى معنى هذا الاستفهام يقول الإمام أبو السعود: «الهمزة لإنكار وقوع الإرادة منهم واستبعاده، لما أن قضية الإيمان وازعة عنها، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها، للمبالغة فى إنكاره واستبعاده، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته، فضلا عن وقوع نفسه. والمعنى: أتريدون أن تسألوا رسولكم - تلك الأسئلة - وأنتم مؤمنون»[١] يريد أن الإنكار سُلِّط على السبب، وهو إرادة تلك الأسئلة دون المسبب، وهو وقوع الأسئلة، المحظورة-. وهذا أبلغ لأن انتفاء السبب يستلزم انتفاء المسبب.

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/ ١٤٤) بتصرف يسير.

وللإمام الألوسى توجيه سائغ للاستفهام - هنا - لكن فيه طولاً: فلنلخص كلامه - لأهميته - فى الآتى:

الاستفهام للإنكار بمعنى لا ينبغى أن يكون - يعنى إنكار الوقوع لا الواقع؛ لأنهم لم يسألوا - (وأم) يجوز أن تكون متصلة، إذا قدر تعلمون قبل تريدون، كأنه قيل: أى الأمرين من عدم العلم بما تقدم أو العلم مع الاقتراح واقع، والاستفهام حينئذ للإنكار بمعنى لا ينبغى أن يكون شيء منهما واقعا. وإن لم يقدر - يعنى الفعل تعلمون - كانت منقطعة للاضراب عن عدم علمهم بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم كاقتراح اليهود إنكاراً عليهم بأنه لا ينبغى أن يقع أيضًا. وقطع بعضهم بالقطع. بناء على دخول الرسول فى الخطاب أولا وعدم دخوله ثانيًا»[1].

ما ذكره الإمام الألوسى من اتصال (أم) لا يصح لسببين:

الأول: أنه فسر الاستفهام بالإنكار، والاستفهام الانكارى لا معادل له فى الأساليب البلاغية.

الثانى: احتياج القول بالاتصال إلى تقدير الفعل (تعلمون) كما قال الألوسى نفسه. وهذا فيه تكلف لم تدعُ إليه ضرورة.

والحق أن (أم) فى **(أم تريدون)** منقطعة، بمعنى بل: أى بل أتريدون أن تسألوا... وسلط الاستفهام الإنكارى على الإرادة دون المراد للمبالغة فى نفى المراد كما قال الإمام أبو السعود رحمه الله.

ويجزم أبو حيان بأن (أَم) منقطعة، وتقدر المنقطعة ببل والهمزة. فالمعنى: بل أتريدون»[2].

وكذلك الطاهر بن عاشور، فـ (أم) عنده - هنا - منقطعة، لوقوعها قبل كلام تام معناه، ورد قول من قال إنها متصلة - كالإمام البيضاوى - والاستفهام فيها لإنكار الوقوع لا إنكار الواقع. والذى سوَّغ هذا الانكار، هو جيشان السؤال فى الصدر. كما يضم ابن عاشور التحذير إلى الإنكار[3].

(١) روح المعانى: (١/ ٣٥٥).
(٢) البحر المحيط: (١/ ٣٤٦).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٦٠).

والخلاصة: أن الاستفهام - هنا - للإنكار والتحذير، وهو ما كاد يجمع عليه الدارسون. أما القول باتصال: (أم) فيه فبعيد جداً.

أسرار النظم وبلاغياته

* إيثار أداة الاستفهام (أم) على ما عداها لما فى هذه الأداة من معنى العطف. وكونها منقطعة بمعنى: بل والهمزة لإفادة (بل) الإضراب الانتقالى من التذكير بقدرة الله الباهرة، والتذكير بالعلم بملكه الواسع إلى العتاب والإنكار لما تجيش به بعض صدور المسلمين من هواجس أثارتها دعايات اليهود الباطلة.
* إيثار المضارع (**تريدون**) ليتوجه الإنكار إلى تلك الحالة الحاضرة مع شمول الإنكار لما يتجدد منها فى المستقبل.
* إيثار المصدر المؤول: (**أن تسألوا**) على الصريح «سؤال» لأنهم لم يكونوا قد سألوا، ولكن يتوقع منهم السؤال ولأن المصدر المؤول يفسح المجال لدخول الأسئلة المتعددة فى الإنكار، ولو قيل: سؤال لوقع فى الفهم أن المنكر إنما هو سؤال واحد.
* إيثار البناء للمفعول فى ﴿كما سئل موسى من قبل﴾ فيه إيجاز بالحذف أغنى عن ذكر كثير من العبارات التى عُرِفت عن بنى إسرائيل، مثل: (**اجعل لنا الهًا**) و(**فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض...**) الخ.
* التشبيه فى (كما سئل) وجه الشبه فيه الخروج عن المباح طلبه، أو اللجاجة الممقوتة، وهو تشبيه يؤدى معنى الاحتراس حتى لا يظن أن جنس السؤال - عموما - محظور، ولكن كل سؤال لم يراع فيه حسن التأدب والجواز.
* ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بِالإيمَانِ فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ هذا الكلام خبر لم ترد منه فائدة الخبر ولا لازمها بل هو خبر مستعمل فى الوعيد والتهديد، وفيه التفات من الخطاب (**أم تريدون**) إلى الغيبة: (**ومن يتبدل**) كراهة أن يوصف المخاطبون، وهم المسلمون، بالضلال والزيغ .

* * *

٢١ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ الله أن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا، أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ، لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

الدراسة والتحليل:

الفهم السائد عند جمهور المفسرين أن هذه الآية حديث عن مشركى العرب، الذين حالوا بين المسلمين وبين دخول المسجد مرات، من أظهرها صدهم النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم عن الاعتمار بالبيت العتيق عام الحديبية، وكان لهم قبل ذلك مضايقات للمسلمين الأولين قبل الهجرة، وهذه الآية والتى بعدها مباشرة استطراد للحديث عن اليهود والنصارى، والذى يبدأ ثانية بعدهما. فإن قبل هاتين الآيتين قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَىْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ...﴾ وبعدهما قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَل لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

وقد استهلت هذه الآية بهذا الاستفهام: **(ومن أظلم)** وهو أول مرة يأتى بهذه الصياغة، وله نظائر أخرى ستأتى فى القرآن الحكيم.

وفى هذا الاستفهام يقول الإمام أبو السعود:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾: إنكار واستبعاد لأن يكون أحدٌ أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له»[1].

أما الألوسى، فبعد كلام طويل فى الآية قال:

«ولا يراد بالاستفهام حقيقته، إنما هو بمعنى النفى. أى: لا أحد أظلم من ذلك»[2].

ومعنى هذا الكلام أن فى هذا الاستفهام تجوزًا من جهتين:

الأولى: خروج الاستفهام عن معناه، وهو طلب الفهم.

الثانية: استعماله فى النفى الخبرى.

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/ ١٤٩).

(٢) روح المعانى: (١/ ٣٦٣).

ويتابع الإمام أبو حيان الإمامين أبا السعود والألوسى فى أن الاستفهام مجازى معناه النفى[1]، لكن أبا السعود كان قد حمله على الإنكار الذى يئول إلى النفىّ، وسنعود لهذا فى الخلاصة.

وكلام الطاهر بن عاشور شبيه بما ذهب إليه أبو السعود، وليس ببعيد أن يكون قد نقله عنه مع إضافات من عنده وهذا قوله:

«والاستفهام بـ (من) إنكارى، ولما كان أصل (من) أنها نكرة موصوفة أشربت معنى الاستفهام وكان الاستفهام الإنكارى فى معنى النفى، فلذلك فسره بمعنى لا أحد أظلم[2]».

والخلاصة: أن هذا الاستفهام استفهام مجازى قطعا معناه النفى المحض. أما ما قيل من أنه إنكارى بمعنى النفى فغير وجيه. والذين قالوا بالإنكار لم يكتفوا به فاستدركوا قائلين أنه آل إلى النفى. والإنكار والنفى وإن اشتركا فى أصل الدلالة فإن الإنكار أحرى أن يكون فى هم أو عزم على من همّ أو ادعى الأمر الذى يسلط عليه الإنكار، وهذه الاعتبارات غير ملحوظة فى هذه الآية. كما أن الإنكار يكون للمخاطب لا الغائب، أما النفى فلا يقتضى شيئا من الاعتبارات التى تقدمت.

أسرار النظم وبلاغياته :

* العطف فى **(ومن أظلم)** إن كان الحديث عن طوائف من أهل الكتاب كما تردد عند كثير من المفسرين، فإن المعطوف عليه هو: **(وقالت اليهود)**. والتناسب بين المعطوف والمعطوف عليه قائم. أما إذا كان المتحدث عنه فى **(ومن أظلم)** هم المشركين العرب فإن التناسب بين المعطوف والمعطوف عليه هو العصيان، فاليهود والنصارى عاصون بجهلهم وادعائهم أن لله ولدًا، ومشركو العرب عصاة بشركهم وصدهم المؤمنين عن مساجد الله.

* فى إيقاع المنع على المساجد والمراد منع ذكر اسم الله فيها تفظيع لهذه الجريمة، حتى لكأنهم يمنعون إقامة المساجد أصلاً، وهم يخربون القائم منها فعلا، ولو قِيل: منع

---

(١) التفسير الكبير: (١/ ٣٥٧). (٢) التحرير والتنوير: (١/ ٦٧٩).

ذكر اسم الله فى المساجد لحصرت جريمتهم فى صد المؤمنين عنها دون التعرض للمساجد نفسها.

* وفى إضافة (**مساجد**) إلى (**الله**) تشريف لها وتعظيم لشأنها. وتوطئة لعودة ضمير اسم الجلالة إليه فى (**اسمه**).

* فى ذكر اسم الله مجاز مرسل، لأن المراد هو الصلاة وهى تشتمل على ذكر اسمه عز وجل. وعلاقة هذا المجاز هى الجزئية. لأن ذكر اسم الله جزء من «كلية» الصلاة واختصاص هذا الجزء بالذكر؛ لأنه أعظم شعيرة من شعائرها.

* فى (**سعى**) استعارة تصريحية تبعية، حيث شُبِّه قصدهم وتدبيرهم لتعطيل المساجد بالسعى الحسى، وهو المشى فى سرعة، والعلاقة هى «الإقدام» فى كل، وسرها البلاغى إبراز المعنوى فى صورة الحسى اعتناءً به وتهويلا لوقوعه.

* التعبير باسم الإشارة (**أولئك**) للإشعار بأن المتحدث عنهم بما وصفوا به من صفات استحقوا أن يوصفوا بما بعد (**أولئك**) وهو اسم إشارة للبعيد سره البلاغى أن المتحدث عنهم بعيدون عن رحمة الله، وعن أن يتصور أحد وجوداً لهم فى الحياة.

* التنكير فى (**خزى**) و(**عذاب**) للتفظيع والتهويل. .

* * *

٢٢ - ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ، إِلَهًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

الدراسة والتحليل:

تعود بنا هذه الآية إلى استئناف الحديث عن بنى إسرائيل، ودعواهم التى يواجهها القرآن - هنا - هو حيلة لهم كانوا يرددونها للتنصل من الدخول فى الإسلام، وهى أنهم ادعوا أن يعقوب مات على اليهودية، ووصى بها بنيه فورثها بنوه عنه، فكيف يدعوهم داعٍ إلى ترك دينهم الذى ورثوه عن جدهم الأكبر،؟ ويدعوهم للدخول فى دين الإسلام الذى لم يكلفهم الله بالدخول فيه.

وكان قد سبق هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ثم جاءت آيتنا بعد هذه الآيات الثلاث، التى تقرر أولاها أن الميل عن ملة إبراهيم سفه، وتقرر الثانية أن إبراهيم كان مسلما. أما الثالثة فتقرر أن إبراهيم ويعقوب كليهما أوصيا بنيهما بالحرص على الموت على الإسلام.

أما آيتنا ففيها مواجهة حادة لليهود فى دعواهم أن يعقوب مات على اليهودية، ووصى بها بنيه. فهم ورثة اليهودية عنه بطريق الوصية. ورتبوا على هذه المغالطة المكذوبة أنهم:

لا شأن لهم بالإسلام، ولا شأن للإسلام بهم، وإن القرآن ليشهد - وكذلك التاريخ - على أن اليهود كانوا - وما يزالون - مهرة فى الكذب والخداع لا فرق بين رجال دينهم وبين رجال دنياهم فى هذه النقائص المزرية.

ولكن أين يذهبون من ملاحقة الحق لهم، ليدحر باطلهم بالنقل أحيانا، وبالعقل أحيانا، وبالنقل والعقل معا أحيانا أخرى.

وآيتنا هذه واجهت باطلهم بالنقل والعقل معًا فطوقتهم من كل جهة، وأحكمت القبضة. فأين يذهبون؟

وقد بدأت المواجهة من صدر الآية:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ﴾ هذه مواجهة لهم من جهة العقل. فكم بين موت يعقوب عليه السلام، وبين اليهود الذين أدعوا هذه الدعوى وهى وصية يعقوب لبنيه باليهودية، كم بينه وبينهم من الزمن حين ادعوها فى عصر الرسالة الخاتمة؟ فى القرن السادس الميلادى؟!

هنا يقول العقل لهم: إنكم كاذبون؛ لأنكم لم تكونوا حاضرين وقت مات يعقوب عليه السلام.

أما عن طريق النقل؛ فإن الوحى الأمين يروى بصدق ما قاله يعقوب لبنيه ساعة حضره الموت:

* **(ما تعبدون من بعدى)؟**

قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فليس لليهود دليل من النقل، ولا دليل من العقل فى دعواهم التى ادعوها. بل النقل والعقل ينقضان هذه الدعوى. فصارت سرابا خادعا، ووهما من أحط الأوهام.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان: الأول فى صدرها ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾.

والثانى فى صلبها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى﴾ وفيهما يقول المفسرون:

أطال الإمام جار الله القول فى هذا الموضع، وها نحن نلخص ماقاله ثم نعقب عليه.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ. . .﴾ هى أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها: الإنكار[1].

أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت. . والخطاب للمؤمنين، بمعنى ما شاهدتم ذلك، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى[2].

خلافنا مع الزمخشرى - هنا - فى جعل الخطاب للمؤمنين فى قوله تعالى:

﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ**﴾ وقد جاراه فى هذا بعض المفسرين.

وهذا ضعيف للغاية، لأن ما بعده يصرف الخطاب إلى اليهود، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا. . .﴾ [البقرة: ١٣٥].

ولعل الذين ذهبوا هذا المذهب مع الزمخشرى يحملون معنى الاستفهام فى **(أم كنتم شهداء)** على الامتنان والتفضل من الله على المؤمنين، إذ أطلعهم على ما لا علم لهم به، ونقول: حتى مع هذا التوجيه فإن القول بأن الخطاب - هنا - للمؤمنين ليس بشىء.

---

(١) أم المنقطعة، تكون بمعنى: أبَل والهمزة ومراده من الهمزة ليس الهمزة التى قبل الميم فى (أم) بل الهمزة التى قبل «بل» فى التقدير الذى سبق.

(٢) الكشاف : (١/٣١٣).

ثم يستأنف الزمخشرى الحديث فيقول:

«وقيل الخطاب لليهـود، لأنهم كانوا يقولون: ما مـات نبى إلا على اليهودية. إلا أنهم لو شهدوه وسمعوا ما قاله لبنيه، وما قالوه، لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام ولما ادعـوا عليـه اليـهـودية، فـالآية منافـيـة لقولـهـم فكيف يقـال لهـم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾؟[1].

نقلنا هذه الفقـرة بلفظها ومعناها؛ لأن لنا عليـها ملاحظات منها: أن الزمخشرى حكاها بصيغـة التمريض (قيل) وذكرها ثانية فى التـرتيب. وكأنه يرجح كون الخطاب فى: **(أم كنتم شهداء)** للمؤمنين، وأن كونه لليهود إنما هو احتمال ضعيف؟هذه واحدة.

والثانية أنه استبعد أن يقال لليهود **(أم كنتم شهداء)** والآية منافية لقولهم؟

ولا أكاد أصـدق أن هذا الكلام يصدر عن الإمـام جار الله وهو من مـهرة خـبراء الأساليب، وقنَّاصى المعانى؛ لأن اليهود أدعوا يهودية يعقوب. فإذا أنكر عليهم القرآن هذه الدعوى فلا يقـال: كيف يقال لهم **(أم كنتم شهداء)** بل يجب أن يقـال لهم ذلك لإفحامهم وإلزامهم بالكذب على الله ورسله. والزمخشرى نفسه حمل الاستفهام على الإنكار. ثم يستأنف فيقول:

«ولكن الوجـه أن تكون (أم) متـصلة، على أن يقدر قبلهـا محذوف، كـأنه قيل: أتدَّعون على الأنبـياء اليهـودية أم كنتم شهداء إذ حضـر يعقوب الموت... فـما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء»؟[2].

قلت: لا داعى للاتصال الذى تكلفه الإمام. فهذا المعنى حاصل مع بقاء (أم) على الانقطاع؛ لأنها بإجماع أهل العلم تكون بمعنى: بل والهمزة. فبل للإضراب الانتقالى من إيصاء إبـراهيم ويعقوب بنيـهم بالإسلام، إلى مـحاجـة اليهود فـيمـا ادعوا زوراً وباطلاً.

أما الهمزة فى (أبَل) فلإنكار أن يكونوا قد شاهدوا يعقوب عند موته. وسمعوا منه ما يخالف ما نقله عنه القرآن.

ولو كانت الآية موافقة لقول اليهود الذى ذكره الزمخشرى لا متنع أن يقال لهم: أم

---

(1) الكشاف: (1/ 314).

(2) المصدر السابق.

كنتم شهـداء، لا كما قال هو إن امتناع هذا القـول لهم مترتب على مخـالفة الآية لما ادعوه؛ لأن الإنكار فى أى كلام إنما يكون مسلطا على كـلام آخر يخالف معناه معنى الكلام الذى فيه الإنكار، فـالبليغ يقول لمن ادعى فعل شىء فعله غـيره: أأنت فعلت هذا؟ لتكذيبه وإنكار دعواه. ولا يقول هذا القول لمن لم يدع هذه الدعوى.

وللإمام أبى السعود كلام جميل خـال من المآخذ التى وقع فيها صاحب الكشاف. يقول رحمه الله:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَـدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْـقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة مـقدرة ببل والهـمزة، والخطاب لأهل الكتاب الراغبين عن ملة إبراهيم.. ومـعنى (بل) الإضراب والانتقال من توبيخـهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليـه السلام إلى توبيخهم علـى افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية.. ومعنى الهمزة إنكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام، وتبكيتهم»[١].

هذا كـلام نفيس فى غـاية الجودة، وقـد هدانا الله إليـه عند التعـقيب على كـلام الزمخشرى.

وقد نهج الألوسى منهج أبى السعود، وضعَّف أن يكون الخطاب للمؤمنين، وجوز فى (أم) الانقطاع والاتصال مع ترجيح الأول، كما جـوّز أن يكون الاستفهام فى (أم) للتقـرير، أى تقرير اليـهود بأن أجدادهـم كانوا حاضـرين حين وصَّىَ يعـقوب أبناءه بالإسلام ثم وبخـهم القرآن على افتـرائهم اليهودية عـلى يعقوب بتنزيل علم اليـهود المخاطبين فى عصر الرسالة الخاتمة منزلة الشهادة لقوة علمهم بالوصية الحقة[٢].

ورجح الإمام أبو حيان انقطاع (أم) وكونها بمعنى: بل والهمزة التى للإنكار. قال: «والتقدير: بل أكنتم شهداء» فـمعنى الإضراب الانتقال من شىء إلى شىء، لا أن ذلك إبطال لما قـبله. ومعنى الاسـتفهـام - هنا - التقـريع والتوبيخ، وهو فى مـعنى النفى، أى ما كنتم شهـداء، فكيف تنسبون إليه - أى يعقـوب - ما لا تعلمون، ولا شهـدتموه أنتم ولا أسلافكم»[٣] ثم يشـير بعـد ذلك إلى مـا أشار الألوسى من كـون

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/ ١٦٤).

(٢) روح المعانى: (١/ ٣٩٠) وما ذكرناه تلخيص لكلام طويل لصاحب روح المعانى.

(٣) البحر المحيط: (١/ ٤٠٠).

الاستفهام بمعنى (بل) وحدها، وهو استفهام تقرير بتنزيل المخاطبين من اليهود فى عصر الرسالة الخاتمة منزلة أسلافهم: أى كنتم شهداء يعقوب حين وصَّى بنيه بالإسلام[1] ثم يرتب أبو حيان على ذلك أن التقرير للتبكيت والتوبيخ، والواقع أن فى هذا التوجيه تكلفا لم تدع إليه ضرورة بل هو إسراف فى الفهم.

وأطال - كذلك - الإمام الرازى، ولكن كلامه يدور حول الأمور الآتية:

* جواز حمل أم على الانقطاع وتكون لإنكار كونهم كانوا حاضرين وقت وصَّى يعقوب بنيه.
* جواز حملها على الاتصال ونهج نَهْج المتقدمين فى بيان وجه الاتصال فيها.
* على تقدير الاتصال يكون الاستفهام للتقرير التوبيخى[2].

وأسهم الشيخ رشيد رضا - هنا - بكلام قال فيه:

«هذا إضراب عما قبله، وانتقال إلى استفهام إنكارى وجه إلى اليهود عن وصية جدهم يعقوب لآبائهم الأسباط»[3].

هذا ما بدأ به كلامه، ثم جوَّز أن تكون أم متصلة، والاستفهام للتقرير التوبيخى كما مر عند غيره.

وقد حقق القول فى هذا الاستفهام ابن عاشور فقال:

«وهى - أم - هنا منقطعة للانتقال من الخبر عن إبراهيم ويعقوب إلى مجادلة من اعتقدوا خلاف ذلك الخبر.. ولما كانت (أم) يلازمها الاستفهام... فالاستفهام هنا غير حقيقى لظهور أن عدم مشاهدتهم احتضار يعقوب محقق. فتعين أن الاستفهام مجاز، ومحمله على الإنكار؛ لأنه أشهر محامل الاستفهام المجازى»[4].

والخلاصة: أن هؤلاء الأئمة استقطب الاستفهام الأول **(أم كنتم شهداء)** كل جهودهم، وأظهر ما قيل فيه عندهم انقطاع (أم) ثم الإضراب الانتقالى من أمر إلى آخر قد وضحوا كلا منهما. وأن الهمزة لإنكار شهود اليهود فى عصر الرسالة احتضار

---

(1) البحر المحيط: (1/ 400).
(2) التفسير الكبير (2/ 274).
(3) تفسير المنار: (1/ 392).
(4) التحرير والتنوير: (1/ 630).

يعقوب، ووصيته بنيه بما ينبغى أن يكونوا عليه من عقيدة. وهذا كله صواب، على أن يتضمن التكذيب[1].

أما الاستفهام الثانى (**ما تعبدون من بعدى**) فقليل منهم من وقف عنده، ومن وقف عنده قال إنه للتقرير، أى أن يعقوب عليه السلام قرر بنيه بهذا الاستفهام. والذى نراه أليق بهذا الاستفهام أن يكون المراد منه التثبت لا مطلق التقرير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار أداة الاستفهام (أم) هنا - على ما عداها كالهمزة هو المناسب للمقام، لأن الإنكار المفهوم من معنى (أم) زيد عليه معنى آخر هوالعطف والانتقال من المعطوف عليه، وهو إيصاء إبراهيم ويعقوب بنيهما بالإسلام، إلى المعطوف وهو تكذيب اليهود فى دعواهم أن يعقوب كان يهوديا. ومن شأن هذا العطف إئتلاف أجزاء الكلام والتدرج من حال إلى حال.

أما لو كان مكان (أم) الهمزة: أكنتم شهداء لما أفادت سوى الإنكار. أما الائتلاف والتدرج فى الخطاب فليس له وجود مع (الهمزة) الصريحة.

* تقديم (يعقوب) - وهو مفعول (حضر) على (الموت) وهوالفاعل لما ليعقوب من مكانة فى سياق هذا الحديث، ولطيفة أخرى نستشفها من هذا التقديم، وهى أن الساعة التى هى محط الفائدة - هنا - هى اللحظات التى كان فيها يعقوب حيا، ونطق فيها بوصيته لبنيه، وهذا يناسبه تأخير (الموت) وهو (الفاعل) وتقديم (يعقوب) وهو المفعول؛ لأنه كان فى هذه اللحظات حيا بكامل وعيه ولذلك سلمت الوصية من كل القوادح فى صحة أهلية الموصى، ولو قيل «إذ حضر الموت يعقوب» لكان معناه واحدًا من أمرين:

- غلبة سكرة الموت عليه فيصبح فاقد الأهلية لاحتمال التخليط فيما يقول من شدة الوجع.

---

(١) لأن القصد هو تكذيب اليهود فى ادعائهم يهودية يعقوب عليه السلام، أما التقريع والتوبيخ والتبكيت فمعان تابعة للإنكار والتكذيب.

- أو الموت فعلا، وهو يقطع كل صلة بالحياة.

* إيثار التعبير بـ: **(ما تعبدون)** - **(نعبد)** مكان الإيمان فى الموضعين، لأن العبادة هى ثمرة الإيمان الكامل. والإيمان بلا عبادة عقيم. والعبادة بلا إيمان لغو لا وزن له.

* إعادة قول بنيه فى الجواب **﴿نعبد﴾** بعد وروده فى السؤال: **(ما تعبدون)** وكان يكفى أن يقولوا فى الجواب: **(الهك وإله آبائك)** سره فيما نرى هو شرف العبادة من جهة، وقصدهم الإقرار الواضح بعقيدة التوحيد، وتعلق نفوسهم بهذه العبادة.

* وذكر: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق بعد التعبير الجامع لهم وهو قولهم: (آبائك) تفصيل بعد إجمال. والجمع بين هذا الإجمال **(آبائك)** والتفصيل: **(إبراهيم وإسماعيل وإسحق)** لبيان صلة أبيهم يعقوب بسلفه الصالح، ولبيان استمرار بنيه على ملة أبيهم الأكبر إبراهيم عليه السلام، فهم ذرية بعضها من بعض شعارهم التوحيد والعمل الصالح.

* قولهم: **(الهًا واحدًا)** احتراس بلاغى حكيم، يزيل ما قد يقع فى بعض الأوهام من أنهم سيعبدون الهين اثنين:

إله يعقوب. ثم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق.

* جَعْلُ **(إسماعيل)** أبًا ليعقوب، وهو عمه - جرى مجرى التغليب البلاغى، وهو إعطاء أحد الشيئين أو الأشياء حكم ما لغيره ممن ذُكر معه، كالقمرين للشمس والقمر، والأبوين للأب والأم، وهو من أساليب العربية الفصحى، والذى سوَّغ وصف إسماعيل عليه السلام بهذا الوصف، اشتراكه مع إبراهيم واسحق فى صدق الإيمان. والعمل الصالح. وتقدمه فى الزمن على بنى يعقوب عليه السلام.

* * *

٢٣ - ﴿صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

الدراسة والتحليل:

سبقت هذه الآية دعوى جوفاء لأهل الكتاب يهودًا ونصارى:

اليهود حصروا الهداية فيهم، ورمَوْا غيرهم بالضلال، والنصارى أدعوا أنهم وحدهم المهديون الهداة، ورموا غيرهم بالسفه والضلال.

حكى الله عنهم هذه الحماقات فقال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدواْ﴾ ثم أبطل الله دَعْوَيَيْهم هاتين بأمره لرسوله الخاتم ﷺ:

﴿. . . قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقد تصدرت (بل) جملة الرد عليهم، وهى - بل - هنا للإضراب الإبطالى. مؤذنة بأن ما جاء بعدها هو الحق.

ومن دعاواهم الباطلة أنهم كانوا يعيرون المسلمين بأنهم لا صبغة لهم، أى لا تطهير، والصبغة عند اليهود والنصارى هو الاغتسال بماء «خاص» يزعمون أنه يطهرهم من الذنوب والآثام، وهو المسمى بـ «المعمودية» عندهم، يغمسون فيه أطفالهم فى اليوم السَّابع من ميلادهم، ويغتسل به الكبير إذا كان عاصيا فتاب.

هاتان الدعويان، واجههما القرآن الحكيم بأمر الرسول والمؤمنين أن يقولوا لأهل الكتاب ردًا على دَعْوَيِيهم المذكورتين:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاط وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحد مِّنهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ورتب الله على هذا الرد الذى يواجه به المسلمون دعاوى أهل الكتاب ما يأتى:

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمنتُمْ به فَقَد اهْتَدَوْا، وَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ، وَهُوَ السَّمِيعَ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧].

أى: إن آمنوا بالذى آمنتم به فهـم مهتدون. وإن أعـرضوا فهم فى شقـاق وفتنة، والله كافى المسلمين شرورهم.

فليس الهدى نسبة إلى سلالة من البشر: يهوداً أو نصارى. وليس التطهير هو غسل الجسد بالماء، أى ماء كان.

وإنما الهـدى الحق، والطهارة الحـقة، هو الإيمان بالحق الذى أنزله الله علـى سائر رسله، وهذا هو ما عليه المسلمون.

فعلام يتطاول اليـهود والنصارى، الذين آمنوا ببعض الرسل وكـفروا ببعض، ومن آمنوا به منهم آساءوا القول والاعتقاد فيهم. وماذا يغنى غمس الجسد فى ماء والقلوب أسود من الليل الحالك الظلام. بعد هذا جاءت آيتنا:

﴿صِبْغَـةَ اللَّه، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّه صِبْغَـةً، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أى أن الإيمان الحق، وطهارة القلوب من سـوء الاعتقاد والعمل من سـوء السلوك، هو الطهارة التى طهر الله بها محمداً ﷺ والمؤمنين بما أرسل به فى حياته. وإلى يوم الدين.

هذا الاستفهام يكاد يجمع من تعرض له على أنه استفهام مجازى المراد منه الإنكار والنفى[1].

الإنكار على أهل الكتاب الزاعمين بأن صبغـتهم أحسن الصبغ، والنفى بالنظر إلى الواقع: لا أحد أحسن من الله صبغة.

وكذلك ذهب الألوسى فقال: «والاستفهام للإنكار»[2].

والخلاصة: أن الاستـفهـام فى هذه الآية للإنكار والنفى مـعًا، على ما قـدمناه فى تعليقنا على كلام أبى السعود.

أسرار النظم وبلاغياته:

* أوَّل ما يطالعنا من بلاغـيات نظم الآية هو الإيجاز فى حـذف العامل فى (صبـغة) لأنها منصوبة ولـم يرد فى الكلام ما يقـتضى هذا النصب، وقد تعددت الآراء حول عامل النصـب. فمنهم من جعله مـصدراً ناب مناب فـعله ومنهم من جعله صـفة لموصوف مـحذوف، وعلى كل ففى الكلام إيجـاز أدى إلى ثراء المعنى، وهو سره البلاغى.

* ثم المشاكلة التقديرية لوقوع (صبغة) هنا رداً على أهل الكتاب الذين كانوا يدعون أن

---

(١) انظر تفسير أبى السعود: (١/ ١٦٨).

(٢) روح المعانى (١/ ٣٩٨).

لهم صبغة، وليس للمسلمين صبغة. ومـعنى صبغة الله: تطهيره للمسلمين بالإيمان الصحيح.

* القصر فى: (**ونحن له عابدون**) فتقديم الجار والمجـرور لقصر العبادة على الله دون غيره، أى عابدون له لا لغيره.

* وإيثار الجملة الاسمية: (**ونحن له عابدون**) إشارة إلى دوام العبادة الخالصة لله.

* التعريض بأهل الكتاب، ووصفهم بالعراء من عبادة الله. إذ المعنى نحن عابدون له لا أنتم وهو قـصر ثان مـسـتـفاد من هذا التـركيب وهذه العـبادة تسـتلزم توحـيد «المعبود».

* * *

٢٤ - ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْـمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من آيات الحجاج الـتى أمر الله رسوله والمؤمنين أن يواجهـوا بها أغاليط أهل الكتاب ليـدحضوا باطلهم، ويكشفـوا عورهم، ومحاجة أهل الكتـاب للمؤمنين كانـت فى دين الله والرسالة الخـاتمة. وقد مـرَّ فى سورة البـقرة هذه ألوان شـتى من مجادلة اليهـود فى شئون العقيدة والدين، وأظهـروا حـسدهم للمسلمين لما أنزله الله عليهم من كـتاب كريم، أحكم قبضـته على الباطل بكل صـوره وواجه ادعاءات أهل الكتـاب من اليهـود والنصارى ولـم يدع لهم شـبهـة واحدة يتـذرعون بهـا أمام الحق وصدِّرت هذه الآية بهذا الاستفهام الذى أجمع أهل العلم على أنه للأنكار:

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾

بدأ الزمخشرى القول بأنه للإنكار، أى إنكار المحاجة الواقعة منهم[١].

ويتابعه أبو السعود مضيفًا التوبيخ إلى الإنكار[٢].

وكـذلك ذهب الألوسى[٣]، وعـبارته مـأخوذة من الكـشاف وسنذكـرها فى الآية التالية لهذه الآية، وهى: (**أم تقولون**).

---

(١) ينظر الكشاف: (١/ ٣١٦).

(٢) ينظر تفسير أبى السعود: (١/١٦٨).

(٣) روح المعانى: (١/ ٣٩٩).

ونحا الرازى هذا النحو[1]، وكذلك أبو حيان[2] والطاهر بْن عاشور[3].

والخلاصة: لقد أجمع هؤلاء الأئمة، على أن الاستفهام فى هذه الآية للإنكار، وقرن بعضهم به التوبيخ، وهو لإنكار الواقع؛ لأن أهل الكتاب كانوا يحاجون المسلمين فعلاً كما حكى عنهم القرآن الأمين، وقد تقدم لنا صور متعددة فى هذه الدراسة من لجاجهم وحجاجهم. والذى ذكره المفسرون - هنا - أنهم كانوا ينازعون فى شأن الرسالة الخاتمة أن تكون من العرب، ويقولون لو كان الله مرسلاً رسولاً لكان منا نحن لا من العرب. مصداق هذا قوله تعالى فى هذا الشأن:

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

[البقرة: ١٠٥].

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المضارع فى (**أتحاجوننا**) للدلالة على أن محاجة اليهود والنصارى للمسلمين لم تنقطع بل هى قائمة مستمرة، لا تكاد تخبو حتى تندلع من جديد.
* الإيجاز بالحذف فى (**فى الله**) أى فى دين الله والرسالة الخاتمة. ونكتة هذا الحذف التخييل بأن أهل الكتاب - لفرط جهلهم - محاجون فى ذات الله نفسه، لأنهم لا يقدِّرون الله حق قدره.، أما دليل الحذف فلامتناع الجدال فى ذات الله تعالى عند العقلاء.
* إيثار ذكر المفعول، وهو (نا) فى (**أتحاجوننا**) لإظهار شناعة تلك المحاجة؛ لأنهم يجادلون المسلمين وهم أعرف الناس بجلال الله والإيمان برسله جميعًا وبما أنزل عليهم، ولو حُذِف المفعول فقيل: أتحاجون لجاز أن يكون لجدالهم وجه محمود، بأن يكون من يجادلونه جاهلاً بالله وكماله وجلاله.
* قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾:

يضفى على جدالهم قبحا فوق قبح. لما فى هذا من كمال القدرة على أن الله

---

(١) التفسير الكبير: (٤/ ٨٨)

(٢) البحر المحيط: (١/ ٤١٣).

(٣) التحرير والتنوير: (١/ ٧٤٦).

يتفضل على من يشاء من عباده على أساس الإيمان الصادق به، والعمل الصالح لوجهه. لا على الجنس واللون والعصبية.

* وفى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ تعريض بأهل الكتاب بشركهم.

* * *

٢٥ - ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

الدراسة والتحليل:

موضوع هذه الآية ليس جديدا علينا فى هذه الدراسة، وهو ادعاءات اليهود يهودية الأنبياء السابقين، فقد عشنا مع هذا الموضوع من قبل عند قوله تعالى: **(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت)** فالموضوع بهذا الاعتبار معهود لنا لكن فرقًا كبيرًا يلحظه الدارس بين عرض الموضوع من قبل وعرضه هنا:

فمن قبل كانت دعوى اليهود خاصة بيهودية يعقوب عليه السلام، وهنا عمت دعواهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط الأثنى عشر. فكل هؤلاء يهود عند اليهود.

أدعى اليهود هذه الدعوى وهم كاذبون فيها؛ لأنهم يعلمون أن هؤلاء ليسوا يهودًا. قالوا هذه وعندهم شهادة تحمَّلوها عن أسلافهم، ولكنهم كتموا هذه الشهادة أمام الله علام الغيوب قبل أن يكتموها أمام المسلمين؟! وليس هذا من أخلاق المؤمنين.

وفى دحض هذه الدعاوى الجوفاء اشتمل الرد عليهم على ثلاثة استفهامات:

(أم تقولون - أأنتم أعلم أم الله - ومن أظلم..)

وجميعها استفهامات مجازية استخدمت فى معان هى لبنات فى صرح هذه المواجهة الصارمة.

وللإمام الزمخشرى كلام نفيس فى هذه الاستفهامات نذكره بطوله لأهميته، وليكن كالأساس لما سيأتى بعده من كلام الأئمة خشية الإطالة، بنقل كل ما قالوه:

(أم تقولون) يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلةللهمزة فى **(أتحاجوننا)** بمعنى فى أى الأمرين تأتون المحاجة؟ فى حكمة الله، أم ادعاء اليهودية والنصرانية على

الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معًا. وأن تكون منقطعة بمعنى بل أتقولون؟ والهمزة للإنكار أيضًا» [1].

هذا التخريج بوجهيه الذى أورده الإمام خاص بقراءة التاء **(أم تقولون)** والاستفهام للإنكار على تقديرى اتصال (أم) وانقطاعها. إلا أنه سكت عن معنى (بل) فى تقدير الانقطاع، وهى للإضراب الإبطالى والانتقال من إبطال المحاجة إلى إبطال أدعاء يهودية ونصرانية الأنبياء.

ثم يقول رحمه الله:

«وفى من قرأ بالياء - يعنى: **(أم يقولون)** لا تكون إلا منقطعة»[2].

يعنى بمعنى بل والهمزة، فبل للانتقال من مواجهتهم بإنكار المحاجة إلى مواجهتهم فى إدعاء يهودية ونصرانية الأنبياء. والهمزة كذلك للإنكار.

ثم يقول:

(أأنتم أعلم أم الله): يعنى أن الله شهد لهم بملة الإسلامْ فى قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنَدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى كتم شهادة الله التى عنده أنه شهد بها، وهى شهادته لإبراهيم بالحنيفية.

«ويحتمل معنيين: أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنهم كتموا هذه الشهادة، وهم عالمون بها. والثانى: أنَّا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحدٌ أظلم منا فلا نكتمها، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة فى كتبهم وسائر شهاداته»[3].

ويتلخص من هذا الكلام أن صور الاستفهام الثلاث فى هذه الآية تدور حول:

الإنكار - النفى، ونحن نرى التوبيخ لا ينفك عن الصورتين الأوليين، وهو معنى تابع للإنكار فيهما.

أما **(ومن أظلم)** فهو إلى النفى أميل منه إلى الإنكار وبخاصة فى الوجه الثانى الذى أشار إليه الزمخشرى من أن المراد به المؤمنون، والذى هو كناية عن عدم كتمانهم

---

(1) الكشاف: (١/٣١٦). (٢، ٣) الكشاف: (١/٣١٦).

الشهادة مع ما فى هذا - كما قال الإمام - من تعريض بأهل الكتاب لكتمانهم ما يتصل برسالة خاتم النبيين.

وأبو السعود وإن كان كالزمخشرى فى تخريجه لصور الاستفهام - هنا - فإنه، خالفه فى بعض الأمور التطبيقية، ومن الوفاء لهذا العالم أن ننقل فقرات من عباراته التى فيها جدة لم ترد عند الزمخشرى:

فهو بعد اتفاقه مع الزمخشرى فى جواز الانقطاع والاتصال فى (أم) فى الصورة الأولى، وفى الغرض من الاستفهام، خالفه فى تقدير المعادل فى حالة الاتصال فقال:

(**أم تقولون**) إما معادلة للهمزة فى قوله تعالى:

(**أتحاجوننا**) داخلة فى حيز الأمر - يعنى: (قل) على معنى: أى الأمرين تأتون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقّيّة ما أنتم عليه.. أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء..

والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما[1].

ويقول فى وجه الانقطاع: «وإما منقطعة مقدرة بـ (بل) والهمزة دالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء»[2].

وعلى قراءة الياء (**يقولون**) قال:

«وقرىء (**أم يقولون**) على صيغة الغيبة، فهى منقطعة لا غير، غير داخلة تحت الأمر، واردة من جهته تعالى توبيخًا لهم وإنكاراً عليهم، لا من جهته عليه السلام على نهج الالتفات»[3].

هذا التوضيح لم نره عند الزمخشرى. وأبرز ما فيه أن قوله تعالى: (**أم تقولون**) إذا قُدِّرت (أم) متصلة، فهى وما دخلت عليه من مقول القول الذى أمر الله به رسوله: (قل) وإذا كانت منقطعة كان هذا الكلام غير داخل فى مقول القول ويكون استئنافًا من كلام الله لهم لا من كلام النبى ﷺ. ويقول فى الصورة الثانية: (أأنتم أعلم أم الله) «إعادة الأمر - يعنى الفعل: (قُل) ليست لمجرد توكيد التوبيخ، وتشديد الإنكار

(١ : ٣) تفسير أبى السعود: (١/ ١٦٩).

عليهم، بل للإيذان بأن ما بعده ليس متصلاً بما قبله، بل بينهما كلام للمخاطبين. . . وهو تصريحهم بما وُبخوا عليه من الافتراء على الأنبياء. . »[1].

يريد بكلام المخاطبين مـاحكاه الله عنهم: **(إن إبراهيم وإسماعيل واسـحاق ويعقوب والأسباط كـانوا هودًا أو نصارى)** لذلك قال مـرة أخرى: (قل) الداخلة عـلى الصورة الثانية من الاستفهام.

ثم قال في الثالثة:

(ومن أظلم..): إنكار لأن يكون أحدٌ أظلم **(ممن كتم شهادة)** ثابتة **(عنده)**، كائنة **(من الله)**[2].

فالاتفاق عند الإمامين ظاهر فى أصول المسالة، مختلف فى فروعها.

وبعد أن استسرد الألوسى كلام أبى السعود أورد رأيًا غريبًا قمينا بالرفض، وهو فى الصورة الثالثة **(ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله)** حيث حمل الكلام على التقديم والتـأخير، والأصل: ومـن أظلم من الله؟! لا أظلم من الله إذا كتـم شهادته بـعدم يهودية ونصرانية الأنبياء؟[3].

هذا الرأى فضـلاً عن إساءة الأدب مع الله جل وعـز، ركيك لغويًا كل الركـاكة، مدفوع بلاغيًا كل الدفع، ولا يشفع لمرتئيه أن المقصود منه التقدير الفرضى ليتوصل منه إلى المبالغة فى ذم أهل الكتاب. فما أغنانا عن هذا السفه البين؟

لم تبق لنا حـاجة بعـد الذى عـرفناه عن الأئمة، الذين نقـلنا عنهم قبـلاً فى هذا المبحث؛ لأن من عداهم لم يختلفوا عنهم فيما قرروه إلا الطاهر بن عاشور فقد كانت له نظرات فى المراد من الاستفـهام فى الصورتين الثانية والثـالثة، وهما: ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ ثم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

فهو يرى الاستفهام فيهما للتقرير. لا للإنكار والتوبيخ كما قال الآخرون.

والأمر يسير، ولا يمنع المقام من إرادة التـقرير إذا كان المآل من قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ أن يقررهم بأن الله أعلم منهم ومن غيرهم.

(١، ٢) المصدر السابق.

(٣) روح المعانى: (١/ ٤٠٠).

وإذا كان المآل من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أن يقررهم بأن لا ظالم أظلم ممن ارتكب هذا الكتمان فلا مانع من إرادة التقرير.

والخلاصة:

أن الاستفهام فى المواضع الثلاثة: للإنكار والتوبيخ وهذا هو الأظهر فيها. أما حمل الاستفهام فى الصورتين الثانية والثالثة على التقرير فإنه احتمال جائز لكنه مرجوح.

والذى نختاره فى الصورة الثالثة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أن المراد منه هو: النفى المحض. وليس الإنكار، وقد قدمنا الفروق بين مجرد النفى وبين الإنكار قبلاً فى هذه الدراسة.

أسْرار النَّظم وبلاغياته:

* توكيد الخبر فى: (**إن إبراهيم وإسماعيل**) فيه إشارة إلى حرص المحكى عنهم هذا القول، وهم اليهود والنصارى، وإصرارهم على إلصاق اليهودية والنصرانية بهؤلاء الأنبياء. وأنهم كانوا يرتكبون كل شطط لإثبات هذه النسبة، وإنما أكد القرآن هذا الخبر ليطابق المقال الحال المحكية.
* تقديم إبراهيم على من جاء بعده؛ لأنه الأصل، والمتأخرون عنه إما أبناء أو أحفاد أقربون وأبعدون. وتقديم إسماعيل على إسحاق، وهما أخوان؛ لأن إسماعيل أسبق ولادة من إسحاق وتقديم يعقوب بن إسحاق على الأسباط؛ لأنه أصلهم الأدنى. وتقديم (**هودًا**) على (**نصارى**) لتقدم اليهودية فى الوجود على النصرانية.
* إيلاء (**أنتم**) الهمزة الأولى لأن (**أنتم**) هى المعادل لما بعد (**أم**) - (**الله**) وهمزة الإنكار مسلطة على المنكر (أنتم) لأن انتفاء أعلميتهم معلومة بالضرورة. وإثبات أعلمية (**الله**) معلومة بالضرورة، والإنكار ضرب من النفى فوجب إيلاء (**أنتم**) الهمزة الدالة عليه.
* تنكير شهادة فى قوله تعالى: ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً﴾ للتعظيم والتفخيم وإفادة العموم: أى: أىُّ شهادة من هذا النوع. والظرف (عنده)، والجار والمجرور (**من الله**)

لتفظيع شأن «الكتم» أما (عنده) فللدلالة على تعـمد الكتم بما تحقق له علمه عنده، وأما (**من الله**) فلأن كتم الحق الصادر عن الله من أشنع الآثام.

* وجملة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلتربية المهابة عند المخاطبين أصالة، وعند غيرهم تبعًا. وهو خـبر مستعمل فى التهديد والوعيـد لا فى إفادة فائدة الخبر، ولا فى لازمها.

* تقديم (**بغافل**) على (**عما تعملون**) لأنه محط الفـائدة، لأن نفى الغفلة مـعناه: أنه محيط علمًا بمـا صغر وكبر من الأعمال فـلا مفر من مساءلته للعامـلين، وتوفيتهم حسابهم جزاء وفاقًا.

* * *

٢٦ - ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَـا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ، يَهْدِى من يَشَاءُ إِلىَ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية حلقة جديدة من حلقات الصراع بين حق الإسلام وأباطيل خصومه، لأنهم كانوا يحاولون تشـويه حقائق الرسالة الخاتمة ما استطـاعوا. ولما أمر الله رسوله بتحويل القبلة فى الصلاة من بيت المقدس (المسجد الأقـصى) بعد ستة عشر شهرًا كان النبى والمسلمون يتـوجهون إليه فى الصـلاة. جاء الأمر بالتوجه إلى بيت الـله العتيق فكره اليهـود هذا التحول؛ لأنهم كانوا سـعداء باتفاق المسلمين معـهم فى اتخاذ بيت المقـدس قبلة صـلاة، وجـعلوا ذلك نوعًا مـن تبعـية الإسـلام لهم، فـرضى بذلك غرورهم، وزينته لهم حماقتهـم وجهلهم، فلما حوِّلت القبلة إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة، كـادوا يصعقون من هول الواقـعة. فتنكبوا سـواء الصراط، وعادوا إلى عادتهم من اللجاجة وبذاءة اللسان. وقالوا هذا القول:

﴿مَاوَلاَّهُمْ عَن قِـبلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْـهَا﴾ قالوه استـخفافًا بالمسلمـين وسخرية وهزءًا.

والله كان دائمًا يمد رسـوله فى مثل هذه المواقف بقذائف الحق التى تحرق شـبهات الخصوم، وترد كيدهم فى نحرهم:

﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

والتولية: الصرف عن جهة إلى جهة. والإعراض عن قصد إلى قصد آخر. يتظاهر اليهـود - هنا - بأنهم يتساءلون عن السبب الذى حمل المسلمين على تبـديل القبلة سألوا سؤال مُنكر أن يكون لهذا التحويل سبب معقول. وفى هذا يقول المفسرون:

(ما ولاهم) أى أىُّ شىء صرفهم، والاستفهام للإنكار والنفى»[١].

هذه عبارة أبى السعود، وقد أهمله الزمخشرى.

«والاستفهام للإنكار»[٢]، أو «على جهـة الاستهزاء والتـعجب»[٣]، «والاستفهام للإنكار والتعجب»[٤].

الخلاصة: بعض الأئمة لم يهتم بالمراد من الاستفهام فى هذه الآية لظهور المراد منه، وبعضهم وهم:

أبو السعود والألوسى والرازى ورشيد رضا اتفقوا على أن المراد هو الإنكار، ومنهم من أضاف الاستهزاء والتعجب، ومع تقديرنا لما قالوه، بل والاتفاق معهم فيه، فإننا نرى أن من الضرورة أن نقول: إن مراد اليهود من هذا الاستفهام لم يقف عند ما ذكره هؤلاء العلماء، بل كان لهم غرض آخر أهم مما ذُكِر وهو فيما نرجح:

التشكيك فى صحة الرسالة، وإحداث بلبلة فى نفوس المسلمين كما حدث من قبل عندما طعـنوا فى النسخ، وأرادوا صرف من يستـطيعون من المسلمـين عن دينهم، أو على الأقل زعزعة إيمانهم.

فإن لم يكن هذا التشكيك هو المقـصود الوحيد من هذا الاستفـهام فلا مناص من ضمـه إلى مـا قـاله علمـاؤنا علـى أن يكون هذا التـشكيـك هو الأصل المراد من الاستفـهام. وهذا ما يؤيده قوله تعالـى فى هذه السورة من قبل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) تفسير أبى السعود: (١/ ١٧٠).

(٢) روح المعانى: (٢/ ٢).

(٣) التفسير الكبير: (٣/ ٩٢).

(٤) تفسير المنار: (٦/ ٤).

أسرار النظم وبلاغياته :

* إيثار كـلمة **(الناس)** فى نفسـها، ثم إيثـار ذكرها، وكان يصح أن يـقال: سيـقول السفهاء من اليهود، أو سيقول السفهاء، بدون ذكر «الناس». هذا الإيثار له دلالتان بلاغيتان:

أولاهما: إيثارها على (من اليـهود) وسَّع من دائرة القائلين من المنافقـين والمشركين من غيـر اليهود، ولو قـيل: من اليهود لضـاقت تلك الدائرة، ولا نحصـر القول فى اليهود وحدهم وهذا خلاف الواقع.

الثانية: وصف القائلين بأنهم من الناس، احتراس جميل مانع من إرادة غير المراد؛ لأن الوصف بالسـفة خاص بالجـماد فـيقـال ثوب سفيـه أى مهلهل النسـج فاضح، ويوصف به الحـيوان غيـر الناطق. ويوصف به من كـان خفيف العـقل والإدراك من الناس. فلو لم يذكـر **(من الناس)** لدخل فى هذا القـول إرادة غير المـراد، لأن القول يوصف به الجماد والحيوان غير العاقل مجازًا. ولما ذكر **(من الناس)** ارتفع هذا التوهم.

* الكناية عن الموصوف فى **(قبلتهم التى كانوا عليها)** إذ المراد منها بيت المقدس. وإنما أوثرت الكناية على التـصريح؛ لأن المقام عند اليـهود مقام تشنـيع على المسلمين، فكان التولى فى نظرهم عن قبلة مضـافة إلى المسلمين أدخل فى باب التشنيع مما لو قالوا: «عن بيـت المقدس» إذ لا صلة فى اللفظ تربط بين المشنَّع عليـهم وبين بيت المقدس. لأن قـولك لمن يضرب أبا له اسـمه كمـال مثلا «أتضـرب أباك» أبلغ فى الإنكار والتوبيخ مما لو قلت له: اتضرب كمالاً.

* قصـر الصفـة على الموصوف بطـريق تقديم المسند على المسند إلـيه فى **(لله المشرق والمغرب)** والمشرق والمغـرب كناية عن كل الجهـات، وأوثرا فى لغـة القـرآن على بقـية الجهـات لما لهمـا من منزلة فى حـياة الناس؛ لأنهـما مـبدأ شروق الشـمس وغروبها.

* * *

٢٧ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

الدراسة والتحليل:

موقف مخز آخر من مواقف مناهضى الدعوة وقت نزول القرآن، إذا دعاهم الدُّعاة إلى اتباع الوحى الأمين (القرآن) نعقوا بأعلى أصواتهم، وتفجرت فيهم بواعث العصبية الحمقاء، وارتموا فى أحضان التقليد الأعمى، معلنين إعراضهم عن الإسلام، وتمسكهم بما ورثوه عن آبائهم من جهل وضلال، فعجَّبتْ الآية من حالهم وسوء سلوكهم، وإعراضهم عن الحق المبين.

والاستفهام الذى ورد فى الرد عليهم: **(أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)** ناعٍ عليهم جهلهم وتقليدهم، معجبا من الإصرار على اتباعهم آباءهم من غير نظر فى ما ورثوه عنهم، ومن غير نظر فى ما يدعوهم الدعاة إليه.

يقول الإمام جار الله الزمخشرى: «والهمزة بمعنى الرد عليهم، والتعجيب، معناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين، ولا يهتدون للصواب»[١] وقال أبو السعود: «والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتعجيب منه لا لإنكار الوقوع»[٢].

ويرى الألوسى - وغيره من الأئمة، رأيهما، فيقول الألوسى: «والهمزة لإنكار مضمون تلك الجملة، وهو استلزامهم الاتباع على تقدير ينافيه، وهو كونهم - يعنى آباءهم - غير عاقلين ولا مهتدين»[٣].

والخلاصة: ليس فيما قاله غير هؤلاء الثلاثة خلاف يعتد به. فالاستفهام كما قالوا لإنكار اتباعهم آباءهم اتباعا لا نظر ولا فحص فيه. وكيف يتبعونهم على كل حال من الهدى والضلال حتى لو كانوا لا عقل لهم ولا اهتداء. ويتولد عن هذا الإنكار التسفيه والتوبيخ.

أسرار النظم وبلاغياته:

عالجنا فى مواضع مماثلة من قبل، بعضا من أسرار النظم هنا كبناء الفعل: (قيل)

---

(١) الكشاف: (١/٣٢٨). (٢) تفسير أبى السعود: (١/١٨٨).
(٣) روح المعانى (٢/ ٤٠).

للمفعول ونكاته البلاغية، ولا نريد أن نطيل هنا، ونكتفى بما يأتى:

* إيثار (إذا) على (إن) إشارة إلى إيجاب تبليغ الدعوة على الدعاة وعدم التراخى فيها.
* تقديم انتفاء العقل على انتفاء الاهتداء، لأن من فقد العقل محال أن يكون له اهتداء لفقده أسباب الهداية.
* تنكير (**شيئا**) للتحقير. وهو المعنى المناسب لمقام الذم.

* * *

٢٨ - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِىَ الأَمْرُ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

الدراسة والتحليل:

الاستفهام الذى فى هذه الآية له معنى واحد عند أهل العلم والبلاغيين، لذلك نعفى أنفسنا من استطلاع آراء الأئمة فيه. ومعناه الذى لا خلاف فيه هو النفى لا غير. أى الناس، وبخاصة العصاة كفرًا أو أقل من الكفر، ليس أمامهم من الشئون الإلهية إلا قيام الحساب يوم البعث. وأن رسالات السماء قد توقفت بعد رسالة الإسلام، وإنزال الله الكتاب الخاتم الذى هو آخر كلمة لله فى نظام الحياة الدنيا، والعمل للآخرة. وهذه هى الخلاصة الوافية فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته

* إيثار (**ينظرون**) على: (**ينتظرون**)، لأن الانتظار ترقُّب ذهنى والنظر رؤية بالبصر، وسره البلاغى أن يوم القيامة لورود الأخبار الصادقة به كأنه ماثل أمامهم ينظرون إليه بأبصارهم الآن.
* (**إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة**)، أسلوب قصر من جهة: النظر مقصور، وإيتاء الله مقصور عليه، وهذا يؤكد ما فهمناه فى السر الأول. فلم يبق من شئون الله إلا البعث والحساب. وفيه كناية من جهة أخرى كناية عن يوم القيامة، لأنه هواليوم الذى تحدث فيه هذه الظلل. وهذا ما ورد فى قوله تعالى: ﴿وقَدِمْنَا إِلىَ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا * أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ

خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً * وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ونُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾

[الفرقان: ٢٣ - ٢٦].

الغمام هو السحاب الحامل للملائكة، فى ذلك اليوم من السماء إلى الأرض، حتى ليحجب الضوء عن الأرض من كثافة الظلل وكثرتها.

* وإيثار الماضى فى (**وقُضِى الأمر**) على المضارع استعارة فى زمن الفعل، شبه فيها قضاء الأمر فى المستقبل بقضائه فى الماضى، بتنزيل ما سيكون منزلة ما قد كان دلالة على تحقق وقوعه، حتى لكأنه قد وقع قبل الآن.

* وبناء الفعل: (قُضِى) للمفعول، وجَعْلُ نائب الفاعل فيه (**الأمر**) من جوامع الكلم فما أكثر الأمور التى سيقضى الله فيها يوم القيامة. دل عليها القرآن - هنا - بكلمة واحدة (**الأمر**) وهذا هو إيجاز القِصَر المعروف عند البلاغيين. ومثله: (**وإلى الله ترجع الأمور**) مع ما فيها من قصر صفة رجوع الأمور على موصوف، وهو الله تعالى وهذه الجملة (**وإلى الله ترجع الأمور**) خبرية أريد بها تربية المهابة فى النفوس.

* * *

٢٩ - ﴿سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

الدراسة والتحليل:

ليس فى هذا الاستفهام كبير خلاف بين المفسرين، فقد كادوا يتفقون على معناه، وأنه استفهام مجازى ليس المراد منه أن يعلم المستفهم - وهو النبى ﷺ - من المستفهم منه، وهم اليهود - شيئا يجهله المستفهم، لأن القرآن النازل على صاحب الدعوة عرض تاريخ اليهود عرضا مستفيضا، وبخاصة المعجزات التى وقعت لهم على أيدى رسلهم.

وإنما المراد من هذا الاستفهام عند الأئمة هو التقريع والتوبيخ وبيان عنادهم وعدم

انقيادهم للحق المبين، فالزمخشرى يقول: «ومـعنى الاستفهام فيها التقرير[1]» وعبارة أبى السعود قريبة من عبارة الزمخشرى، وفيها زيادة توضيح، وهى:

«والمراد. . . . تبكيتهم وتقريعـهم بذلك وتقرير لمجئ البينات»[2] ويقول الألوسى: «والمراد: تقريعهم وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحق بعد وضوح الآيات»[3].

وعبارة أبى حيان: «هو تقريع وتوبيخ وتقرير»[4].

ويقترب الفخر من هذا المعنى فيقول: «المقصود منه المبالغة فى الزجر عن الإعراض عن دلائل الله تعالى»[5].

والخلاصة: أن (كم) استفهامـية والمراد من الاستفهام فيها تقـرير اليهود بالمعجزات الباهرة الداعية إلى الإيمان ثم توجيه التـوبيخ إليهم على إعراضهم عن تلك المعجزات وتقلبهم فى فنون الكفـر والعصيـان. وكأنهم لا عهد لهم بمعـجزة قط. وهذا يوحى ببلاده إحساسهم، وغلظ قلوبهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تنكير **(آية)** للتعظيم والتفخيم، ووصفها بـ **(بينة)** زيادة فى التنويه بجلال شأنها.

* وفى **(ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب)** من الأسرار ما يأتى:

- التعريض بسوء مصير بنى إسرائيل لتبديلهم نعم الله عليهم.
- إخراج الكلام مخرج العموم بـيانا لعدالة الله، وأنه لا يعاقب بنى إسرائيل على مـخالفـاتهم لأنهم بنو إسـرائيل بل هى سنة لله فى كل مـن يقتـرف هذا الإثم العظيم.
- المراد من الخبر **(فإن الله شديد العقاب)** الوعيد والتهديد.
- إفادة **(من)** فى قوله تـعالى: ﴿مِن بَعْدِ مَـا جَاءَتْهُ﴾ توطئة لبيـان عظم المخالفة لوقوعها بعد التمكن من النعمة التى تقتضى الشكر لا الكفر.

* * *

(1) الكشاف: (1/ 354).
(2) تفسير أبى السعود (1/ 213).
(3) روح المعانى: (2/ 292).
(4) البحر المحيط (2/ 126).
(5) التفسير الكبير: (6/ 3).

٣٠ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ؛ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية انتقال بالحديث إلى مخاطبة المؤمنين، بعد الحديث عن الذين كفروا الذين وقعوا صرعى عشق الحياة الدنيا، وهاموا فى حبها راكضين كما تركض وحوش البرية وراء شهوات بطونها الواسعة.

وهذه هى طرائق القرآن فى تلوين الكلام، يخاطب فريقا ثم يدعه فيخاطب آخر، أو يتحدث بضمير الغائب، ويمزج بين المعانى والأعراض لدفع السأم عن النفوس، ولتجديد نشاطها بعرض ألوان من المعانى تُمتعُ وتُقنع. ويجمع ما تفرق منها واختلف رباط واحد هو الهداية وحسن التوجيه.

إن مائدة القرآن حافلة بما لذ وطاب من أغذية الروح، وتربية النفس، لا يمل سامعه، ولا يسأم من يتلوه، ولا يزيد القلوب إلا صفاء، ولا الإيمان إلا قوة، ولا الأخلاق إلا زكاوة، ولا الدرجات إلا رفعة، ولا الحسنات إلا كثرة، ولا السيئات إلا محوا ومغفرة.

والمهمة التى تحملها هذه الآية الحكيمة هى تهيئة الأمة وإعدادها لتحمل المشاق، وعدم التبرم من الشدائد، واتساع الصدور لمحن الابتلاء. لأن الجنة التى يرجون دخولها سلعة عظيمة وثمنها باهظ عظيم مثلها، ولن يدخلها إلا من جد واجتهد فى طلبها. وهش وبش فى دفع ما استطاع من ثمنها. وذلك هو المؤمنون الصادقون الذين سبقونا بالإيمان. ونالوا رضوان الرحمن وقد جاء فى هذه الآية استفهامان:

واحد فى صدرها **(أم حسبتم)** والثانى فى وسطها: **(متى نصر الله)** لتعد الأمة نفسها لتحمل كل الصعاب والثبات أمام المحن.

وفيهما وردت التفسيرات الآتية:

أم منقطعة - أى بمعنى: بل والهمزة، ومعنى الهمزة فيها للتقرير وإنكار الحسبان

واستبعاده. ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجئ البينات، تشجيعا لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات التى هى أبلغ: (أم حسبتم)[1].

هذا كلامه فى الاستفهام الأول: (**أم حسبتم**) أما الثانى فقد قال فيه:

(**متى نصر الله**).. ومعناه طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمن الشدة»[2].

ويحتذى أبو السعود حذوه فيقول:

(أم حسبتم) أم منقطعة، والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أى: بل أحسبتم: ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء[3].

ويقول فى الثانى: (**متى نصر الله**) طلبا وتمنيا له واستطالة زمن الشدة[4].

وقد خلا كلام أبى السعود من سهو وقع فيه الزمخشرى حيث جعل الهمزة فى الأول للتقرير والإنكار. وهما لا يجتمعان فى آن واحد فى محل واحد.

وأبو حيان يجعل الاستفهام الأول للتقرير، والثانى يجعله للاستبطاء[5]. أى استبطاء زمن النصر.

والإمام فخر الدين الرازى يجوِّز فى (أم) أن تكون متصلة على أن يكون المعادل لما بعدها هو التوقيف على مسالك الذين صبروا مع رسلهم قبل الإسلام. وهذه عبارته:

«أفتسلكون سبيلهم أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير سلوك سبيلهم»[6].

والخلاصة: وقفنا على ما قاله بعض الأئمة فى بيان صورتى الاستفهام فى الآية، وكان الاتفاق عندهم على أن (أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة، فبل للانتقال من حديث إلى حديث والهمزة لإنكار أن يظن الناس أنهم سيدخلون الجنة بلا عمل وجهاد وصبر فى سبيل الله. وهذا هو الحق فى الاستفهام الأول.

(١، ٢) الكشاف (٢/ ٣٥٤).
(٣، ٤) تفسير أبى السعود: (١/ ٢١٥).
(٥) البحر المحيط (٢/ ١٤٠).
(٦) التفسير الكبير: (٥/ ١٨).

أما الثانى (**متى نصر الله**) فعبارة البلاغيين فى معناه أدق من عبارات المفسرين التى عرفناها فى سياق هذا البحث.

البلاغيون يقولون: إن المعنى المجازى للاستفهام فى قوله تعالى: (**متى نصر الله**) أنه: الاستبطاء أى استبطاء مجىء النصر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى (**مستهم البأساء والضراء**) استعارة بالكناية شبِّه فيها المحن المعبّر عنها بالبأساء والضراء بالنار فى شدة إيلامها، وحذف المشبه به، ودُلَّ عليه بخاصة من خواصه، وهى: المسْ ويجوز أن تكون استعارة تصريحية تبعية إذا اعتبرنا المجاز فى الفعل (مس) وحده لا فى جملة التركيب، ويكون المشبه - حينئذ - هو الإيلام الناشئ عن ابتلاء الله لهم بالشدائد والمحن، أما المشبه به فهو المس لما فيه من شدة الإحساس. وأيا كان نوع المجاز فى الآية فإن المقام يقتضى هذا التصوير المجازى لبيان فضيلة الصابرين الثابتين على دينهم وأعباء التكاليف. فمع شدة المحن عليهم ظلوا ثابتين على عقيدتهم ماضين فى الزود عنها لم تلن لهم قناة، ولا فُتَّ لهم فى عَضُد، ولا ضعفت لهم عزيمة، ولا هيض لهم جناح.
* وفى إسناد القول باستبطاء النصر للرسول - أى رسول - والمؤمنين معه تهويل لشأن الشدائد والمحن التى تعرضوا لها حتى جأر الرسل والمؤمنون باستعجال النصر، والمعروف أن الرسل أصلب الناس عودًا، وأشدهم صبرًا، يليهم المؤمنون معهم. فإذا كانت هذه الصفوة تنادى بالنصر للخلاص من الشدة. فلا بد أن تكون تلك المحن قد بلغت حدًا غير معهود.

وقد نزلت هذه الآية لعلاج ما حدث من كثير من المسلمين من فزع ففروا تاركين رسول الله ﷺ ونفرا من أصحابه يتصدون لجحافل قريش، ويدفعون عن صاحب الدعوة أذى الأعداء. أجل إنه لعلاج حكيم.

* * *

٣١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

[البقرة: ٢١٥].

الدراسة والتحليل:

الاستفهام الذى فى هذه الآية ليس فيه أدنى خلاف عند الأئمة؛ لأنه استفهام حقيقى لا مجازى. والاستفهام الحقيقى هو أن يكون السائل جاهلا لما يسأل عنه، ويريد من المسئول أن يُعَلمه ما هو جاهل به.

مثل أن تقول لآخر التقيت به، ولا تعرف اسمه: ما اسمك؟ أو: ما اسم أبيك، إذا كنت تعرف اسمه وتجهل اسم أبيه. وهذا النوع من الاستفهام دال بنفسه على المراد منه.

والاستفهام فى ﴿**ماذا ينفقون**﴾ صادر من المؤمنين للنبى ﷺ. وظاهر معناه: أى شىء ننفقه؟ لذلك لم يرد عن الأئمة خلاف فيه لما تقدم. وبعض المفسرين يقول إن السؤال صدر من المؤمنين ليعرفوا فى الإجابة أمرين:

الأول: حقيقة ما ينفقون. . وهو ظاهر النظم الكريم.

الثانى: بيان الجهات أو الأشخاص الذين يكونون مستحقين للإنفاق عليهم. ولكن القرآن اقتصر على جزء من السؤال، أما فى الإجابة فأجاب على جزئى السؤال بأن (**من خير**) بيان للمال المنفق. أما الوالدان وما عطف عليهما فإجابة على الجزء الثانى الذى لم يذكر فى السؤال اعتماداً على تصوره من الإجابة عليه.

فالمراد من الاستفهام الحقيقى هنا: هو معرفة الأشياء التى يصح إنفاقها. هذا حسب الظاهر من نظم الآية.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المضارع ﴿**يسألونك**﴾ له مغزيان بلاغيان:

الأول: عام فى كل مضارع، وهو استحضار صورة الحدث -السؤال- فى الذهن، وكأنه يجرى الآن. أى وقت نزول هذه الآية.

الثانى: الدلالة على أنهم كانوا يُلحُّون عليه فى السؤال تحصيلا للعلم بما يجهلونه من آداب الإنفاق وضوابطه.

* تقـديم الوالدين لفضلهـا على أبنائهم، وتقـديم الأقربـين على ما بعـدهـم لأنهم الأولى بالمعروف بـعد الوالدين. وتقديم اليـتامى على مـا بعدهم؛ لأنهم مـساكين ضعاف لم يبلغـوا درجة العمل والكسب. وتقديم المساكين البـالغين على ما بعدهم لكثـرتهم وعجـزهم عن الكسب. أما تأخـير ابن السـبيل، وهو الغـريب المار فى الطريق، أو المقيم إقامة قصيرة فى غير بـلده إذا نفد ما له أو ضاع. فهو ليس يتيما ولا مسكينا عـاجزا عن الكسب، وقد يكون غنيـا أو مستور الحـال فى بلده. لهذا اقتـضت البلاغة القـرآنية أن يكون آخر مـن يستحق الإنفـاق؛ لأنه أقوى الأصناف المذكورة.

* * *

٣٢ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا، وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

الدراسة والتحليل:

المخاطب فى هـذه الآية هو الرسول ﷺ. وموضـوع السؤال هو الخـمر والميـسر، والسـائل هم المؤمنون، ثم عطف علـى هذا السؤال سـؤال آخـر عن الإنفـاق، لكنه تضمن استفهاما هو: **(ماذا ينفقون)**؟ وهو استفهـام حقيقى المقصود منه مـعرفة حكم شرعى يجهله المستفهم، وهذا الحكم هو: ما المال الذى يرغب الشرع فى إنفاقه وليس الاستفهام عن جنس المال أو نوعه، وإنما هو استفهام عن:

هل ينفق الرجل تطوعا متى ملك مالاً وإن كـان هو فى أشْد الحاجة إليه؟ أم يكون الإنفاق من الزائد عن حاجته؟.

والإجابة على هذا الاستـفهام هى التى حددت المقـصود من الاستفهـام، فالإجابة هى: **(قل العفو)** ومـعنى العفـو المال الزائد عن حـاجة المنْفق. وهـذا ما بينتـه السنة الطاهرة فى قوله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»[١].

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

ومن ضوابط الاستفهام الحقيقى إتباعه بالإجابة عليه. بخلاف المجازى فلا يذكر له جواب إلا فى حالات نادرة سيأتى بإذن الله بيانها.

أسرار النظم وبلاغياته

* ورد النظم بترك العطف بين الأفعال المضارعة المتحدة اللفظ والمعنى، الواقعة فى صدور الآيات الثلاث: ﴿**يسألونك ماذا ينفقون**﴾ - ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام...**﴾ - ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر**﴾، وجاء هذا معطوفا على نظيره بالواو فى الآية التى نتحدث عنها: ﴿... **ويسألونك ماذا ينفقون**﴾ فلماذا ترك العطف فى الثلاثة الأولى، ولم يترك فى الفعل الرابع؟

والجواب فيما نرجح أن ترك العطف فى الثلاثة الأولى له سببان بلاغيان:

الأول: طول الفصل بين هذه الأفعال (راجع الآيات فى المصحف) ولطول الفصل أثر فى نظم الكلام.

الثانى: اختلاف مقامات ورود السؤال واختلاف الزمن الذى وردت فيه كما هو مبسوط فى كتب التفسير وأسباب النزول.

أما عطف ﴿**ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل العفو**﴾ على ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر**﴾ فلعدم الفصل الطويل بين المعطوف والمعطوف عليه. وهذا يؤكد ما تقدم من أن طول الفصل كان سببا فى ترك العطف فى الأفعال الثلاثة الأولى. وإن كان بعض المفسرين لم يلتفتوا إلى ذلك فى مواضع لا يتحرجون من أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه آيات طوال؟.

* تقديم الخمر على الميسر لشدة ضررها ومضاعفته لأن فيها إتلاف المال وإتلاف العقل. أما الميسر ففيه ضياع المال من فريق، وانتفاع فريق به بالباطل.
* تقديم الإثم على المنافع، لأن الاثم متحقق قطعا، أما المنافع فلا أصل لها من الشرع، بل هى منافع من حيث الظاهر مع خبث مصادرها.
* شيوع الإيجاز بالحذف فى نظم الآية، كحذف المضاف قبل الخمر: يسألونك حكم الخمر وحكم الميسر، ولك أن تقدر مضافا آخر هكذا: عن حكم شرب الخمر، أو

عن حكم شرب الخمر وصناعتها والاتجار فيها. وفائدة هذا الحذف هو تكثير المعنى عند التقدير.

* وصف الإثم بأنه كبير، لتهويل شأنه والتنفير منه وترك وصف المنافع يوحى بحقارتها والتزهيد فيها.

* عطف **(ويسألونك ماذا ينفقون)** على **(يسألونك عن الخمر)** بالواو لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

* فى **(كذلك يبين الله لكم الآيات)** تشبيه، المشبه به هو اسم الاشارة **(ذلك)** المشار به إلى تبيين مضار الخمر والميسر. والمشبه هو تبيين سائر الآيات. وإيثار اسم الاشارة **(ذلك)** الموضوع لبُعْد المكان لتفخيم شأن التبيين القرآنى للآيات جميعا تنزيلا لبُعْد المكانة منزلة بُعد المكان.

* * *

٣٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الدراسة والتحليل:

بعد الفراغ من الحديث عن أحكام الشئون الزوجية، وبعض آدابها اتجه القرآن للحديث عن لون آخر من الجهاد فى سبيل الله، فجاءت هذه الآية توطئة وتمهيداً لهذا اللون الجديد الذى بعدها:

﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وهذه التوطئة قوية الصلة بالحديث عن الجهاد، لأن القتال فى سبيل الله قد يهاب لأنه مظنة الموت، فيفُتَّ فى عضد المجاهدين. فبينت آيتنا هذه أن الموت له أجل معلوم عند الله. لا يقربه قتال ولا مرض ولا يُبعده سلام أو صحة. فكان فى ذكر الملأ الذين فروا من الموت لما رأوا أسبابه، فأماتهم الله، وهم كثرة يظنون النجاة من الموت، دليلا على أن الموت قدر معلوم عند الله. لا يكون قبل إذن الله به، ولا يؤخر إذا أذن الله به.

وقد تصدر الآية هذه، الاستفهام الكثير الورود فى القرآن الحكيم (**ألم تر...**) وقد أجمع المفسرون والبلاغيون على أن كل استفهام تدخل فيه أداة الاستفهام على كلام منفى فإنه يكون للتقرير ويتحول النفى الذى بعده إلى إثبات. واستفهامنا هذا واحد من هذا النوع.

وإنما كان دائماً للتقرير (أى الإثبات) لأن أداة الاستفهام فيه تكون للنفى، والمنفى بها هو النفي الذى بعدها. ونفى النفى إثبات. وله نظائر كثيرة ستأتى فى هذه الدراسة تباعا بإذن الله.

وها نحن أُولاء نستأنس بنماذج من توجيهات المفسرين فى بيان المراد من هذا الاستفهام ونظائره:

يقول الإمام جار الله: (**ألم تر**): تقرير لمن سمع بقصتهم[1] من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم»[2].

ويردد الإمام أبو السعود العبارة نفسها[3]. وللإمام الألوسى كلام طويل لا يخرج عما قالاه[4].

أما أبو حيان فهذا الاستفهام - عنده - للتنبيه والتعجيب من حال هؤلاء[5].

والخلاصة: لا خلاف بين أهل العلم من أن هذا الاستفهام المراد منه التقرير والتعجيب لغرابة هذه الواقعة. أما قول أبى حيان أنه للتنبيه فهو قريب من التقرير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**ألم تر**﴾ نُزِّل فيه غيرُ الرائى منزلة الرائى إن كانت الرؤية بصرية، لأن هذه الواقعة سبقت نزول القرآن بزمن طويل، وفائدة هذا التنزيل الإشارة إلى اشتهار تلك الواقعة حتى لكأنها تقع ساعة الخطاب وسماع هذه العبارة: (... ألم تر)، وإن كانت الرؤيا علمية فإن فى هذا الاستفهام تحريكا للذهن لاستحضار حقيقة الواقعة.

---

(١) هم أهل قرية من قرى العراق خرجوا من ديارهم فرارا من الموت من طاعون كان قد تفشَّى بينهم، فخرجوا منها هاربين من الموت. فأماتهم الله جميعا بلا طاعون.. ثم أحياهم ليعتبروا. انظر كتب التفسير.

(٢) الكشاف: (١/ ٣٧٧).

(٣) تفسير أبى السعود: (١/ ٢٣٦).

(٤) روح المعانى: (٢/ ١٦٠).

(٥) البحر المحيط: (٢/ ٢٤٩).

* تعدية الفعل (تر) بحرف الجر (إلى) لأن الرؤية أو الرؤيا مسلطة على «القصة» لا على ذوات (**الذين خرجوا**) ولو قيل ألم تر الذين خرجوا لانصرفت الرؤية إلى ذواتهم لا إلى قصتهم، وهذا غير مراد من النظم الحكيم.

* (**وهم ألوف**) هذه الجملة الحالية كالاعتراض، أو هى اعتراض على مذهب من يقول: إن الاعتراض قد يكون له محل من الإعراب لإفادة شدة الفزع الذى انتاب المتحدث عنهم، حيث لم تمنعهم كثرتهم من الفرار، كما تفيد جهلهم بسنة الله فى الإحياء والإمانة، وإيثار الجمع(**أُلوف**) على (**آلاف**) للمبالغة فى تصوير كثرتهم لأن (**أُلوف**) جمع كثرة. و (**آلاف**) جمع قلة.

* وفى (**حذر الموت**) إيجاز بالحذف؛ لأن الأصل: حذر وقوع الموت بهم.

* وفى (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا) كناية عن القضاء عليهم بالموت جميعا فى آن واحد، وهى كناية عن موصوف. وليس ثمه قول فِعْلاً. وتقديم ضميرهم (هم) فى (لهم) على اسم الجلالة (الله) وهو الفاعل؛ لأن التعجيب المراد من الاستفهام منصب على قصتهم فاقتضت بلاغة التنزيل تقديم ضميرهم على الفاعل لأنهم محط الرحال فى الآية.

* إيثار العطف بـ (**ثم**) فى (**ثم أحياهم**) للإيذان بأن إحياءهم حدث بعد فترة متراخية من الزمن. والمغزى البلاغى لهذا هو تحقق موتهم واليأس التام من كونهم أحياء مُغْمى عليهم مثلا.

* وبين الأمر بالموت وبين الإحياء إيجاز بالحذف تقديره: فماتوا، ودليل الحذف (أحياهم) لأن الإحياء لا يكون إلا بعد الموت والعدم. وسره البلاغى الدلالة على فورية وقوع ما يريده الله سبحانه.

* توكيد الخبر فى: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة من حقها أن يعَبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

* وضع المظهر (**الناس**) موضع المضمر (هم) للتسجيل على هذا الفريق غير الشاكر بالجحود وكفران النعمة ولإفادة العموم.

* * *

٣٤ - ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية بعد الأمر بالقتال فى سبيل الله فى قوله تعالى: (**وقاتلوا فى سبيل الله، واعلموا أن الله سميع عليم**) والمناسبة بين الآيتين ظاهرة، فإن القتال فى سبيل الله يتطلب إنفاقا على الغزاة وأسرهم والإسهام فى تجهيز الجيوش. فكما عبَّأ الله النفوس للتضحية بأرواحهم قتالا فى سبيله، عبَّأ النفوس - هنا - للبذل والسخاء والإنفاق فى سبيله، ولا خلاف بين الأئمة أن المراد من هذا الاستفهام هو الحث والترغيب فى الإنفاق فى وجوه الخير التى شرعها الله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى قولة تعالى: (**من ذا الذى**) وهو الصورة الاستفهامية فى هذه الآية تفخيم لشأن المستفهم عنه، وهو الإقراض فى سبيل الله ومنشأ هذا التفخيم اسم الاستفهام (من) واسم الاشارة (**ذا**) والاسم الموصول: (**الذى**) ومعنى الفخامة - هنا - أن هذا التركيب: (**من ذا الذى**) استفهام عن فاعل فعل الإقراض فى سبيل الله. لأن الاستفهام عن الشىء يقتضى فى الأصل - الجهل به لندرته. أى هذا العمل العظيم من شأنه أن يكون فاعله نادرًا لقلة فاعليه. وهذا يضفى على فاعله غرابة وعلو شأن فيتسارع أصحاب الهمم العالية فى أن يحققوا هذا الوصف لأنفسهم. وكان يكفى أن يقال: من يقرض الله قرضا.. ولكن ما جاء عليه النظم القرآنى بلغ من البلاغة ذروتها، وشتان ما بينه وبين (من يقرض). لما فيه من تكثيف الترغيب والإثارة والتهييج وتفجير الطاقات الباعثة على السخاء والبذل فى سبيل الله وابتغاء رضوانه. وذلك هو شأن بلاغة القرآن.
* فى قوله تعالى: (**يقرض**) استعارة تصريحية تبعية، شبه فيها الإنفاق فى سبيل الله بالقرض المعروف بين الناس، والجامع بينهما هو عودة المال إلى صاحبه الأول فى كل، حتى لا يقع فى وهم المنفق فى سبيل الله أن ما أنفقه ذهب سُدىً. وهذا فيه

حث على الإنفاق. ولما كان القرض بين الناس لا زيادة فى المال المقرض حين رده. فإن من يقـرض الله لا يضمن عودة مـاله إليه كمـا هو فحسب، بل يعـود إليه مع أمثاله. فهو قرض رابح. ولذلك قال: **(فيضاعفه له أضعافا كثيرة)**.

وفى هذه العبـارة من جهة أخـرى احتراس لدفع توهم غـير المراد، وهو أن الله لا يقترض عن حاجة، وهو الغنى الحمـيد، وإنما يحث على بذل المال فى وجوه الخير لمنفعة المقرض، وهم المؤمنون الصالحون.

* وفى تسمـية البـذل والعطاء قرضـا لله، وهو بذل للمحـتاجين؛ تشريـف للإنفاق المحثوث عليه، وضمان له من الضياع، لأن الله غنى له ميراث السموات والأرض.

* فى وصف القرض بأنه **(حسنا)** احتراس ثان لئـلا يدخل فى هذا القرض بذل المال الخبيث، أو ما أتبعه صاحبه منًّا وأذى لمن بـذل له شيئا من ماله، أو كان البذل غير مرادٍ به وجه الله.

* فى قوله: (وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ) تأكيد للوعد بالجزاء، أى يقبض الصدقات ويبسط فى الجزاء عليها[1]. وإيثار الجـملة الاسمـية فيـه توكيد آخـر لاطراد سنة الله فى الإحسان بعد العدل.

* وفى قوله: **(وإليه ترجعون)** أسلوب قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيا: أى رجوعكم إليه لا إلى غيره، وهذه الجـملة تذييل مقرر لطلاقة إرادة الله فى أمور عباده.

* وفصْلُ جملة: **(من ذا الذى..)** عن جملة: **(ألم تر)** مع أنهما متفـقتان فى الإنشائية لفظا ومعنى لاختلاف المسند إليه فيهما.

* * *

---

(١) هذا أحد معان ذكرها المفسرون للقبض والبسط، وقد اخترناه لأنه الأليق بالمقام.

٣٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا، قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

الدراسة والتحليل:

عرضت سورة البقرة - فيما قبل - صوراً من تاريخ بنى إسرائيل، ولم يكن فيما عرضته قبلا ذرة واحدة من فضل تضاف إلى بنى إسرائيل، وفى هذه الآية تبرز لنا هذه الصورة القاتمة من مواقفهم مع أنبيائهم وتمردهم على أوامر وشئون الله فيهم، وهى صورة يستغرق عرضها ست آيات طوالاً، سجلت فيها السورة ما عليهم، وهو كثير، وما لهم، وهو قليل، وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة استفهامات أولها استفهام من الله مجازى المعنى، والمخاطب هو صاحب الرسالة ﷺ، ثم من يصح خطا به ممن عداه. وهو: (**ألم تر..**) والثانى: من نبى لبنى إسرائيل والمخاطب هم بنو إسرائيل، وهو: (**هل عسيتم..**). والثالث من بنى إسرائيل، وجهوه فى الرد على نبيهم.

والاستفهام الأول: (**ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل...**) تقدم الكلام فى نظيره: (**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم...**) ومعناهما واحد هو التقرير بإجماع أهل العلم[١].

والمقرر هو المخاطب. والمقرر به هو قصة بنى إسرائيل مع نبيهم بعد موسى عليه السلام. والرؤية إما بصرية على المجاز، كأن هذه القصة لشهرتها تجرى الآن أمام الأنظار كما تقدم فى نظيره المشار إليه، وإما علمية أريد بها تحريك الذهن لاستحضار تلك الصورة فيه. أما الاستفهام الثانى: (**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا**) فهو كذلك للتقرير، ذلك تقرير بالرؤية، وهذا تقرير بتوقع عدم القتال إذا كتب عليهم. فنبيهم هذا الذى لم يذكر القرآن اسمه توجس خيفة من بنى إسرائيل أن

---

(١) الكشاف: (١/ ٣٧٨) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٣٩) التحرير والتنوير (٣/ ٤٨٤) تفسير المنار: (٢/ ٣٧٦)، والبحر المحيط: (٢/ ٢٤٩).

يجبنوا إذا فُرِض عليهم القتال. ومبعث هذا التوجس أنهم قالوا لموسى عليه السلام وهو أكبر رسلهم: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاَ هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ولم يعدُ الخلاف بين الأئمة فى المراد من الاستفهام هنا سوى: هل هو تقرير بالتوقع أو تقرير بالمتوقع. والفرق بينهما أن التقرير بالمتوقع منهم فى ظن نبيهم، فهو يتهمهم بالنكوص عن القتال أما التقرير بالتوقع فهو معناه: هل يقع منهم هذا وإن كان نبيهم لا يتهمهم به، ولكنه يحذرهم منه. وقد ناقش الألوسى هذه المسألة فى إسهاب[١].

أما الزمخشرى فيجزم أنه لإنكار المتوقع، وهذه عبارته:

«وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن، وأنه صائب - أى نبيهم - فى توقعه»[٢]، وتابعه أبو السعود فقال: والمراد أن المتوقع كائن»[٣].

أما الاستفهام الثالث: ﴿وَمَالَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا..﴾ لم أر أحدًا من أهل العلم المفسرين من أشار إلى معناه. والواقع أنه للاستبعاد والتعجيب من حالهم إذا لم يقاتلوا والحال أنهم طردوا من ديارهم وحرموا من ذراريهم، أخرجهم العمالقة الذين كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين والتقدير: أى شىء ثبت لنا يمنعنا من قتال عدونا إذا توفرت لنا زعامة تقودنا فى القتال.

والخلاصة: أن الاستفهام الأول **(ألم تر)** للتقرير بالرؤية والثانى: **(هل عسيتم)** للتقرير بالمتوقع والتحذير منه، ويمكن حمله على الاستيثاق من عزمهم على القتال أما الاستفهام الثالث **(وما لنا)** فالمراد منه الاستبعاد والتعجيب من حالهم إذا لم يقاتلوا.

هذا على ما جرى الفهم الغالب، ونحن نرى أن الاستفهام الثانى: **(هل عسيتم)** استفهام حقيقى لا مجازى، أراد نبيهم أن يستبين منهم موقفهم إذا كتب عليهم القتال هل هم صادقون فى الإقدام عليه؟ أم مترددون؟.

---

(١) روح المعانى: (٢/ ١٦٥)

(٢) الكشاف: (١/ ٢٥٥).

(٣) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٣٩).

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى إيثار كلمة (الملأ) إشعار بوصف بنى إسرائيل بالسفه، لأن الملأ هم عِلْية القوم وسادتهم، فإذا كان سادتهم بهذه المثابة من عدم الوفاء بما يقولون، وبهذا الجبن الهالع فما بالك بعامتهم؟

* وفى قوله **(من بعد موسى)** إيذان بأن القوم لم يخلفوا الوعد جاهلين نكارة الخلف، فقد قضى فيهم موسى وهارون عليها السلام ردحا من الزمن، وعلموهم التوراة وفيها هدىً ونور، فخلفهم الوعد بعد ما أنزل الله عليهم كتابا، وبعث فيهم رسولاً دليل على أن القوم نبذوا ما بين أيديهم من كلام الله وكأن موسى لم يبعث فيهم. فحالهم فى الجهل بعد الرسالة كحالهم فى الجهل قبلها.

* تنكير (نبى) لأن الغرض حاصل بوصف النبوة دون حاجة إلى معرفة اسمه.

* فصلت جملة **(قال هل عسيتم)** عن جملة **(قالوا لنبى لهم...)** لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال، لوقوع الثانية جوابا عن سؤال نشأ عن الأولى، تقديره: ماذا قال لهم نبيهم؟ وكذلك فصلت بجملة **(قالوا ومالنا...)** عما قبلها لوقوعها جوابا عن سؤال تقديره: ماذا قالوا ردًا على نبيهم؟.

* فى حرص القرآن على ذكر قولهم: **(وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا)** تكذيب لما ادعوه بأنهم يريدون الملك ليقاتلوا فى سبيل الله؛ لأن قولهم: **(وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)** دلالة واضحة على أنهم يريدون القتال من أجل أنفسهم، ومن أجل حرصهم على الدنيا ولو كانوا صادقين فى أنهم يريدون الجهاد فى سبيل الله لم يقولوا هذا القول الفاضح لنياتهم، الكاشف عن طواياهم. فهو تعريض بهم، وإن لم يريدوا التعريض بأنفسهم.

* وفى إيثار **(تولَّوا)** والتولى لا يكون إلا من ميدان الحرب بدل (قعدوا) تصوير لحركة التولى إلى الوراء فارين من عدو زاحف عليهم. ولو قيل: (قعدوا) لوقع فى الوهم أنهم سيصمدون إذا غزاهم عدوهم، ولما قيل **(تولوا)** تبيين جبنهم وفزعهم الهالع والخبط فى كل جهة لا يلوون على شىء.

* ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ خبر فيه تعريض بهم لظلمهم أنفسهم بالتقصير فى الدفاع عن حرماتهم، وتهديد ووعيد لهم ولكل ظالم مثلهم.

* * *

٣٦ - ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة: ٢٤٧﴾.

الدراسة والتحليل:

هذه الآية استمرار للقصة التى بدئت فى الآية التى فرغنا منها، وهما متتابعتان فى الترتيب المصحفى. فبعد أن استوثق نبيهم منهم من الثبات وعدم النكوص إن وجب القتال، بلغهم استجابة الله لرجائهم، وأنه جعل عليهم طالوت ملكا.

ظاهر أن تنصيب طالوت ملكا عليهم هو حكم الله وقراره، لا نبيهم القائل: (**إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا**) وكان مقتضى هذا أن يمتثل بنو إسرائيل لأمر الله وحكمه، ولكنهم على دأبهم وعادتهم من اللجاجة والتمرد، طعنوا فى قرار الله وبنوا طعنهم على أمرين:

الأول: ادعاء محض لا مبرر له، وهو أنهم - هم - أحق من طالوت بالملك. ولماذا؟ لم يقل القرآن شيئا استندوا إليه فى ادعاء أحقيتهم بالملك من طالوت. وطالوت هذا من بنى إسرائيل مثلهم. فالمسألة - عندهم - منشؤها التحكم والتصلب.

الثانى: أن طالوت ليس له ثروة مالية تؤهله لأن يكون ملكا. وهذا مقياس مادى، وبنو إسرائيل يعبدون المادة بكل صورها. وهذه الصفة ملازمة لهم متى وأين كانوا. وقد صحح لهم نبيهم هذا الخطأ قائلا لهم:

إن مدار الأمر على اصطفاء الله إياه. واصطفاؤه حكمة وقد منحه علما وقوة فى الملكات الخَلْقية، والملك كله لله لا لكم.

وقد ورد فى آيتنا هذه هذا الاستفهام محكيا عن بنى إسرائيل: **(أنَّى يكون له الملك علينا)** متطاولين فيه على الله وقضائه؟.

وقد أجمع المفسرون على أن الاستفهام هنا للاستبعاد والتعجب، إلا الإمام الألوسى جوز فيه أن يكون حقيقيًا ولا وجه لهذا الجواز[1].

والخلاصة أن الاستفهام - هنا - مجازى معناه الاستبعاد والتعجب، وليس حقيقيا كما جوَّز صاحب روح المعانى. لأن القوم ذكروا سببين للإنكار وهما أحقيتهم للملك منه، والثانى: أن المرشح للملك «طالوت» فقير لا مال له.

أسرار النظم وبلاغياته:

* عطفت جملة **(وقال لهم نبيهم)** على جملة: **(قال هل عسيتم..)** لأنهما متفقتان فى الخبرية لفظا ومعنى.
* توكيد الخبر فى **(إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا)** مراعاة لحال القوم فى التمرد على ما يبلغ إليهم، وتوقع الإنكار منهم فأكد لهم الخبر بإن، واسمية الجملة، وقد.
* فُصِلَتْ جملة: **(قالوا أنى يكون له الملك علينا)** لأنها استئناف بيانى، لكونها جوابا عن سؤال مقدر نشأ عن جملة: **(إن الله قد بعث...)** وتقدير السؤال: ماذا قالوا: لما قال لهم نبيهم هذا الكلام؟.
* وكذلك فصلت جملة: **(قال إن الله اصطفاه عليكم)** عما قبلها للاستئناف البيانى.
* توكيد الخبر **(قال إن الله اصطفاه عليكم)** لأن المخاطب منكر شديد الإنكار، ولذلك أُتبع الخبر بما يقوى إثباته من الزيادة والبسطة فى العلم والجسم..
* الجملة الحالية ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وما عطفت عليها ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ استطراد للرد على جهل بنى إسرائيل بكمالات الله وطلاقة إرادته.
* وإظهار اسم الجلالة (الله) فى الجملتين لتربية المهابة فى نفوس المخاطبين ليسارعوا إلى امتثال أوامره، ويجتنبوا نواهيه. وهو واسع الفضل عليم بما يصلح العباد.

* * *

---

(١) ينظر الكشاف (١/ ٣٧٩) وتفسير أبى السعود (١/ ٢٤٠)، وروح المعانى: (٢/ ١٦٦) والبحر المحيط (٢/ ٢٥٧)، والتفسير الكبير (٦/ ١٧٣) وتفسير المنار: (٢/ ٣٥٧).

٣٧ - ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ، لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ، لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ، مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ العَلِىُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الدراسة والتحليل:

جمعت هذه الآية صفات الجلال والكمال والجمال لله العلى العظيم لم يتخللها غرض غير الثناء والمدح لرب العزة. وفى أثنائها ورد هذا الاستفهام:

﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وقد تقدم نظيره من قبل فى ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وما قلناه وقاله الأئمة هناك نقوله هنا. من أن هذا الاستفهام فيه تفخيم للمستفهم عنه، حتى لكأنه غير موجود لعزة الصفات الموصوف هو بها. وكل ما بين الاستفهام هناك والاستفهام هنا:

أن الاستفهام هناك فيه حث وترغيب فى تحقيق الوصف الذى تتحقق به «فاعلية» الإقراض لله، إذ يبدو من سياق الكلام أن فاعل ذلك الإقراض يكاد يكون معدوما.

أما الاستفهام هنا فهو للنفى الصريح فالذى يشفع عند الله بغير إذن الله لا وجود له. لأن الشفاعة عند الله منزلة عظيمة لا يكون لها «فاعل» حر مختار. والمنازل العظيمة يندر فاعلوها (أصحابها) إلا بإذن من بيده ملكوت السموات والأرض. فذاك للحث على تحصيل أن يكون المخاطب فاعلاً لذلك الفعل العظيم. وهذا لنفى أن يكون مخلوق ما فاعلا للشفاعة عند الله إلا بإذن من الله.

فالقدر المشترك بين الاستفهامين فى الموضعين اللذين نوازن بينهما هو:

إن كلا الاستفهامين يتفقان فى الدلالة على نُدرة المستفهم عنه، ومنشأ هذه الدلالة هو الصياغة الفخمة التى صيغت فيها الصورة اللفظية من هذه الأدوات الثلاث: **(مَنْ - ذا - الذى)**.

ويفترقان فى: أن النُّدرة فى الاستفهام الأول: **(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا)** تتحول إلى إمكان عن طريق الحث والإثارة والتهييج.

وأن الندرة فى الاستفهام الثانى (**من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه**) تتحول إلى استحالة وانعدام تام، لأن الشفاعة عند الله بغير إذن منه لا تكون أبدًا ، فندرة المستفهم عنه فى هذا الاستفهام كيفما وقع: (**من ذا الذى**) هى دلالة اللفظ لا تنفك عنه بحال.

أما الإمكان والاستحالة فهما دلالة المقام الذى يرد فيه هذا الاستفهام، وقرائن الأحوال فى ذلك المقام.

وأحسب أن فى هذا فهما جديدًا لهذه الصياغة الاستفهامية (**من ذا الذى**) فإذا صح هذا الحسبان، فنحمد الله صاحب الفضل والمنة، ونرجو أن يكون صحيحا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تقديم النفى فى صدر الآية: (**لا إله**) من باب التخلية قبل التحلية. فقد نسفت (لا) هذه كل حول وطول وقوة فى الوجود ثم جاء الإثبات بعدها بوحدانية الله صاحب كل حول وطول وقوة وأن من عداه، وما عداه مربوب له ومقهور، وليس له من الأمر شىء.
* تصدير الآية باسم الجلالة: (الله) ثم الإخبار عنه بما ذكر من أول الآية إلى آخرها. لأنه صاحب هذه الكمالات القدسية، وما عهدنا مسندا إليه من لفظ واحد (الله) أخبر عنه بمثل هذا الخبر الطويل الجليل، إلا الله فى هذه الآية وحدها فى القرآن الحكيم.

ومن لطائف النظم القرآنى أن اسم الجلالة (الله) لم يذكر فى الآية مرة أخرى. مع إيثار إرجاع الضمائر عليه ظاهرة ومستترة. وكان عدد الضمائر الراجعة إليه فى الآية أحد عشر ضميرا، تسعة ضمائر ظاهرة واثنان مستتران، أولهما فى (يعلم) والثانى فى (**يشاء**) أما الظاهرة فأولها (**هو**) فى (**لا إله إلا هو**) وثانيها «الهاء» فى (**لا تأخذه**) و (**له**) و (**عنده**) و (**إذنه**) و (**علمه**) و (**كرسيه**) و (**ولا يؤوده**) ثم (**هو**) فى (**وهو العلى العظيم**).

وإيثار التعبير بالضمائر فى مقام يتحدث عن أصول الوحدانية أبلغ من إعادة اسم الجلالة (الله) فهو الواحد الأحد والكون كله فى قبضته هو وحده، بخلاف مالو أعيد اسمه الأعظم مرة أخرى. ولو قيل – مثلا:

الله لا إله إلا الله - لا تأخذ الله سنة ولا نوم - لله ما فى السموات - من الذى يشفع عند الله - إلا بإذن الله - يعلم الله - ولا يحيطون بشىء من علم الله - إلا بما شاء الله وسع كرسى الله - ولا يؤود الله - والله العلى العظيم، فى هذا الكلام الذى نوازن بينه وبين النظم القرآنى المعجز تظهر بلاغة التنزيل ظهور الشمس فى رائعة النهار ونوجز الفرق بينهما فى عبارة وجيزة:

فى هذا الكلام الذى أظهرنا فيه اسم الجلالة (الله) مكان الضمائر الواردة فى النظم الحكيم، لا يعود ذهن القارىء إلى (الله) فى صدر الآية، بل يتوقف دائمًا عندما أعدنا ذكره بدل الضمائر، ويُنْسَى (الله) المذكور فى الصدر.

أما فى النظم القرآنى الحكيم فإن الضمير يعود بنا فى سرعة الضوء إلى (الله) فى صدر الآية، فهو القطب الذى تدور حوله كل الأفلاك من أول ضمير فى (**لا تأخذه**) إلى آخر ضمير فى (**وهو العلى العظيم**) فالحديث فى النظم القرآنى الحكيم عن (الله) واحد فى اللفظ والمعنى وفى الكلام (التجربة) الحديث عن (الله) واحد فى المعنى ولكنه متعدد فى اللفظ. فأين كلامنا من كلام الله المعجز؟ كلامه فى الثريا. وكلامنا فى الثرى.

* ثم لطيفة أخرى نشير إليها فى إيجاز كذلك:

(الله) فى صدر الآية متحدث عنه (مسند إليه).. و (**العلى العظيم**) فى آخر الآية إجمال للحديث التفصيلى الذى ورد فى الآية من (**لا إله إلا هو**) إلى (**ولا يؤوده حفظهما**) ولو راعينا مبدأ الكلام ونهايته دون النظر إلى ما بين المبدأ والنهاية، لتحصل عندنا هذا التصور (الله) (**العلى العظيم**) وهو تصور صادق، الله فيه هو الأول.. والعلى العظيم هو الآخر. وكان ما بين البداية والنهاية شموسا تسبح فى آفاق وحدة العظيم، وعظمة الواحد.

وكفانا هذا من أسرار نظم الآية، لأن استقصاءها دونه خرط القتاد.

* * *

٣٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

الدراسة والتحليل:

لما قرر الله فى الآية التى قبل هذه الآية أنه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. شرع فى ضرب الأمثال لكل من الفريقين. مثل للذين كفروا، ومثل للذين آمنوا. مثل الذين كفروا تكفلت بعرضه هذه الآية التى ذكرت قصة الرجل الذى جادل إبراهيم عليه السلام فى ربه. وانتهت المحاجَّة بغلبة الحق الباطل. وفى صدر هذه الآية ورد هذا الاستفهام.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾، وهذا نوع من الاستفهام للأئمة، وأهل العلم فيه مذهب واحد لا يتغير، وهو أنه للتقرير. لأن كل استفهام من هذا النوع الذى تدخل فيه همزة الاستفهام على كلام منفى فهو دائما للتقرير؛ لأن همزة الاستفهام تنفى ذلك النفى فيعود النفى إثباتا. ومعنى (ألم تر) هنا: قد رأيت، إن كانت الرؤية بصرية وقد علمت إن كانت الرؤيا علمية. هذا حاصل ما قاله ويقوله العلماء فلا داعى لنقل كلامهم - هنا - فيه، لسبق العهد به قبلا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(ألم تر)** الواقعة المقصوصة هنا حدثت قبل نزول القرآن بزمن طويل، فلم يكن فى الوجود أحد رآها رأى العين لا النبى ﷺ ولا أحد سواه. وهذه العبارة **(ألم تر)** تقرير وإثبات لرؤية المخاطب لها. فكيف يقال هذا؟ لعلماء البلاغة والمفسرين تخريجان لمثل هذا الأسلوب **أشهرهما:** أن الرؤية هنا رؤيا علمية، ومعنى: **(ألم تر)** ألم تعلم، نُزِّلت الرؤيا العلمية منزلة الرؤية البصرية من قبيل تشبيه المعنوى بالحسى، لقوة ظهور الحسيات أكثر من المعنويات. ليتوصل من هذا التشبيه إلى إثبات تلك القصة واشتهارها لغرابتها.

والتخريج **الثانى** أن الرؤية بصرية، بمعنى أن تلك الواقعة لقوة اشتهارها كأنها تقع الآن فيراها المخاطب ببصره. وكلا هذين التخريجين يؤديان إلى معنى واحد هو شهرة قصة الرجل الذى حاج إبراهيم، وحماقته التى ليس لها نظير فى التاريخ.

* ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الرجل الذى حاج إبراهيم فى ربه كان ملكا موسعا عليه فى المال والسلطان، مما يقتضى الإيمان بالله المنعم، ولكن الملك كفر النعمة والمنعم بها فكان فى ذكر هذه العبارة (**أن آتاه الله الملك**) تعريض بهذا الكافر ونعى عليه بأرذل الصنائع. إذ قابل الإحسان بالإساءة.
* توكيد الخبر فى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ لأن المخاطب منكر شديد الإنكار للإيمان بالله.
* الأمر فى ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ للتعجيز والإهانة والإفحام، واستعمال الأمر فى غير الوجوب الذى هو موضوع له لغة مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد فقد أُطلق الأمر من الدلالة على الوجوب، ثم قُيِّد بالدلالة المجازية التى تقدمت.
* (**الذى كفر**) أوثر الاسم الموصول (**الذى**) وصلته (**كفر**) على (**الذى حاجّ..**) للتسجيل عليه بالكفر وولاية الطاغوت له.
* فصل جملة: (**قال أنا أحيى وأميت**) عن جملة (**إذ قال إبراهيم**) لأن الجملة المفصولة نزلت منزلة جواب على سؤال مقدر - كما مر - نشأ عن الجملة الأولى، تقديره: ماذا قال الذى حاجَّ؟ كما فصلت جملة: (**قال إبراهيم**) الثانية عما قبلها لنفس الغرض الذى فُصلت من أجله الجملة السابقة.
* ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تذييل مؤكد لما قبله من عدم ولاية الله للذين كفروا.
* من ألوان البديع فى الآية: الطباق بين يحيى ويميت وبين المشرق والمغرب.
* إيثار ذكر إبراهيم باسمه الظاهر فى الموضع الثانى والثالث وطى اسم الذى حاج للتنويه برفعة شأن إبراهيم عليه السلام واحتقار الذى كفر.

* * *

٣٩ - ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَـرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَـا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِه اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَـانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَـارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ، وَانْظُرْ إِلَـى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُـمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الدراسة والتحليل:

وهذا مـثل مضروب لـولاية الله للمؤمنين، وإخـراجهم من الظلمـات إلى النور. فصاحب هذه القصة بدأ شاكًا وانتهى مؤمنا.

وقد ورد فيها استفهامان: الأول: (**أَنَّى يحيى هذه الله بعد مـوتها**)؟ والثانى: (**كم لبثت**) الأول صـادر من العبـد كحـديث من تحـديث المرء نفسـه. والثـانى من الله والمخاطب فيه العبد الذى مرَّ على قـرية وهى هالكة، والمفسرون مختلفون حول إيمان هذا المار وكفره. فمن رجَّح إيمانه على كفـره قال إن الاستفهام فى (**أَنَّى يحيى هذه الله بعد موتها**) استفهـام استعظام لقدرة الله فى إعادة الحياة إليـها. ومن رجح كفره على إيمانه قال إن الاستفهام فى الآية للاستبعاد. أى استبعاد إحياء القرية التى مرَّ عليها بعد حالة الدمار التى لحقت بها.

كما أنهم مختلفون فى المراد من الإحياء والإماتة اللذين وردا فى عبارته: (**أنى يحيى هذه الله بعد موتها**) ومحور خلافهم هل المراد من الإحيـاء: التعمير، والمراد من الإماتة التدمير الذى دمره ملك بابل بختنصر لمدينة بيت المقـدس! أم المراد الإحياء للبعث يوم القيامة، بعد الموت الحقيقى الذى حل بأهل المدينة؟ كما اختلفوا فى المار هل هو عزير اليهودى أو الخضر؟

وهذا الخلاف محكوم بنظم الآية. فإن دلالتها على الإحياء ليوم البعث هو الظاهر، كمـا أن دلالتها على أن هذا الرجـل إن لم يكن كافرا فـهو شاك مـتردد فى بعث الله الموتى يوم القيامة، دلالة ظاهرة وقوية، وهذا ما رجحه الإمام جار الله الزمخشرى(١).

---

(١) الكشاف: (١ /).

وصاحب المحرر الوجيز يرجح إيمانه ويستبعد أن يكون شاكا فى البعث[1] وعلى كل فإن الاستفهام الأول (أنى يحيى هذه) لهم فيه رأيان:

الأول: وهو الغالب، أنه للاستبعاد.

والثانى: أنه لاستعظام قدرة الله على الإحياء، أما الاستفهام الثانى: (كم لبثت) فقليل منهم ذكر أنه للتعجيز. أى تعجيز المسئول عن معرفة المدة التى قضاها ميتا.

وممن تردد بين الأمرين أبو حيان[2]. والألوسى[3] وأبو السعود[4].

والخلاصة: أن الاستفهام هو فعلا للاستبعاد المنبىءْ عن شك لدى المستفهم حمله على هذا الاستبعاد المشوب بالتعجب والحيرة. أما الاستفهام الثانى فهو فيما نرى للتجهيل، أعنى تجهيل المخاطب وتبيين خطئه فى تحديد المدة التى قضاها ميتا. ومن قال إنه للتعجيز لم يجانب الصواب، ولكن «التجهيل» أدق.

ولا داعى للتحمس بأن الرجل كان مؤمنا مستعظمًا لقدرة الله لأنه لو كان كذلك ما أماته الله هذه المدة الطويلة، ثم بعثه ليدخل على قلبه إيمانا جديدًا لم يكن محصلا عند الرجل وكل ما يقال فيه إنه كان يبحث عن الحقيقة، ولم يكن كفره كفر عناد ولجاجة، فلما تبين له الحق أقر بكمال قدرة الله، وآمن أكمل ما يكون الإيمان. ولو كان كما قال بعض المفسرين مؤمنا مستعظمًا لكمال قدرة الله لما نقل القرآن عنه أنه لم يؤمن بكمال هذه القدرة إلا بعد أن أراه الله تلك العظات الباهرة:

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أسرار النظم وبلاغياته:

فى هذه الآية من الأسرار ما لا يمكن تتبعه - هنا - توخيا للإيجاز، لذلك نكتفى بما يأتى:

(أو كالذى مرَّ. .) لم يذكر القرآن اسم هذا الرجل ولا اسم القرية، كما لم يذكر اسم النمروذ محاج إبراهيم عليه السلام من قبل لأن القرآن فى عرضه للأخبار

---

(1) المحرر الوجيز: (٢/٣٠٤) لابن عطية.
(2) البحر المحيط: (٢/٢٩١).
(3) روح المعانى: (٣/٢٣).
(4) تفسير أبى السعود: (٢/٢٥٣).

والقصص يركز على مواطن العبرة، ولا يشغل الأذهان بتفاصيل لا تزيد فى الاعتبار شيئا، هذه هى طريقة القرآن فى هذا المجال فاق بها كل العلوم والفنون والآداب.

* **(وهى خاوية على عروشها)** كناية عن صفة الدمار والخراب فى تلك القرية الممرور بها. ومن أسرار هذه الكناية أنها نقلت الحدث (التدمير والخراب) من فكرة ذهنية مجردة إلى صورة حسية ماثلة أمام الخيال: جدران محطمة وأسقف هامدة، وعظام مفتتة.

وهذه الجملة حالية بمثابة أضواء كاشفة مسلطة على حطام القرية وأشلاء موتاها.

* تقديم المفعول **(هذه)** على الفاعل **(الله)** للإيحاء بأن حالة التدمير فى القرية بلغت حدًا غير معهود، وأن تعجب الرجل وارتياعه ولَّد عنده الشك فى قدرة تعيد القرية إلى ما كانت عليه. وهذا من خصائص البلاغة العالية التى تكشف بوسائلها التعبيرية عن مغيبات النفوس، ومطويات الأسرار.

وفيها مجاز عقلى حيث أوقع الإشارة الحسية على القرية مريدًا أهلها ولو أحيوا لعمروها كما عمروها من قبل. وعلاقة هذا المجاز المحلية، حيث ذكر المحل وأراد الحال فيه، أو من كان حالاً فيه. وهنا يتولد مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

* إعادة **(اللبث)** مرتين بعد المرة الأولى للعناية بهذا **(اللبث)** لأنه أفخم حدث فى القصة. إذ كان يكفى أن يقال: (يوما أو بعض يوم) فى الرد على السؤال، وأن يقال فى الرد على الرد: بل مائة عام .

* الجمل القولية: **(قال - قال - قال)** المفصولة عما قبلها كان داعى الفصل فيها هو الاستئناف البيانى، الذى مر ذكره مرات. إلا الأخيرة: **(فلما تبين له قال)** هى جواب لما.

* توكيد الخبر فى **(أن الله على كل شىء قدير)** لإزالة الشك الذى كان فى نفسه قبل أن يريه الله تلك الآيات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية.

* * *

٤٠ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى، قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى، وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الدراسة والتحليل :

هذه الآية - برمتها - استطراد لما مرَّ ذكره من قصة الكافر الذى أصر على كفره؛ لأن وليه الطاغوت، وقصة الباحث عن اليقين الذى يسَّر الله له طريق اليقين الإيمانى، لأن الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من ظلمات الجهل والريبة إلى نور العلم ويقين الإيمان.

وإبراهيم - عليه السلام - لم يكن شاكا فى قدرة الله على إحياء الموتى فهذا اعتقاده عنده جازم، وإنما أراد أن يرى ما يؤمن به غيبا رؤية مشاهدة. فسؤاله كان متوجها إلى معاينة كيفية الإحياء لا حصول العلم بالإحياء نفسه، مثاله أن نقول لمن نجزم بأنه ماهر فى صنعته: أرنا كيف تصنع هذا الجهاز، فنحن لا نشك فى مهارته، وإنما نلتمس منه أن يقوم بالعمل أمامنا، فالمدرب الرياضى بعد أن يشرح فنون العمل قوليا، يقوم بالتطبيق أمام المدربين ليحذقوا فن «اللعبة» دليل ذلك أن إبراهيم عليه السلام قال: (كيف) فهو سؤال عن الحال والكيفية.

ولما قال إبراهيم: **(رب أرنى كيف تحيى الموتى)** وكانت هذه العبارة توهم - من حيث الظاهر - نسبة الشك فى المستفهم عنه عند قائلها، قال الله له - وهو عليم بصدق إيمان إبراهيم - **(أو لم تؤمن)** للتمهيد للإجابة التى أجاب بها إبراهيم **(بلى)** فيزول ذلك التوهم عند من حصل له. وتبرأ ذمة إبراهيم من أن يكون متهما بشك فى حقيقة من أجلِّ حقائق الإيمان أما قوله: **(ليطمئن قلبى)** فليس معناه: من الشك والارتياب ولكن معناه: من الهم والتردد بين إيراد هذا السؤال والإعراض عنه.

هذا الكلام الذى أجملنا عرضه مجمع على معانيه عند جميع أهل العلم. وبقى لنا أن نعرف المراد من هذا الاستفهام الإلهى الموجه إلى إبراهيم عليه السلام: **(أولم تؤمن)**؟

فأولاً: فى هذا الاستفهام الطريقتان المتقدم ذكرهما مرات:

- طريقة الجمهور، أن همزة الاستفهام مقدمة من تأخير، لأن الاستفهام له الصدارة فى الكلام، والواو عاطفة على مذكور له صورة لفظية فى الكلام.

والتقدير عندهم: **(وألم تؤمن)** فقدمت الهمزة لما تقدم فصار الكلام على ما عليه النظم الحكيم **(أولم تؤمن)**.

- ثم طريقة الزمخشرى، ومن تابعه، أن الهمزة لم تقدم من تأخير والواو عاطفة على محذوف مقدر ينسحب عليه الكلام ويكون ذلك المحذوف المقدر هو الذى دخلت عليه همزة الاستفهام. قدره أبو السعود فقال: «ألم تعلم ولم تؤمن»[1] أما المراد منه مجازيا فيقول فيه الإمام جار الله:

«فإن قلت: كيف قال له **(أولم تؤمن)** وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين»[2].

والألوسى أكثر صوابا من توجيه الزمخشرى للمعنى المراد من هذا الاستفهام المجازى. إذ قال إنه لتبرئة إبراهيم عليه السلام من الاتهام بالشك الذى قد يتوهم من ظاهر العبارة[3] أما أبو حيان فيفصح بأن الاستفهام - هنا - للتقرير، مثل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ويجيب على اعتراض حاصله: إذا كان الاستفهام تقريريا فكيف أجيب بـ (بلى) وهى تفيد الإيجاب بعد النفى؟ ويجيب بأن العرب كانت تجرى جواب الإيجاب مجرى جواب النفى نظرًا للصورة اللفظية التى عليها الكلام[4].

والذى نراه أن دفاع صاحب البحر لا يحتاج اليه المقام لأن لهذا الاستفهام نظائر فى القرآن جاء جوابها بـ (بلى) منها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] فإن كان الاستفهام فى آيتنا هذه للتقرير، فهو تقرير فيه شائبة نفى، فحسن إجابته بـ(بلى).

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٥٦).

(٢) الكشاف: (١/ ٣٩١).

(٣) روح المعانى: (٣/ ٣٧).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٢٩٨).

ويقول الطاهر بن عاشور: (**أولم تؤمن**) الواو فيه للحال، والهمزة استفهام تقريرى على هذه الحالة. . والتقدير: أأريك فى حال لم تؤمن، وهو تقرير مجازى مراد به لفت عقله إلى دفع هواجس الشك»[1].

والخلاصة: الذى تردد عند بعضهم أن هذا الاستفهام للتقرير أى لتقرير إبراهيم بثبوت إيمانه، وهذا وحده غير كاف فى المراد من الاستفهام المجازى هنا، فكان حريا بهم أن يجعلوا هذا التقرير مطية للتعجيب من حال إبراهيم لأنه سأل هذه السؤال وهو مؤمن والإيمان عاصم من مثل هذا السؤال، وهم لم يقولوا بهذا التعجيب، والذى نراه أن الاستفهام للتقرير والتنبيه ولدفع توهم غير المراد وهو شك إبراهيم عليه السلام، لأنه لو لم يذكر هذا الاستفهام لما أجاب بما أجاب من نفى الريب، ولكان توهم الاتهام قائماً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى حذف ياء النداء فى قوله: (**رب**) إشارة إلى قربه تعالى بعلمه من كل خلقه، ولذلك لم يأت فى القرآن ياء النداء مذكوراً مع (رب) إلا فى موضعين مع أن هذا النداء ورد فى القرآن زهاء الألف مرة، والموضعان اللذان ذكر فيهما حرف النداء (الياء) كان السبب فى ذكره استشعار المنادى ببعده عن ربه، لا بعد ربه عنه كما التزم حذف ضمير المتكلم المضاف إليه (ربى) تخفيفا على الداعين لكثرة ما يدعو المؤمنون ربهم[2].
* الأمر فى قوله (**أرنى**) للالتماس، والرؤية بصرية، وهذا يدل عليه ما ورد فى مسألة الطير فى الآية نفسها.
* جمل القول الثلاث بعد التى فى صدر الآية فُصِل بعضها عن بعض للاستئناف البيانى الذى مرّ ذكره.
* وصف الطير بوصف العاقل (يأتينك) لأنهن دُعِين وفقهن الدعوة ولَبَّين. فنزلت منزلة العاقل لقيامها بما يقوم به العقلاء.

---

(١) التحرير والتنوير: (٣/٣٨).

(٢) انظر مبحث (رب) فى دراسات جديدة فى اعجاز القرآن، مكتبة وهبة القاهرة.

* توكيد الخبر فى ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حكيمٌ﴾ لتنزيل سؤال إبراهيم عليه السلام: (**كيف تحيى الموتى**) منزلة المنكر بحسب الظاهر، وهذا من سنة العرب أن تهجر جانب المعنى - أحيانا - إلى جانب اللفظ، وتهجر جانب اللفظ - أحيانًا - إلى جانب المعنى حسب مقتضيات الأحوال.

* * *

٤١ - ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنَ تكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا من كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واحدة من مجموعة من الآيات، تبدأ من الآية الحادية والستين بعد المائتين، إلى الآية الرابعة والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة. موضوعها الحديث عن الإنفاق الطيب المرجو به وجه الله، وآدابه وفضائله، والإنفاق الذى لا يُرجى به وجه الله، وبواره وعقمه.

وقد صُدِّرتْ آيتنا هذه بهذا الاستفهام:

(**أيود أحدكم...**) وأخذت بعد ترسُم رسما رائعا: حديقة زاخرة بالثمار، تخللها الأنهار لتمدها بأسباب النمو والازدهار وتضفى عليها ألوانا من الجمال والمتعة.. فيكثر خيرها، وتمتع صاحبها.

هذه الصورة يدخل عليها هذا الاستفهام الاستبعادى لماذا؟ وهما مما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، وتثلج الصدور؟.

إنها مثل للحرمان بعد العطاء، وللشقاء بعد السعادة وللغم بعد السرور، وللترح بعد المرح. فقد بدأت الصورة تنعكس حين سلط القرآن الضوء على مالكها فهو قد بلغه الكبر فشاخ وخار، وله ذرية ضعاف كانت هذه الحديقة جنتهم فى دنياهم. وفى لمحة عين هب ريح مدمر، ملئ بالصواعق الحارقة، وفى لمحة العين أحال تلك الحديقة

الغنَّاء إلى كومة من الرماد القاتم، وذهب الأمل، وخيمت الخيبة. وعادت النار إلى قلوب مالكيها حسرة ولوعة، ودموعا تجرى كالأنهار. وما أشد الحرمان على النفوس بعد العطاء؟.

مثل رائع مضروب للدنيا الخداعة الماكرة فتعسا تعسًا للراكنين إليها، المخدوعين بها، الطامعين فيها. هذه النهاية، وليست البداية، هى التى اقتضت هذا الاستفهام: (أيود أحدكم. . .) وقال الشاعر:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها
شَرَكُ الردى، ومرارة الأكدار
إن أضحكت فى يومها أبكت غدًا
تبًّا لها من دار

والمفسرون يجمعون على أن الاستفهام هنا للإنكار والتحذير، ونكتفى بالإشارة إلى ما قاله الطاهر بن عاشور نيابة عنهم:

«والاستفهام فى قوله: **(أيود أحدكم)** استفهام إنكار وتحذير، كما فى قوله ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢][1].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية مجاز بالقطع لصدوره عن رب العزة العليم بذات الصدور، وكونه للإنكار والتحذير هو المتبادر من سياق الكلام، ولكن التنظير الذى عقده صاحب التحرير والتنوير بين الآيتين غير متكافئ. فآية البقرة تنكر شيئا محبوبا للنفوس لولا العاقبة الأليمة. أما آية سورة الحجرات، فالأظهر فيها أنها للتقرير لا للنفى، أى أنكم كما تكرهون أكل لحم إخوانكم ميتين، ينبغى أن تكرهوا اغتيابهم أحياء.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أيود أحدكم...)** ترقيق فى الخطاب، وتهيئة للذهن لفهم ما يقال والإقبال عليه، وتحريك للمشاعر، وبعث للنشاط، وإشراك للعقول فى تصور الحكم واعتناقه وهذه

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ٥٤).

العبارة أبلغ مـن أية عبارة بديلة لما فيهـا من تودد للمخاطب، وتتبُّع لـعقبى الكلام كيف تكون.

* إفـراد النخيل والأعناب لأنهـما من أجلِّ الـنعم التى تزخر بهـا الحدائق، وتقـديم النخيل على العنب لأن تمره أكثر فائدة وأطول بقاء.

* ترك العطف فى: (**تجرى..**) و (**له فيها**) لأنهما صفات للجنة مكملة لصورتها. وذكر (كل الثمرات) بعد النخيل والأعناب احتـراس بليغ لئلا يظن أنها لا تجود إلا بهذين النوعين من الفـواكه والثمـار. وإسناد الجرى إلى الأنهار وهو لـلماء مجـاز عقلى علاقته المكانية، ونكته البلاغية المبـالغة فى حركة جرى الماء حتى لكأن أماكن جريه هى التى تجرى.

* العطف بالفاء فى قوله: ﴿**فأصابها إعصار**﴾ تصوير لسرعة المـفاجأة المؤلمة. وكذلك فى (**فاحترقت**) بيان لسرعة فنائها وتدميرها.

والتنكير فى (**اعصار**) و (**نار**) للتهويل والتفظيع.

* ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الأيَاتِ**﴾ صورة تشبيهية كـثيرة الورود فى القرآن. المشبه به فيها مـا قبل الكاف وهو تبيين حقيـقة الحياة الدنيا فى المثل المضروب لسـرعة فنائها بعد ازدهارها، والمشبه هو تبيين جمـيع الآيات والمعانى (وذلك) مشار به إلى المشبه به، ناب منابه لفظا فى دخـول كاف الـتشـبيـه عليه: أى كـذلك التبـيين الواضح المضروب له المثل لازدهار الدنيـا وسرعة زوالهـا يبين الله لكم كل ما تحتـاجون فى شئون الدين والدنيا.

* ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ تعليل لتـبيين الآيات، ولـم يذكـر معـمول (**تتفكرون**) قصدًا لإفادة التعميم فيه ولأن هذه الطريقة - حذف المعمولات - سمة بيانية غالية فى لغة القرآن فى فواصل الآيات تحقيقًا للتناسق الصوتى، وتوسيعها لدوائر المعانى المرادة.

* * *

سورة آل عمران

١ - ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

الدراسة والتحليل:

هذه أول آية يأتى فيها الاستفهام فى سورة آل عمران، وقد جاء فى صدر الآية بعد أمر الله رسوله ﷺ: **(قل)**.

وخير فى قوله: **(بخير)** أفعل تفضيل، والمفضل عليه هو ما ذكر قبيل آيتنا هذه، وهو قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

أما المفضل فهو ما ذكر بعد جملة الاستفهام فى آيتنا. فالله عز وجل يوازن لعباده بين نِعَم الدنيا ونعيم الآخرة. نعم الدنيا هى المفضل عليه، ونعيم الآخرة هو المفضل، لأن الأول لا يُنال إلا بعناء ومشقة، ولا يخلو من الأكدار، وهو غير دائم لأنه لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يُفارق صاحبه، وإما أن يفارقه صاحبه، أما نعيم الآخرة فهو تكريم لمستحقيه بلا عناء، وخال من الأكدار ودائم لا ينقطع، فلا يُفارِق، ولا يُفارق. وتسأل لماذا صُدِّرتْ الآية بهذا الاستفهام، وما المراد منه؟.

والجواب: هذا الاستفهام مجازى قطعا، وللاستفهام المجازى طاقات هائلة يفجرها من خلال عرض الكلام، فأحيانا يسبق الكلام، وأحيانا يأتى فى عقبه، وأحيانا يتخلل

نظم الكلام. وهو فى كل هذه الأوضاع يغوص فى أعماق النفوس، ويثير فيها مشاعر فياضة، وأحاسيس متلونة، وهذا الاستفهام - كما قال الأئمة - المراد منه: التقرير والترغيب والتشويق(1).

فالتقرير؛ لأنه نبأ حقيق بأن يزف لمن يريد لنفسه الخير. والترغيب؛ لأن ما ذكر بعده فضل من الله عظيم، من حقه أن يتسارع المخاطبون فى تحصيله.

والتشويق؛ لأن المخاطب يتطلع وتتشوق نفسه لمعرفة ما سيذكر من نبأ هو الخير كل الخير. إنه - أعنى الاستفهام هنا - تمهيد وتنشيط للذهن، وتلهف لمعرفة عقبى الكلام كيف تكون، ولولاه لهجم الكلام على النفوس هجوما وهى ساهية غافلة، فلا يقع الكلام فيها موقعه مع الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قل)** هذا الأمر للإشعار بمزيد اهتمام للكلام المقول حتى لكأن ما ذُكر فى هذه الآية رسالة خاصة من الله لعباده ينبغى على رسوله ﷺ تأديتها فى الحال.
* إيثار **(بخير)** على ما أعده الله - مثلا - لما فى هذه العبارة من بشريات جليلة الشأن.
* فى التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد **(ذلكم)** تنويه بعظمة النعم التى أمدَّ الله بها عباده فى الحياة الدنيا وعلو مكانتها تنزيلا لبعد المكانة منزلة بُعد المكان. وفى هذا إلماح إلى أعظمية نعيم الآخرة، إذْ هو أعظم منزلة من نعم الدنيا المشار لعظمتها بـ **(ذلكم)** وفى ذكر ضمير الجماعة وهو الميم فى **(ذلكم)** تأكيد لأهمية هذا النبأ الذى قلنا إنه يشبه رسالة خاصة للعباد.
* وفى ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ احتراس لدفع توهم غير المراد لأن نعيم الآخرة مقصور على المتقين. وتوسيطه بين المفسَّر (بخير) والتفسير (جنات) مسارعة إلى تيئيس غير المتقين من هذا الفضل العظيم.

﴿جَنَّاتٌ تَجْرِى﴾ هذا، وما عطف عليه تفصيل للإجمال فى **(بخير)** نكتته البلاغية التشويق.

---

(1) ينظر تفسير أبى السعود: (2/ 14) الكشاف: (1/ 416)، والتحرير والتنوير: (3/ 184).

* التنكير فى (**جنات - أزواج - رضوان**) للتعظيم والتفخيم. وإضافة (**رضوان**) إلى (الله) زيادة فى التعظيم والتفخيم.

* ووضع المظهر (الله) بدل المضمر (هو) وتكرار الإسناد إلى المسند إليه مرة، وإلى الصفة المشبهة (بصير) إذ التقدير: بصير هو، نكتته البلاغية توكيد النسبة وتربية المهابة فى نفوس المخاطبين. فالله يعلم من يستحق هذا الفضل فيوفيه حسابه، ومن لا يستحق فلا يبوء إلا بالحرمان.

* * *

٢ - ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

الدراسة والتحليل:

هذا توجيه من الله لرسوله، فى كيفية معاملة اليهود والمشركين من العرب. وذلك أن الإعلام بأن الدين عند الله هو الإسلام يغضب أهل الكتاب، وقد يجادلون النبى ﷺ فى شأن هذا الإعلام الشامخ، ومشركو العرب ما يزالون حتى وقت نزول هذه الآية يرفضون الإسلام، ولما يهتدوا إليه بعد. بل كانوا يعيشون مع اليهود فى معسكر عدائى واحد ضد الإسلام.

وما سار عليه معظم الأئمة يفيد أن الاستفهام فى هذه الآية حقيقى، يراد منه وقوف علم النبى على حالهم بعد أن ظهرت لهم الدلائل والقدوة الحسنة بإسلام النبى ﷺ - ومن معه - لله. أى: هل حدث منكم الإسلام[(١)].

والإمامان أبو حيان والألوسى يحملانه على التقرير المتضمن للأمر[(٢)] أى أسلموا.

أما ابن عاشور فيرى أن الاستفهام مستعمل فى الاستبطاء والتحضيض[(٣)].

والخلاصة: أن جماع الأمر أن يقال: إن الاستفهام - هنا - مجازى مراد منه الأمر،

---

(١) الكشاف: (١/ ٤١٩) وتفسير أبى السعود: (٢/ ١٩).

(٢) البحر المحيط: (٢/ ٤١٣) وروح المعانى: (٢/ ١٠٨).

(٣) التحرير والتنوير: (٣/ ٢٠٢).

أى أسلموا. بدليل قوله عقيبه ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا. .﴾ فإن ضممنا إليه الحث كان حسنا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* وضع المضمر، وهو واو الجماعة الفاعل فى (حاجُّوك) موضع المظهر، وهو نصارى نجران واليهود، ليدخل كل خصوم الإسلام فى حيز هذه المحاجة ولو ذُكر المظهر لوقف الكلام عندهم. فكان الاضمار أبلغ لتكثير المعنى.

* ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِي﴾ فى التعبير بالوجه مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأن المراد: أسلمت ذاتى. وخُص الوجه لشرفه، ولأن وضعه على الأرض فى السجود أعظم العبادات.

* ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كناية عن اليهود والنصارى، أى عن موصوف ومن أبلغية هذه الكناية: التوصل إلى ذكر إتيان الكتاب، «وهو وصف ممهد لحصول الإسلام، وإلا كانت المخالفة عظيمة لرفض الحق وهم يعلمون صدقه من كتبهم. أما لو قيل: اليهود والنصارى لخلا المقام من وصفهم بالعلم بالحق الذى يرفضونه، وفى ذلك مبالغة لإدانتهم والتسجيل عليهم بالعناد.

* فى التعبير بـ (**الأميين**) تكثير للمعنى، ليدخل تحت هذا الوصف كل مَنْ لم يكن لديه كتاب من الله، عربا، وغير عرب. ولو قيل لمشركى العرب لوقف الأمر عندهم.

* فى إيثار الماضى: (**أأسلمتم**) بدل المضارع: «أتسلمون» إيماء إلى أن هذا الوصف من حقه - لوضوح آياته - أن يُسارع إليه ولا يُتلكأُ فيه، فكأنه يسأل عن أمر قد تحقق لدى المخاطبين.

* فى (**تولوا**) استعارة تصريحية تبعية حيث استعير التولى وهو الفرار الحسى المصحوب بسرعة السعى، للإعراض القلبى عن الإسلام. مبالغة فى تصوره، وإظهاراً للمعنوى فى صورة المشاهد المحسوس لشدة كفرهم بالإسلام ونفورهم عن الانقياد له.

* * *

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

الدراسة والتحليل:

هذا عود إلى الحديث عن مخازى اليهود، بعدما أفاضت سورة البقرة فى الحديث عنهم. وقبيل هذه الآية تحدثت سورة آل عمران عن اليهود بأوصافهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

ثم التفت سبحانه وتعالى من الإخبار عنهم إلى خطاب صاحب الرسالة ﷺ، ثم استأنف الإخبار عنهم بعد عنوان جديد أطلقه هو: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

والاستفهام كما تقدم مراراً هو للتقرير والتعجيب عند جميع الأئمة، فلا نشغل أنفسنا بالمنقول عنهم فيما ليس فيه جديد وهذه خلاصة ما يقال فيه:

كل استفهام دخل على نفى، فهو لنفى ذلك النفى فيعود النفى إثباتا. وهذه قاعدة مطردة فى هذا النوع من الاستفهام كقول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يعنى: ربيناك.

هؤلاء اليهود - على رغم ما عندهم من بينات على صدق القرآن - إذا دعاهم الدعاة إلى الخضوع لما أنزل الله فى القرآن أعرضوا ونفروا وكان النصيب الذى لديهم من وحى الله كفيلاً بأن يكون هاديا لهم فيسارعوا إلى الإيمان به، وبعض المفسرين يقول: «يدعون إلى كتاب الله - أى إلى التوراة. وهذا ليس مقبولاً؛ لأن من يقول به يحصر الاحتكام إلى بضع مسائل كرجم الزانى المحصن، بينما محل قوله تعالى: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ على القرآن هو المتبادر إلى الفهم، المطابق للواقع وهو رفض اليهود للإسلام جملة وتفصيلا، المعبَّر عنه فى القرآن بـ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ولا يعترض علينا بمفهوم المخالفة - هنا - إذ يلزم عليه تولى فريق منهم وإيمان فريق آخر، لأن الآية التى ذكرت بعدها مباشرة تفيد - بالقطع

- أن هذا التولى هو موقف اليهود كلهم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فهذه أخلاق جميع اليهود لا فريقٍ واحد منهم، أما إسناد التولى إلى فريق منهم، فيُحمل على علمائهم، وعامة اليهود تبع لهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

الجدير بالعناية من أسرار النظم فى هذه الآية - لأنه جديد - هو قوله تعالى:

* ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وكان القرآن يطلق عليهم من قبل: (أهل الكتاب) و(أوتوا الكتاب) فلماذا عبَّر هنا بـ (نصيبًا) ولم يقل: **(أوتوا الكتاب)**؟ الذى هدانا الله إليه أن التعبيرين مختلفان فى المعنى: فـ **(أوتوا الكتاب)** الألف واللام فيه للعهد، أى الكتاب المعهود وهو التوراة والإنجيل، أما **(أوتوا نصيبا من الكتاب)** فمعناه من الوحى. فأل فيه لتعريف الجنس. لأنهم فعلا أوتوا بعض كلام الله فحرفوه، ولم يؤتوا كلام الله كله. بدليل ما اشتمل عليه القرآن من حقائق الإيمان والأحكام والتوجهات والقصص مما ليس له وجود فى كتاب سماوى قبله. وإيثار التعبير بنصيب من الكتاب هنا هو مقتضى الحال فى بلاغة الاعجاز، أى أن ما لديهم من وحى ليس كافيا فى هدايتهم إلى الحق الكامل، ومع ذلك رفضوه ولو قيل: أوتوا الكتاب لكان لهم عذر بأنهم ليسوا فى حاجة إلى غيره فما أبلغ هذا الكلام.

* * *

٤ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

الدراسة والتحليل:

وهذا تعقيب من الله العلى القدير على رفض اليهود للإسلام وهم يعلمون أنه الحق، وعلى افترااءاتهم المتكررة على الله عز وجل وتصدرت الآية بهذا الاستفهام:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ والاستفهام بـ (كيف) سواء كان حقيقيا

أو مجازيًا يكون عن الحال. وهو - هنا - مجازى لأنه صادر عن الله، والله لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

يقول الإمام جار الله الزمخشرى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ فكيف يصنعون؟ فكيف تكون حالهم؟ وهو استعظام لما أُعِدَّ لهم وتهويل له»[1].

ويتابعه أبو السعود: «... وهو لرد قولهم المذكور وإبطال لما غرهم فى دينهم باستعظام ما سيدهمهم، وتهويل ما سيحيق بهم من الأهوال»[2].

وكذلك الألوسى: «استعظام وتهويل وهدم لما استندوا إليه»[3].

ويقول ابن عاشور: «والاستفهام هنا مستعمل فى التعجيب والتفظيع مجازًا»[4].

والخلاصة: هذا الاستعظام والتهويل الذى نص عليه الأئمة ينبغى أن يضم إليه التعجيب من حال هؤلاء القساةُ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* كل الأخبار التى احتواها النظم الحكيم فى هذه الآية مراد منها التهديد لمن حارب الله ورسوله وكفر بالحق، وتقرير عدالة الله المطلقة فى قضائه. والتعبير بـ (إذا) لحتمية ذلك اليوم المجموع فيه الناس وقوله: **(لا ريب فيه)** توكيد لمعنى إذا وهو تحقيق الوقوع.

* * *

٥ - ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واحدة من جملة آيات تتحدث عن وقائع من أخريات تاريخ بنى إسرائيل، قبيل ميلاد عيسى عليه السلام آخر أنبيائهم. وآيتنا هذه تتحدث عن نشأة

---

(١) الكشاف (١/ ٤٢١)

(٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢١).

(٣) روح المعانى: (٣/ ١١١).

(٤) التحرير والتنوير: (٣/ ٢١١).

مريم البتول أم عيسى عليه السلام وهى فى كفالة زكريا عليه السلام.

والواقع أن الكافل هو الله، فقد أمدَّ - بفضله وكرمه - مريم بخير كثير دائم، لم يعرف له زكريا مصدراً من الناس. وحين سألها عن مصدره أجابت فأجادت واقنعت: (هو من عند الله).

أما سؤال زكريا عليه السلام فجاء بهذه الصياغة: (**أنَّى لك هذا**) وهو استفهام من بشر إلى بشر، وفى هذا الاستفهام يقول المفسرون:

- الزمخشرى: ﴿**أنَّى لك هذا**﴾ من أين لك هذا؟»[1].

- أبو السعود: (**أنى لك هذ)**؟ من أين يجئ لك هذا الذى لا يُشبه أرزاق الناس»[2] وتابعهما الألوسى[3].

- ولم يخرج الطاهر عما قالوه إذ يقول: «وأنَّى استفهام عن المكان. أى من أين لك هذا؛ لأنه فى غير إبَّانه، ووقت أمثاله»[4].

والخلاصة: الأئمة وقفوا بالاستفهام - هنا - عند معناه الحقيقى، وهو طلب فهم المكان أو المصدر الذى يأتى منه الرزق لمريم، ولم يضيفوا إليه معنى آخر، ولكن المقام يقتضى أن يكون هذا الاستفهام مشوبا بالتعجب مضموما أو متولداً عن معناه الحقيقى.

وبخاصة أن أصحاب السير يقولون: إن زكريا كان يجد عندها ألوانا من الفاكهة فى غير أوانها، وهى صغيرة منعزلة فى محرابها لا تعمل ولا تتصل بأحد. فليس سؤال زكريا مجرد سؤال عن مصدر الرزق، ولكنه ممزوج بالدهشة والاستغراب. وأى عاقل لو كان مكان زكريا لشعر نفس شعوره، لذلك نجزم بأن هذا الاستفهام حقيقى مشوب بالتعجب والدهشة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الفاء فى (**فتقبلها**) للإيذان بسرعة استجابة الدعاء، والتضعيف فى (**تقبلها**) بدل

---

(١) الكشاف (١/ ٤٢١)

(٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٣٠).

(٣) روح المعانى: (٢/ ١٤٠).

(٤) التحرير والتنوير: (٣/ ٢٣٧).

(**قَبِلها**) للإيذان بجلالة شأن «القبول» من حيث «الكم» وكون الفاعل «ربها» لما فيه من حسن الرعاية وكرم الولاية، ودخول الباء على (قبول) لتوكيد الصلة بين الفعل (تقبل) ومصدره المبين لنوعه (قبول).

* ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ من عطف الخاص (الكفالة) على العام (التَّقَبُل) وفى هذا العطف توطئة لما بعده.
* و(**كلما**) استئناف لتفصيل بعض ما أجمل فى التقبل الحسن من وجدان الرزق عند مريم، وهى تفيد الحصر وأن زكريا ما دخل على مريم إلا وجد عندها ما تحتاج من طعام وشراب.
* وتنكير (**رزقا**) للتنويه بشأنه كمًّا ونوعاً.
* ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ﴾ استئناف بيانى مرتب على سؤال مقدر: ماذا قال زكريا؟.
* ذكر المسند إليه فى الجواب: (**هو من عند الله**) بدل (من عند الله) لما فى ذلك الرزق من شأن فى حياة مريم وحضوره فى ذهنها عرفانا به وشكرا لموليه.
* ﴿إِنَّ اللهَ يَرزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تزييل مقرر ومؤكد لمضمون الكلام المذكور قبلها. وتوكيد الخبر (**إن الله**) ليكافئ الدهشة والتعجب فى سؤال زكريا عليه السلام. وتكرار الإسناد فى الجملة مرة إلى المسند إليه وأخرى إلى الفاعل الضمير العائد على المسند إليه، لما مر من مكافأة ما فى السؤال من تعجب ودهشة، ولأن مضمون الجملة حقيقة عظيمة، ومن حق الحقائق العظيمة أن يُعبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها.

* * *

٦ - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية فى سياق الحديث الاستطرادى عن زكريا عليه السلام، فقد كان - رأى لطائف الله مع مريم، وتوفير الرزق لها فى عزلتها بتدبير إلهى خالص، ليس

لبشرى فيه نصيب، فملأ الأمل قلبه فدعا ربه قائلا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وبعد هذا التـضرع نادته الملائكة، وبشرته بـ (يحـيى عليه السلام).

وقد تكرر استـفهامه مرة أخرى. ففى الآية الـسابقة قال: ﴿..**أنَّى لك هذا**﴾؟ وهنا قال: (**أنَّى يكون لى غلام**)؟ والاستفهامان معناهمـا واحد. معنى الاستفهام الأول هو السؤال عن مـصدر الرزق الذى يجهله. ومـعنى هذا الاسـتفهـام السـؤال عن كينونـة الغلام له مـع انتـفـاء أسـباب الانجـاب مع اليقـين التـام بصـدق البـشارة بالغلام، فهو استفـهام حقيقى مشوب بالتعجب من طلاقـة قدرة الله. هـذه خلاصة ما يقـال فى هذا الاستفهام، وحمله على الاستـبعاد - كما ذهب الزمخشرى[1] لا يليق، لأن الأنبياء لا يرتابون فى كلام الله، وقـد رفض أبو السعود هذا الـرأى[2]. أما الألوسى وابن عاشور فهو عندهما للتعجب من كمال قدرة الله، ولم يبينا هل هو حقيقى - أى الاستفهام هنا - أم مجازى. وعلى كل لم يقل أحد منـهـما بالاستبعاد مثـل صاحب الكشاف[3].

وللثلاثة - غير صاحب الكشاف- زيادة أخرى معناها يرجع إلى التعجب والدهشة عند زكريا، وإن كانت العبارات متباينة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* العطف بالفـاء فى (فنادته) على ما قـبله (رب هب لـى) إشارة إلى سرعـة إجابة الدعاء. وهذا يدفع قول بعض المفسـرين أن زكريا نسـى دعاءه بالذرية، وكان وقت الدعاء قـادرًا على الانجاب، لذلك اسـتـبعد الانجـاب بعد ستين سنة من حـصول الدعاء، وقد تقـدم أنه لم يستبعد على قـدرة الله شيئا، ولكن قوة المفاجـأة أزهلته فاستفهم متعجبا مع سؤاله عن كينونة الغلام مع قيام موانع الإنجاب.

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٢٩). (٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٣٣).

(٣) انظر روح المعانى (٢/ ١٤٩)، والتحرير والتنوير: (٣/ ٢٤١).

فإن قيل: كيف يدعو ثم يتعجب من حصول ما دعا به؟ قلنا: إنه - عليه السلام- لما رأى خوارق العادة فى رزق مريم طمع فى الإنجاب إذ ليس على الله بمستحيل، ولما بُشّر بما دعا به أزهلتـه المفاجأة. وهذا لا يقدح فى منزلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

* فى التعبير بـ (**بلغنى**) وهو جملة فعليه للدلالة على أن الكِبَر طرأ عليه بعد قوة وفتوة. وفى التعبير عن امرأته بالجملة الاسمية: (**وامرأتى عاقر**) للدلالة على أن عقر امرأته صاحبها منذ بلوغها مبلغ النساء ولم يطرأ عليها.

* ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشاءُ﴾ صورة تشبيهية المشبه به اسم الاشارة (ذلك) والمشبه هو فعل الله كل ما يشاء من الأفعال: والتقدير مثل ذلك الفعل، وهو خلق الله ولدًا من عجوزين فى طلاقة القدرة عليه يفعل الله كل ما يريد. والتعبير باسم الاشارة «ذلك» للإشعار بفخامة المشار إليه من كونه إحدى المعجزات.

* * *

٧ - ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تحكى واقعة شبيهة بالواقعة المحكية عن زكريا عليه السلام ويكاد يكون الشبه كاملاً، لولا أن واقعة زكريا فيها طرفا الإنجاب (الأب والأم) وواقعة مريم رضى الله عنها فيها طرف واحد للإنجاب (الأم) ولا أبًا فيها. وكلاهما: زكريا ومريم قال حين بُشِّر بالإنجاب (**أنى يكون لى..**).

وهذا الاختلاف فى الواقعتين من حيث طرفا الإنجاب. فإن توجيه الاستفهام من حيث الحقيقة والمجاز، والمراد من كل منهما.

فقد رفضنا مع بقية الأئمة من قبل أن يكون استفهام زكريا للاستبعاد. أما استفهام مريم فهى لم تكن نبية ولم تكن لها صلة بتكليم الملائكة فى مثل هذه الأحوال، ولذلك لا حرج فى حمل كلامها على الاستبعاد أو الإنكار، حتى مع إسناد الملائكة

أمر البشارة إلى الله؛ ولان الولد الذى بشرت به من غير أب لم يكن له سابقة، فهى معذورة من هذه الناحية.

وعلى الاستبعاد حمله أبو السعود [1]. أما الألوسى فجوز فيه الاستبعاد مع التعجب. كما جوز أن يكون الاستفهام حقيقيًا بمعنى: ممن من الأزواج ألد[2]. وهذا احتمال ضعيف كل الضعف؛ لأنها - رضى الله عنها - ذكرت سبب استبعاد الإنجاب.

أما ابن عاشور فهو عنده للإنكار والتعجب[3]. وهذا محتمل وإن كان الاستبعاد أخف من الإنكار.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام الصادر عن مريم رضى الله عنها لاستبعاد الإنجاب - مطلقًا - من طرف واحد من طرفى الإنجاب. ثم التعجب من أن يكون ذلك كائنًا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فصل جملة **(قالت)** عما قبلها للاستئناف البيانى، كذلك فصل جملة **(قال)** فى الرد عليها.
* المسيس فى قولها **(ولم يمسسنى بشر)** إما كناية عن النكاح أو استعارة تصريحية تبعية شبه فيها النكاح بالمس لملاقاة جسم لآخر فى كل، والسبب فى العدول عن النكاح إلى المس حياؤها وعذرتها.
* التشبيه فى **(كذلك)** كنظيره المتقدم فى الرد على زكريا عليه السلام.
* إيثار الإطناب فى الرد على مريم: **(كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون)** للمكافأة بين شدة إنكارها وما بنته عليه من أسباب، وبين الجواب المزيل لذلك الإنكار.

* * *

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٣٨).
(٢) روح المعانى: (٢/ ١٦٤).
(٣) التحرير والتنوير: (٣/ ٢٤٨).

٨ - ﴿فَلَمَّا أحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ، قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

الدراسة والتحليل:

دعا عيسى عليه السلام بنى إسرائيل إلى الله، وجاءهم بالبينات فعتوا عن أمر ربهم. وظهر كفرهم بجلاء، فأطلق عيسى عليه السلام هذا النداء:

(**من أنصارى إلى الله**) وهو استفهام حقيقى مطلوبه أن يتبين عيسى من آمن برسالته حق الإيمان، وأخلص له كل الإخلاص. فأعلن الحواريون أنهم أصحاب تلك الصفة، وكانوا أصفياءه ومؤيديه. وليس للأئمة فى هذا الاستفهام توجيه لظهور معناه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**أحسَّ**) استعارة تصريحية تبعية، والإحساس هو الإدراك الذى طريقه الحواس الخمس: السمع، البصر، الذوق، اللمس، الشم. استعير الإحساس للعلم القوى الظاهر بدلائله، استعارة محسوس لمعقول، ومغزاها البلاغى الإشارة إلى أن عيسى ثبت عنده العلم بكفر بنى إسرائيل ثبوتًا كاد - لشدة ظهوره - يُرى بالعين الباصرة.
* (**قَالَ الحَوَارِيُّونَ**) فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها استئناف بيانى كما مرَّ.
* تقديم (**نحن**) على (**أنصار**) لمطابقة الجواب السؤال لأن السؤال بدأ بـ (مَنْ) وهو الذات الموصوفة. فجاء الجواب (**نحن**) لتتم المطابقة بتقديم الذات على الوصف فى السؤال والجواب. ويحتمل مع ذلك القصر: نحن لا غيرنا أنصارك إلى الله.

* * *

٩ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٦].

الدراسة والتحليل:

فى سورة البقرة واجه القرآن دعاوى كثيرة باطلة، لأهل الكتاب، وبخاصة اليهود. ومن أخطر تلك الدعاوى دعواهم بأن الأنبياء السابقين أدعى اليهود أنهم كانوا يهودًا.. وهنا فى آل عمران اشترك النصارى مع اليهود، فى دعوى أن إبراهيم كان يهوديًا حسب زعم اليهود، وكان نصرانيًا حسب زعم النصارى. وقد دحض القرآن هذه المزاعم بدليل عقلى. **حاصله**: كيف يكون إبراهيم عليه السلام يهوديًا ولم يكن لليهودية وجود لا قبله ولا فى عصره؟ وكيف يكون نصرانيًا ولم يكن للنصرانية وجود لا قبله ولا فى عصره. وقد عبّر القرآن عن هذين المعنيين بأن التوارة والإنجيل، وهما أصلا اليهودية والنصرانية لم ينزلا إلا بعد عصر إبراهيم بوقت طويل. إن مدعى هذه الدعاوى حرى بأن يكون لا عقل عنده.

ثم يقرر القرآن أن إبراهيم كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين.

وقد ورد فى هاتين الآيتين ثلاثة استفهامات: **(لم تحاجون)** مرتين . **(أفلا تعقلون)** مرة واحدة.

وفى المراد من هذه الاستفهامات يقول الزمخشرى: إن الاستفهام الأول **(لم تحاجون فى إبراهيم)** للتعجب من حماقة اليهود، ويسكت عن الثانى والثالث[(١)].

والألوسى يضرب صفحا عن الأول والثالث ويقول إن الثانى **(أفلا تعقلون)** للتعجيب من حالهم وتجهيلهم[(٢)].

وأبو حيان يرى أن الاستفهام الأول **(لِمَ تحاجون فى إبراهيم)** والثالث **(فلم تحاجون)** للإنكار، أما الثانى **(أفلا تعقلون)** للتوبيخ على استحالة مقولتهم[(٣)].

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٣٦). (٢) روح المعانى: (٣/ ١٩٤). (٣) البحر المحيط: (٢/ ٤٨٥).

والخلاصة: كثير من الأئمة لم يصرحوا بالمراد من الاستفهامات الثلاثة، والذى نراه هو الآتى:

* الاستفهامان اللذان أداتهما (ما) للإنكار والتسفيه لظهور بطلان الدعوى فى الأول. والحماقة فى الثانى لأن الرشيد لا يخاطر بنفسه فيما لا علم له به.

* أما الثانى (**أفلا تعقلون**) فهو للتوبيخ والتجهيل، لأن كمال العقل ينأى بصاحبه عن هذا الخطل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* نقف تحت هذا العنوان عند لمحة واحدة، هى الجملة الاستفهامية فى (**أفلا تعقلون**) ونسأل لماذا أوثر التعريض بنفى العقل هنا على ماسواه من الصيغ البديلة كنفى العلم أو الشعور مثلاً؟ والجواب إن البرهان الذى استخدمه القرآن فى إبطال دعواهم برهان عقلى، لو كانوا تدبروه لردهم العقل إلى الصواب ولكنهم تمادوا فى الدعوى مهدرين لحكم العقل فصاروا فاقديه.

* * *

١٠ - ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ. * يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[آل عمران: ٧٠ - ٧١].

الدراسة والتحليل:

بعد الجولات التى واجه فيها القرآن أباطيل أهل الكتاب فى دعوى يهودية إبراهيم عليه السلام، واجههم - هنا - فى هاتين الآيتين مواجهة عامة. فأهل الكتاب لا يؤمنون بآيات الله وهم شاهدون على صدقها. وهم دائمًا يخلطون الباطل بالحق، ليطمسوا معالم الحق. فإذا لم يمكنهم تسوية الحق، ولا طمس معالمه لجأوا إلى حيلة أخرى، هى كتمان الحق وإعدامه كأنه لم يكن. وفى هذين الاستفهامين: (**لِمَ تكفرون..**) و (**لمَ تلبسون..**) ردَّ الله كيدهم فى نحورهم وفضحهم على رءوس الأشهاد.

لم يهتم المفسرون القدامى ببيان المراد من الاستفهام فى الموضعين. أما الشيخ ابن

عاشور فقال: إنه للإنكار[1] ولم يضف إليه شيئًا.

والخلاصة: أن كل استفهام كانت الأداة (لِمَ) وهى مركبة من لام الجر وما الاستفهامية. إذا كان الاستفهام حقيقيًا كان للسؤال عن السبب، مثل: لِمَ قدمت؟ فهو للاستفهام عن السبب الحامل على القدوم. وإذا كان مجازيا - كما فى الآيتين - كان لإنكار سبب الحدث. وما قاله ابن عاشور هو عين الصواب. بيد أننا نضيف إليه معنى آخر هو التوبيخ. أى أن الله أنكر كفرهم بالحق وخلطه بالباطل وكتمانه، ثم وبخهم عليه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار (لِمَ) من بين أدوات الاستفهام فى الموضعين للمبالغة فى شدة الإنكار والتوبيخ المراد من الاستفهام لأن (لِم) لنفى السبب وإنكاره، ونفى السبب يستلزم نفى المسبب، أى ليس لكفرهم بآيات الله وخلطهم الحق بالباطل وكتمهم الحق أسباب. وهذا من قبيل الكناية التى اقترفت الدعوى فيها بالدليل.

* وإيثار المضارع فى الجرائم الثلاث: **(تكفرون - تلبسون - تكتمون)** للإشعار بأن هذه الجرائم دأبهم وعادتهم يغدون فيها ويروحون ويتقلبون فيها حالاً إثر حال، ولو عُبِّر فيها بالماضى لاحتمل اقترافهم لها ثم توبتهم منها.

* فى جملتى الفاصلتين **(وأنتم تشهدون)** - **(وأنتم تعلمون)** تشنيع عليهم، وقطع الأعذار عنهم فيما يرتكبونه من جرائم. فعصيانهم عصيان العالم بقبح معاصيه، ولو كانوا غافلين أو جاهلين لكانوا معذورين، ولكنهم - وهذه حالهم - متعمدون للمعاصى مصرون عليها.

* التعبير بـ **(آيات الله)** دون (التوراة والإنجيل) إشارة إلى أن كفرهم بالحق يتناول كل حق وكل وحى، فكفرهم بالتوراة والإنجيل لأنهم لم يؤمنوا بخاتم الرسل وهم يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، وكفرهم بالقرآن لأنهم لم يتبعوه وما بين أيديهم من كتب سماوية تلزمهم بالإيمان به. فهم كافرون بكل وحى. كاتمون لحق حق.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ٢٧٩).

١١ - ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية مباشرة ورد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُم تَدْرُسُونَ﴾.

والآيتان تحذران من عبادة غير الله، سواء كان السبب فى نزولهما سلوك اليهود - وهو الأظهر - أو جهلاً من بعض المسلمين بالغ فى تعظيم النبى ﷺ، أو إستأذنه فى تلك المبالغة[1].

والنفى عام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فلا ولاء إلا لله سبحانه، ولا خضوع لغيره. وفى ختام الآية ورد هذا الاستفهام: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

والأئمة على أن الاستفهام مجازى - لصدوره عن الله - معناه الإنكار[2].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام إنكارى شديد الإنكار باعتبار متعلقه، وهو الكفر، ولم يبين الأئمة من أنكر الله عليه هنا، وإن المتبادر إلى الفهم أنهم المخاطبون ويكون المراد من الإنكار حينئذ تحذيرهم من طاعة من يأمرهم بهذا الكفر، ونحن نرى أنه إنكار كذلك على من يأمر بهذا الكفر، أى الفاعل فلا ينبغى لبشر أن يأمر بالكفر، ولا أن يطيع الآمر به إذا حدث.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تقديم **(الملائكة)** على **(النبيين)** فى التحذير من اتخاذ أنداد من دون الله، لأن احتمال اتخاذ الملائكة أربابًا أدخل إلى النفوس، لاختلاف طبيعتهم عن طبيعة البشر.
والتعبير بـ (النبيين) دون: المرسلين لأن كل رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً. فلو قيل فى هذا الصدد **(والمرسلين)** لوقع فى الوهم أن المحظور هو اتخاذ الرسل أربابًا،

---

(١) تُنظر كتب التفسير فى سبب نزول الآيتين. (٢) الكشاف (١/ ٤٤٠) روح المعانى (٣/ ٢٠٨).

أما النبيون فلا، لأن التحذير لم يشملهم فدُفع هذا التوهم بذكر (النبيين) لأنه يشمل الرسل والنبيين جميعًا.

* وجملة الفاصلة: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ زيادة فى تقبيح الأمر بالكفر بعد تحقيق الإسلام وثبوته فى قلوب المخاطبين. وهذا الثبوت دُلَّ عليه بالجملة الاسمية **(بعد إذ أنتم مسلمون)**.

* * *

١٢ - ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

الدراسة والتحليل:

بعد الذى تقدم من منازعة أهل الكتاب فى التزوير على الأنبياء ونسبتهم إلى ما لا تصح نسبتهم إليه، وإظهار الإيمان بفريق والكفر بفريق آخر، بعد ذلك جاءت هذه الآية تبرز حقيقتين جليلتين **إحداهما:** أن أنبياء الله ورسله كلهم سواء فى وجوب الإيمان، لأن بعضًا منهم يكمل بعضًا آخر، اللاحق يكمل السابق، وأن الحق الذى جاءوا به واحد، هو الدعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له والإيمان بكل ما أنزل عليهم.

والحقيقة بيان منزلة خاتم الرسل ﷺ، وأن جميع الأنبياء والرسل الذين بعثوا قبله كانوا يؤمنون به، وأن رب العزة قد أخذ عليهم الميثاق بنصرته والأنضواء تحت لواء رسالته إذا بعث ومنهم أحد حى. وأنهم أعطوا الله هذا الميثاق وأقروه وشهد الله عزوجل عليهم وأمرهم بأن يشهدوا كما شهد هو جل شأنه.

وقد ورد فى هذه الآية هذا الاستفهام: **(أأقررتم؟ قالوا: أقررنا)**.

ولم نر أحدًا من الأئمة أشار إلى المراد منه لوضوحه،

والخلاصة: أنه استفهام تقريرى استيثاقى. ولذلك أجابوا قائلين: أقررنا.

أسرار النظم وبلاغياته:

وظيفة النظم فى هذه الآية هى بيان أخذ الميـثاق ثم تفخيم شأنه، ووصف الرسول الذى أخـذ من أجل الإيمان به ونصرته الميـثـاق. وقد وفَّى النظم بهـذا الأمر أجـمل وأكمل ما يكون الوفاء.

* فقد عُبِّر عن حصول الميثاق بالأخذ إظهارًا له وتمكينًا منه تمكُّن الآخذ من المأخوذ.

وزيد هذا التمكن قـوة وشرفًا بأن فاعلـه هو (الله) هذا الاسم الأعظم الجامع لكل صفات الجلال والكمال والجمال.

ثم زيد شرفًا بأن المعطى لهذا العهد هم (النبيون أكرم البشر عند الله) وجمعوا جمع «العاقل» لأن العهود والعـقود يتطلب فيها سلامة كل أطرافهـا من العيوب القادحة فى «الأهلية» ثم جاء تـنكير (رسول) والمراد به محمـد ﷺ - للدلالة على التعظيم والتفخيم بما حباه الله من فضله.

وهذا الميثاق أخذ من النبيين، وقد صـفت أنفسهم به وسخت لما بيَّن الله لهم فضله عليهم من الكتاب المعصوم والحكمة البالغة فأعطوا فى يقين وثبات.

* ومن سمات التفخـيم والتعظيم توكيد فِعْلَى الإيمان (لتؤمنن به) والنصر (ولتنصرنه) بلام التوكيد ونونه الثقيلة.

ثم إعلان الإقرار به قوليًا وبعد رسوخه قلبيًا: قالوا: أقررنا.

* ثم شهادة الله العظيم على هذا الميثاق الفخيم، وشهادة نبييه الكرام البررة.

ثم أخذ النبيين عهد ربهم على هذا الميثاق الجليل الشأن.

* وفى هذا كله تعريض بأهل الكتاب الذين أعرضوا عن الإيمان بهذا الرسول الكريم، الذى تجمعت فى رسـالته كل حقائق الإيمان. وآمنت به كل رسـل الله المبعوثين من قبل آمنوا به غيبًا، وأهل الكتاب كفروا به شهادة وغيبًا فما أبعدهم عن الهدى، وما أطوعهم لدعاوى الشيطان الذى يدعو حزبِه ليكونوا من أصحاب السعير.

* * *

١٣ - ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

الدراسة والتحليل:

هذا الاستفهام جاء فى أعقاب ما أشير إليه من قبل من محاولات التنصل من دين الله، فقبل هذه الآية حكم عام على كل من يعرض عن هدى الله ورسوله:

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ ثم جاء الاستفهام: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾.

والأئمة مجمعون على أنه استفهام إنكار وتوبيخ فالزمخشرى يقول: «دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة والمعنى: فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون. ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: «أيقولون فغير دين الله يبغون»[(١)].

وهذا عود منه إلى مذهبه فى هذا التركيب وأمثاله هاجرًا مذهب الجمهور القائل بأن الهمزة مقدمة من تأخير كما تقدم.

والألوسى سلك مسلك الزمخشرى، ونقل مواقف بعض العلماء من مذهب الزمخشرى، الذين رأوا فيه تكلفا لا وجه له[(٢)].

والحق ما قالوه، ومذهب الجمهور أسلم فيما نرى ولم يخرج الإمام أبو السعود عما قاله الزمخشرى[(٣)]. أما ابن عاشور فعبارته فيه: «والاستفهام للتوبيخ والتحذير».

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية إنكار على من يبغى دينا غير دين الله. أما التوبيخ والتحذير فتابعان للإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* السر فى تقديم المفعول **(غير)** على عامله **(يبغون)** لأن المفعول هو محط الإنكار.

والقاعدة المطردة عند البلاغيين أن الذى يلى أداة الاستفهام هو المسئول عنه فى الاستفهام الحقيقى، والمنكر أو المقرر به فى الاستفهام المجازى. وبهذا نزل القرآن.

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٤١). (٢) روح المعانى: (٣/ ٢١٣). (٣) التحرير والتنوير: (٣/ ٣٠٠).

* وتقديم الجار والمجرور فى **(وله)** على الفعل **(أسلم)** لإفادة الاختصاص، أى: أسلم له لا لغيره، وهو قصر حقيقى.

* فى الجمع بين **(طوعا وكرها)** طباق إيجاب، وتقديم (طوعا) على (كرها) لما فيه من فضل الانقياد الإرادى على الذى لا إرادة للمنقاد فيه. ولست مع الزمخشرى الذى فسَّر (كرها) بالسيف. والذى هدانا الله إليه هو أن (طوعا) عنوان الأعمال الصالحة التى فيها للإنسان إرادة، أما (كرها) فهو خضوع الخلق لسنن الله فيهم كالمرض والصحة، والفقر والغنى والإحياء والإماتة: أى أن الخلق مقهورون لله فى هذا المجال بدليل العطف بالواو دون (أو) ومثلها آية الرعد[1].

* * *

١٤- ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية قوله تعالى: **(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين)** فالدين عند الله الإسلام، واليهود والنصارى صنعوا لهم دينا غير الذى أنزله الله، ثم تمسكوا بذلك الباطل أمام الإسلام. منهم من ضل عن علمٍ، وهم اليهود، ومنهم من ضل عن جهل، وهم النصارى فمنع الله عنهم ألطافه لعنادهم وكبريائهم. وسجل هذا المنع فى هذا الاستفهام: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيَمانِهِمْ. .﴾.

وقد حمل الإمام أبو السعود هذا الاستفهام على الاستبعاد مرة، وعلى الإنكار والنفى مرة أخرى، مقدما الاستبعاد على النفى والإنكار[2].

والفرق بين الاستبعاد والإنكار هو جواز وقوع الهداية باحتمال ضعيف مع الاستبعاد، واستحالتها مع النفى والإنكار.

---

(١) الآية رقم (١٥): (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا).

(٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٥٦).

ووقف الألوسى عند القول بالاستبعاد أو التبعيد[1] أما الطاهر بن عاشور فمثل أبى السعود جمع بين الإنكار والاستبعاد مع ترجيح الإنكار[2].

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(كيف)** للسؤال عن الحال فى الاستفهام الحقيقى. ولإنكار أو استبعاد الحال فى المجازى. وإنكار الحال معناه نفيه بشدة. وجاءت (كيف) لإنكار أن يكون لهداية الله هؤلاء القوم حال تكون عليها. وكل ممكن (موجود) أو سيوجد لابد أن يكون له. حال ولما أفادت (كيف) نفى حال الهداية سرى ذلك النفى إلى الهداية نفسها، أى لن تكون. وهذا من لطائفْ الكنايات والإنكار ليس مسلطًا على جنس الهداية أو المهدى بل على هداية قوم اتصفوا بتلك الصفات من الكفر بعد الإيمان.
* وفى توكيد الخبر **(أن الرسول حق)** توكيد لعدالة إرادة الله فى حرمانهم من ألطافه؛ لأنهم كفروا بحق تجلَّتْ لهم أماراته ولم يرتابوا فيه، فهم الظالمون لأنفسهم.
* **(وجاءهم البينات)** مجاز عقلى علاقته المفعولية لأن الله هو الذى آتاهم البينات. وسر هذا المجاز أن البينات جاءتهم - هى - ساعية مطواعة ليسرها وعظيم نفعها، لكنهم عموا وصموا، وأحلوا أنفسهم دار البوار.
* **﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** تزييل مقرر لما ذكر قبله فى صدر الآية **(كيف يهدى..)** وبيان لسنة عظيمة من سنن الله، وإخراج الكلام مخرج «العموم» بمنع ألطاف الله عن كل ظالم، لا المذكورين وحدهم وهو خبر مستعمل فى الوعيد والتحذير مجازًا.

* * *

(١) روح المعانى: (٣/ ٢١٦).

(٢) التحرير والتنوير: (٣/٣٠٣).

١٥ - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

الدراسة والتحليل:

الاستفهام فى هاتين الآيتين، تقدم الحديث عن نظيره فى الآيتين (٧٠ - ٧١) من هذه السورة، فهما - هنا للإنكار، كما كان نظيرهما للإنكار كما تقدم أكثر من مرة. فلا داعى لتكرار كلام لم يضف جديدًا للموضوع. فليراجعه من يشاء.

أسرار النظم وبلاغياته:

الذى نقصد الحديث عنه - هنا - تحت هذا العنوان الإجابة على سؤال مؤداه: لماذا كان الخطاب فى الآيتين (٧٠ - ٧١) خاليا من (قل) فى صدر الآيتين. وجاء هنا مقرونًا بـ (**قل**) فى هاتين الآيتين؟

والجواب: قلنا من قبل فى مثل هذا إن تصدير البلاغ بالفعل (**قل**) فيه زيادة اهتمام بالأمر المبلغ. فهو يشبه رسالة خاصة ينبغى الإسراع والإلحاح فى تأديتها. دليل هذا أن هاتين الآيتين نص النظم فى أولاهما بأن الله شهيد على عمل أهل الكتاب، ونص فى ثانيتهما بأن الله لا يغفل عن عملهم. وهذا ما أكسب البلاغ فيهما زيادة أهمية. أما الآيتان (٧٠ - ٧١) فقد اكتفى النظم فيهما بشهادة أهل الكتاب على أنفسهم، وبعلمهم بقبح المعصية.

* * *

١٦ - ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ففى هذه الآية نصح وتحذير لجماعة المؤمنين من طاعة أهل الكتاب، ودعوة إلى التثبت مما يقولونه لهم لئلا يقعوا

فى فتنتهم، وهم لا يريدون لهم إلا الكفر. ثم جاءت آيتنا عقبها تنفى وقوع الكفر منهم بعد الإيمان، بتحصين كتاب الله لهم، وصحابة رسوله. وقد تصدر الآية هذا الاستفهام: **(وكيف تكفرون)**؟!

ويرى الإمامان الزمخشرى وأبو السعود أنه استفهام إنكار، ويقيده أبو السعود بأنه لإنكار الوقوع لا الواقع لأن المخاطبين لم يكونوا كافرين. أما الزمخشرى فقد أطلق الإنكار ولم يقيده بشىء[1].

أما الإمام الألوسى والطاهر بن عاشور فيريان أن هذا الاستفهام للاستبعاد[2].

والخلاصة: أن ما ذهب إليه الزمخشرى وأبو السعود غير دقيق؛ لأن الإنكار يكون فى مواجهة أمريدعيه المخاطب، أو أمر واقع سواء كان من المخاطب أو غيره.

أما الاستبعاد فيكون لشىء لم يقع ولكن يتوقع حصوله على نحو ما. فيجىء الاستفهام الاستبعادى بنفى الوقوع بناء على آمارات تدل على النفى. ولذلك فإن ما قاله الألوسى وابن عاشور هو الصواب. فالاستفهام فى الآية للاستبعاد لا للإنكار. لأن المخاطبين لم يكونوا كافرين ولا يتوقع منهم الكفر. ولا يشفع لأبى السعود قوله: إنه لإنكار الوقوع لا الواقع. لأن الوقوع والواقع منتفيان لدى جماعة المؤمنين المخاطبين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وكيف تكفرون)** إيثار أداة الاستفهام (كيف) هنا لنفى أن يكون لهذا الكفر حال، أى حال، وهذا يقتضى نفى ذلك الكفر من الأساس. وهذا هو المناسب فى خطاب المؤمنين، مع ملاحظة أن معمول (تكفرون) محذوف وهو (بالله) وسر حذفه كراهة نسبة الكفر بالله إلى المؤمنين. وهذا من تكريم ربهم لهم.
* ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ تعليل وبيان لاستبعاد الكفر منهم، وإشارة إلى ضرورة التمسك بكتاب **الله** وسنة رسوله العاصمين من الزيغ والضلال وإيثار الوصف **(رسوله)** على الموصوف (محمد) لأن الوصف هو علة المنع من

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٥٠)، تفسير أبى السعود (٣/ ٦٤).

(٢) روح المعانى: (١٦/ ٤) والتحرير والتنوير: (٤/ ٢٨).

الضلال، وإضافة رسول إلى ضمير اسم الجلالة للنص على أن الرسالة العاصمة هى ما كانت من الله لا من غيره، لذلك أوثر التعريف بالإضافة على التعريف بالألف واللام (الرسول).

* (وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) تذييل مقرر لمضمون الكلام الذى قبله.

* * *

١٧ - ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

الدراسة والتحليل:

المراد باليوم فى الآية يوم القيامة، والوجوه المبيضة هم المؤمنون، والوجوه المسودة هم الكافرون، ولكل عند الله درجات مما عملوا. وقد ورد فى الآية هذا الاستفهام: **(أكفرتم بعد إيمانكم)**؟

وهو للتوبيخ والتعجيب من حالهم.. هذه العبارة ذكرها ثلاثة من الأئمة: الزمخشرى، أبو السعود، الألوسى[١] أما الطاهر بن عاشور فقال: «والاستفهام مجاز عن الإنكار والتغليظ»[٢].

والخلاصة: أن ما قاله الأئمة الأربعة، وإن اختلفت عبارة صاحب التحرير والتنوير، بمعنى واحد، لأن الإنكار يتبعه معان كالتوبيخ والتعجيب اللذين نص عليهما الثلاثة الأولون. أما التغليظ الذى أنفرد به الرابع فهو مرادف للإنكار الشديد. والذى لا نزاع فيه أن هذا الاستفهام: لإنكار كفرهم وتوبيخهم عليه، وتعجيب غيرهم من حالهم القبيحة هذه، وهى الكفر بعد الإيمان، فهذا أشنع أنواع الكفر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(.. تبيض وجوه وتسود وجوه)** مجموع هذين الوصفين كناية عن صفة، هى القيامة.

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٢٣) وتفسير أبى السعود (٢/ ٦٩) وروح المعانى (٤/ ٢٤).
(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ٤٥).

وبملاحظة المضاف (يوم) يكون التـركيب كله كناية عن موصوف، هو يوم القـيامة، وتنكير **(وجوه)** فى الأول للكثرة والتـكريم وفى الثانى للكثرة والتـحقيـر. وتقديم **(تبيض)** على **(تسود)** لشرف الوصف والموصـوف. وتأخير **(تسود)** لحقارة الوصف والموصوف.

(وتبيض وجوه) وحدها كناية عـن المؤمنين، أما **(تسود وجوه)** وحدها - كـذلك - فهى كناية عن الكافرين، وكلتاهما كناية عن موصوف.

* ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ. .﴾ الفاء للتفريع عـلى ما تقدم. وتقديم مصـير الكافـرين على جزاء المؤمنين لف ونشـر. والنشر فيـه غير جـارٍ على نسق اللف، حيث بُدىء فى النشـر بما يتصل بالمؤخر فى اللف. وأخر مـا يتصل بالمقدم فيه. ونكتته البلاغية - فيما نرى - إبهاج المؤمنين حين يرون حسن مصيرهم بعد أن عاينوا سوء مصير الكافرين.

* **(أكفرتم)** فيه إيجاز بالحذف للعلم بالمحذوف، والتـقدير: فيقال لهم، وذكر الإيمان فى **(بعد إيمانكم)** لبيان أن كفرهم هذا لا عذر لهم فيه لأنهم كانوا قد آمنوا حين قال الله لجمـيع الخلق فى الأزل: **(ألست بربكم، قـالوا بلى)** والكفر بعـد الإيمان قبيح. ووجهوا بهذا زيادة فى التوبيخ والتنديم.

* فى **(فذوقوا)** استعارة تصريحية تبعية شُبِّه فيها اصطلاؤهم فى النار بالذوق، والجامع هو شدة الإحساس بالأثر فى كل منهما. ويجوز أن يكون استعارة بالكناية شبه فيها العذاب بمـا يؤكل أو يشرب إهانة لهم، ثم حـذف المشبـه به ورمز له بخـاصة من خواصه وهى (التذوق) وسرها أنهم لا طعام ولا شراب لهم سوى العذاب.

* * *

١٨ - ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآيةفى سياق الامتنان الإلهى على جماعة المؤمنين بعد قوله لرسوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وصدرت الآية بجملة الاستفهام ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾. ومن الملاحظ أن همزة الاستفهام دخلت على أداة نفى (لن) التى نفت الفعل بعدها، ثم نفت الهمزة ذلك النفى فصار الكلام إثباتا.

وقد عرفنا قبل هذا مرات أن هذا الاستفهام ونظائره معناه المجازى هو التقرير. والأمر كذلك هنا. يعنى أن الرسول ﷺ يقرر المؤمنين بأن هذا الإمداد من الله يكفيهم؛ لأنه تأييد عظيم.

ومن العجيب أن ثلاثة من الأئمة قالوا إنه استفهام إنكارى وفسروه بأنه لإنكار عدم الكفاية[1].

لكن سماحة الشيخ بن عاشور حمله على التقرير[2]، وهو الأصوب لأمرين:

الأول: أن هذه الصباغة (الهمزة - النفى). لا تكاد تستعمل إلا فى التقرير.

الثانى: المقام - هنا - يناسبه تقرير المخاطب. ولهذا جزمنا فى التقديم بأنه استفهام تقريرى لا إنكارى. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* لما كان المقام مقام تفضُّل وامتنان إلهى على رسوله والمؤمنين أو ثر الفعل المضارع (تقول) على الماضى: قلت.. لأن فى المضارع استحضاراً لصورة الحدث وكأنها تقع الآن. فقد أعاد المضارع صورة الشدة التى صحبت غزوة بدر من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين. وفى هذه الإعادة فائدة جليلة، حيث يتبين المؤمنون عظمة نعمة الله عليهم، وتحقيق النَّصر لهم على عدو أكثر منهم عدداً وعدة.

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٦١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٨٠) وروح المعانى (٤/ ٤٤).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ٧٢).

* وإيثار أداة النفى (لـن) على (لم) لأن الحديث منصب على المستقبل، حيث كان خطاب الرسول ﷺ للمؤمنين قبل وقوع القتال. ولذلك أوثر المصدر المؤول (أن يمدكم) على الصريح: (إمدادكم) ولو كان الخطاب بعد الفراغ من القتال لأوثرت أدوات الماضى على الاستقبال.

* وجَعْل فاعل الإمداد (ربكم) بإضافته (رب) إلى ضمير المخطابين لما فى هذا الاسم الكريم من معانى الرعاية والإنعام لبعث السكينة فى قلوب المؤمنين.

* وفى إيثار الوصف (منزلين) تفخيم للإمداد، وجَعْلُ الملائكة منزلين فيه إشارة إلى خصوصية المهمة التى نزلوا من أجلها، فهم فرقة خاصة من الملائكة نزلت لهدف خاص، وليسوا من الملائكة الذين يقومون بعمل فى الأرض من الحفظة والرقباء والطوافين فى الأرض.

* * *

١٩ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية إكمال لأوصاف المتقين الذين أعدَّ لهم جنة عرضها السموات والأرض (الآية ١٣٣) وكان من أوصافهم الإنفاق فى السراء والضراء وكظم الغيظ، والعفو عن الناس (الآية ١٣٤) أما فى آيتنا فقد كملت أوصافهم بالمبادرة إلى التوبة إذا أذنبوا، وذكر الله وعدم الإصرار على المعصية.

وفى وسطها جاء هذا الاستفهام اعتراضا بين المعطوف عليه والمعطوف: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾

وقد سكت عن هذا الاستفهام كثير من المفسرين، ومن عرض له قال: إنه للإنكار والنفى[1].

(١) تفسير أبى السعود: (٢/٨٦) والتحرير والتنوير: (٤/٩٣).

والخلاصة: أن هذا الإنكار أو النفـى لا لإنكار الواقع ونفـيـه ولا لإنكار الوقـوع، ولكنه إنكار ونفى لتوهم الوقوع عند من يقع عنده هذا التوهم.

إذ لا أحد من الناس ادعى أنه يملك غفران الـذنوب، وصكوك الغفران التى ادعاها البابوات فى أوربا، وزعـمهم أنهم يملكون العـفو ومغـفرة الذنوب حـدثت بعد نزول القرآن بدهـر طويل. ولذلك فإن مـواجهة هذه الظاهرة لـم تكن ملحوظة فى عـصر النزول.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار الفعل (**فعلوا**) على (**عملوا**) لأن الفعل استعماله فى الشر هو الغالب.

* عطف «**ظلموا**» على (**فاحشة**) من عطف العام على الخاص وأولى مما ذكره المفسرون - اجتهاداً - أن نقول: إن الفاحشة هى: (الزنا) عملا بقوله تعالى: (**إنه كان فاحشة وساء سبيلا**) [الإسراء: ٣٢] وأن (**ظلموا أنفسهم**) عام فى كل السـيئات والذنوب، ويكون إفراد «فاحـشة» من عموم المعـاصى للتنبيه على قبـحها وشناعتهـا وتنكيرها لتهويل شأنها تحذيراً منها.

* وفى (**ذكروا الله**) إيجاز بالحـذف: أى ذكروا اطلاعه عليهم وعـقابه لمرتكبى الذنوب والآثام.

* وفى العطف بـ(**الفاء**) إشارة إلى سرعـة التوبة والرجوع إلى الله: وفى ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، قصـر صفة المغـفرة على مـوصوف هو الله عز وجل. قـصراً حقيقيا تحقيقيا باعتبار الواقع.

* وفى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَـا فَعَلُوا﴾ توكيد لتوبتهم واسـتغفارهم، والكلام مسوق للترغـيب فى التوبة والاسـتغفار ودفع اليـأس والقنوط مهـما بلغت الذنوب - إلا الكفر - فـإن التوبة الصـادقة النصوح تمحـوها. لأن الله يبسط يديه بالليل ليـتوب مسىء النهار، ويبسط يدية بالنهار ليتوب مسىء الليل.

* * *

٢٠ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية من الآيات التى نزلت عقب غزوة أحد، توجه المؤمنين إلى الطريق القويم، وتعالج العيوب التى بدرت من كثير منهم بمخالفة توجيهات صاحب الرسالة، والفرار من الميدان، ومع هذا كانوا يطمعون فى دخول الجنة. فأعلمهم الله أن للجنة ثمنا لابد من بذله فليس الإيمان وحده كافيا لدخولها. بل لابد من العمل وتحمل المشاق من الجهاد لنصرة الحق، والصبر فى الشدائد والمحن. كل هذا تضمنه هذا الاستفهام:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾ وفى معناه يقول الإمام الزمخشرى «أم منقطعة» ومعنى الهمزة فيها الإنكار. **(ولما يعلم)** بمعنى: لَمَّا تجاهدوا»[١].

وتابعه أبو السعود فقال: «أم منقطعة وما فيها من كلمة بل للإضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها من مبادىء الفوز بالمطلب الأسنى، والهمزة للإنكار والاستبعاد، أى بل أحسبتم..»[٢]. وهذا ما قاله الإمام الألوسى[٣].

وذهب الطاهر بن عاشور مذهبا آخر مخالفا لما أتفق عليه الأئمة الثلاثة آنفا. يقول الطاهر:

«والاستفهام المقدر بعد (أم) مستعمل فى التغليظ والنهى.. أى لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة دون أن تجاهدوا وتصبروا»[٤].

ويتابع أبو حيان الأولين فيقول فى عبارة شديدة الإيجازة «واستفهم على سبيل الإنكار»[٥].

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٦٦).

(٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٩٠).

(٣) روح المعانى (٤/ ٧٠).

(٤) التحرير والتنوير: (٤/١٠٦).

(٥) البحر المحيط: (٣/ ٦٥).

والخلاصة: أن محصل الرأى عند الأئمة وإن اختلفت عبارة صاحب التحرير والتنوير عن عبارة الجمهور، فالمآل عندهم واحد، هو نفى ذلك الحسبان مع التقصير فى العمل الموجب لدخول الجنة وفاء بالوعد الإلهى الذى لا يتخلف، فأربعة منهم عبروا عن النفى بالإنكار، وواحد عبَّر عنه بالنهى والقاسم المشترك بينهم هو النفى، والإنكار أشد من النفى والنهى أشد من الإنكار، ولذلك فإننا نرجِّح الحد الوسط وهو الإنكار. أى إنكار الواقع وهو ظنهم أنهم من مستحقى الجنة مع قصور عملهم عن نيلها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ﴾ لَمَّا لنفى الواقع فى الحال مع الإيذان بقرب وقوعه عقب الحال. وفى هذا إشارة إلى أن المخاطبين سيسارعون فى تلافى ما هم فيه من قصور. أما العلم المنفى وقوعه فى الحال المسند إلى الله تعالى، فهو كناية عن نفى المعلوم، أى أن الله عز وجل علم عدم جهادهم وعدم صبرهم، ولو كانوا مجاهدين فِعْلا وصابرين فعلا لعلم الله ذلك منهم. فنفى العلم فى جانبه هو نفى المعلوم. وفى هذه الكناية اللطيفة حث لهم وترغيب فى المبادرة إلى العمل الصالح من الجهاد وغيره ليعلمه الله منهم واقعا بعد أن علمه غير واقع، أى أن الله لا يخفى عليه شىء من أعمالهم فينبغى أن لا يراهم فى مواطن القصور، وأن يراهم فى مواطن الجهاد والعمل الصالح.
* وتقديم الجهاد على الصبر، من تقديم المتبوع على التابع لأن الجهاد موطن الصبر، وفيه يتجلى صبر الصابرين وجزع الجازعين. وفى التعبير بالفعل **(جاهدوا)** فى مقام الجهاد، وبالاسم **(الصابرين)** فى مقام الصبر، لأن الجهاد يكون فى أوقات دون أخرى. أما الصبر فينبغى أن يكون شعار المؤمن جاهد أم لم يجاهد.

* * *

٢١ - ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآية مثل السابقة، نزلت تضمد جراحات عميقة ورضوضا مؤلمة أعقبتها الهزائم النفسية فى غزوة أحد. فقد نجح الوشاة فى اختلاق فرية سرت بين المسلمين سريان الأعاصير ففتت فى عضدهم، وأصابت عزائمهم فى مقاتلها.

زعموا أن محمدا - ﷺ - قد قتل فى أتون المعركة وطيَّروا هذه الفرية بين الجنود، فحمل فريق ضخم من المسلمين أرواحهم فى أيديهم وفروا هاربين من ميدان القتال، وبقى النبى ومعه نفر ثبَّت الله قلوبهم وأقدامهم، وواجهوا الموت بعد أن شاهدوه. ودفعوا الأذى عن صاحب الرسالة ففازوا بالستر فى الدنيا. والرضوان فى الآخرة.

نزلت هذه الآية لتضمد تلك الجراحات الغائرة، وترد الرشد إلى الذين فقدوه. فالله هو المعبود لا محمد، فإن قتل أو مات فالله حى لا يموت وهو الديان العظيم. فعلامَ تلك الردة؟ ومحمد ليس إله بل هو رسول يموت كما ماتت الرسل من قبله. فالواجب على الأمة الثبات على كل حال والاتجاه إلى الله وحده، لأنه الديان. وحمل الاستفهام الهادر: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ هذه الرسالة العاتية، وأداها أبلغ ما يكون الأداء. وقد أسهب المفسرون فى توجيه هذا الاستفهام، فلنأخذ من كلامهم ما قل ودل:

يقول الإمام جار الله: «إلفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل»[١].

وتابع الزمخشرى على هذا الإمام أبو السعود، والإمام الألوسى وأبو حيان[٢].

---

(١) الكشاف: (١/ ٤٦٨).

(٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٩٢) وروح المعانى (٤/ ٧٣)، والبحر المحيط: (٣/ ٦٨).

والخلاصة: أن الاستفـهام فى هذه الآية لا يقف عند حد الإنكار الذى أجـمع عليه المفسرون، ولكنه إنكار وتقريع وتوبيخ. لأن ما حـدث يوم أحد واقعة هالعة لم يسبق لها نظير. فـالله ينكر عليهم ما حدث ثم يـقرعهم ويوبخهم عليـه ردعا لهم وتحذيراً لغيرهم من أن يحدث منهم ما حدث.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **يفاجؤنا** فى صدر الآية هذا الأسلوب ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ وهو أسلوب قصر موصـوف (محمـد) على صفة (رسـول) وفيه رد على خطـأ عند المخاطبين أو من حضروا غـزوة أحد وأحداثها المـؤسفة. فإن كانوا اعـتقدوا أنه لا يموت كـما مات الرسل قبله لمغايرته لهم فهو قصر قلب لإثبات ضد ما اعتقدوه من الخلود وإن كانوا يجمعون له بين الرسالة والخلود فهـو قصر إفراد وعلى كل فلا يصح لهم أن ينقلبوا على أعقابهم إذا وقع له قتل أو موت.
* فى قوله: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إما استعارة تمثيلية شبهت فيها صورة ما حدث من نكسة نفسية يوم أحد بصـورة من أرتد على ظهره منقلبا على الأرض. والعلاقة هى الصورة الحـاصلة من سرعة التـردى والهلاك. وسرها البـلاغى تصوير المعنوى المعقول فى صورة المادى المحسوس لإظهار كمال بشاعته وقبحه.

  أو كناية عن صفة التردى المهلك مع قرن الدعوى بالدليل. وعلى كل فإن التنفير مما حدث لا ينفك عن التصوير البلاغى أيا كان نوعه.
* وفى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ثناء وتقدير للذين ثبتـوا يوم أحد وبشرى لهم بحسن الجزاء، فكمـا أغلظت الآية فى أولها العتاب مع الذين فـروا من ميدان القتال امتدحت الذين استبـسلوا وأبلوا بلاء حسنا فى ميدان القتال. ولا يظلم ربك أحداً.

* * *

٢٢ - ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ، قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ، يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِم مَّالاَ يُبْدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا، قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَلِيَبْتَلِىَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية الكريمة واحدة من الآيات النازلة فى شئون غزوة أحد. والمهمات التى تؤديها هى تسجيل وعرض الأحداث التى وقعت فى معسكر المسلمين بعد أن وضعت الحرب أو زارها. وتوقف القتال. والآية التى قبلها كانت تمهيدا ومدخلا لعرض الأحداث التى تكفلت بها هذه الآية أما الآية السابقة عليها فهى:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَد وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

رسمت هذه الآية صورة مجملة لنهاية المعركة، وأظهرت صاحب الرسالة ينادى الفارين من ميدان القتال بالثبات وهو ثابت خلفهم فى مواجهة العدو. هذا هو المدخل، أما آيتنا فقد كشفت اللثام عن خبايا وأسرار كثيرة. كشفت أن معسكر المسلمين كان يتكون من طائفتين أو جماعتين:

طائفة مؤمنة صادقة الإيمان. وطائفة مراوغة آمنت فى الظاهر وباللسان. وكفرت فى الباطن وبالجنان. وهم المنافقون.

وكان من لطف الله بمعسكر المسلمين رغم ما بدر منهم من نكوص أن أنزل عليهم نعاسا خفيفا ينسيهم حسرات الانهزام. . استمتعت به الطائفة المؤمنة. أما الطائفة المراوغة (المنافقون) فقد قضوا ليلتهم فى قلق ووساوس أنزلت بهم الهموم والغموم، وأحرقتهم نار التندم على الخروج فى معسكر المسلمين، وتمكن الشيطان من قلوبهم الفارغة، فزادهم هما فوق همٍّ. وغما بعد غم، وبعث الظنون الكاذبة فى نفوسهم.

ظنون كاذبة فى الله وفى رسوله، وفى الرسالة والإيمان والمؤمنين. وكأنهم توقعوا أن يجدوا ثغرة لدى صاحب الرسالة، ليندم كما ندموا، ويغتم كما اغتموا. فراحوا يعيدون قصة الخروج من أساسها، وأنهم لو كان لهم من الدولة شىء، وسُمِع كلامهم بعدم الخروج لملاقاة العدو لما قُتل منهم من قتل. ولنجوا - جميعا - مما حدث. يخفون فى صدورهم الكفر. ويتظاهرون بالإيمان، ويكررون مقولتهم: **(هل لنا من الأمر من شئ)** فيلهم الله رسوله الجواب: **(قل إن الأمر كله لله)** ثم يذهب إلى أبعد من ذلك. فالذين قتلوا فى معركة أحد لو لم يكونوا قد خرجوا مع صاحب الرسالة اختياراً، لخرجوا مضطرين إلى الأماكن التى صُرعوا فيها. ولما كان أجر القتل الذى أصابهم بعد خروجهم مختارين. ولكنهم باعوا أنفسهم لله، وهى أغلى ما يملكون فاشتراها بارئُها بالجنة، وهى أكرم ما أعده لعباده المخلصين. وما حدث يوم أحد من محن، وإن فقدوا فيها النصر العاجل. فقد ربحوا فيها تمحيص القلوب، وقوة العزيمة، وصلابة الإيمان.

وفى أثناء هذه الآية - العبقة الفوَّاحة - ورد هذا الاستفهام محكيا عن المنافقين، وهو صلتنا بهذه الآية الوارفة الظلال:

(هل لنا من الأمر من شئ)؟

وقد عشنا مع الأئمة الذين تعودنا الرجوع إليهم فى هذه الدراسة. فها لنا حجم الاختلاف فى بيان المراد من هذا الاستفهام، وما أوردوه حوله من تقديرات واعتراضات وإجابات.

والذى حملهم على هذا ذهابهم إلى أن الاستفهام مجازى لا حقيقى، أو محتمل للأمرين. ويا تُرى عن لسان مَنْ ورد هذا الاستفهام؟ هل قائلوه هم المؤمنون؟ وماذا يكون أمر الله هذا الذين يتساءلون حوله: هل لهم منه من شئ! أم قائلوه هم المنافقون؟ وهل قالوه على وجه الحقيقة أم المجاز؟ وما المراد منه إن كان حقيقة أو كان مجازا؟ ولذلك فإننا سنعفى أنفسنا ونعفى القارئ من عرض هذه الخلافات

غيـر المجدية. ونبين - بكل وضـوح ودقة - من هو قائل هذا الاسـتفـهام. وهل هو حقيقة أم مجاز. ومـا المراد منه عند قائله. وسندعم ما نقول بأدلـة قاطعـة مـن نظـم الآية الحكيم، ومن شـاء من القـراء أن يرجع إلى أقـوال الأئمـة حـوله فى مظانـهـا فليرجع ونديم الحديث حوله على المنهج الآتى:

أولاً: من هو قائل هذا الاستفهام؟

قـائله بالقطع لا بالظن هم المنافـقون وليس المؤمنـين، والدليل على ذلك من نظم الآية أن الله تعـالى تحـدث عن المؤمنين فى صـدر الآية، ثـم نقل الحـديث منهم إلى المنافقين واسـتمر الحديث عن المنافقـين إلى ما قبل الجمل الثـلاث الأخيرة من الآية. على ما سنبينه.

فأما الحديث عن طائفة المؤمنين فى الآية فهو:

﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ بعد الخطاب الـعام فى أول الآية وهو: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ وربط النظم الحكيم بين الخـطاب العام وبين الحـديث عن طائفة المؤمنين بقوله (**يغشى**) أى النعاس.

وبهذا انتهى الحـديث عن المؤمنين، وفيه بَيَّن الله أنهم هم الطائفة الذين استـمتعوا بالأمنة والنعاس، ثم بدأ الحديث عن طائفة المنافقين هكذا:

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُـهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ، قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ، يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِمْ مَالاَ يُبْدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ لَوْ كَـانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّـا قُتِلْنَا هَا هُنَا، قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُـوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

هذا هو حديث القرآن عن طائفة المنافقين، كشـفا لما أخفوه فى بواطنهم، وتسجيلا لما أجروه على ألسنتهم، وإليهم - لا إلى غيرهم - أسند القرآن الجملة الاستفهامية، حاكيا عنهم عبارتها: (**يقولون هل لنا من الأمر من شئ**)؟.

إذًا فليست هذه الجـملة من قول المؤمنين. بل من مقولات المنافـقين لفظا ومعنى.

وساحة الإيمان والمؤمنين بريئة كل البراءة منها.

ثانيًا: أحقيقى هذا الاستفهام أم مجازى؟ هذا فرع آخر من فروع الاختلاف بين الأئمة. فقد حملوا الاستفهام على الحقيقة مرة. وعلى المجاز مرة أخرى. ثم اضطربت عباراتهم فى التخريج.

أما الذى نجزم به - نحن - فهو استفهام حقيقى قطعا لا مجاز فيه كما سيأتى البيان.

ثالثا: ما المراد من الاستفهام؟

من قال منهم إنه استفهام مجازى قال إن معناه الإنكار إذا كان قائله المنافقين، يعنى رأوا أنفسهم بعد وقوع نكسة أُحد مجردين من كل حول وقوة لا يملكون لأنفسهم نفعا أو ضرا فقالوا: (**هل لنا من الأمر من شئ**) أى ليس لنا من أمرنا شئ، فقد خرجنا من المعركة، كأننا رقيق فى يد مالكه؟.

وإن كان قائله المؤمنين فهو حقيقى عند كثير من المفسرين ومعناه عندهم: هل لنا من أمر الله وهو النصر شئ؟ وهذا تكلف حملهم عليه نسبتهم هذا الاستفهام إلى المؤمنين وهم - كما عرفنا - لا صلة لهم به. هذه واحدة. **والثانية:** أن هذا الاستفهام أمر الله رسوله بالرد عليه فقال:

﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وهذا الجواب لا يصلح ردًا على المؤمنين إذا كان الاستفهام من قولهم، وأرادوا به حظهم من نصر الله.

والثالثة: أن هذا الجواب لا يصلح ردًا على المنافقين إذا كان الاستفهام مجازيا بمعنى الإنكار: أى لا حول لهم ولا قوة. لأن المعنى لو كان كذلك فما معنى أن يأمر الله رسوله ليرد عليهم هكذا: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمَرَ كُلَّهُ للهَ﴾ وذلك لأن جملة هذا الرد تواجه من ينازع ويدعى أن له من الأمر شيء. والمنافقون حين قالوا: هل لنا من الأمر من شيء.. لم يدعوا أن لهم منه شيئا مادمنا فسرنا هذا الاستفهام بالإنكار المجازى.

رابعا: والذى لا مفر منه أمران:

الأول: أن هذا الاستفهام من مقولة المنافقين بلا أدنى شك. ومن يقل إن قائله هم المؤمنون فقد جانبه الصواب.

الثانى: أنه حقيقى لا مجازى، وقد أبطلنا مجازيته بالدليل فيما تقدم، فلم يبق إلا أن يكون حقيقيا، ومعناه حينئذ:

أن المنافقين نازعوا الرسول فيما حدث بعد أن وضعت الحرب أوزارها منتهزين فرصة النكسة، فسولت لهم أنفسهم وأوهمهم الشيطان أن صاحب الرسالة أصبح فى حالة ضعف. فلماذا لا يهتبلون هذه الفرصة ويذكرونه بموقفهم قبل المعركة، الذى كان يدعو إلى عدم الخروج فيستصوب الرسول رأيهم -والحديد ساخن- ويطالبونه بأن يشركهم فى إدارة شئون الدولة والدعوة معاً. فقولهم: **(هل لنا من الأمر من شىء)** أخرجوه مخرج اللين والاستعطاف ليحصلوا على نصيب من السلطة وإن كان محدوداً. لكى يتمكنوا من فرض مبادئهم على مجريات الأمور، ويتمكنوا - كذلك - من تنفيذها.

هذا هو التفسير الوحيد الذى ينسجم - تماما - مع دلالات النظم الحكيم. فاستفهامهم كان استفهاما حقيقيا أوضحنا المراد منه، ولذلك جاء الرد ناسفا لمطامعهم ﴿قُلْ إِنَّ الأَمرَ كُلَّهُ للهِ﴾.

وإننا لنلهج بالشكر والثناء على الله الذى هدانا لهذا وقضى على تلك البلبلة التى تصيب الرءوس بالدوار من الاطلاع على تخريجات سادتنا المفسرين فى تفسير هذا الاستفهام. وللإنصاف نقول إن أبا حيان أورد فيما أورد أن الاستفهام فى الآية حقيقى، وأن قائله هم المنافقون. ولكنه أورد هذا فى ذيل كلامه عن الاستفهام كما أنه لم يحفل به. وجوز صدوره عن المؤمنين[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام حقيقى. وأن قائله هم المنافقون. وأن المراد منه هو التوطئة للحصول على نصيب من السلطة واتخاذ القرار.

---

(١) البحر المحيط: (٣/ ٨٧).

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى (أنزل) من قوله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ استعارة تصريحية تبعية، شبَّه فيها المن عليهم بالنعاس بالانزال من عند الله والجامع بين طرفى الاستعارة كمال الرعاية وحسن التدبير وسرها البلاغى تفخيم شأن النعاس بجعله منزلاً من عند الله. ولما كان هذا النعاس قد شفى نفوسهم من حسرة النكسة أشبه التنزيل الشافى من الجهل والكفر والعصيان. ويجوز - بلاغيا- أن تكون استعارة بالكناية، حيث يشبُّه فيها النعاس المفعم بالراحة وتثبيت القلوب بالوحى النازل من السماء لهداية العباد. ثم حذف المشبه به، ورمز له بما يدل عليه، وهو الإنزال. وإثبات الإنزال عاملا فى النعاس استعارة تخييلية هى قرينة المكنية وتقديم (**أمنة**) على (**نعاساً**) مع أن (**أمنة**) معفول لأجله رتبته التأخير: أى نعاساً من أجل أمنكم، للإسراع بالمسرة للمخاطبين وهذا من لطائف خطاب الله للمؤمنين، حتى مع قصورهم. وتنكير (نعاساً) للتعظيم.
* وفى (**يغشى**) استعارة تصريحية تبعية شبه فيها النعاس فى حمايتهم من القلق والتحسر وتجميلهم بالثبات والطمأنينة بالثوب الذى يستر لابسه ويجمله فى أعين الآخرين.
* فى قطع حكم الطائفة الثانية عن حكم الطائفة الأولى فى اللفظ والمعنى إشارة إلى تفاوت الطائفتين فى المنزلة عند الله. وهذا القطع دلّ عليه النظم بعملين بلاغيين:

الأول: وصف الطائفة (المؤمنة) بالجار والمجرور (منكم) أى من المؤمنين، ومن بيانية لا تبعيضية. ولم يُدْخِل الطائفة (المراوغة) الثانية فى هذا الوصف.

الثانى: الاختلاف اللفظى فى حكم الإعراب، فالأولى منصوبة لأنها مفعول به لـ(يغشى) والثانية مرفوعة على الاستئناف. وتبع هذا الحكم اللفظى حكم معنوى: هو أن الطائفة الأولى هى التى أنزل الله النعاس الآمن من أجلها فنعمت به. أما الثانية فقد حرمت منه.

* ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أكد الخبر فى هذه الجملة بـ: (إن) ثم اسمية الجملة، ثم بـ(كل) لأنه رد على المنافقين فى توهمهم أن لهم من أمر الدولة والدعوة شيئاً.

* جملة: (**يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا**)، فصلت جملة (**يقولون**) فيها عما قبلها (**يخفون..**) لأن الثانية نُزِّلَتَ منزلة عطف البيـان مما قبلها. وكلتا الجملتين لا محل لهما من الإعراب؛ لأن الأولى (يخفون..) جملة ابتدائية.
* ذِكْرُ (من) فى قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْـرِ من شَىْءٍ﴾ وعدم ذكرها فـى قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَـا مِنَ الأَمْرِ شىْءٌ مَّا قُـتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لأن الأول خطاب منهم لصـاحب الرسالة أن يجـعل لهم من السلطة نصيبـا ولو كان «تافهاً» فـدلُّوا على هذا بالحرف «من» تودداً واحتيالاً ليستميلوا مشاعر صاحب الدعوة إلى استجابة مطالبهم.

ولم يذكروها فى الثانى لأنه حديث جرى بينهم ولم يُطلعوا عليه أحداً من غيرهم، فظهروا على حقيقتهم، وذلك دأبهم وعادتهم: مكر ودهاء أمام المؤمنين، واستعلاء وإظهار إذا خلو إلى بعضهم.
* فى ﴿مَضَاجِعِهِمْ﴾ استعـارة تصريحيـة تبعية شـبه فيهـا مكان الموت والقتل بمكان النوم، والجامع بين طرفى الاستعارة عدم الإحساس والحركة فى كل منهما.
* وفى ﴿وَلِيَبْتَلِىَ اللهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ التفات من الحديث عن المنافقين إلى مخاطبة المؤمنين، وفى (**وليمحص ما فى قلوبكم**) استعارة التمحيص، وهو تنقية الذهب من الشوائب - لتطهير القلوب من الزيغ. والجامع هو الصفاء من كل.

* * *

٢٣ - ﴿إِن يَنصُـرْكُمُ اللَّهُ فَـلاَ غَالِبَ لَكُمْ، وَ إِن يَخْـذُ لْكُمْ فَـمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ، وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية فى أعـقاب الحـديث عن غزوة أحـد، وهى بعد تلك السـياحـة الطويلة العميقة، التى كشفت عن أسباب الخلل، وضمدت جراح الأمة، وتضع خطط النهضة من تلك النكسة، بعد هذا كله تجىء هذه الآية لتضع قـانونا فخما يجمع شتات ما تقدم، فى كلمات قـصار يصوغ أسباب الانتصار وفى كلمات قـصار يصوغ أسباب الهزيمـة، ويأتى هذا فى أعقـاب سرد تلك الأحداث ليـضع أقدام الأمـة على الطريق

البصير. فالنصر من عند الله، ولكن بعد الأخذ بالأسباب. وبعد أن تتخلَّق الأمة بأخلاق النصر. فإذا تخلى الله عن قوم. وإن كانوا مسلمين.. فليس على وجه الأرض من يملك نصراً لهم.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾

أبو السعود كان أول من قال فى هذا الاستفهام إنه لإنكار وقوع النصر إذا أراد الله الخذلان[1].

ويتابعه الألوسى فيقول -كما قال أبو السعود-: (استفهام إنكارى مفيد لانتفاء الناصر)[2].

ويقول الطاهر بن عاشور: «والاستفهام فى قوله: **(فمن ذا الذى ينصركم من بعده)** إنكارى. أى فلا ينصركم أحد غيره».

والخلاصة: أن الاستفهام بإجماع الآئمة، مجازى مراد منه الإنكار. وهذا إجماع موفق كل التوفيق، ولكننا نضيف إليه ما سبق أن عرفناه من قبل فى هذا الأسلوب المستعمل قرآنيا فى بعض المواضع: **(مَنْ ذا الذى)** فهو يوحى -هنا- أن فاعل النصر بعد خذلان الله لقوم لا يكون له وجود. ومعنى هذا المبالغة فى معنى الإنكار -هنا- إلى درجة الاستحالة لاقلة الإمكان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* مع أن المقام مقام عتاب شديد من الله لمن فرَّ يوم أحد من المؤمنين. نرى النظم القرآنى يتلطف فى الخطاب معهم إذا عاتب وأنذر، ويؤكد ويقرر إذا وعد وبشَّر. ومن ذلك:

* ﴿إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ حيث نفى الهزيمة فى حالة نصر الله لهم بنفى جنس المنتصر عليهم الغالب لهم **(فلا غالب)** ونفى جنس الغالب يستلزم نفى الغلب فى أية صورة كان.

* وإيثار أداة الشرط: (إن) على (إذا) فى قوله تعالى: **(إن ينصركم الله)** ليكون المؤمنون

---

(1) تفسير أبى السعود: (٢/ ١٠٦). (2) روح المعانى: (٤/ ١٠٨).

بين الخوف والرجاء لأنهم لو وثقوا من النصر كل الثقة لناموا. . ولو وثقوا من الهزيمة كل الثقة لضاعوا. فكان من الحكمة أن يترقبوا النصر مع الأخذ بأسبابه، ويخافوا الهزيمة بتجنب أسبابها.

* فى جانب النصر أتى بالنفى صريحا (**فلا غالب لكم**) وفى جانب الخذلان أتى بالنفى غير صريح: (**فمن ذا الذى**) تلطفا فى الخطاب مع المؤمنين.

* فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أسلوب قصر صفة التوكل من المؤمنين، على موصوف (الله) وفى الإتيان بهذه الجملة فى عجز الآية ترغيب وحث للمؤمنين على التوكل على الله.

* * *

٢٤ - ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية لبيان جزاء المحسنين، وجزاء المسيئين، بعد أن عرضت السورة نماذج من الفريقين، وتصنيف العباد عند الله ناشىء عن اعتقاداتهم وأعمالهم ومن المحال أن يتساوى أهل الإيمان والتقى، وأهل الفجور والكفر، وجاء الاستفهام فى آيتنا لتقرير هذا التفاوت بين الناس. ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ؟﴾

وقد أغفل الزمخشرى الحديث عن هذا الموضع، وصرّح أبو السعود بأنه للإنكار، والألوسى لم يصرح بالإنكار بل يفهم من كلامه فيه بكل وضوح[1].

أما الطاهر بن عاشور فيقول: والاستفهام إنكار للمماثلة المستفادة من كاف التشبيه، فهو بمعنى لا يستوون»[2].

والخلاصة: أن الاستفهام -هنا- لنفى التماثل بين هذين الطرفين المختلفين كل

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ١٠٧).. وروح المعانى: (٤/ ١١٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ٢٥٧).

الاختلاف، اختلاف الإيمان والكفر، والاستقامة والفجور. المنفى بهذا الاستفهام هو المساواة. ولذلك يجوز أن يلى همزة الاستفهام أى الطرفين وبكلتا الطريقتين ورد النظم الحكيم فقد ولى الهمزة الطرف الممدوح (**أفمن اتبع رضوان الله**) وفى سورة الملك ولى الهمزة الطرف المذموم (**أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم**) [الملك: ٢٢]، وسيأتى لهذا تفصيل واف فى غير هذا الموضع إن شاء الله.

أسرار النظم وبلاغياته:

* أول ما يلفت نظرنا فى هذه الآية اجتماع الاستفهام والتشبيه (السلبى) والطباق والمجاز الاستعارى فى موضعين.

فالاستفهام أمره ظاهر، ومجيؤه على هذه الصورة له نظائر ستأتى. ونعنى بنظيره تركيب جملتى الاستفهام من تشبيه وطباق. وهذا التشبيه اسميناه «التشبيه السلبى»، وكنا قد أفردنا له مبحثا خاصا فى غير هذه الدراسة[1]. وسوف نوجز الحديث عنه فيما بعد.

* أما الطباق فظاهر بين (**رضوان**) و(**سخط**) والمجاز الاستعارى هو فى (**اتبع**) و(**باء**) فكلاهما استعارة تصريحية تبعية، فقد شُبِّه فى الأول العمل بما يرضى الله ورسوله بالاتباع الحسى سعيا لتحقيق منافع قيمة. والعلاقة شدة الحرص على نجاح المطلوب فى كل. وتشبيه سوء المصير فى الثانى بالرجوع إلى الخلف مع الخيبة والانتكاس. وحصول نقيض المطلوب.

* * *

(١) انظر كتابنا (خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية)، مكتبة وهبة.

٢٥ - ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

الدراسة والتحليل:

لايزال الحديث مستمرا عن وقائع أُحُد، لأن السورة تتبعت كثيراً مما حدث عقبها، فرصدت الداء، ووصفت الدواء. وكان بعض المسلمين قد استعظموا ما حلَّ بهم يوم أُحُد، وجهلوا أو تجاهلوا أسبابه، وقالوا من أين حلَّ بنا ما حل، وما هى أسبابه. فنزلت هذه الآية تعاتب المسلمين عتابا فى شدة. وقد اشتملت الآية على استفهامين:

الأول: فى صدرها، وهو صادر عن الله (أوَلَمَّا..) والثانى: صادر عن المسلمين حكاه عنهم القرآن، وهو: (أنَّى هذا) ويقصدون بـ(هذا) ما أصابهم يوم أحد.

والأئمة متفقون على أن الاستفهام الأول (أوَلَمَّا) للإنكار والتقريع والتوبيخ على هذا القول الذى قالوه وحكاه القرآن عنهم.

أما الاستفهام الثانى (أنَّى هذا) فهو للإنكار أى إنكار ما أصابهم يوم أحد. وليس الإنكار منصبا على وقوعه. فهذا لا سبيل إليه، بل مرادهم إنكار أن يكونوا -هم- أهلاً لتلك النكبات التى حلّت بهم.

والخلاصة: أن الاستفهام معناه الرئيسى هو إنكار الله عز وجل على المسلمين أن يستغربوا ما حل بهم يوم أحد بعد أن عرفوا أنهم هم أسباب تلك النكسة بمخالفتهم أوامر القائد وفرارهم من ميدان القتال. ويذكرهم الله بنصره إياهم يوم بدر حين لم تصدر منهم مخالفات، وقد قتلوا سبعين وأسروا سبعين من المشركين، فى حين أن من قتل من المسلمين يوم أحد سبعون رجلا، كان المسلمون قد أنزلوا بالمشركين خسائر فى الأنفس تعادل ضعف ما أصيبوا هم به فى أحد فحقيق أن ينكر الله عليهم استغراب ما نزل بهم وهم يعلمون أنهم هم السبب فيه.

أما الاستفهام الثانى (أنَّى هذا) فهو للاستبعاد والتعجب من حصوله. وإنما قلنا: الاستبعاد؛ لأنه أولى من الإنكار الذى ذهب إليه الائمة. لأنه أخف من الإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* المجاز العقلى فى: **(أصابتكم مصيبة)** والمصيب هو الله.

* التعبير بـ(هذا) إشارة إلى أن ما حدث فى أحد كان ماثلا أمام أبصارهم -لشدة شناعته- وكأنهم ينظرون إليه بأبصارهم وهو يقع أمامهم.

* توكيد الخبر فى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لمواجهة القلق الذى انتابهم، والتخليط فى معرفة الأسباب التى أدت بهم إلى النكسة. فالله هو الذى نصرهم لما استقاموا وهو قادر على كل شىء.

* * *

٢٦ - ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

الدراسة والتحليل:

حجاج مفحم تواجه به هذه الآية اليهود بعد أن أسدلت عليهم السورة الستار، وأنتقلت إلى الحديث عن وقعة أُحُد والأحداث التى أعقبتها.

وفرية اليهود التى يواجهها القرآن -هنا- هى دعواهم أن الله وصاهم بعدم الإيمان لكل من يقول لهم أنه رسول من عند الله حتى يتقدم أمامهم بصدقات فتأتى نار من السماء تأكل تلك الصدقات -أى تحرقها- ولو كانت غنما أو بقراً... إلخ.

قالوا هذه الفرية لصاحب الرسالة الخاتمة -ﷺ- قاصدين منها أن إيمان اليهود بالإسلام وعدم إيمانهم متوقف على هذه «المعجزة» والله يعلم أنهم غير صادقين فيما يقولون، فلا الله وصَّاهم بهذا، ولا هم سيؤمنون إذا أتاهم محمد ﷺ بهذا الاقتراح الذى عرضوه.

ولكن الله لم يستجب لاقتراحهم كما لم يستجب لاقتراح مشركى العرب لما قالوا لصاحب الرسالة: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا

زَعَـمْتَ عَلَيْنَا كِسَـفًـا، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَـبِيـلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾

[الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

لم يستجب الله لهؤلاء ولا لهؤلاء للأسباب الآتية:

أولاً: لأن هذه المقترحات نابعة من أهواء مقتـرحيها ولله سنة مطردة فى أهواء البشر يقول تعالى فيها: ﴿وَ لَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَـسَدَتِ السَّـمَوَاتُ وَ الأَرْضُ وَ مَن فِيهِنَّ. .﴾ [المؤمنون: ٧١].

ثانياً: علمه عز وجل بـأنهم يتقدمون بهذه المقـترحات مراوغين غـير صادقين. ولو استجيب لهم لانتقلوا إلى غيرها.

ثالثاً: وهو الأهم. إنهم جمـيعا حين تقدمـوا بهذه المقترحـات كان بين أيديهم من المعجـزات ما يفوق ما طلبـوه مئات الدرجـات. وهو المعجزة الكبرى الخـالدة (القرآن العظيم) فلما لم يذعنوا لهذه المعجزة الفخمة العظيمة، فكيف يؤمنون بما هو أقل منها شأنا. إن مثلهم كمثل قوم رأوا رجلا يحمل جسـما ثقيلا وزنه مائتا كجم فتحدوه أن يحمل جسما آخر وزنه عشرة كجم؟!

لذلك لم يسـتجب الله لهم. ورد على مـشركى العـرب لافتـا أذهانهم إلى أعظم المعجزات فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾

[العنكبوت: ٥١].

أما اليهود فقد أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَـتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُـنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنى أن رسلاً كـثيـرين جاءوكم بالمعجـزات فكفرتم بهم وقـتلتموهم فكيف نصـدقكم فى دعواكم الإيمان إذا جـئتكم بصدقات تأكلها النار النازلة من السماء أمام أبصاركم.

هذا، وقد علمنا من قبل مرات أن مذهب الأئمـة فى مثل هذا الاستفهام (فَلِمَ) أنه استفهام مجـازى معناه الإنكار، وأن هذا الإنكار متسلط على الواقع لا على الوقوع، وهو إنكار للسبب ليتوصل منه إلى إنكار المسبب بطريق الكناية كما تقدم فى أمثاله.

والخلاصة: أن المعانى المجازية لهذا الاستفـهام لا تقف عند حد مجرد الإنكار، بل تقترن بهذا الإنكار معان يوحى بها المقام هى:

التكذيب والتوبيخ والتغليظ والتعجيب من شأنهم فقد أنكر عليهم دعواهم، وأظهر كذبهم فيها، ووبخهم على هذا الافتراء وعجَّب الناس من حالهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* توكيد الخـبر فى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِـدَ إِلَيْنَا﴾ للتعريض باليهـود وكونهم يفْترون الكذب ويصرون عليه كل الإصرار.

* وفى ﴿تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ استـعارة تصريحيـة تبعيـة، حيث شُبِّـه الإفناء بالأكل بجامع الإخفاء فى كلٍ منهما.

* التنكير فى (**رسل**) للتعظيم والتكثير.

* ﴿بِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ إيجاز قـصر: أى بقربان أكلـتها النار، وإعـادة الجار فى (**وبالذى**) وكان يكفى أن يقال: والذى لتأكيد الواقع روما لإلزام اليهود بالحجة.

* إسناد القتل إلى يهـود عصر النزول، والقـاتل فى الواقع هم أسلافهم الأقـدمون، للدلالة على أن يهود عصر النزول ليسـوا بأقل شروراً من أسلافهم الأقدمين، وفى هذا الإسناد مجـاز مرسل علاقـته المسببـية، فالمخـاطبون وهم يهود عـصر النزول مسببون عن اليهود الأقدمون؛ لأن هؤلاء أبناؤهم، والأقدمون آباؤهم.

* ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إيجاز حذف على مذهب البصريين لحذف جواب الشرط الذى دل عليه ما قبله: (**فلم قتلتموهم**) وتقديم جواب الشرط على مذهب الكوفيين على فعله؛ لأن جواب الشرط هو محط الإنكار لا فعل الشرط.

* * *

سورة النساء

١ - ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠-٢١].

الدراسة والتحليل

هذان الاستفهامان أول استفهام يرد فى سورة النساء فى شأن النساء، يدفع الظلم عنهن، وينظم بعض العلاقات الزوجية بينهن وبين أزواجهن. فإذا أراد الزوج مفارقة زوج والاقتران بأخرى. فيحرم عليه ظلم التى يريد فراقها، فلا يأخذ شيئًا مما أعطاه لها فى ظل الحياة الزوجية من صداق وغيره. لأن الصداق ملك خالص لها تستحقه بدخوله عليها كاملا، وما يعطيها من هدايا ومنح، فهذا كله لا يجوز للزوج الرجوع فى شىء منه. هذا هو ما تقرره الآية الأولى أما الاستفهام فى عجزها، وفى صدر الآية الثانية، ففيهما توكيد للنهى فى الآية الأولى: ﴿فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ ومن السمات البيانية فى القرآن، وكذلك التشريعية، أن القرآن إذا ورد فيه نهى أو أمر أُتبع كل منهما بما ينفر من المنهى عنه، ويرغب فى المأمور به من أساليب بلاغية مساعدة على اجتناب النواهى، وامتثال الأوامر.

والاستفهامان عند الأئمة، للإنكار وتقرير النهى كما سبق فى التقديم وهذه عبارة أبى السعود والألوسى فى المراد من الاستفهام فى الموضعين «والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أى أتأخذونه باهتين آثمين»[١].

ويقول أبو حيان فى الاستفهام الأول: «وهذا الاستفهام على سبيل الإنكار، أى أتفعلونه مع ظهور قبحه»[٢].

وقال فى الثانى: «وهذا استفهام إنكار أيضا، أنكر أولاً الأخذ، . . وأنكر ثانيا حالة الأخذ، وأنها ليست مما يجامع حالة الإفضاء . .»[٣].

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/١٥٨) وروح المعانى: (٤/٢٤٥). (٢) البحر المحيط: (٣/٢٠٧).
(٣) التحرير والتنوير: (٤/٢٨٩).

ويفرق ابن عاشور بين الأول والثانى، فالأول إنكارى فحسب والثانى إنكارى تعجيبى[1].

والخلاصة: أن ما قاله الأئمة لا مشاحة فيه بيد أننا نضيف إليه ما لا يتنافى معه:

فالأول: إنكارى تغليظى وليس إنكاريا فحسب، ووجه التغليظ فيه وصفه بالبهتان والإثم.

أما الثانى فاستبعادى تحذيرى لقرنه بما ينافى وقوعه عند الشرع والعقل والفطر السليمة.

أسرار النظم وبلاغياته :

* في قوله **(قنطارًا)** كناية عن صفة هى الكثرة؛ لأن مفهوم الوزن غير مقصود. والقناطير مما يضرب بها المثل فى الكثرة.
* النهى عن أخذ البعض **(منه شيئًا)** أبلغ من النهى عن أخذ **(الكل)**: **(فلا تأخذوه)** لأن النهى عن (الكل) لا يستلزم النهى عن أخذ (البعض) أما النهى عن أخذ البعض فيستلزم النهى عن أخذ الكل. وهذا ما سلكه النظم الحكيم لئلا يظن الأزواج أن بعض ما أعطوه لأزواجهم مما يحل أخذه. وفى هذا رعاية فائقة لحقوق المرأة وسد لكل الثغرات الموطئة لأنتقاص حقوقها حتى فى حال الخصام والتفريق.
* وفى وضع المصدر **(بهتانا - إثما)** موضع الصفة **(باهتين آثمين)** زيادة تشنيع للأخذ المنهى عنه، أى هو البهتان بعينه، والإثم بعينه. وهذا من شأنه مساعدة النفوس على اجتناب المنهى عنه.
* وفى ﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ كناية من ألطف الكنايات عما يستقبح التصريح به من أعمال الرفث وألفاظه فالبيان القرآنى يهدى - دائما - للتى هى أقوم فى الألفاظ والمعانى والأخلاق والسلوك.
* وفى قوله ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أستعارة مرشحه، حيث شبه العلاقة القوية بين الزوجين بالحبل الموثق، ثم استعار الغلظ لقوته ومتانته. وهذه الاستعارة ترشيح للاستعارة الأولى؛ لأنها - أى الغلظة - من ملائمات المشبه به.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٨٩/٤).

وفى هذا تحذير وإنذار من الإخلال بمقتضيات ذلك الميثاق المبرم بين الزوجين.

وهذا - بدوره - عامل بيانى مساعد على الوفاء والالتزام بالعدل المؤلف بين القلوب.

* * *

٢ - ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

الدراسة والتحليل:

تحدثت الآيات قبل هذه الآية عن صنف من الناس لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويراءون الناس بالإنفاق وبعض الأعمال الصالحة بحسب الظاهر. والبخل سجيته فيهم، ضالعون هم فيها ويروجونها بين الناس. ويكتمون فضل الله عليهم، ثم جاءت آيتنا بعد هاته الآيات مصدرة بهذا الاستفهام.

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله).

فالقرآن ينفى أن يكون لهم عذر فى ترك الإيمان بالله واليوم الآخر، والإنفاق فى سبيل الله. بل إن ما تركوه أخف محملا مما اقترفوه من كفر وبخل فالإيمان يحرر العقول والنفوس ويطهر القلوب، ويجعل الإنسان يحس بالسعادة فى كل لحظة تمر به والانفاق فى سبيل الله يؤهل صاحبه لرضوان الله فى الدنيا والآخرة، مع التعويض ومضاعفة الأجر.

ولهذا فإن الأئمة يحملون هذا الاستفهام على الذم والتوبيخ. وفى هذا يقول الزمخشرى:

«وأى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان والإنفاق فى سبيل الله والمراد الذم والتوبيخ»(١).

ويقول العلامة أبو السعود:(٢).

«وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة فيه، والاعتقاد فى الشىء بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب، لعله يؤدى بهم إلى العلم بما فيه من

---

(١) الكشاف: (١/٥٢٧). (٢) تفسير أبى السعود: (٢/١٧٧).

الفوائد» وهذا فهم طيب من أبى السعود، لأن الاستفهام لا يقف عند حد الذم والتوبيخ، بل يتعدى ذلك ليبعث فى نفوسهم البحث عن الصواب، والإجابة على السؤال لتكون لهم معوانا على التبصر واستجلاء الحق.

ونقل الألوسى عبارة أبى السعود مع تبديل يسير فى بعض الألفاظ[1] كما يرى ابن عاشور أن الاستفهام فى هذه الآية، إنكارى توبيخى[2].

والخلاصة: أن الأئمة، مجمعون على إرادة الإنكار والتوبيخ من هذا الاستفهام، ولكن أبا السعود خطا به خطوات أخرى أصاب المحزفى رصدها.

لأن هذا الاستفهام فيه تشويق للبحث عن الإجابة بما يحمل من لطف العبارة: **(ماذا عليهم)** فإذا فكروا علموا أن لا تبعة عليهم ولا كلفة، لا فى الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا فى الانفاق فى سبيل الله» لأن الإيمان لا يكلفهم شيئًا إذ هو حركة قلب ينفلت بها من الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم. أما الإنفاق فإنهم ينفقون فعلا، ولكن فى غير سبيل الله. وبحركة قلب يصبح ذلك المال المنفق رياء قربات ترفع درجاتهم عند الله.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿مَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ استفهام فيه تطرية للنفوس، وإثارة للذهن، وتنشيط للعقول لتهب من سباتها علها تصل إلى التمييز بين الباطل القائم والحق الغائب.
* وفى تقديم الإيمان وتأخير الانفاق، لإن الإيمان هو الأصل، والإنفاق القائم على غير الإيمان وبال على أهله.
* وفى قوله ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ تذكير لهم بأن ما فى أيديهم من ثروات يراءون الناس بالإنفاق منها إنما هى من الله ولو شاء الله لأمسك عنهم رزقه، ولسلط الكوارث على ما فى أيديهم فذهب ومُنُوا بالحسرة والندامة.
* أما قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ فهو خبر أريد به الوعيد والتهديد. إذ ليس المقصود إعلامهم بعلم الله بهم، بل المقصود إحصاء أعمالهم السيئة ونياتهم الخبيثة، ثم مجازاتهم عليها، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) روح المعانى: (٥/ ١٦).

(٢) التحرير والتنوير: (٥/ ٥٤).

* وفى وضع المظهر (الله) فى (فى سبيل الله) وفى ﴿مِمَّا رَزَقَهُم اللهُ﴾ موضع المضمر تربية للمهابة لعلهم يثوبون إلى رشدهم فى الدنيا والدين، ولو كان قيل فى سبيله، ومما رزقهم لكان صوابا وهو مقتضى الحال المخروج عنه ولكن المعنى دون الأول.

* * *

٣ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

الدراسة والتحليل :

قبل هذه الآية كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا، وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبعدها جاء قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ فالآية التى قبل آيتنا تقرر أمرين: عدل الله، وسعة فضله. والآية التى بعدها تشير إلى سوء مصير من كفر بالله وعصى رسوله، حتى ليتمنوا أن تبتلعهم الأرض وهم أحياء فراراً من سوء مصيرهم، وبين هاتين الآيتين جاء هذا الاستفهام التهويلى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ وهذا النسق الحكيم بعث فى النفوس أشد الدوافع للرغبة فى عدل الله وفضله بالإيمان والطاعة، والفزع - كل الفزع - من المصير المؤلم والعاقبة البئيسة. ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من يحيا عن بينة، وكل امرئ بما كسب رهين.

وقد أهمل الأئمة الحديث عن هذا الاستفهام إلا الطاهر بن عاشور فقد حمله على التعجيب من حالهم(١).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام الأصح أن يحمل على التهويل والتفظيع من حال مكذبى الرسل المرائين بما يقولون وما يفعلون. أما حمله على التعجيب وحده فغير كاف فى معناه .

أسرار النظم وبلاغياته :

هذا الاستفهام كما تقدم تهويلى يبعث على الخوف والفزع مما ينتظر كل العصاة

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٥٧).

الكفرة بالله ورسله. وقد ساعد على شدة التهويل وفظاعته حذف المستفهم عنه، وهو حال أولئك المجرمين بكفرهم وعصيانهم الرسل، ومراءاتهم الناس، وكتمانهم لفضل الله عليهم.

وحذف المستفهم عنه إيحاء بأن اللغة تضيق عن تصويره لغرابته وبشاعته، وأن العهد لم يجر به أبدًا..

كما يساعد حذف المستفهم عنه أن تذهب النفس كل مذهب فى تخيله وتصوره. وهذا منهج بلاغى يكثر وروده فى التنزيل الحكيم.

* فى إيثار اسم الإشارة الموضوع للقريب **(هؤلاء)** إشعار بأن العصاة الذين سجل القرآن جرائمهم مقهورون فى قبضة القدرة الإلهية. وليس لهم من عقابه مفر لا من الأمم الغابرة، ولا من أمة خاتم الرسل فلن يجدوا لهم محيصا ولا مفزعا من عذاب الله والله من ورائهم محيط.

* * *

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

الدراسة والتحليل:

هذا عود للحديث عن اليهود، وبيان أنهم يؤثرون الضلالة على الهدى فى خاصة أنفسهم، ثم يتمنون هذه الضلالة للمؤمنين ليكونوا مثلهم فلا يُفضَّلون عليهم بالهدى والتقوى.

والاستفهام فى **(ألم تر)** استفهام تقريرى كما تقدم مرات وفيه إشعار بأن شراء اليهود للضلالة ظاهر كل الظهور حتى لا يخفى على ذى بصر وسمع. ورأى الأئمة فى هذا الاستفهام هو ما أشرنا إليه وهو التقرير بالنسبة للمخاطب والتعجيب من حالهم وتوبيخهم عليه. وهذه خلاصة ما يقال فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أُوتوا نصيبا من الكتاب)** تعبير قرآنى شاع فى العهد المدنى بعد الهجرة بمناسبة وجود

اليهود فيها. وهو وصف مطابق لحالهم حقيقة لا مجازًا. وإنما المجاز فى (أوتوا الكتاب) وهم كما تقدم لم يؤتوا كل الكتاب الذى هو (وحى الله) ونوع المجاز فيه مرسل علاقته الكلية، حيث أطلق الكل وأريد الجزء، وهو النصيب الذى جاء به التنزيل هنا. وهذا تطور فى حديث القرآن عنهم ناسب مقتضى الحال فى المدينة المنورة بعد الهجرة.

* * *

٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ، بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٤٩ - ٥١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآيات الثلاث استطراد فى الحديث عن اليهود وتسجيل لجرائم جديدة أو معادة قالوا بعضها فى سورة البقرة فى غير آيات الاستفهام التى درسناها، من مثل ادعائهم أنهم وحدهم هم المهتدون، وأنهم هم وحدهم سيدخلون الجنة.

وهذا هو ما أشارت إليه الآية الأولى فى قوله: (**يزكُّون أنفسهم**).

ثم جاءت الآية الثانية تدعو إلى التعجيب من افترائهم الكذب على الله، وأن كذبهم هو الإثم المبين، وكفى به ذنبا يستحقون عليه أشد ألوان العذاب.

أما الآية الثالثة، فقد أعيد فيها التعجيب من توغلهم فى الباطل. فهم - أى اليهود - لا يؤمنون بالله بل يؤمنون بالجبت، وهو الشيطان فى اللغة الحبشية، ويؤمنون بالطاغوت وهم الأصنام، وأن من حقدهم على المسلمين يفضلون الذين كفروا - مشركى العرب - عليهم - أى على المسلمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ أى يقولون فى وصف المشركين أنهم أهدى من المسلمين. والظاهر أنهم كانوا يقولون هذا فى: مكة وهم وسط المشركين بدليل الإشارة إليهم بـ (**هؤلاء**) وهو اسم إشارة للقريب. وإلى هذا ذهب كُتَّاب

السير، بأن وفداً من اليـهود ذهبوا إلى مكة بعد غزوة أحد ليحالفـوا كفار قريش على حرب النبى ﷺ والمسلمين. فكان مما قاله وفـد اليهود لمشركى قريش هذا الذى حكاه عنهم القـرآن. فأنزل الله على رسـوله هذه الآية التى فضـحت تآمرهم ضـد صاحب الرسالة الخاتمة وتابعيه.

وفى كل آية من هذه الآيات الثلاث ورد استفهـام؛ الأول والثالث كانت الأداة فيه **(ألم)** داخله على فـعل الرؤية **(تر)** أما الثـانية فالأداة فيـها هى **(كيف)** والظاهر أنها استفهام، ويجوز أن تكون للدلالة على «كيفية افترائهم الكذب».

والاستفهامان الأول والثالث عرفنا مرات رأى الأئمة فى أمثالهما وهو أن الاستفهام فيهما للتقرير وهذا حق وصواب. وبعضهم يردف عليه التعجيب من حالهم بعد تقرير الرؤية(1).

أما الاسـتفهام الثـانى فهو للتعـجيب من افترائهـم على اللّه الكذب على وجه لم يُسبـقوا إليـه؛ لأنهم ينسجـون كذبهم من الأوهام التـى لا وجود لها حـتى فى ذهن الكذاب نفسه. فهم يكذبون ويعلمون أنهم فى كذبهم كاذبون.

والخلاصة: أن الاستفهامين الأول والثالث: **(ألم تر)** للتقرير بوقوع الرؤية والتعجيب من حال المتحدث عنهم الغريبة.

أما الاستفهام الثانى **(انظر كيف يفترون..)** فهو للتعجيب من كذبهم المفترى الشنيع.

أسرار النظم وبلاغياته :

* فى قـوله **(يزكون)** إيجاز قِصَـر، حيث جمعت هذه الكلمة القـصيرة معانى كـثيرة وردت فى عدد من الآيات فى سـور مختلفة من ادعائهم أنـهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لن يدخلهـا أحد سواهم، وأن الهـدى هو ما هم عليـه وحدهم، وأنهم أغنياء والله - سبحانه - فقير.

* فى ذكر **(بل)** فى قوله: **(بل الله يزكى من يشاء)** تكذيب لتزكيتهم أنفسهم، ولو قيل: والله يزكى من يشـاء.. لسلمت لـهم تزكـيتـهم أنفـسـهم. لأن **(بل)** فى الآيـة

(1) تفسير أبى السعود: (٢/ ١٨٨) وروح المعانى (٥/ ٥٤).

للإضراب الإبطالى. فما قبلها باطل، وهو تزكية اليهود أنفسهم على نحو ما حكاه عنهم القرآن. وما بعدها صحيح وهو أن الْمُزَكَّى من زكاه الله لا غيره.

* وفى ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ بعد تقرير عدل الله تعالى كناية عن أدنى حدود القلة، مما يتصل بمعنى العدم؛ لأن الفتيل هو خيط فى نواة التمرة لا يغنى ولا يفقر، والمراد نفى الظلم أصلا فـ ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أى أن هؤلاء اليهود مع قبح جرائمهم إن كان لهم مقدار فتيل من الخير كوفئوا به فى عاجل دنياهم، وليس لهم فى الآخرة إلا النار.

* وفى قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ إشعار بأن قبح أكاذيبهم لكثرتها وشناعتها،وهى مما تسمع بحاسة السمع صارت لذيوعها ترى بحاسة البصر. وفى هذا مبالغة فى تصويرها بإخراجها من دائرة المسموعات إلى دائرة المبصرات.

* وقوله ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله.

* وفى قوله: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الكِتَابِ﴾ إيذان بأن ضلالهم وكفرهم لم ينشأ عن جهل بما كفروا به وضلوا فيه؛ لأن عندهم التوراة فى أصول الإيمان وحقائقه فلم يعصمهم كتابهم من عبادة الشيطان والأصنام، وذلك هو الضلال المبين.

* فى إيثار المضارع: **(يزكون)- (يفترون) (يؤمنون بالجبت والطاغوت) (يقولون للذين كفروا)** للإيذان بأن هذه الجرائم هى ديدن اليهود يروحون ويغدون فيها، وليست أحداثا وقعت ثم انقطعت.

* * *

٦ - ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣-٥٤].

الدراسة والتحليل:

وهاتان الآيتان استطراد آخر للحديث عن اليهود. وهما تصفان اليهود بخلتين هما أخس الخُلل: البخل مهما ملكوا من حطام الدنيا. والحسد. وهو أخو البخل؛ لأن البخيل يضن بما له على من سواه، ويحسد غيره إذا أوتى فضلا من الله، فكل من البخل والحسد متلازمان عند صاحبهما، والبخيل لو ملك خزائن السموات والأرض لاستأثر بما فيها، ولما جاد بشيء منها لأحد، وتصدر الاستفهام بـ (أم) كلا من الآيتين. و(أم) هنا هى (أم) المنقطعة التى لا معادل لها. وتفيد الإضراب مع تضمنها لهمزة الاستفهام. وقبلها (بل).

يقول الإمام جار الله:

«أم منقطعة. ومعنى الهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك»[١] هذا ما قاله فى الاستفهام الأول. أما الثانى فقد قال فيه:

(**أم يحسدون الناس**) بل أيحسدون رسول الله ﷺ والمؤمنين. على إنكار الحسد واستقباحه»[٢] ومعنى هذه الجملة الأخيرة من كلامه: أن الله ينكر على اليهود حسدهم للناس ويستقبحه. أى أن الهمزة للإنكار والتقبيح، ونحا نحوه أبو السعود، وكل ما زاده عليه تجويز أن تكون الهمزة لإنكار الواقع أو إنكار الوقوع. وبل للإضراب الانتقالى من ذمهم على تزكية أنفسهم إلى ذمهم على ادعائهم نصيبا من الملك[٣].

وكذلك ذهب الإمام الألوسى[٤].

وما قاله هؤلاء الأئمة فى(**أم لهم نصيب من الملك**)، قالوه فى (**أم يحسدون**) وكذلك صنع الطاهر بن عاشور، حيث قرر أن الاستفهام فى الموضعين للإنكار، وبل للانتقال من معنى وُصِف به اليهود إلى معنى آخر من النقائص التى لصقت بهم[٥].

(١، ٢) الكشاف (١/ ٥٣٤).
(٣) تفسير أبى السعود: (٢/ ١٨٩).
(٤) روح المعانى: (٥/ ٥٧).
(٥) التحرير والتنوير: (٥/ ٨٨).

والخلاصة: أن الأئمة الأربعة - وغيرهم - مجمعون على أن الاستفهام فى آيتنا - هنا - للإنكار. وهذا مُسَلَّم لهم فى الاستفهام الأول: (**أم لهم نصيب من الملك**) أى لا نصيب لهم وإنما هى دعوى يدعُونها. وهذا توجيه سليم.

أما الاستفهام الثانى (**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**)، فالأظهر - فيما نرى - أنه استفهام تقرير لا إنكار. والمعنى:

أنهم ليس لهم نصيب من الملك، بل هم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وهذا التقرير - أعنى الإثبات - يستتبعه التوبيخ والتقريع على جريمتهم هذه التى هى متولدة عن بخلهم وكتمانهم فضل الله عليهم.

هذا هو الذى رأيناه أولى بالفهم من الإنكار، لأن التوبيخ يؤدى معنى الإنكار الذى جزم به الأئمة فى الموضعين ومعروف - بلاغيا - أن التوبيخ والتقريع يصاحبان التقرير كما يصاحبان الإنكار، حسب دلالات المقامات وقرائن الأحوال.

أسرار النظم وبلاغياته :

* فى قوله تعالى: (**نقيرًا**) كناية عن أدنى حدود القلة والنقير هو دائرة صغيرة جدًا فى ظهر النواة أو الحصاة وهى فى الواقع فى حكم العدم بخلوها من أدنى فائدة. والمراد منها بلاغيا بيان مقدار بخل اليهود، على معنى أنهم لو كان لهم نصيب من الملك لبخلوا بما يساوى النقير فى عدم الفائدة.
* فى قوله تعالى: (**الناس**) عموم أريد به الخصوص؛ لأن لفظ الناس جنس أعلى يشمل كل ولد آدم. والمراد منه هنا طائفة مخصوصة هم المسلمون. وسر إطلاق العام وإرادة الخاص هنا الإشارة إلى أن ما يضمره اليهود من الحسد للمؤمنين شىء فظيع يتسع لشمول الناس كلهم من شدته والمبالغة فيه.
* وفى إيثار المضارع (**يحسدون**) استحضار لتلك الصورة التى تتجدد عندهم بتجدد أسبابها، فهم لم يحسدوا المؤمنين مرة واحدة، بل يحسدونهم مرات ومرات لا تتوقف وإن تخللها بعض الفتور.
* ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ. . .﴾ لما كان الحديث هنا عن اليهود، جاء

تذكيـرهم بإنعام الله على الأنبيـاء من ذرية إبراهيم بالوحى والعلم. ومحـمد ﷺ واحد مـن ذلك النسب الطاهر أنعم الله عليـه بمثل ما أنعم به على إخـوانه الرسل كموسى وداود وسليـمان ولليهود صلة بأولئك الأنبـياء لم يحسنوا استـثمارها ولم يقدِّروها حق قدرها فأضاعوا بكفرهم فـرصة الإفادة منها. فقد أتاح الله للمؤمنين فرص هـذا الفضل كـما أتاحهـا لهم هم من قـبل، وفى هذا توبيخ لليهـود على حسدهم نعمًا قد مُنَّ عليـهم من قبل بمثلِها. والله ذو الفضل العظيم يختص به من يشاء ممن يستحقونه من عباده المخلصين.

* * *

٧ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمـا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَـاكَمُوا إِلَى الطَّاغُـوت وَقَدْ أُمِرُوا أن يَكْفُـرُوا به وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِـيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِين يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

الدراسة والتحليل:

وهذه الآيات الثلاثة استمرار للحديث عن اليهـود، وإن ظهر معهم ذكر المنافقين. والآيات لها سبب نزول نص عليه المفسرون وهو أن رسول الله ﷺ قضى فى خصومة بين يهودى ومنافق، فلم يرض المنافق بحكم رسول الله، وعرضا الخصومة مرة أخرى على غير رسول الله، وهو كعب بن الأشرف اليهـودى أو عرضاها على كهنة اليهود، ومهمـا كان السبب فـإن المعنى فى الآيات عام يشمل جمـيع اليهود والمنافقـين. وما عرضــه القرآن عنهم - هنا - عـرض مثله مرات فى مـواطن أخرى من سـور القرآن الكريم، أمـا الاستـفـهام فى صـدر الآية الأولى **(ألم تر)** وفى صـدر الآية الثالثـة: **(فكيف..)** فهما للتعجيب والتوبيخ والتفظيع والتـهويل والاستقباح عند جميع الأئمة، ولنذكر ما قاله الإمام أبو السعود فيهما نيابة عن الأقدمين:

(ألم تر..) تلوين للخطاب وتوجـيه له للرسـول ﷺ تعجـيبا له من حـال الذين

يخالفون ما مر من الأمر المحتوم، ولا يطـيعون الله ورسوله. ووصفهم بادعاء الإيمان بالقـرآن، وبما أنزل من قبله - أعنى التـوراة - لتأكـيد التـعجـيب، وتشديد التـوبيخ والاستقباح ببيان كمـال المباينة بين دعواهم (الإيمان) وبين ما صدر عنهم»[1] وكذلك سلك فى (فكيف) وهو استفـهام لتفظيع حالهم وتهويله، ويقصـر الطاهر بن عاشور دلالة الاستفهام فى (فكيف) على تهويل حالهم التى يصيرون إليها[2].

والخلاصة: لا خـلاف بين الأئمـة فى دلالة الاسـتفـهـام الأول (ألم تر. .) على التعجـيب من مخالفة العمل القـولَ عند اليهود وهذا التعجـيب مع ما ضم من توبيخ واستقباح ناشىء عن تقـرير الرؤية الواقعة فى حيز الاستفهام، فـدلالة هذا الاستفهام أصلا. هى التقرير بالنسـبة للمخاطب ﷺ ومن يصح خطابه. أما التوبيخ ومـا أشبهه فهذا بالنظر إلى المتحدث عنهم.

أما (**فكيف**) فهو للتهويل والتفظيع ضرورة، ويترتب على هذا تعجيب المخاطب من غرابة تلك الحال.

أسرار النظم وبلاغياته :

* صيغة (**ألم تر..**) فيها إثارة وتشويق لعقبى الكلام كيف تكون، وهذا المعنى لا ينفك عنها أبدًا مع ما يلاحظه فـيه البلاغيون من مـعان أخرى، فهى تثيـر الذهن وتهيؤه للانتباه والتلقى. ويـقع بعدها إما البشريات العظام والآيات الفـخام. وإما الخطوب الجسام. فمن الخطوب الجسام: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، ومن الآيات الفـخام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَـيْفَ مَدَّ الـظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَـعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٦]، ومثال البـشريات العظام ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَـرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا. . .﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

* وفى مجئ صـلة الموصول (**يزعمون**) تنبيـه مبكر على أن المتـحدث عنهم - وهم اليهود - يدَّعون ما ليس واقعـا، وهو الإيمان بالقرآن وبما سبقه زمنا من وحى، وما هم بمؤمنين.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ١٩٤).

(٢) التحرر والتنوير: (٥/ ١١٠).

* فى إيثار الكناية (**بما أنزل إليك**) عن التصريح (القرآن) تشريف لصاحب الرسالة الخاتمة باستمرار الخطاب معه (إليك) ولو قيل القرآن: لما تأتى استمرار الخطاب.

* وفى إيثار المضارع: (**يريدون - يزعمون - يتحاكموا**) استحضار لصورة هذه الأحداث فى الذهن وكأنها تقع الآن.

* ذكْرُ (**إلى**) فى قوله (**إلى الرسول**) لدفع توهم غير المراد إذْ لو قيل: (**تعالوا إلى ما** أنزل الله والرسول) لأشركت الواو العاطفة الرسول مع الله فى الإنزال. وهذا فاسد ولكن لما ذكرت (**وإلى**) أشركت الواو العاطفة المعطوف مع المعطوف عليه فى الإقبال: الإقبال على الله.. والإقبال على الرسول. وهذا لا حظر فيه بل هو من علامات طاعة الله.

* إيثار حرف العطف (**ثم**) فى قوله: (**ثم جاءوك**) إشارة إلى أن المنافقين بقوا يفكرون فى أمرهم بعد المخالفات التى ارتكبوها، ثم اهتدوا إلى تلك الكذبة التى أعلنوها أمامه ﷺ: (**إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا**).

* وفى ذكر المحلوف به (**بالله**) وكان من السائغ أن يكتفى بالفعل (**يحلفون**) دلالة على أن اليهود أو المنافقين يحرصون كل الحرص على ترويج أكاذيبهم، وتخليط الحق بالباطل لدفع ضرر، أو لجلب نفع.

* * *

٨ - ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾ [النساء: ٧٥].

الدراسة والتحليل:

المقام الذى وردت فيه هذه الآية مقام الحث على القتال فى سبيل الله، والقتال لما فيه من مخاطر يحجم عنه الناس، وتهابه النفوس، ولكنه قد يجب خوضه لإعلاء كلمة الله، ودفع الظلم والاضطهاد عن الضعفاء إذا أوذوا من أجل دينهم لذا كان من سياسة القرآن حث المؤمنين على الجهاد ببيان فضله وكريم آثاره. وتنشيط النفوس

للإقبال عليه إذا وجب، وآيتنا هذه واحدة من آيات ترغب فى القتال إذا وجب وتدفع عن المؤمنين البواعث المثبطة للهمم، وقد بدأت بهذا الاستفهام:

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ . . .﴾.

وهذا الاستفهــام عند الأئمة كما فى نظيره المتقدم ذكــره فى سورة البقرة: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ كلاهما للإنكار أو النفى، على معنى: لا عذر لكم فى ترك القتال، أو لا سبب لديكم يسقط عنكم القتــال. وهذا المعنى عبر عنه المفسرون بألفاظ متقاربة[1].

والخلاصة: أن هذا الاستــفهام للــنفى أو الإنكار، ومدار المعنى فيــه هو الحث على القتــال فى سبيل الله وبيــان أسبابه ونفى أن يكون للمــخاطب عذر يبــيح له التخلف عنه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وما لكم..)** هذه الصيــغة فــيهــا تطرية للنفوس، وتسلل إلى طواياها وتــرقيق فى الخطاب وتودد بالدعوة فى لين ولطف.
* **(والمستضــعفين من الرجال...)** جملة اســتنهاضيــة تدفع الحميــة فى القلوب، وتهيئ العزائــم للإقدام وتحمل المشــاق. لأنها أســباب داعــية إلى حــمل السلاح وحــماية الحرمات والأرواح.
* **(الظالم أهلها)** تحويل الإسناد فى هذه العــبارة من القرية إلى أهلهــا، كراهة وصف القرية، وهى مكه، بالظلم، لما لهذه القرية من كرامة عند الله.
* تنكير **(وليا ونصيرا)** للتعظيم، وتقــديم الولى على النصير لعمــوم معنى الولى فى السلم والحرب، وخصوص معنى النصير فى الحرب.
* وذكر: **(من لدنك)** للابتــهاج بما عــند الله، وتحقــيق أن العــون مطلوب منه لا من سواه. وإفــراد كل من **(وليا)** و **(نصيرا)** بجملة دُعــائية لبيان شدة الرغــبة فى كل منهما، ولاستطالة لذة المناجاة مع الله.

* * *

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٠١)، والتحرير والتنوير: (٥/ ١٢٢).

٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ، أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية استئناف حديث عن لون جديد بعد أن لام الله المؤمنين على التراخى عن القتال فى سبيل الله مع قيام دواعيه فى الآية السابقة. أما آيتنا هذه فموضوعها الحديث عن جماعة من المؤمنين المهاجرين. كانوا يستأذنون النبى ﷺ، وهم بمكة قبل الهجرة فى أن يأذن لهم بقتال المشركين الذين كانوا يضطهدون المؤمنين الأولين، ولكن صاحب الرسالة كان يقول لهم: كفوا أيديكم عنهم وداوموا على أداء الصلاة والزكاة، ولما كتب القتال بعد الهجرة خشوه وتساءلوا لماذا يُفْرض علينا القتال مبكرًا. ورجوا أن يؤخر فرض القتال وخشوا الأعداء خشية بالغة المدى فى الشدة. فأمر الله رسوله أن يقول لهم: إن متاع الدنيا قليل فلا ينبغى الحرص عليها. أما الآخرة فهى النعيم المقيم.

هذا، وقد ورد فى الآية استفهامان: **(ألم تر)** وهو خطاب من الله لرسوله ﷺ. وهو مراد منه التعجيب من حال المتحدث عنهم. والذى دعا إلى هذا التعجيب أمران لا أمر واحد: حبهم وحرصهم على القتال لما كان غير مشروع، وكرههم ونفورهم عنه لما أصبح مفروضا عليهم. فالتعجيب من هذه الحالة متوقع. وعليه يدل هذا الاستفهام.

وهذا الاستفهام تحاشى الإفصاح عن المراد منه جميع الأئمة الذين رجعنا إليهم. وهو حسب صيغته وآراء الأئمة فيه فى مواضع متقدمة استفهام إنكارى مبنى على إنكار السبب توصلا إلى إنكار المسبب كما تقدم مرات.

والخلاصة: أن **﴿ألم تر...﴾** استفهام تقرير للرؤية، ويترتب على هذا التقرير التعجيب من حال المتحدث عنهم. أما **(لم كتبت علينا القتال)** فهو شبيه بقول الله تعالى

المحكى عن الملائكة: (**أتجعل فيها..**) بيد أن الأول (**أتجعل فيها**) وقع استفهاما عن أصل الجعل. أما هذا (**لم كتبت..**)؟ بمعنى لم فرضت فليس استفهاما عن أصل الفرضية بل عن التعجيل بها. فهو استفهـام أو تساؤل عن السبب المعجل لفرضية القتال. وأحرى أن يكون للنفى حـسب نظرتهم لا للإنكار كما هـو الشأن فى أسلوب (**لم كذا**) وهذا بلاشك خلاف الأولى من هؤلاء الفريق من المؤمنين، ونفوس البشـر يعتريها الضعف أحيانا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى قوله: (**كفوا أيديكم**) كناية عن ترك القتال، أو بمعنى أدق كناية عن استمرار ترك القتال؛ لأن المأمور بهذا الفعل: (كفوا) لم يكونوا يقاتلون حين أمروا بهذا الأمر.
* بناء الفعل (**قيل**) للمفعـول لأن الغرض البلاغى لا يتوقف على معـرفة الفاعل بل يتحقـق بصدور القول نفسه، فـهو محط الرحال. وكـذلك القول فى (**كُتب عليهم القتال**).
* فى قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ﴾ تشبيه معنوى بمثله المشبه هو خشية الناس بإضافة المصدر إلى مـفعوله. والمشبه به هو خشية الله. أى خـشية المؤمن الله ووجه الشبه هو تفخيم شأن المشبه.
* فى الأسلوب الإنشـائى: (**لِمَ كتـبت علينا القـتال**) استعطاف واسـترحام. وأولى أن يكون هذا المعنى هو المراد من الاستفـهام هنا نظرًا لحال قائليه من أصـحاب رسول الله ﷺ، وكونهم مشهودًا لهم بالسبق والفضل.
* التنكير فى (قليل) للتحقير قطعًا.
* ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ كناية عن نفى أدنـى حالات الظلـم وتقرير لعـدل الله عـز وجل.

* * *

١٠ - ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّم الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ، وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ، فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

الدراسة والتحليل:

فى القرآن الكريم - كما أشرنا قبلا عند بعض آيات سورة البقرة - منهج بلاغى دقيق، وهو أن يتحدث عن طائفة صفاتها معروفة عند المخاطب، ثم يتحدث عن طائفة أخرى لها خصائص معلومة تختلف عن الطائفة الأولى، ويكون حديثه عن الطائفتين إما بطريق الغيبة أو بطريق الخطاب دون فاصل بين الحديثين. حتى ليخيل للقارئ أو السامع أن الحديثين وصف واحد لطائفة واحدة، وعند التأمل فى قرائن الأحوال التى ينبئ عنها النظم الحكيم يتضح الفرق جليا بين الحديثين، وأن المتحدث عنهم أولاً ليسوا هم المتحدث عنهم ثانيا، لأن خصائص هؤلاء المعلومة غير خصائص أولئك المعلومة كذلك. وهذه الفوارق الدقيقة لا يتوصل إليها إلا عالم فطن. أما غير العلماء فيختلط عليهم الأمر، وقد يقعون فى حيرة وقلق شديد.

ومما يزيد الحيرة والارتباك أننا نجد أحيانا ما يصلح أن يكون معنى مشتركا بين الطائفتين، مذكوراً بجانب الحديث عن أحدهما. فيقع فى ظن المتعجل أن الحديثين جاريان على موصوف واحد، والواقع يختلف عن هذا الظن.. ومن أمثلة هذا المنهج القرآنى الدقيق الآيتان (٧٧) و (٧٨) من سورة النساء. فالآية (٧٧) الحديث فيها عن فريق من المؤمنين، بل هم من أصحاب رسول الله ﷺ.

والآية (٧٨) التى معنا الآن الحديث فيها يدور عن المنافقين. والآية (٧٧) انتهت بخطاب المؤمنين ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ والآية (٧٨) بدأت بهذا الخطاب ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

وهذا الخطاب يصلح أن يكون للمؤمنين، ويصلح أن يكون للمنافقين، ويصلح أن يكون لهما معاً فى وقت واحد فهو مصير مشترك لجميع أصناف الخلق. ولكن عندما تقرأ:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ، قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

عندما نقرأ هذا الكلام نجزم باستحالة أن يكون المتحدث به عنهم هم المؤمنين. كما نجزم بأن الحديث فى الآية (٧٧) يستحيل أن يكون عن المنافقين لأن النفاق ولد فى المدينة بعد الهجرة. والمنافقون لم يكن لهم ولا للنفاق وجود فى مكة قبل الهجرة..

فكيف يكون المنافقون قد طلبوا قتال المشركين بمكة قبل الهجرة.

وبهذا يتحدد بكل وضوح من هم المتحدث عنهم فى الآية (٧٧) ومن هم المتحدث عنهم فى الآية (٧٨) أما صدر الآية (٧٨) فهو اعتراض أريد به العموم بين الحديث عن المؤمنين، والحديث عن المنافقين، هذا التمهيد المهم ذكرناه حتى لا يفاجأ القارئ حين نقول إن قوله تعالى:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ..﴾ إلى آخر الآية هو حديث عن المنافقين إثر الحديث عن المؤمنين، هذا غرض لنا أصيل من هذا التمهيد والغرض الثانى أن نبين سمات هذا المنهج القرآنى الدقيق؛ لأن دارس القرآن محتاج إليه فى مواضع كثيرة غير هذا الموضع.

أما الاستفهام ﴿..فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾. فهو استفهام مجازى المراد منه إظهار جهل المتحدث عنهم والتعجيب من حالهم هذه، والنعى عليهم بكمال غباوتهم[١].

وهذه خلاصة ما قيل ويقال فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أسلوب خبرى مراد منه الترهيب والتحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها. وفى جملة **(يدرككم الموت)** استعارة مكنية شبه فيها الموت بعدو يطارد عدواً. ثم حذف المشبه به ورمز له بالإدراك لأنه من لوازمه. وسرها البلاغى تصوير حلول الموت فى صورة سريعة محسوسة لتابع يطارد متبوعا لابد من سقوطه فى يد طالبه.

(١) انظر تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٠٥).

* وتنكير (بروج) للتعظيم، أى حصونه محكمة البناء والحفظ. والجملة توكيد لمضمون الجملة التى قبلها.

* **(قل كل من عند الله)** اعتراض كاشف لخطأ القول فى التفرقة بين مصدر السيئات والحسنات.

* الفاء فى (فما) للتفريع على ما تقدم.

* **(لا يكادون)** أبلغ مما لو قيل: (لا يفقهون) لأن النفى إذا سلط على (يكاد) كان المعنى نفى مقاربتهم لفقه الحديث. أما النفى إذا سلط على (يفقهون) فإن معناه يكون نفى الفقه. ونفى مقاربة الفقه أبلغ فى مقام الذم من نفى الفقه نفسه.

* تنكير **(حديثا)** لإفادة الاستغراق، أى لا يفقهون أى حديث كان.

* * *

١١ - ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الدراسة والتحليل:

بدأ الحديث عن المنافقين من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ الآية (٧٨) واستمر الحديث عنهم حتى هذه الآية (٨٢) والآيتان السابقتان على هذه الآية تكشفان عما يدور فى طواياهم من وساوس. فتدل الآية (٨٠) على أنهم كانوا يستخفُّون بطاعة الرسول ﷺ. فبينت أن طاعته هى طاعة لله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ كما تبين الآية (٨١) أنهم يتظاهرون بالطاعة فإذا خلوا إلى أنفسهم عصوا وقالوا ما لم يقولوه لصاحب الرسالة ﷺ. وتكشف آيتنا هذه (٨٢) أن هؤلاء المنافقين أوقعهم فيما وقعوا فيه جهلهم بالقرآن وتدبُّر معانيه. فلما ساء إيمانهم قبحت صنائعهم. وقد استهلت الآية بهذا الاستفهام:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ. . .﴾.

يبدأ الإمام أبو السعود القول بالمراد من هذا الاستفهام فيرى أنه استفهام إنكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان»[1].

(١) تفسير أبى السعود: (٢/٢٠٧).

وهذا توجيه طيب، كما يطبق مـذهب الزمخشرى فى حقيقة التركـيب الاستفهامى هنـا فيقول إن أصله «أيعرضون فلا يتدبـرون» فيقدر ما دخلت عليه همزة الاستفهام بـ (يعرضون) والملاحظ أن الإمام أبا السعود - ويليه الألوسى[1] - أشد حماسة لهذا المذهب ذكرًا وتطبيقا من الزمخشرى نفسه.

ويرى الطاهر بن عـاشور الرأى نـفسـه فيـقول: «فـالاستـفـهام إنكارى للتـوبيخ والتعجيب منهم فى استمرار جهلهم مع توفر أسباب التدبر لديهم»[2].

والخلاصة: أن الأئمة أصـابوا جميـعا حين اتفقـوا على أن هذا الاستفـهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب، لكنا نرى أنهم سهوا عن معنى يعلن عن نفسه فى هذا الموضع، وهو الحث على التدبر والإثارة تجاهه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* التـدبر فى الأصل هو النظر فى أدبار الأمـور لاقتناص مـا أسفـرت عنه من آثار، استعير هنـا للتفكر فى نظم القرآن بعد نزوله، لاقتناص معانيـه ومراميه، والوقوف على ما تهدف إليه.
* إيثـار «لو» فى ﴿**ولو كـان من عند غيـر الله**﴾ للإشعـار بنفى ما وقع بعدها مبـاشرة، وهو: كينونة القرآن من عند غير الله؛ لأن (لو) يقع ما بعدها منفيا دائما.
* نفى الاختلاف الـكثير لا يؤذن بنفى الاختـلاف القليل فى القرآن مع نزوله من عند الله. لأن المراد بهذه الكثرة أن الاختلاف الكثـير كان سيكون لو نزل هذا القرآن من عند غير الله. أما وهو مـن عند الله فلا اختلاف فيه أصلا فكثـرة الاختلاف بالنظر إلى غير الله، أما بالنسـبة لله - كما هو الواقع - فقد خـلا القرآن من كل اختلاف قل أو كثر فمعانيه كلها صحيحة، سواء ما احتمل التأويل وما لم يحتمله.

* * *

---

(١) روح المعانى: (٥/ ٩٢).

(٢) التحرير والتنوير: (٥/ ١٣٧).

١٢ - ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية يمجد الله نفسه، ويعلن عظمته وهيمنته على الكون كله فهو خالقه ومسيره، منه مبدؤه وإليه مصيره. وهو المتفرد بالسلطان فيه. قوله الحق، وحكمه العدل. يحصى على العباد أعمالهم ثم يجازيهم. ويوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. وفى عجز الآية ورد هذا الاستفهام.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ والأئمة[١] يحملونه على الإنكار كما يحملون نظائره. ونحن نختار أنه للنفى. لأن الإنكار يستدعى وجود طرف يدع خلاف ما يُنكرُ عليه. ولم يدع أحد، ولن يدعى، أنه أصدق من الله، أو صدقه مثل صدق الله. وحتى إن ادعى مدع شيئا من ذلك فلا يقام لإدعائه وزن، وما أكثر الأحوال التى لا تقيم لها البلاغة وزنا، وتورد الكلام على خلاف ظاهرها، لعدم الاعتداد بها. وليكن هذا واحدًا منها.

لذلك فإننا نقول: إن المراد من هذا الاستفهام هو النفى أى: لا أحد أصدق من الله حديثا. والمراد لا أحد صدقه كصدق الله. وليس المراد نفى أفعل التفضيل (الأصدقية) وهذه هى **الخلاصة:**

ليس المراد من النفى فى (ومن أصدق من الله حديثا) نفى الزيادة التى يدل عليها «أفعل التفضيل» فتكون المساواة بين صدق الله وصدق غيره ثابتة. بل المراد نفى المساواة والزيادة معا. فكان نفى الزيادة، وهى منطوق هذه العبارة كناية عن النفى الشامل لأصل المساواة والزيادة معًا.

وهذا أولى مما تأوله الإمام الألوسى من أن المراد نفى الأكثرية باعتبار الكمية فى الأخبار الصادقة. . وأن المعنى - كما قدره - لا أحد أكثر صدقا منه تعالى فى وعده وسائر أخباره»[٢] ثم قال: «ويفيد نفى المساواة».

وسيأتى لما قلناه مزيد بيان عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا . .﴾.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢١١)، وروح المعانى (٥/ ١٠٥). (٢) المصدر السابق.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ قصر صفة على موصوف قصراً حقيقيًا تحقيقيا باعتبار الواقع. صدرت به الآية تمهيدًا لتقرير جمع الخلق ليوم القيامة.

* ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أكد الفعل المضارع «يجمع» بلام التوكيد ونونه الثقيلة لأن مضمون الكلام حقيقة عظيمة، ومن حق الحقائق العظمية أن يعبَّر عنها فى أسلوب فخم عظيم مثلها. وهذا أولى من تقديره جوابا لقسم محذوف، أو للرد على منكرى البعث. أما الأول فلأن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إليه. وأما الثانى فلأن منكرى البعث لا ذكر لهم فى سياق الكلام هنا.

* ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ توكيد لمضمون الجملة قبله. ونفى الجنس هنا (ريب) لاستغراق أفراده فردًا فردًا.

* * *

١٣ - ﴿فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨].

الدراسة والتحليل:

بعد الحديث عن المنافقين التفت القرآن إلى المؤمنين ونبههم إلى خطأ وقعوا فيه؛ لأن المؤمنين انقسموا فريقين أو فئتين كما ورد فى النظم الحكيم، ولهذا الانقسام صور:

منها فريق من المؤمنين كان يوقن بأن المنافقين كافرون وفريق آخر كان يلتمس لهم الأعذار.

فريق ينزع عنهم كل ثقة، وفريق يثق فيهم. هذا الانقسام ما كان يليق بالمسلمين بعد أن كشف الله لهم عن طوايا المنافقين، وظهرت لهم مواقف الريبة منهم ولذلك فإن الأئمة يحملون الاستفهامين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ﴾ و ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾؟ هما معًا للإنكار والتعجيب[1].

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/٢١٢) روح المعانى (٥/١٠٧)، البحر المحيط: (٣/٣١٣)، التحرير والتنوير: (٥/١٤٩).

يعنى أن الله تعالى أنكر عليهم ذلك الانقسام وعجَّبهم من حالهم فيه، وأنكر عليهم إرادتهم هداية المنافقين بعد أن كشف الله لهم خباياهم وكفرهم بالله ورسوله.

والخلاصة: أن الاستفهام فى الآية مجازى إنكارى مع تضمُّن معنى التعجيب والتنبيه إلى ما هم فيه من أمر المنافقين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ اجتمع فى هذه العبارة نوعا الايجاز: إيجاز الحذف، وإيجاز القِصَر. أما إيجاز الحذف فتراه فى العامل فى الحال، والتقدير: انقسمتم فئتين «وأما إيجاز القِصَر فإن معنى قوله: **(فما لكم)**: أى شىء ثبت لكم أدَّى بكم إلى أن. . . دُلَّ على هذا بهذه العبارة **(فما لكم)**.

كما نجد إيجاز الحذف بحذف المضاف إلى المنافقين، لأن التقدير: فى شأن المنافقين.

* وفى قوله: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ تكرار إسناد لإفادة توكيد النسبة بين طرفى الإسناد. لأن الإركاس مسند إلى اسم الجلالة مرتين:

مرة فى إسناد الفعل (أركس) إلى ضمير عائد على اسم الجلالة ومرة فى إسناد جملة الخبر (أركسهم) إلى المسند إليه وهو (الله) عز وجل.

* وضع المظهر، وهو الله، فى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾، موضع المضمر، لأن مقتضى الحال أن يقال: أضل لتأكيد الإنكار فى (أتريدون) لما فى اسم الجلالة (الله) من دلائل القوة والإمضاء. وكذلك الحال فى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾؛ إذ كان يكفى أن يقال: أتريدون أن تهدوا من أضل. ومن يضل. بإضمار الفاعل فى الموضعين.

* فى قوله **(أركسهم)** استعارة الاركاس وهو الرجوع الحسى إلى الرد المعنوى تصويرا للمعقول فى صورة المحسوس إشارة إلى ظهوره.

* وإيثار **(لن)** على **(لا)** لتأكيد النفى أو تأبيده.

* * *

١٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

الدراسة والتحليل:

مكنَّ الله للإنسان فى الأرض، وخلقه حرًا عزيزا، وزوده بما يؤهله لإعفاف نفسه، وتوفير مطالب حياته. وأن لا يخضع إلا لخالقه، فهو الملجأ والمفزع ومفرج الكربات، ولم يجعل لأحد سلطانا عليه يسلبه حريته، ويمنعه من الاستمتاع بنعم الحياة بوجوهها المشروعة. وأن يصون حريته من الاستلاب ونفسه من الذل، وعقله من الضلال والإضلال. وأن يبذل حياته ثمنا لإنسانيته. ولو مات فى سبيل الدفاع عنها. وإن ضاقت به أرض هاجر إلى غيرها.

فإذا خنع الإنسان لغير الله، واستسلم للطغاة، ورضى بالذل والهوان، ولقى الله على هذه الحالة بادرته الملائكة وهو يحتضر:

فى أى حال كنت، فيقول: كنت مستضعفا ذليلا حقيرا. ولابد أن يقول ما قال. ثم توبخه الملائكة وتعنف له القول: لم رضيت بالذل والهوان؟ ألم يخلق الله أرضا واسعة، فلِمَ لم تلجأ إلى أرض أخرى: قرية، أو مدينة داخل وطنك، أو دولة غير دولتك.

وينتهى دور الملائكة عند هذا الحد، ويبقى حكم الدَّيان العظيم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قضاء إلهى مبرم، لا معارضة فيه ولا استئناف ولا نقض.. فالويل - كل الويل - لكل الجبناء المستَعْبَدين.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان: (فيم كنتم) و (ألم تكن) الزمخشرى حمل الاستفهام الأول (فيم كنتم) على التوبيخ. أما الثانى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ فقد حمله على التبكيت، وهو أشد وقعا من التوبيخ[1].

وكذلك ذهب أبو السعود[2].

---

(١) الكشاف: (١/ ٥٥٦).

(٢) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٢٢).

وسكت عنهما صاحب روح المعانى. أما ابن عاشور فقد حمل الأول (فيم كنتم) على التقرير والتوبيخ وسكت عن الثانى[1].

والخلاصة: أن الاستفهام الأول **(فيم كنتم)** للتقرير والتمهيد ليقولوا ما قالوا ثم يُردُّ عليهم بما قيل لهم.

أما الاستفهام الثانى: **(ألم تكن..)** فهذا للتقريع والتبكيت على رضاهم بالذل وتركهم الهجرة إلى ما يأمنون فيه على دينهم وحرياتهم.

وهذا الوعيد فى حق القادر على الهجرة. أما العجزة فعلا فإن الله يعفو عنهم ويغفر لهم كما قال سبحانه فى الآيتين (٩٨ - ٩٩) من السورة نفسها:

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فصلت جملة **(إن الذين توفَّاهم)** عما قبلها **(وكان الله غفورا رحيما)** لأن بين الجملتين كمال الانقطاع لاختلاف طرفى الإسناد فيهما. فالمسند إليه فى الأول اسم الجلالة والمسند هو الغفران والرحمة. والمسند إليه فى الثانية هو الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم. والمسند جملة قالوا وما بعدها. وهذا أولى من حمل فصلها على الاستئناف البيانى كما يرى بعض الباحثين.

* أما توكيد الخبر فيها بـ «إن» واسمية الجملة (إن الذين. .) فلدفع شك قد يطرأ عند السامع. فقد نظَّر الله تعالى بين المؤمنين القاعدين عن القتال بلا عذر، وبين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ومن شأن هذا أن يطرأ على الذهن مصير الذين رضوا بالذل كيف يكون حالهم أهم مثل المؤمنين القاعدين بلا عذر لكنهم ليسوا مستضعفين فبين الله حكمهم فى هذه الآية مؤكدًا له لإزالة ذلك الشك. أو يكون التوكيد للاهتمام بالخبر لأنه نبأ عظيم، وحكم شرعى حكيم.

---

(١) التحرير والتنوير: (٥/ ١٧٥).

* وإيثار المضارع (**توفَّاهم**) أى تتوفاهم، عن الماضى: توفتـهم لبيان أن هذا حكم عام فى كل مستـضعف فى كل زمان ومكان فى الماضى والحاضر والمستـقبل، ولو قيل: «توفتهم» لأمكن حمله على أناس معينين فى الزمن الماضى دون غيره.

وفصلت جملة (**قالوا فيم كنتم**) عن جـملة: (**إن الذين**) لاختـلاف طرفى الإسناد فيهما على نحو ما تقدم.

* وفى إيثـار (**فى**) على (**إلى**) فى قـوله (**فتهاجروا فيها**) إشارة إلى تيـسير الهـجرة بالانتقـال فى الأرض. ولو قيل إليـها لتـرتب على ذلك معنيـان غيـر مرادين ولا مقبولين فى هذا المقام:

الأول: بُعْدُ أرض الله المطلوب الهجرة إليها.

الثانى: أنهم حين خوطبوا هذا الخطـاب لم يكونوا بأرض لله قط، وإضافة (أرض) إلى اسم الجلالة (**الله**) لتفخيم شأن تلك الأرض، وأنها ليست لغير الله فيحظر عليهم الدخول فيها.

* ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ إلفاء للتفريع والتسبيب، لأنهم استحقوا ما بعدها بسـبب ما قبلها وفى وصف جهنم بالمأوى اسـتعارة تهكمية تبكيـتية، لأن المأوى هو المنزل المريح. وجـهنم لا راحة فـيـها بل عـذاب أليم مقـيم. وفى هذه الاستعارة من التحسير ما فيها.

* * *

١٥ - ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنهُمْ فِى الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَّن يكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء: ١٠٩].

الدراسة والتحليل:

وقعت فى عصر النبى ﷺ واقـعة، خلاصتها أن رجلا من الأنصـار، وكان منافقا يتظاهر بالإسلام ويبطن الكفر والعصيـان سرق مقداراً ذا بال من الدقيق، وأودعه عند يهودى ريثمـا تهدأ الحال. ولما حامت التـهمة حوله وواجهـه رسول الله بما نُسب إليه أنكر، وقال إن الـيهودى (المودَع عنده الدقـيق المسروق) هو الذى سـرق، واجتـهدت

عشـيرته فى تبرئتـه من السرقة وإلصـاقها بالـيهودى (البـرئ) وجادلوا النبى ﷺ فى ذلك. . وسرعان مـا نزل جبريل عليه السلام بآيـات من سورة النساء من آية (١٠٥) إلى الآية (١١٣) ومنها آيتنا هذه، تبرئ اليهودى مما اتهم به وتنكر على السارق وأهله ما صنعوه من محاولات التضليل. ثم وجَّه إليهم هذا القول الموجع:

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَـادَلْتُمْ عَنهُمْ فِى الحَـيَاةِ الدُّنْيَـا، فَمَنْ يُجَـادِلُ اللهَ عَنهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْ مَّن يَكُـونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أى: أمكن لكم أن تدافعـوا عن المجرمين فى الدنيا. وهبـوا أنهم نجوا من العقـوبة العاجلة فى الدنيا، فـهل تستطيعون أن تدافـعوا عنهم أمام الله يوم القيامة وهو لا يخـفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء أم من منكم يكون عليهم وكيلا يحفظهم من كل سوء.

والاستفهام فى الموضعين حمله الأئمة على الإنكار والنفى[1].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الموضعين، وإن كان للإنكار فإنه يتضمن الزجر والتنبيه على الضلال. وبل للإضـراب الانتقالى من إنكار المجادلة إلى إنكار الوكـالة الحافظة والزجر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**ها أنتم هؤلاء**) هذه العبارة بشقـيها لإفادة تأكيد المشافهـة والمواجهة لإعلان باطل المخاطبين ومواجهتهم به، ليكون أبلغ فى الإنكار والنفى، ثم الزجر الناشئ عنهما.
* وفى (**جادلتم**) استعارة تصريحية تبعية؛ لأن أصل الجَدْل هو فتل الحبل وإبرامه بغية تقويته، واستـعير هنا للكلام الذى يبالغ قائله فى حبكه بغيـة إقناع الخصوم والجامع هو (الإحكام) فى كل منهما.
* ذكر اسم الجـلالة فى (**يجادل الله**) لتربية المهابة والردع تـوطئة لاجتناب ذلك الجدل الذى لا يغنى عن صاحبـه شيئا. وقد كان ممكنا - بلاغة - أن يـقال: فمن يجادل عنهم يوم القيامة؛ لأن الله لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء.
* وبين (الحياة الدنيا) و (يوم القيامة) طباق إيجاب داخل فى أصل الدلالة، لا تكلف فيه.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٣٠) وروح المعانى (٥/ ١٤٢) والتحرير والتنوير: (٥/ ١٩٥).

* وفى (جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا) أسلوب خبرى مستعمل فى معنى مجازى هو التهديد، لا فى فائدة الخبر ولا فى لازمها.

* * *

١٦ - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الواو فى (**والذين آمنوا**) استئنافية، وليست عاطفة؛ لأن العطف يشرك المعطوف مع المعطوف عليه فى حكمه الإعرابى، وفى معناه، وما بعد الواو هنا، لا يصح عطفه على ما قبله، لأن ما قبله بيان لمصير الذين يتخذون الشيطان وليا من دون الله، وهم الكافرون. وما بعد الواو بيان لجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فبين المعنيين ما بين السماء والأرض.

وفى نهاية الحديث عن جزاء المؤمنين جاء قوله تعالى واصفا وقوع ذلك الجزاء: (**وعد الله**) ثم أكد الوفاء بهذا الوعد فقال:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾؟

وقد أغفل الأئمة الحديث عن هذا الاستفهام، واكتفى الألوسى بقوله: ولا يخفى ما فى الاستفهام[١]. وقال ابن عاشور: «والاستفهام إنكارى»[٢].

والذى نراه فى خلاصة معناه أنه مراد منه النفى لا الإنكار. لأن الإنكار ينبغى أن يكون فى مواجهة دعوى يدعيها مدع. ولا وجود لذلك هنا، إذ لم يدع مدع أنه أصدق قولا من الله. فلم يبق إلا النفى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تقديم الإيمان على العمل الصالح من تقديم الأصول على الفروع. إذ الإيمان أصل، والعمل الصالح فرع. كما أن الإيمان شرط صحة - مع خلوص النية - فى العمل الصالح وقبوله عند الله.

---

(١) روح المعانى (٥/ ١٥١). (٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٧).

وفى العبارة ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا..﴾ إيجاز بالحذف. ففى آمنوا حذفت متعلقات الإيمان، وهى: الله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره...

وفى (**عملوا**...) حذفت معمولات العمل الصالح وهى لا تكاد تحصر.

* تنكير (**جنات**) و «جمعها» للتعظيم والتفخيم والتكثير.

* وفى (تجرى من تحتها الأنهار) مجاز عقلى بإسناد الجرى إلى الأنهار، وهى أماكن الجرى. والفاعل الحقيقى هو الماء وسره البلاغى الإشارة إلى سرعة جرى الماء حتى لكأن الأماكن هى نفسها التى تجرى. والماء الجارى عذب طاهر وكلما زاد جريه عذب وطاب. وإذا ركد فسد، لذلك مُدِح ماء الجنة بسرعة السيلان والجرى.

* و (**أبدًا**) بعد (**خالدين**) زيادة تأكيد لبقاء أهل الجنة فى الجنة، وأنهم ما هم منها بمخرجين».

* وقوله تعالى: (**وعد الله**) تثبيت لوقوع جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات. يعنى: وعد الله الذى لا يخلف الميعاد لا وعد غيره.

* وإيثار (**قيلا**) على (قولا) للتناسق الصوتى الجميل لأن الفاصلة قبلها (محيصا) وبعدها (مصيرا) وجمال النسق يقود إلى تأمل المعانى.

* * *

١٧ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥].

الدراسة والتحليل:

بعد أن عرضت السورة أنماطا من الزيغ فى الاعتقاد والانحراف فى السلوك، جاءت هذه الآية للنص الصريح على الإيمان المنجى، والخلق القويم، من إسلام الوجه لله وحده، والإحسان فى الاعتقاد والقول والعمل.. واتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وقوام تلك الملة أنها هجرت كل الملل والنحل الضالة، وقامت على الإخلاص لله فى السر والعلن.

وجاء فى صدر هذه الآية هذا الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ

لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. وهو استفهام مجازى معناه النفى كما أجمع أرباب هذه الصناعة. صناعة البيان. وقد يعبرون عن هذا النفى بالإنكار، والأمر يسير لأن النفى إنكار فيه خفة. والإنكار نفى فيه شدة. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الموضع. ونحن نؤثر النفى لأنه لم يدع أحد أنه أحسن دينا من هذا الدين الموصوف فى الآية. ومن يدعى ذلك فأحرى أن لا يقام لادعائه وزن.

أسرار النظم وبلاغياته:

* عمدة المعنى فى هذه العبارة نفى الأحسنية، أى نفى أفعل التفضيل، أى لا يوجد دين أحسن من دين من أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم مخلصا لله. وليس معنى نفى الأحسنية جواز وقوع الدين المساوى لدين من أسلم وجهه لله وهو محسن مع مغايرته للدين الموصوف فى الآية، لأن دين الله واحد لا تفاوت فيه بين الأحسن والحسن. وإنما المراد من نفى الأحسنية نفى أن يكون دين ماله اعتبار عند الله، وهو مخالف للأوصاف المذكورة فى هذه الآية والمقصود هو نفى ذلك الدين المساوى مع مخالفته للدين الذى وصفه الله فى الآية لا نفى تعدد المتدينين إذلا يتعلق بذلك غرض، وإن كان نفى تعدد المتدينين هو ظاهر النظم. وإنما هو كناية عن نفى أن يوجد دين مثل هذا الدين مع مخالفته له فى أصول الإيمان.
* وفى **(أسلم وجهه)** مجاز مرسل علاقته الجزئية، والمراد أسلم نفسه، ولما كان الوجه أشرف عضو فى الإنسان كان للتجوز به عن الذات خصوصية فريدة لا توجد فى سواه من الأعضاء. وفى القرآن نظائر أخرى لهذا المجاز.
* وفى قوله **(وهو محسن)** اعتراض دُفع به توهم إرادة غير المراد؛ فقد يسلم إنسان ما وجهه لله وهو جاهل بحقائق الدين. ولما قال **(وهو محسن)** تحقق المراد من الإحسان.

* * *

١٨ - ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية حديث عن المنافقين، وقد تقدم عليها قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثم فصَّل بعض أحوالهم فى آيتنا، فهم يوالون الكافرين من دون المؤمنين. ثم يتساءل القرآن فى لهجة هادرة:

أيبتغون العزة عند الكافرين؟ لقد خابوا وخاب مسعاهم. فالكافرون لا يملكون أن يُعزِّوهم، فالعزة لله وحده، وليس بيد أحد منها شئ قط. وقد سكت الزمخشرى عنه وفصل القول فيه الإمام أبو السعود فقال: (**أيبتغون عندهم العزة**) إنكار لرأيهم، وإبطال له وبيان لخيبة رجائهم، وقطع لأطماعهم الفارغة.. أى أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة (**فإن العزة لله جميعا**) تعليل يفيده الاستفهام الإنكارى من بطلان رأيهم، وخيبة رجائهم»[(١)].

وذهب الألوسى مذهبا قريبا من مذهب أبى السعود مع تجويزه أن يكون الاستفهام للتعجيب والتهكم[(٢)] وهذا لا ينافى الإنكار أصلا.

ويقول الطاهر بن عاشور: «والاستفهام إنكار وتوبيخ[(٣)].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام معناه المجازى الأول هو الإنكار، ويترتب عليه كل من التهكم والتوبيخ والتعجيب. لما فى هذه المواقف من غرائب وعجائب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار المضارع الواقع صلة للموصول (**يتخذون**) للدلالة على أن هذا الاتخاذ دأب المنافقين وعادتهم، يروحون فيه ويغدون، ويتجدد يوما بعد يوم بتجدد أسبابه ودواعيه الخسيسة. وفى هذا تحذير للمؤمنين منهم، ومن الركون إليهم.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٤٤)
(٢) روح المعانى (٥/ ١٧٢).
(٣) التحرير والتنوير: (٥/ ٢٣٤).

* وفى الجمع بين الكافرين والمؤمنين طباق إيجاب وهو من مقتضى الحال وليس حلية أو زخرفا فى الكلام.

* توكيد الخبر فى قوله **(فإن العزة لله جميعًا)** لأن مضمون الخبر حقيقة عظيمة، وركن من أركان الإيمان. والحقائق العظيمة من حقها أن يُعبَّر عنها بأساليب فخمة عظيمة مثلها. وفى مضمون الخبر تكذيب لاعتقاد المنافقين، وتحبيط لرجائهم الذى رجوه من موالاة الكافرين. وإعلام لهم بطلب العزة من مصدرها وبوسائلها التى فى مقدمتها الإيمان والإخلاص.

* * *

١٩ - ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾

[النساء: ١٤١].

الدراسة والتحليل:

هذا استمرار للحديث عن المنافقين، وكان قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ثم أُفرد الحديث عن المنافقين فى آيتنا: **(الَّذين يتربصون بكم)** أى يترقبون ما يحدث لكم، ويدققون فى متابعتكم لمعرفة أخباركم ليلبسوا لكل حالة لبسوها، ويلوِّنون وجوههم تلوينا يناسب كل حالة من أحوالكم وأحوال أعدائكم. فإذا نصركم الله على عدوكم فى موقف، جاءوكم مسرعين يقولون لكم: (الم نكن معكم) وإن أحرز عدوكم غلبة عليكم أسرعوا اليهم كما أسرعوا إليكم من قبل، وقالوا لهم: ألم نحط بكم ونرد عنكم أذى المؤمنين، إنهم قوم لا خلاق لهم. بل يسعون دائما لنفع أنفسهم بكل وسيلة خسيسة هذا دأب المنافقين فى كل مكان أو زمان وجدوا فيه، وقد جاء فى هذه الآية الاستفهامان الآتيان:

- **(ألم نكن معكم)** يخادعون به المؤمنين.

- **(ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين)**. يخادعون به الكافرين؟

والذى صاحبنا من بدء هذه الدراسة حتى الآن وإن كان من غير أهل الاختصاص، يعرف ما المراد من الاستفهامين من المعانى المجازية. ويتوقع ما يقوله الأئمة فى هذا الصدد، وقد أشرنا من قبل إلى أن الاستفهام إذا دخل على نفى سُلِّط عليه ونفاه فيؤول الكلام إلى الإثبات. وأن هذا النوع من الاستفهام يكون للتقرير أصلا، ثم تتبع هذا التقرير معان مجازية أخرى.

وهذان الاستفهامان كذلك، لأن المراد منهما التقرير يعنى تقرير المخاطب بما فى حيز الاستفهام. وهكذا قال الأئمة:

فقد فسروه بما يفسر به استفهام التقرير، وابن عاشور صرح بمعنى التقرير فيه[1].

والخلاصة: أن الاستفهام فى الموضعين استفهام تقرير، أى إثبات. هذا هو المعنى الرئيس، ويضاف إليه معنى مجازى آخر هو فى الأول: التذكير. وفى الثانى: الامتنان.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار الفعل: **(يتربصون)** زمنا ومعنى إشارة إلى شدة حرص المنافقين على تفقُّد أوضاع المسلمين ورصدها واستثمارها لمنافعهم. فالتضعيف فيه تكثيف للحدث نفسه الذى هو: التَّفقُّد والمتابعة. ومادة الفعل تدل على إدامة النظر، وزمن الفعل يدل على تجدد الحدث بتجدد أسبابه. و**(بكم)** تجسيم للصورة تخيل أنهم من شدة تربصهم يكادون يلصقون أبصارهم بالمؤمنين حتى لا يغيب عنهم شىء من أحوالهم، ليقوموا بدور «الجاسوسية» ضد معسكر المؤمنين.
* **(فإن كان لكم فتح من الله...)** تفصيل للأجمال الذى فى **(يتربصون)** وقدم الحديث عن المؤمنين لشرف الإيمان على الكفر، والمؤمنين على الكافرين. وسمى الله نصر المؤمنين **(فتحا)** تفخيما لشأنه. كما سمى غلبة الكافرين **(نصيبا)** لتحقيرها والضن

(١) الكشاف : (١/ ٥٢٧) تفسير أبى السعود: (٢/ ٢٤٥) روح المعانى (٥/ ١٧٤) التحرير والتنوير: (٥/ ٢٣٧).

عليها بشرف النصر أو الفتح وتنكير (**فتح**) للتعظيم، أما تنكير (**نصيب**) فللتحقير قطعًا.

* (**نستحوذ عليكم**) الاستحواذ أصله الاستيلاء والإحاطة والغلبة. وأراد به المنافقون - هنا - إظهار المنة على الكافرين؛ لأنهم ظفروا بهم وهم فى صفوف المسلمين وتمكنوا من قتلهم ولم يقتلوهم. وخذَّلوا المؤمنين وهذا هو سبب غلبة الكافرين. وهذا سر جمعهم بين الاستحواذ والمنع. كنوا بهما على فرط مودتهم للكافرين وبغضهم للمؤمنين.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أسلوب خبرى مستعمل فى تهديد المنافقين، وتثبيت المؤمنين.

* وإيثار (**لن**) فى نفى الجعل لتأكيد الوفاء بهذا الوعد والسبيل هو السلطان والحجة أى لن يجعل الله ولاية للكافرين على المؤمنين، أولن يجعل للكافر حجة غالبة على المؤمن فى الدنيا أما إذا كان المراد بنفى السبيل ما يكون فى الآخرة فإن المعنى علو شأن المؤمنين فيها وانحطاط شأن الكافرين وليس فى النظم خلل فى المعنى وصدق الوعد. كما توهم بعض قصار النظر، من أن سيطرة قوى الإلحاد والصليب على دول إسلامية يناقض هذا الوعد؛ لأن المراد أن الله لم يشرِّع تشريعا يجد فيه الكفار سلطانا لهم على المسلمين أما ما نراه من تبعية دول إسلامية الآن لغير المسلمين فذلك هو صنع المسلمين بأنفسهم، وتركهم لأسباب العزة التى شرعها الله لهم، والإسلام يُعرف بمبادئه وقيمه. لا بواقع المسلمين، لأنهم يخطئون ويصيبون أما الإسلام ففيه: (**العزة لله، ولرسوله، وللمؤمنين**).

* * *

٢٠ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

الدراسة والتحليل:

بعد أن قدمت السورة أحقاد الكفار على المؤمنين سواء كانوا منافقين أو مشركين أو من أهل الكتاب وكشف ألاعيبهم ومكرهم، بعد هذا توجه بهذا الخطاب إلى المؤمنين، ناهيا إياهم عن اتخاذهم أولياء دون المؤمنين، ثم علل هذا النهى والتوجيه بأن اتخاذهم للكافرين أولياء يجعل لله عليهم مداخل وأسبابا لمنع لطائفه عنهم، ومؤاخذتهم على تلك الموالاة. وتكفل بهذه المعانى هذا الاستفهام (**أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا**)؟ وقد أجمع الأئمة أن هذا الاستفهام للإنكار والتحذير[١] وحمل الاستفهام - هنا - على هذه المعانى هو خلاصة ما يقال فيه.

وإذا ضممنا إليها التهديد والوعيد كان حسنا لأنهما أشد وقعا من التحذير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى قوله تعالى (**الكافرين**) إيجاز قصَر، لما بينا من قبل من أن هذه الكلمة تنتظم ثلاثة طوائف كانت فى عصر النزول:

- مشركو العرب -المنافقون- أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما أنها تتضمن لطيفة أخرى هى النص على علة الحكم وهى الكفر، لذلك.. والله أعلم أوثر جمع هذه الطوائف على تفريقها، وليس المراد النهى عن اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، إذ لو كان الأمر كذلك لجاز اتخاذهم أولياء مع المؤمنين وإنما المراد بـ(**من دون المؤمنين**) أن يخصوا الكافرين بالولاية ضد المؤمنين، أى ضد أنفسهم لأنهم خوطبوا بعنوان الإيمان. فمن والى كافراً ضد مؤمن فقد والاه ضد نفسه. وهذا من لطائف التنزيل الحكيم.

* وتسليط الإنكار على الإرادة للمبالغة فى تجنب أن يشترى المؤمنون عداء الله لهم بسبب موالاة الكافرين وهذا نظير قوله تعالى: (**ولا تقربوا الزنا**) نهى عن قربان الزنا مبالغة فى النهى عن الزنا نفسه.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٢/٢٤٦) وروح المعانى (٥/١٧٧) والتحرير والتنوير (٥/٢٤٣).

* وفى قوله (**سلطانا**) استعارة تصريحية أصلية شبهت فيها الحجة بالسلطان. بجامع قوة الإخضاع فى كل منهما. وهذا كله تهويل لعداوة الله لهم.

* * *

٢١ - ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ، وَ كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

الدراسة والتحليل:

فى نهاية الحديث عن المنافقين فى سورة النساء، قضى الله قضاء عادلاً فى جرائمهم وخداعهم، حيث أظهروا الإيمان حرصا على ملاذ الحياة الدنيا، وأبطنوا الكفر دفعا للأذى. فكان الكافر فى السر والعلن خيراً منهم، ولا خير فى أيٍ منهما. لذلك قضى الله فيهم فقال:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُم لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٤٥ - ١٤٦].

فالله عادل رحيم، ليس بينه وبين أحد ثأر، وإنما يوفى كل نفس ما كسبت. فالمنافقون إذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله غفر لهم ما كان منهم، وإن بلغ عنان السماء. وفى أعقاب هذا البيان الكريم جاء هذا الاستفهام الحكيم:

(**ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم..**) وبالقطع هو استفهام مجازى. هذا حق، ولكن ما المعنى المراد منه؟

الأئمة مجمعون -وهم محقون- أن المعنى المراد منه هو النفى. وقد قال الإمام جار الله قولاً تأثر به كثير من بعده. قال:

(**ما يفعل الله بعذابكم**): أيتشفَّى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به

نفعـا؟ أم يستدفـع به ضـرراً كـما يفعل الملوك بعذابـهم؟ وهـو المعنى الذى لا يجوز عليه شىء من ذلك[1].

والخلاصة: أن إطباق الأئمة على إرادة النفى من هذا الاستفهام لا يختلف معهم فيه أحد. وكانت عبارة الإمام جار الله بارعة كل البراعة فى تقرير هذا المعنى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ هذه العـبارة أبلغ مما لـو قيل: لن يعـذبكم الله إن شكرتم؛ لأن ما عليـه النظم الحكيم لم يسلط النفى على العذاب مبـاشرة، بل عمـد إلى نفى أسبـابه والبواعث عليـه على أسلوب الكناية، التى فـيهـا قرن الدعـوة بالدليل. فنفى الأسبـاب الباعـثة على العـذاب يستلزم نفى الـعذاب أصْلاً. والكناية بإجماع علماء البيان أبلغ من التصريح.

* الواو فى (وآمنتم) وهى لمطلق الجمع عند النحاة والمراد بها -هنا- ضرورة الجمع بين الشكر والإيمان فى استدفاع العذاب. فالشكر وحده، وهو العمل الصالح، لا يكفى ولا يقبل بدون إيمان. والإيمان وحده، وهو التصديق الجازم قلبيا، لا يكفى دون العمل الصالح وتقديم الشكر لبيـان أهميته والحث عليه، لئلا يتكل المؤمن بمجرد الإيمان.

* * *

(١) الكشاف (١/ ٥٧٥) وتفسير أبى السعود: (٢/ ٢٤٧) وروح المعانى: (٥/ ١٧٩) والتحرير والتنوير: (٥/ ٢٤٥).

سورة المائدة

١ - ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَ مَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَ اتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

الدراسة والتحليل:

هذا الاستفهام حقيقى، والاستفهام الحقيقى دلالته وضعية ظاهرة، هى -دائما- طلب حصول فهم المستفهم عنه. والمطلوب بهذا الاستفهام معرفة ما أحله الله لعباده من المطعومات وإن شئت فقل: معرفة الطعام الحلال. والذى أثار هذا السؤال ذكر المحرمات فى الآية التى سبقت هذه الآية والتى مطلعها: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ وَ لَحْمُ الخنْزِير. .﴾ وهو سؤال عن مفهوم الآية السابقة؛ لأنها لما عدَّدتْ أنواع المحرم أكله فُهِمَ منها أن ما لم يذكر فيها حلال، ومنه الطيبات -عموما- وما اصطادته الكلابُ المدربة. وهذا يدل على حرص أصحاب رسول الله ﷺ على التحقق من جلِيَّة ما سكت القرآن عنه. فلم يكتفوا بدلالة المفهوم حتى استوضحوه وجعلوه بالاستفهام عنه منطوقا.

وعدم الاكتفاء بدلالة المفهوم فى باب الحلال والحرام ملحوظ فى آيات التنزيل الحكيم، ومنه فى هذه الآية قوله تعالى: **(واذكروا اسم الله)** فإن مفهومه أن ما لم يذكر اسم الله عليه لا يجوز أكله. . وقد نص على المفهوم فى آية أخرى هى قوله تعالى: ﴿وَ لاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] فصار بهذا (النص) منطوقا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الفصل بين جملة **(يسألونك)** عما قبلها لانعدام دواعى العطف بينهما. فالآية بيان

من الله بالأنواع المحرمة من الأنعام. وهذه الآية استبيان لما أحله الله سبحانه وتعالى. والعطف يقتضى التناسب بين المتعاطفين.

* إيثار المضارع (**يسألونك**) لاستحضار صورة الحدث فى الذهن تمهيداً لتمكن الإجابة فى النفس عند ورودها لأن الحضور الذهنى فيه تنشيط للنفس وحسن التلقى.
* حذف فاعل أحِلّ للعلم به؛ وهو الله، لأن التحليل والتحريم لا يملكهما إلا الله. وللإشارة إلى ما هو محط السؤال، وهو الحِل.
* إيثار (**ماذا**) على (**ما**) وكان من السائغ لغة وبيانا أن يقال: (**ما أحل**) لتفخيم شأن المستفهم عنه، وزيادة المبنى من دلالات زيادة المعنى.
* الفعل: (**قُلْ**) له وظيفتان بلاغيتان -هنا- إحداهما الفصل بين السؤال والجواب لكمال بيان المعنى؛ إذ لو قيل ماذا أحل لهم أحل الطيبات.. لدخل الجواب فى حيز السؤال ولا حتاج التمييز بينهما إلى إعمال فكر عارٍ من الفائدة. أما الثانية فهى التمهيد لحكاية صيغة الجواب التى تلقاها المسئول -ﷺ- من الوحى؛ لأن حكاية الكلام لا يمكن التوصل إليها إلا بواحد من الأفعال الثلاثة: (قال -يقول- قل). وهو الحاكى للإجابة هنا.
* التغاير بين الضميرين (لهم) - (لكم) الأول غيبة، والثانى خطاب. أوثر ضمير الغيبة (لهم) بعد (أحل) الأولى؛ لأن يسألونك من قبيل الغائب فجرى الضمير على نسق الغيبة وكان يمكن أن يقال ماذا أحل لنا حيث روعى حال المحكى وهو (**يسألونك**) ولم يراع حال السائل.
* أما مع الجواب فقد روعى فيه حال السائل فقيل (**لكم**) لتصور حضور السائل أمام المسئول. وفى إيثار (**لكم**) على (**لهم**) لكمال البيان بإخراجه مخرج المشافهة لا التبليغ الغيبى.
* (**.. الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين**) عطف الثانى (وما علمتم) على الأول «الطيبات» عطف خاص على عام. والسر البلاغى فى إفراد الخاص بالذكر بعد العام لإزالة ما يعلق بالأذهان من احتمال تحريم ما تصيده «الجوارح» فَحُلِّل هذا «الصيد»

بشروطه المنصوص عليها فى النظم الكريم.

* وفى قوله: **(أمسكن)** عوملت **(الجوارح)** وهـى مما لا يعقل معاملة **(العـقلاء)** لأنها بتدريبها على الصيد صرن كأنهن **(عاقلات)** ولهذا نظائر كثيرة فى اللغة بوجه عام، وفى القـرآن بوجه خـاص، ولا مـانع من حـمل هذا على الاستـعـارة بالكناية أو التصريحـية: فإجراء الاستـعارة بالكناية فيه أن يقـال: شبهت الجوارح غـير العاقلة بالعقـلاء لقيامـهن بما يقومون به. ثـم حذف المشبـه به «العقلاء» ورمـز له ببعض خواصه، وهو الإمساك لغير الماسك، لأن الجارح يصطاد لغيره. وإجراء التصريحية فيه أن يقال: شُبه إفتراس غيـر العاقل بإمساك العاقل بجامع الحذق والمهارة فى كل منهما.

* وفى قوله **(مما)** بدل أن يقال (ما) احتراس بليغ لدفع إرادة غير المراد، لأنه لو قيل: «فكلوا ما أمسكن عليكم» لجاز أكل كل ما أمـسكت الجوارح. وهذا محظور شرعا لأن مما أمسكت الجوارح ما لا يجوز أكله كمـا جاء فى مظانه من كتب الفقه، كأن تأكل الجارحـة مما أمسكته فلا يجـوز أكل ما بقى. وهذه لمحة من لمحـات الإعجاز البيانى فى القرآن فيها دقة ولطافة.

* **(مما علمكم الله)** أى: ألهمكم، فاستعير التعليم للإلهام اعتناء به وتفخيما لشأنه حتى لكأننا تلقيناه مـشافهـة منه عز وجل. ولأن وراء كل مخـترع من مختـرعات العلم فكراً الله هو الذى هدى إليه.

* وصلت جملتا: **(واذكـروا اسم الله عليـه - واتقـوا الله)** بجملة **(فكلوا)** للتوسط بين الكمالين، لاتفاقها فى الإنشائية لفظا ومعنى.

* وفصلت جملة **(إن الله سريع الحـساب)** عمـا قبلها لكمال الانقطاع للاخـتلاف فى الإنشائية والخبرية؛ لأن جملة **(إن الله سريع الحساب)** خبرية لفظا ومعنى.

* إظهار اسم الجلالة (الله) فى الجمل الثلاث: **(واذكروا اسم الله - واتـقوا الله - إن الله)** لتربيـة المهابة فى نفوس المخاطبين؛ لأن المـقام مقام تشـريع وتوخى الحلال فناسب ذلك إظهار اسم الجلالة فى المواضع الثلاثة لأنه أدعى للامتثال والطاعة.

* وذكر (اسم) مضاف إلى لفظ الجلالة (الله) له مغزى بلاغى جليل، ذلك أن المطلوب ذكره فى تزكية الذبائح والصيد هو لفظ (الله) لا اسم آخر من أسمائه الحسنى. ولو قيل: واذكروا الله. لأجزأ ذكر أى اسم من أسمائه الأخرى ولكن لما قال: (اسم الله) تعين أن يكون المذكور هو لفظ الجلالة (الله) فتأمل هذه الدقة فى التعبير.

* (**إن الله سريع الحساب**) خبر أريد به التهديد لكل مخالف لأمر الله ونهيه. وتوكيده بـ (إن) واسمية الجملة؛ لأن مضمونه من الحقائق العظيمة.

* * *

٢ - ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

الدراسة والتحليل:

هذه أول آية من ذوات الاستفهام تواجه النصارى منفردين عن اليهود فى ضلال الاعتقاد، ولكن القرآن لا يعوِّل على التسمية، فلا يذكر النصارى -هنا- باسمهم الخاص بهم، فليست التسمية من موجبات «الحكم» وإنما موجب «الحكم» هو الوصف. والوصف بينه القرآن الحكيم بقوله: (**الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**) هذا هو موجب الحكم بالكفر وعلته.

ولما كانت هذه الدعوى بالغة القبح والشناعة لم يهادنها القرآن، ولم يكتف بإبطالها بطريق الرد الهادىء، ولو شاء الله لكان. ولكنه نسفها نسفا بلهجة غاضبة، وكلمات هادرة هدير الأعاصير، فأمر رسوله الكريم أن يعلن للوجود كله، لا للنصارى وحدهم فى تحد عنيف، وزجر مخيف، أن يعلن للعالم كله أن الله واحد لا شريك له وكل من فى السموات والأرض مخلوق ضعيف، وأنه -سبحانه- لن يملك أحد مهما كان من أمره شيئا والمسيح الذى دعوه (الله) تعالى الله عما يقولون عُلوا كبيرا، ومعه

أمه مريم، ومن فى الأرض قاطبة إن تعلقت لله إرادة بإهلاكهم أهلكهم فى طرفة عين ولن يملك أحد ردًّ ما أراده الله تعالى. ولو كان عيسى هو الله كما يفترون لدفع عن نفسه وعن أمه وعن من دعوه (الله) ما يريده الله بهم. ولكن عيسى عليه السلام وأمه ليسا طرفا فى القضية. فعيسى لم يتعد حدود الرسالة والدعوة إلى الله. وأمه صديقة كانت سيدة نساء العالمين فى عصرها.

وإنما الطرف الضال المضل هم من افتروا هذه الفرية، التى لولا رحمة الله بعبادة لتفطرت منها السموات وتشققت الأرض، وخارت الجبال هدًّا، ولكن للحساب يوم لا ريب فيه، وهو قريب الوقوع وإن رأوه بعيدا.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَن فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هذه الغضبة الإلهية لم ترد إلا فى هذه الدعوى المنكرة؟ أما الاستفهام الذى ورد فيها فإن الأئمة أدلوا فيه بدلوهم على ظهوره وجلائه:

- يقول الإمام أبو السعود: «مَنْ: استفهامية للإنكار والتوبيخ..»[1].
- ونقل الألوسى عبارة أبى السعود لفظا ومعنى[2].
- وكذلك صنع سماحة الشيخ ابن عاشور[3].

والخلاصة: أن بعض الأئمة سكت عن التصريح بلفظ الإنكار فى بيان المراد من هذا الاستفهام، وإن فسَّره بما يفيد الإنكار، منهم صاحب الكشاف، وصاحب البحر المحيط.

والذين نقلنا عنهم القول بالإنكار والتوبيخ صراحة أضافوا إليها معانى أخرى كالتبكيت والتهويل وهذا كله مما دل عليه هذا التركيب الاستفهامى الغاضب فهو مفيد للإنكار والتوبيخ والتبكيت والتهويل ثم التكذيب والوعيد. والنفى: نفى الملكية بقيودها المذكورة.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ١٩).
(٢) روح المعانى: (٦/ ٩٩).
(٣) التحرير والتنوير: (٦/ ١٥٤).

أسرار النظم وبلاغياته:

* لقد حفلت الآية بالأسرار البيانية، والنكات البلاغية من أول جملة فيها إلى جملة الفاصلة:

* ففى الجملة الأولى (**لقد كفر**) أكد الحكم بـ (لقد) والحكم المؤكد به (لقد) هو الكفر.

* ثم (**الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم**) فإن فى إيثار التعبير بـ «الموصول وصلته» إشارة إلى بيان علة الحكم وموجبه.

* وقوله تعالى حكاية عنهم (**إن الله هو المسيح بن مريم**) فيه توكيد للاعتقاد الفاسد بالوهية عيسى. وقد أكد الخبر فيها بثلاثة مؤكدات: إن -اسمية الجملة- تعريف المسند إليه وتعريف المسند وكذلك ضمير الفصل عند من يقول إنه يفيد التوكيد والذى يتأمل فى هذا التركيب: (**إن الله هو المسيح ابن مريم**) يدرك بكل قوة ووضوح أن قائلى هذا الكلام يعتقدون اعتقاداً جازما أن عيسى هو الله، والله هو عيسى. مع الشائع أنهم قالوا إن عيسى هو ابن الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. والذى يبدو أن مدَّعى البنوة منهم فرقة غير هذه الفرقة التى وحَّدت بين معنى مسمى الله ومسمى المسيح. فهما اسمان لمسمى واحد.

* وكنا قد لاحت لنا هذه الفكرة، وآثرنا إثباتها فى مبحث الأسرار والبلاغيات، وقد سعدنا كل السعادة حين اطلعنا بعد خطورهذه الفكرة على كتاب «التحرير والتنوير» لما وجدنا سماحة الشيخ الطاهر بن عاشور قد سجلها فى «تحريره وتنويره» كما حظرت لنا. والحمد لله الموفق للصواب.

* ونضيف فكرة خطرت الآن، وهى: أن من المحتمل أن جمهور النصارى قالوا بفكرة الاتحاد الكامل بين معنى مسمى عيسى ومسمى الله، فكلاهما اسمان لذات واحدة كما أن البرَّ هو القمح، والقمح هو البر. ولما ظهرت شناعة هذه الفرية خففوها بجعل المسيح ابن الله؟ وهذا يكون تطويرا أصاب عقيدتهم فى مرحلة لاحقة بعد أخرى سابقة والذى قوَّى لنا هذا الفهم أن القرآن ينسب كُلاً من القولين إلى عامتهم.

* وفى تنكير (**شيئا**) دلالة على التحقير والتقليل، أى لا أحد يملك مثقال ذرة من قدرة يرد بها ما يريده الله.

* وفى إعادة (**المسيح ابن مريم**) وإظهاره بدل أن يـقال يهلكه؛ لأن هذا كـان موضع الدعوى عند النصـارى أنه الله -سبحـان الله عما يقـولون - «فكان إيقاع الإهلاك» -إن تعلقت به الإرادة- على صـريح اسمـه أبلغ من إيقاعـه على ضميـره فى نفى الألوهية وتحقيق العبودية والمخلوقية والقهرية.

* وفى قوله (**ومن فى الأرض جميعا**) من عطف العام -جـميع البشـر- على الخاص -عيسى وأمه- للتـرقى فى التمدح بكمال القدرة الإلهـية. وفى تخصيص (**من فى الأرض**) دون (**من فى السماء**) لأن قائلى هذا البهـتان ينتمون إلى (**من فى الأرض**) أما (من فى السماء) فـ (**عباد مكرمون**).

* ﴿وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّـمَـوَاتِ وَ الأَرْضِ﴾ قصر صفـه على موصوف. قصرا حقـيقيا تحقـيقيـا. طريقه التـقديم (تقديم المسند (لله) علـى المسند إليه (**ملك..**) وهو مـن مقتـضيات الحال للنص على تفرد الله بالملكيـة والسلطان فيدخل فى ملكيتـه عيسى المدعو (**الله**) زوراً وبهتانا عند النصارى.

* ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ استطراد فى تكذيب دعوى النصـارى ألوهية عيسى لولادته من غيـر أب. فالله خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حـواء من ذكر بلا أم. وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى فولادة عيـسى من غير أب ليست بأعجب من خلق حواء من ذكـر بلا أم، وخلق آدم أعجب من خلقـهمـا فلا آدم إله، ولا حـواء إله، ولا عيسى إله وفى التـعبير بالمضارع (يخلق) للإيذان بـأن هذا الخلق لن يتوقف، وقدرة الله على أنواع هذا الخلق مطلقة لا مقيدة. وله فى كل لحظة خلق جديد.

* ﴿وَ اللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَىْءٍ قَـدِيرٌ﴾ تذييل مقـرر لمضمون الكلام الذى قـبله. وإيثار الصفة المشبهة (قـدير) على اسم الفاعل (قادر) للدلالة على طلاقة قدرة الله وثبات مدلولهـا بلا تَغَيّر ولا تَحـوّل. وهكذا نسف القرآن دعوى النصـارى وصيرها كـما كانت وهما من أبشع الأوهام.

* * *

٣ - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؛ بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية استطرادًا من الحديث عن دعوى النصارى المتقدمة، بجعلهم الله - سبحانه - هو المسيح، والمسيح هو الله، باختلاف التسمية، واتحاد المسمى على ما مَرَّ بيانه إلى الحديث عن اليهود والنصارى معًا فى دعوى ادعاها كل منهما لنفسه:

اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؟ والنصارى قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؟ وقد تصدى القرآن لهذه الدعوى - جملة - فلم يُفرد اليهود برد، والنصارى برد. بل واجه الدَّعْوى مواجهة واحدة فوأدها فى رحم حامليها، وإن كانت موءودة بطبعها. فهى وَهْمٌ لا وجود له إلا فى تصور قائليها.

والدعوى - لدى الطائفتين - لها شقَّان:

الأول: ادعاء كل منهما أنهم أبناءُ الله؟ **والثانى**: إدعاء كل منهما أنهم أحباءُ الله؟

أى أن اليهود باعتبار أنهم يهود نالوا تلك المنزلة؟ والنصارى باعتبار أنهم نصارى نالوا تلك المنزلة؟

كل طائفة ادعت ما ادعت على انفراد. وإن كان ظاهر النظم يفيد أنهم قالوها مجتمعين. فهذا الظاهر غير مراد لأن اليهود لا يقولون إن النصارى أبناء الله وأحباؤه ولأن النصارى لا يقولون إن اليهود أبناء الله وأحباؤه بل كل منهما يتهم الآخر بالكفر والضلال. وقد سبق قول الحق فى سورة البقرة يقرر هذا المعنى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣].

وهم - جميعًا - لم يريدوا من بنوتهم لله - سبحانه - المعنى المجازى لهذه الكلمة، وهو: جماعة الله، أو حزب الله بل أرادوا البنوة الحقيقية، وإن كان سادتنا

المفسرون يقولون إنهم أرادوا أنهم اشياع ابنى الله عزير والمسيح[1] ولكن المتأمل فى رد القرآن عليهم لا يتفق مع ما ذكره المفسرون؛ وذلك لأن الله قال فى الرد عليهم مكذِّبا لهم:

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ..﴾ فلولا أنهم ادعوا أنهم ليسوا بشرا ما نفى القرآن فى الرد عليهم دعواهم غير البشرية بإثبات أنهم بشر.

وكذلك فإن اليهود ليسوا أبناء عزير الذى قالوا إنه ابن الله، والنصارى ليسوا أبناء لعيسى الذى قالوا: إنه الله مرة، وابن الله مرة أخرى. فلم يبق إلا أنهم قالوا ببنوتهم لله على المعنى الحقيقى لهذه الكلمة. والنصارى أكثر إدعاء من اليهود لهذه البنوة. ويكفى فى ذلك أن يطلع القارئ الكريم على أناجيلهم ليرى حشدا هائلا من نصوص هذه البنوة المفتراة.

أما فى كتب اليهود فترى قول موسى لهم - حسب رواية التوراة: «أنتم أولاد الرب أبيكم». ولكن إذا رجعنا إلى «قاموس الكتاب المقدس» وهو مؤلف حديث بالنسبة للتوراة والأناجيل نجد أنهم فسروا فيه: «أبناء الله» بجماعة الله، أى: المؤمنين بالله والدعاة إليه، فعادوا بالكلمة إلى معناها المجازى بعد أن ظهر لهم شناعة الدعوى وقبحها.

وقد أشار محمد بن مسلم بن قتيبة فى كتابه تأويل مشكل القرآن» أن سبب ضلال النصارى أنهم لم يهتدوا إلى المعنى المجازى فى قول عيسى عليه السلام «أبى الذى فى السماء» فعيسى - إن كان قالها حقيقة - فإنه أراد منها أُبوة الرعاية والتأييد» لا الأبوة الصلبية وأيا كان الأمر فإن عبارة: (نحن أبناء) هنا المراد منها الأبوة الصلبية جهلا وحماقة. بدليل رد القرآن عليهم: **(بل أنتم بشر ممن خلق)**.

ويقول الإمام جار الله فى هذا: **(فلم يعذبكم بذنوبكم)**؟ فإن صح أنكم أبناءُ الله وأحباؤه فلِمَ تذنبون وتعذَّبون بذنوبكم، وتمسخون وتمسكم النار أياما معدودات على زعمكم، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين

---

(١) الكشاف: (١/ ٦٠٢).

للعقاب؟ ولو كنتم أحباؤه لما عصيتموه ولما عاقبكم»[١].

ونلاحظ أن كلام الزمخشرى هذا جارٍ على إدعاء البنوة الحقيقية التى أشرنا إليها من قبل. ويعتبر كلامه هذا رجوعا عما قاله أولاً من أنهم أرادوا أنهم: أشياع ابنى الله - على زعمهم - عزير، والمسيح.

أما الاستفهام فإنه لم يصرح فيه بمعنى محدد كما رأينا من كلامه.

ونهج أبو السعود نهج الزمخشرى، ناقلا جُل عباراته إلا أنه أشار إلى أن المراد من الاستفهام الإلزام والتبكيت[٢].

وكذلك صنع الإمام الألوسى فلم يكترث بالنص على المراد من الاستفهام[٣].

وسلك الطاهر بن عاشور مسلكهم فى السكوت عن المراد من الاستفهام فى: **(فلم يعذبكم بذنوبكم)**.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام مجازى قطعا لصدوره عن الله، وأن المعنى المجازى المراد منه هو - فيما نرى - التكذيب والتوبيخ، وقد نشأ هذان المعنيان عن نفى السبب فى تعذيبهم الواقع فعلا، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة، أو فيهما معًا. وبناء على صدق دعواهم لو كانت صادقة، أى:

إن العذاب واقع بهم بسبب بشريتهم وذنوبهم فإن كانوا صادقين فى هذه الدعوى فما سبب العذاب الذى حل ويحل لهم.. وعجزهم عن تعيين السبب يلزم منه تكذيبهم ثم توبيخهم على هذا التكذيب وإلزامهم بالحجة القاطعة على بطلان هذه الدعوى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فى هذه الآية من البلاغيات ما يأتى:

(أ) الإيجاز بالحذف؛ لأن التقدير: وقالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالت النصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه. فدمج النظم قولى الطائفتين فى قول واحد،

---

(١) الكشاف: (١/ ٦٠٢). (٢) تفسير أبى السعود: (٣/ ٢٠). (٣) روح المعانى: (٦/ ١٠٢).

وأسنده إليهما إسناداً واحداً لاتحاد القولين فى اللفظ والمعنى.

(ب) تقديم اليهود على النصارى لسبقهم فى الوجود الزمنى ولقولهم هذا القول قبل النصارى.

(جـ) تقديم دعوى البنوة على دعوى الأحبية الكاذبتين من باب تقديم السبب على المسبب، لأن البنوة المزعومة سبب فى «الأحبية» المكذوبة.

(د) (**بل أنتم بشر ممن خلق**) بل للانتقال من تقرير تكذيبهم وتوبيخهم إلى تقرير ما يناقض دعواهم، وهو بشريتهم وخضوعهم لكل ما يخضع له البشر من مجريات الإرادة والقدرة الإلهية.

(هـ) (**ولله ملك السموات والأرض...**) استئناف مقرر لعظمة الله الواحد الأحد، وإظهار قهره لكل مخلوق ونفاذ قدره فيه.

(و) (**إليه المصير**) قصر صفة على موصوف طريقه تقديم ماحقه التأخير: تقديم المسند (إليه) على المسند إليه (المصير) أى إليه هو (الله) لا إلى غيره مصير الخلق كلهم فيجازى كل نفس بما كسبت فريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

* * *

٤ - ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرابًا يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخيه، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادمينَ﴾ [المائدة: ٣١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تمثل نهاية المأساة الأولى فى حياة البشر على الأرض وتبين كيف سُقِطَ (الأخ القاتل) فى يده، لما رأى غرابا عنده من الحذق والتدبير ما لم يكن له به علم. وقد أفصح عما فى نفسه بما حكاه عنه القرآن الآمين:

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

وقد حمل الأئمة هذا الاستفهام على التعجب. وقد بدأ الإمام أبو السعود هذا القول فى الاستفهام الذى معنا فقال «تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه

الغراب»[1]. وتابعه الألوسى فقال:

«تعجب من عجزه عن كونه مثله؛ لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه مع أنه أشرف منه»[2].

أما أبو حيان فقد جمع بين التعجب والإنكار، أى أنكر على نفسه هذا العجز ثم تعجب منه[3].

واقتصر ابن عاشور على قوله: «والاستفهام فى (أعجزت) إنكارى»[4].

والخلاصة: أن حاصل ما قاله الأئمة أن هذا الاستفهام للإنكار والتعجب. وهذا فهم صائب، بيد أننا نضيف إليه معنى آخر مستوحىً من السياق، وهو: التحسر على غبائه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى قوله (**فبعث**) استعارة تصريحية تبعية، شُبِّه فيها التسخير بالبعث بجامع ما فى كل منهما من «آلحصول» والنفع، كما أن فى «يبحث» استعارة البحث للحفر، بجامع ما فى كل منهما من ترتب شئ على شئ والظفر بالغاية.
* (**يريه**) أُضمر فيه فاعله ولم يُؤْتَ به مظهرًا لتكثير الفائدة والتردد فى مرجع الضمير المستكن، هل هو (الله) فاعل (بعث) أم (غرابا) مفعول (بعث) وعلى كلا التقديرين فالإسناد من المجاز العقلى:

  فإن كان الضمير عائدًا على (الله) فإسناد الفعل (يُرى) إليه من الإسناد إلى السبب المؤثر. لأن بعث الغراب كان سببه إلهام الله إليه.

  وإن كان الضمير عائدا على (غراب) فالإسناد إليه من الإسناد إلى آلة الفعل.
* وفى إطلاق «السوأة» على الجثة استعارة تصريحية أصلية شبهت فيها الجثة بالسوأة (أى العورة) بجامع ما يجب فى كلٍّ من «الإخفاء» السوأة بالثوب والجثة بالثرى.
* فصل جملة (**قال يا ويلتى**) عما قبلها لوقوعها استئنافا بيانيا باعتبارها جوابا عن سؤال نشأ فى الذهن من الجملة الأولى (**فبعث....**).

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ٢٨)

(٢) روح المعانى: (٦/ ١١٦).

(٣) البحر المحيط: (٣/ ٤٦٦).

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ١٧٤).

* (**يا ويلتى**) استعارة بالكناية» شبه فيها ما لا يعقل، (وهو الويل أو الهلاك) بمن يعقل، ثم حذف المشبه به ودُلَّ عليه بشئ من لوازمه وهو النداء.

* (**مثل هذا..**) تشبيه: المشبه فيه الضمير المستكن فى (**أكون**) والمشبه به (**الغراب**) ووجه الشبه الحذق وحسن التدبير. وفى هذا التشبيه لطيفة، حاصلها: أن القاتل بجريمته هذه وهو ممن كرَّمهم الله بالعقل وحسن التقويم، ارتد أسفل سافلين بمعصيته، فاحتقر نفسه أمام غراب خسيس الطبع منكس الخلق ولم يسعه إلا الندم وسوء المصير.

* * *

٥ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ على كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الاية كان قوله تعالى: (**فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم**) هذا بيان من الله لفتح باب التوبة والإصلاح بعد الظلم والإفساد. وأمر الله نافذ، وإرادته غالبة؛ لأنه هو مالك الملك ومن فيه، وما فيه. وهذا ما تقرره آيتنا التى جاء فى صدرها هذا الاستفهام:

(**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض**) وقد مرَّ بنا مرات أن هذا الاستفهام باتفاق أهل العلم يفيد التقرير، فقوله تعاى: (**ألم تعلم**) معناه: قد علمت وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الموضع.

أسرار النظم وبلاغياته:

قلنا آنفا إن هذا الاستفهام للتقرير، ومعناه أن يقول المستفهم للمخاطب «قد علمت» وهنا نسأل: لماذا الاستفهام وهو أسلوب إنشائى؟ أما كان يكفى أن يقال: قد علمت أن الله له ملك السموات والأرض؟

والجواب: إن فى أسلوب الاستفهام ما ليس فى الأسلوب الخبرى من تنشيط الذهن وتهيئته للتلقى للاعتناء بالمعنى الذى يراد تقريره، وإشراك المخاطب فى تصور الجواب

واعتمـاده. فبدلا من أن يقال له: «قد علمت فى الأسلوب الخـبرى»، يقول - هو - لنفسه قد علمت بعد سماعه (**ألم تعلم**) وهذا أثبت للمعنى، وألزم لقيام الحجة.

* ﴿أَنَّ اللَّهَ له مُلْكُ السَّمَـواتِ وَالأَرْضِ. .﴾ هذه الجمـلة كثيـرة الورود فى نظم القـرآن، وقد أوثرت على كل البـدائل لأنهـا أبلغ وأفخم فـمـثلا من بدائلهـا أن يقال: أن ملك السموات والأرض لله. فالمعنى المراد واحد فى العبارتين مع التفاوت فى الخصائص البيانية. فالعبارة القرآنية فيها أسلوب قصر تخلو منه العبارة البديلة، وهو:

(**له ملك السـمـوات والأرض**) وطريقـه تقـديم المسند (له) على المسند إليـه (**ملك السموات والأرض**) أى له لا غيـره، وهذا القصر من مقـتضيات الحـال هنا لأن المقام مقام تمدُّح وثناء. هذه خصوصية بيانية عرت عنها العبارة البديلة.

كما نجـد فى العبارة القـرآنية تكرار الإسناد مرتين مـع خلو العـبـارة البديـلة منه. بيـان ذلك: أن ملكية السـموات والأرض مـسندة إلى الله مرتين، لأن مـعنا فى هذا النظم مبتـدأين: الأول (الله) اسم (إن) والثانى (**ملك السموات والأرض**) وخبر المبتدأ الثانـى هو (له) والضميـر عائد على اسم الجـلالة. فهـذا هو الإسـناد الأول. ثم إن المبـتدأ الثـانى وخـبره فى مـوضع رفـع خـبـر المبـتـدأ الأول (**الله**) وهذا هو الإسـناد الثانى، وهـو يفيد توكـيد النسـبة بين طرفى الإسناد. وليس لهـذا وجود فى العـبارة البديلة.

وإذا وازنَّا بين منطوق العـبارتين وجدنا اسم الجـلالة (**الله**) له الصدارة فى الكلام، أما فى العبارة البديلة فقد جاء طرفا أخيرا.

لذلك نجد هذه العبارة القرآنية كثيرة الورود فى التنزيل لما فيها من روائع البيان.

* وتوكيد الخبر فى (**أن الله له مـلك. . .**) لأن مضمون الكلام من الحـقائق العظيمة، وهى من حقها أن يُعبَّر عنها بأسلوب فخم مثلها. وقد تقدم هذا مرات، ونريد هنا أن نضيف إليه هذه التتمّة المهمة.

دواعى التوكيد بلاغيا ثلاثة أنواع:

الأول: ما يراعى فيه حال المخاطب، كتوكيد الخبر للمخاطب المتردد أو المنكر، كقولك لمن ينكر سماحة الإسلام إن الإسلام لسمح.

الثانى: ما يراعى فيه حال المتكلم نفسه، وهو قليل، مثل قول من يلوم نفسه على شيئ: إنى أنا الغلطان.

الثالث: ما يراعى فيه حال الكلام، وهو فى القرآن كثير، ومنه كل ما قلنا فيه إنه حقيقة عظيمة. وهذه إضافة جديدة نأمل أن يكون لها نصيب عند الدراسين من الاعتبار، وبخاصة فى الدراسات القرآنية فإن دارس بلاغة القرآن سيجد نفسه فى أمس الحاجة إليها كثيرا حين تنعدم دواعى التوكيد مع وجود المؤكدات فى النظم.

* (**يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء**) الجملة الأولى ابتدائية لا محل لها من الإعراب، مقررة لكمال ملكية الله لأقطار السموات والأرض، وهى خبرية لفظا ومعنى. وصلت بها جملة (**ويغفر لمن يشاء**) للتوسط بين كمالى الاتصال والانقطاع. وفيهما طباق إيجاب من مقتضى الحال بين يعذب ويغفر، وتقديم العذاب على المغفرة فيها لمجىء هذه الآية فى أعقاب آيات عرضت نماذج متعددة من المعاصى والآثام من بينها الكفر، فكان تقديم العذاب أردع لأولئك العصاة - رجاء أن يثُوبوا إلى رشدهم ويصلحوا حالهم.

* ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام المتقدم، وتوسيط الجار والمجرور - على كل شىء» بين المسند إليه «الله» والمسند (قدير) لما فيه من توافق الفواصل وتقديم المعمول (**على كل شىء**) على العامل (**قدير**) لإيقاع العامل على المعمول بعد تصوره فى الذهن: وهذا أظهر فى تسلط العامل على المعمول.

* * *

٦ - ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَـكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَـتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٣].

الدراسة والتحليل

فى هذه الآية يعرض القرآن الأمين واقعة من وقائع اليـهود الخسيسة، بعد أن بينت الآيتـان اللتـان قـبلهـا فراغ قـلوبهم من الإيمـان، وأكلهم أمـوال الناس بالبـاطل، وانخراطهم مع المنافقين فى المكر والخداع، فكشف القرآن ما يكنونه فى قلوبهم وثبّت رسوله، وهوَّن عليه ما يجده منهم:

﴿يَا أَيُّهَـا الرَّسُولُ لاَ يَحـزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُـونَ فِى الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَـالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ولَم تُؤمِن قُلُوبُهُمْ (يـعنى المنافقين) وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّـاعُون لِلْكَذِبِ سَمَّاعُـونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتُوكَ، يُحَرِّفُـونَ الكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِـعه، يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا فَـخُذُوهُ، وَإِن لَّمْ تُؤْتَوهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللهُ فِـتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّـرَ قُلُوبَهُمْ لَهُم فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ، وَلَهُمْ فِى الآخِـرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَـمَّاعُـونَ لِلكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّـحت، فَـإِن جَاءُوكَ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُم أَوْ أَعْـرِضْ عَنهُمْ، وَإِن تُعْـرِضْ عَنهُمْ فَلَن يَضُـرُّوكَ شَـيْئًـا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة ٤١ ، ٤٢].

كان اليهود إذا وقع من بعضهم خطـأ أو جريمة (كالزنا) يلجأون إلى رسول الله - أحيانا - ليحكم على المجرم منهم، وهم يعلمون أن التـوراة فيها حكم الله فى الواقعة التى يعرضـونها على صاحب الرسـالة الخاتمة ﷺ. ولكنهم لا يعـملون بحكمه، من أجل هذا خـيره الله بين أن يحكم بينهم أو يُعـرض عنهم؛ لأنهم غـير جـادين فيـما يصنعون. وعقب هاتين الآيتين جاء قوله تعالى:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾.

وهذا الاستفهـام الذى أداته «كيف» قد مرت بنا صور منه، وعرفنـا توجيهات أهل العلم فيه، وعمدة ذلك أنه استفهام عن الحال. فإذا كـان الاستفهام حقيقيا كان غرض

المستفهم الوقـوف على حال المخاطب. وإن كان مجازيا فكثـيراً ما يكون إما للإنكار، وإما للاستبعاد، كما يكون للتقرير أحيانا.

وقد بينوا وجه دلالتـه على الإنكار أو الاستبعاد بـأن كل موجود لابد أن يكون له حال هو موجود عليـه. ومحال أن يخلو أى موجود من حال (يعنـى صفة) فإذا سُلِّط الإنكار على الحـال - أى عـدم وجود الحـال - دلَّ ذلك على عـدم وجود صـاحب الحال، وقالوا - فيما عرفناه عنهم من قبل - إن هذا من قبيل الكناية التى يقرن الدليل فيها بالدعوى.

وما قالوه - قبلا - ينطبق على هذه الصورة. فالاستفهام فيها للإنكار:

فقد قال أبو السعود: إنه استبعاد وتعجيب وإنكار»[١]. وتابعه الألوسى مع اختلاف يسير[٢].

والخلاصة : تردد عند الأئمـة، القول بالإنكار والاسـتبـعاد والتـعجيـب من حال اليهود، ولا اعتراض لنا على التعجيب أما الإنكار والاستبعاد ففى حاجة إلى بيان:

فالمعروف أن الإنكار نوعان:

أولاً: إنكار تكذيب، مثل أن تقول لمن نسب إليك قولا أنت لم تقله: كيف تنسب إلىَّ هذا القول، فأنت تكذِّبـه عن طريق هذا الإنكار الذى تريد منه نفى الوقوع منك. بمعنى أنك لم تقل هذا القول أصلا.

الثانى: إنكار يراد به نفى الواقع، مثل أن تقول لمن يسىء متعمداً إلى والديه: كيف تسىء إلى والديك، «فنحن - هنا - نُنكر عليه عملاً واقعا فعْلا.

أما الاستبعاد فالفرق بينه وبين الإنكار كـبير؛ لأنه يكون مسلطا على صدور أمر مَّا ممن ليس هو أهلاً لأن يصدر عنه هذا الأمر، أو لانتفاء الأسـباب التى تجعله صانعًا له **فالاستبعاد على هذا نوعان كذلك:**

الأول: نفى أمر عمن هو ليس أهلا له أصلا.

والثانى : نفى أمر لا لأن المنفى عنه ليس أهلا لصدوره عنه، بل لأن الأسباب التى تجعله صانعا له لم تتحقق فيه.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ٤٠).

(٢) روح المعانى: (٦/ ١٤١).

مثال الأول: كيف قال فلان هذه القصيدة وهو أُمِّى؟

ومثال الثانى: كيف قال فلان هذه القصيدة وهو مشغول دائمًا بغير العمل الأدبى.

وبعد هذا التمهيد نقول: إن الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ؟﴾ هو استفهام استبعاد لا استفهام انكار. وسبب هذا الاستبعاد هو ما ذكره الله عز وجل (**وعندهم التوراة فيها حكم الله**).

ولما قال الأئمة إنه للإنكار يمكن توجيهه إذا وضعنا فى الاعتبار الحالة التى جاءوا يستفتون النبى ﷺ فيها، فيكون الله قد أنكر عليهم هذا الواقع لإنهم كان يكفيهم مايجدونه فى كتابهم «التوراة» من حكم الواقعة التى طلبوا معرفة الحكم فيها من النبى ﷺ ولا وجه للإنكار غير هذا.

أسرار النظم وبلاغياته :

* إيثار المضارع (**يحكمونك**) لاستحضار الصورة وتسليط الاستبعاد عليها، وهى ماثله فى الأذهان.
* ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾ زيادة فى التشنيع عليهم وللدلالة على ما فى طباعهم من لؤم وتلكؤ واحتيال على شرائع الله.
* فى (**يتولون**) استعارة محسوس، وهو التولى بمعنى الرجوع الحسى، لمعقول، وهو الإعراض القلبى عما سمعوه من الحق. بجامع الأنتكاس فى كل، وسرها البلاغى تجسيم إعراضهم وصدودهم حتى لكأنه يُرى بالعين.
* فى اسم الإشارة الموضوع للمكان البعيد (**ذلك**) إشارة إلى فخامة ما أطلعهم عليه الرسول من حكم الله فى الواقعة التى حكَّموه فيها.
* ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ اسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) إشارة إلى بُعْدهم عن الحق والإيمان الصادق.
* دخول حرف الجر (**الباء**) على (**المؤمنين**) لتأكيد نفى الإيمان عنهم على أبلغ وجه.

* * *

٧ - ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠].

الدراسة والتحليل :

هذه الآية - القصيرة - تعقيب بليغ على ما ورد فى الآية التى قبلها، وهى ترصد محاولات لليهود لتعطيل شريعة الله الخاتمة، وهى قوله تعالى:

﴿وَإِنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ، فَإِن تَوَلَّوا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

ثم جاءت آيتنا: **(أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)**.

وفى هذه الآية استفهامان:

الأول فى صدرها: (أفحكم الجاهلية يبغون) والثانى فى وسطها: **(ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)**، والأئمة مجمعون على أن الاستفهام الأول والثانى معًا للإنكار، مع إضافة التعجيب والتوبيخ إلى الأول دون الثانى(١).

والخلاصة: أحسن الأئمة فيما أجمعوا عليه فى توجيه هذين الاستفهامين. وكنا نود أن يضيفوا إلى الأول: الزجر والتأنيب. لأن هذا الاستفهام ناطق بهما بكل وضوح.

أما الثانى: (ومن أحسن من الله حكما) فليس معناه نفى الأحسنية مع التسليم بالمساواة، بل المقصود نفى المساواة وما فوقها معًا. وقد عالجنا هذا بكل وضوح فى موضع سابق من هذه الدراسة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى قوله تعالى: **(أفحكم الجاهلية يبغون)** أسلوب قصر، طريقة تقديم ما حقه التأخير، فقد قُدِّم المعمول **(حكم)** على العامل **(يبغون)**، ونكتته المبالغة فى **(الإنكار)** عليهم ولأن محط **(الإنكار)** هو الحكم، وهو قصر صفة على موصوف

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود: (٣/ ٤٧) وروح المعانى (٦/ ١٥٦) والتحرير والتنوير: (٦/ ٢٢٥).

وأوثر المضارع (**يبغون**) للإشارة إلى أن ميلهم إلى حكم الجاهلية أمل لديهم يراودهم حينا بعد حين، وليس خاطرة خطرت ثم زالت.

* والواو فى (**ومن أحسن**) استئنافية وليس للوصل الذى استدعاه التوسط بين الكمالين لإنشائية الجملتين لفظًا ومعنى، لأنه لا تناسب بينهما لاختلاف طرفى الإسناد فيهما وكذلك المعمولات فى كل من الجملتين، وهذه هى أوجه الاختلاف بينهما:

حكم الجاهلية - الفاسقون فى الأولى.

حكم الله، الموقنون فى الثانية.

* التنكير فى (قوم) للتعظيم والتشريف. وفى المضارع: (**يوقنون**) لبيان أن الايقان هو الاعتقاد الذى ينمو ويزيد عند هؤلاء القوم. ولموافقة فواصل الآى .

* * *

٨ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

الدراسة والتحليل:

فَهْمُ هذه الآية يتوقف على الآيتين اللتين قبلها. وفيهما يقول الله عز وجل:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

وبعد هاتين الآيتين جاءت آيتنا. وظاهر أن الآية الأولى ينهى الله فيها المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى. ويبين علة هذا النهى بأنهم يوالى بعضهم بعضا ولا يوالون المؤمنين وإن والاهم المؤمنون. ثم حذَّر الله من يواليهم من المؤمنين ووصفه بأنه بهذه الموالاة المنهى عنها يصير الموالى من المؤمنين يهوديا أو نصرانيا. وأنه ظالم لنفسه، وأن

سنة الله فى الظالمين أن يتركهم فى ضلالهم ويمنع عنهم هدايته وألطافه، هذا ما جاء فى الآية الأولى.

أما الآية الثانية فتصف حال المنافقين الذين يندسون فى معسكر المؤمنين، فهم يروجون الشائعات ليثبطوا همم المؤمنين ويفتوا فى أعضادهم، . فيشيعون بينهم أننا إذا لم نوال اليهود والنصارى لاتقاء شرورهم فسوف يتكالبون علينا ويغلبوننا وتكون لهم دائرة علينا. وليس قصدهم النصح، ولا هم مخلصون فيما يقولون. بل يقولونه بقصد أن يخالف المؤمنون توجيهات دينهم فلا يكون لهم نصيب فى الغلب.

ثم عقب الله على هذا التخذيل النفاقى: ولتثبيت المؤمنين ﴿فَعَسى اللهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

ثم يبين الله تعقيب المؤمنين على موقف المنافقين بعد تحقق نصر الله للمؤمنين، وتخلى المنافقين عن اليهود:

﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾.

يقولون هذا لليهود تحسيراً وتبكيتا وشماتة، والشماتة فى مثل هذا الموقف سلاح يحسن استعماله مع العدو.

ويكاد الأئمة يجمعون - على اختلاف عباراتهم - على أن المراد من هذا الاستفهام هو: الإنكار لما فعلوه، واستبعاده، وتخطئتهم فيه. وهذه عبارة الإمام أبى السعود[1].

والخلاصة: بعد أن أشرنا إلى ما ذكره الأئمة، فى هذا الاستفهام نرى أن الأظهر أن يكون المراد منه هو: التحقير والتحسير والتنديم:

التحقير بالنسبة للمشار إليه وهم المنافقون. والتحسير والتنديم بالنسبة للمخاطبين، وهم اليهود، أما إذا كان الخطاب من المؤمنين لبعض المؤمنين فإن التحقير يبقى قائما فى حق المشار إليه وهم المنافقون.

أما بالنسبة للمخاطب، وهم المؤمنون. فيكون المراد: التبصير والتحذير، لئلا ينخدع المؤمنون بهم مرة أخرى.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ٥٠).

أسرار النظم وبلاغياته :

* أوثر المضارع (**ويقول**) لحضور الصورة فى الذهن، وللدلالة على أن هذا القول يتكرر مرات وليس مرة واحدة.
* (**أهؤلاء**) عبروا به وهو اسم إشارة للقريب فى المكان احتقاراً للمشار إليه، تنزيلا لقُرب المكانة منزلة قرب المكان.
* أوثر الفعل الماضى (**أقسموا**) على المضارع إشارة إلى بت اليمين وأنه وقع فعلا، وذلك للتشنيع عليهم وتسجيل حنثهم للأيمان التى يحلفونها.
* ﴿**جَهْدَ أيمانِهِمْ**﴾ حال من الواو فى أقسموا، أى اقسموا جاهدين كل الجهد. وهذا زيادة فى التنشيع عليهم بعدم وفائهم وإن أقسموا اقساما مغلَّظة.
* (**إنهمْ لَمَعكم**) بيان لتوكيدهم الوعد فأكدوا الخبر بـ (إن) واسمية الجملة. وهذه زيادة فى النعى عليهم، وطبعهم على المراوغة والخداع.
* (**حَبِطت أَعْمالُهُم**) خبر مراد به التهديد والوعيد الشديد وفى (حبطت) استعارة تصريحية تبعية شبه فيه بطلان أعمالهم بالهلاك بجامع انعدام النفع فى كل منهما وأصل الحبط هو موت الماشية بأكل نبات شديد المرارة فتنتفخ بطونها ثم تموت.
* (**فَأَصبَحُوا خاسرين**) تذييل مقرر لمضمون الكلام السابق. وفى (أصبحوا) استعارة تصريحية تبعية، حيث شُبّه تحولهم من حال سيئة إلى حال أسوأ منها فى ظهور شناعتها بالإصباح فى قوة الظهور وعدم الخفاء، والفاء لإفادة سرعة ذلك التحول الشنيع.
* وفى (**ما أسروا فى أنفسهم**) كناية عن إضمارهم السوء للمؤمنين، حيث موَّهوا الحقائق بإظهارهم الشفقة على المؤمنين إذا لم يتخذوا اليهود والنصارى أولياء. وهم كانوا فى دخيلة أنفسهم يريدون لهم السوء والهزائم.
* وتوسيط (**على ما أسروا فى أنفسهم**) بين أسم أصبح (واو الجماعة) وخبرها (**خاسرين**) للإشعار بأن الخسران حاصل ومترتب على إسرارهم السوء للمؤمنين.
* والتعبير بالاسم الموصول (**ما أسروا**) لإفادة التهويل والتفظيع. على وزان قوله تعالى فى شأن ما حدث لفرعون وقومه.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه : ٧٨].

ولموافقة رءوس الآى، لأنها مبنية على حرف اللين بعدها نون أو ميم.

* * *

٩ - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ، مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٥٩ - ٦٠].

الدراسة والتحليل :

سبب نزول هاتين الآيتين له أثر كبير فى فهمهما حق الفهم. وقد رووا أن سبب نزولهما أن نفرا من اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، وسألوه عمن يؤمن بهم من الرسل فأجابهم، ولما سمعوا ذكر عيسى عليه السلام ضمن من آمن بهم صاحب الرسالة الخاتمة نفروا وقالوا:

«ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم، ولا [نعلم] دينا أشر من دينكم يعنون الإسلام والمسلمين فنزلت الآيتان فى الرد عليهم(١).

ومعنى نقم: عاب. يعنى أن اليهود لم يعيبوا على المسلمين شيئًا يستحق العيب، وإنما عابوا إيمانهم بالله وبالقرآن وبما أنزل الله قبل القرآن كالتوراة والانجيل. وهذا الإيمان كمال وجلال وجمال، فهو أول ما يُمدح ويثنى عليه، وليس مما يوصف بالنقائص والعيوب. ولكن اليهود مهرة فى قلب الحقائق إلى الضد والنقيض لما فى طبعهم من خسة ولؤم.

والاستفهام الذى فى هذه الآية: (**هل تنقمون منا..**) للإنكار كما ذهب الأئمة: إنكار الواقع؛ لأن عيبهم الإسلام والمسلمين وقع منهم فعلا. وقد ترتب على هذا الإنكار الظاهر من النظم الإلزام والتبكيت(٢).

والطاهر بن عاشور حمله على الإنكار والتعجيب، قال: «فالإنكار دل عليه الاستثناء: (**الا أن آمنا**) والتعجيب دل عليه أن مفعولات (تنقمون) كلها محامد لا يحق

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٥١٦).

(٢) أبو السعود: (٣/ ٥٤).

نقمها»[1] أى عيبها وانتقاصها.

ومثال قول المؤمنين لليهود أن تقول لمن تُـحسن إليه كثيرًا، وهو يسيء إليك دائما: هل تسيء إلى إلا لأنى أحسن إليك» تنكر عليه الإساءة فى مقابلة الإحسان، وكذلك اليهـود جعلوا الإيمان على الوصف المذكـور فى الآية موضعا للذم والعـيوب، وهذا فعلا يدعو إلى التعجب من صنعهم بعد إنكاره عليهم.

أما الاستفـهام الثانى: **(قل هل أنبـئكـم بشـر من ذلك)** فـسكت عنه جل المفسـرين القدماء وبعض المحدثين حمله على الإنكار[2]؟

وأشار بعض آخر إشارة غامضة إلى أنه للتبكيت[3].

والخلاصة: أن جَعلهم الاستفهام الأول للإنكار والتبكيت لا ملاحظات عليه. ومن الحرى أن يضاف إليـه التسفيه بل إن التسفـيه من أظهر معانى هذا الاسـتفهام لأن من عنده مُسْكة من رشاد لا يصدر منه هذا الفعل المنكر الظاهر عوره.

أما الاستفهام الثانى **(هل أنبئكم)** فلا وجه لحمـله على الإنكار، والذى ينبغى قوله أنه للذم والتقريع والتهـديد بسوء المصير والنعى على من جرى توجيه هذا الاسـتفهام إليه، وهم اليـهود، بدليل ما قدمناه من سـبب النزول، ثم - وهذا هو الأهم - ذكر أوصافهم المعروفة - قرآنيا - عنهم.

هذا هوالصواب الذى ينبغى إعلانه هنا.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الآيتان - موضوع الدراسة هنا - حافلتان بالأسرار البيانية والصور البلاغية، نكتفى منها بالآتى:

* **(قل يا أهل الكتاب)** توسيط النبى ﷺ بأمره بالقول (قل) لإيجاب مشافهة اليهود بما فى الآية، وفورية تبليغهم؛ لأن ما يقع بعد الفعل (قل) كما تقدم هو رسالة خاصة يجب الاهتمام بها وتبليغها على نحو خاص.

(١، ٢) التحرير والتنوير: (٦/ ٢٤٢) وما بعدها.

(٣) تفسير أبى السعود (٣/ ٥٠) وروح المعانى (٦/ ١٧٤).

وفى الوصف بـ (**يا أهل الكتاب**)، تمهيد للنعى عليهم لأنهم قالوا ما قالوا من نسبة العيب إلى الإسلام مع أن المنزل عليهم يشهد بصحة الإسلام وصدقه، فهم قد ضلوا عن علم بصواب ما عابوه وذمّوه.

* ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ . .﴾ أسلوب قصر نافٍ لكل علة، وسبب يحمل اليهود على عيب الإسلام إلا علة وسببا واحدًا هو الإيمان الكامل بالله ورسله ومن كان هذا مسلكه كان فاقد الرشد والتمييز بين الحق والباطل، معاندًا متجاهلا، وكفى بذلك خسة وانحطاطًا.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهذا سبب ثان فى عيب اليهود للإسلام، وهو فسقهم الغالب عليهم، ولو كانوا متسقيمين لما جرأوا على ذم الحق.

يعنى أن الذى حمل اليهود على عيب الإسلام أمران:

الأول: الإيمان الكامل الذى عليه المؤمنون.

والثانى: فسق أكثر اليهود وإهدارهم لقيم الحق[1].

* وفى تكرار فعل الأمر (**قل**) فى الثانية إشارة إلى استقلال هذه المواجهة لليهود عن المواجهة الأولى لأن كلا من الآيتين تحمل سلاحًا جديدًا، وبراهين خاصة لإفحام اليهود. وكشف زيفهم أمام الأجيال إلى يوم الدين.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ﴾ مشاكلة تقديرية فى كلمة «شر» لوقوعها فى صحبة مقولة اليهود للنبى ﷺ «ولا دينا شرًا من دينكم» والمشاكلة هى: التعبير عن معنى بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا أو تقديرًا» فهى مثل: (**صبغة الله**)، الذى تقدم فى مباحث سورة البقرة. والاستفهام فى صدر هذه العبارة فيه إثارة وتشويق لعقبى الكلام كيف تكون.

* (**من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**) مجموع هذه الصفات كناية عن موصوف هم اليهود، لأن هذه الصفات ثابتة لهم قرآنا وتاريخًا.

---

(١) للسادة المفسرين، حتى المحدثين منهم تأويلات شتى فى معنى (**وأن أكثركم فاسقون**) وهى على كثرتها لا طائل تحتها وغير مقنعة. ونرجو أن يكون ما ذكرناه هو الصواب.

وهى أبلغ من التصريح؛ لأن الدعوة فيها «وهى الأشرِّية» مقرونة بدليلها أو أدلتها، وهى الأوصاف المعدودة فى الآية الأمينة.

* (**أولئك شر مكانا**) التعبير باسم الإشارة الموضوع للمكان البعيد، للإيذان بأن المتحدث عنهم، وهم اليهود، استحقوا الوصف بما ذكر بعد اسم الإشارة بسبب أن ما ذُكر قبله صفات مهدت ووطأت لصيرورتهم أشر الناس، وأضل الناس عن الحق. وللإيذان ببعدهم عن الهداية والرضوان الإلهى فى عاجل أمرهم وآجله.

* * *

١٠ - ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

الدراسة والتحليل:

كانت هذه الآية تعقيبا على قول النصارى (**إن الله هو المسيح ابن مريم**) وقولهم: (**إن الله ثالث ثلاثة**) فى الآيتين السابقتين على آيتنا هذه. وبين الله لهم خطأ قولهم، ثم قال: (**أفلا يتوبون**).

ويوجز الإمام جار الله القول فى هذا الاستفهام فيقول: (فيه تعجيب على إصرارهم)[(١)].

ويتناوله أبو السعود فى شىء من التفصيل فيقول: (**أفلا يتوبون**).. لإنكار الواقع واستبعاده لا إنكار الوقوع وفيه تعجيب من إصرارهم.. أى ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة فلا يتوبون إلى الله تعالى ويستغفرونه بالتوحيد.. فمدار الإنكار والتعجيب عدم الانتهاء وعدم التوبة معًا، أو أيسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقيب ذلك. فمدارهما - يعنى الإنكار والتعجيب - عدم التوبة عقيب تحقق ما يوجبها»[(٢)].

ويتابع الألوسى أبا السعود فيقرر ما قرره فى إيجاز شديد[(٣)].

والخلاصة: أن استعمال هذا الاستفهام فيه - فوق ما ذكر أهل العلم - تليين فى الخطاب وترغيب فى التوبة من تلك الجرائم النكراء التى تمس أصول الإيمان. ولم

---

(١) الكشاف: (١/ ٦٣٦). (٢) تفسير أبى السعود: (٣/ ٦٧). (٣) روح المعانى (٦/ ٢٠٨).

يقف المراد منه عند الإنكار والتعجيب. فكأن القرآن يستحثهم ويلح عليهم فى استحداث تلك التوبة اللائحة أمامهم موجباتها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الفاء العاطفة فى (**أفلا**) للإشعار بأن ما قبلها من سوء القول على الله، المترتب عليه كفرهم بالله صالح لأن يكون سببا حاملا على التوبة والرجوع إلى الله، وزان ذلك وزان من يحمل حملاً ثقيلا يعانى منه حامله عناءً كبيرًا يحمله على إلقاء ذلك الحِمل وإلا قصم ظهره ولكنه يظل يحمله. ومع هذه الدواعى إلى التوبة فهم مصرون على ذلك الإثم العظيم، وهذا هو منشأ الإنكار والتعجيب.

* فى عطف (**يستغفرونه**) على (**يتوبون**) عطف للخاص على العام. فالتوبة هى عمل القلب بالندم والإنابة إلى الله والاستغفار هو عمل اللسان بطلب المغفرة ومحو معاصى الماضى؛ لأن التائب كلما تذكر معاصيه جد فى صدق التوبة والفزع إلى الله ليمحو ما عمل من خطايا قبل التوبة.

* (**والله غفور رحيم**) تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله وهو خبر مستعمل فى الحث والترغيب فى التوبة وتقديم (**غفور**) على (**رحيم**) من باب تقديم التخلية على التحلية.

* * *

١١ - ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية وردت ضمن الآيات التى واجهت النصارى فى زعمهم أن الله هو المسيح ابن مريم، وأن الله ثالث ثلاثة وإذا كانت هذه هى عقيدتهم فى الله فانهم يعبدون غير الله، يعبدون المسيح بعد أن رفعوا الله وأحلوا المسيح محله فى الوجود وفى قلوبهم.

ويعبدون مع المسيح روح القدس باعتباره الإله الأخير فى منظومة «التثليث» التى يؤمنون بها وهم فى هذه (الثلاثية) ما عرفوا الله؟ وما عرفوا المسيح؟ وما عرفوا روح القدس؟

فهم ليسوا على شىء - كما قال القرآن - حتى يقيموا الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام، لا الأناجيل التى بين أيديهم الآن؛ لأن المسيح يبرأ منها، وستكون براءته منها مفاجئة قاتلة للمؤمنين بها، ولكن بعد فوات الآوان. كما سيأتى فى آخر استفهام فى هذه السورة، الآية رقم (١١٦).

أمر الله صاحب الرسالة الخاتمة - ﷺ - أن يواجه دعاة التثليث والخلط بين الله وعبده ورسوله عيسى عليه السلام. أن يواجههم بالآتى:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾.

والمواجهة - كما ترى - بدأت بهذا الاستفهام **(أتعبدون من دون الله. . .)**؟

الإمام الزمخشرى فسره تفسير الاستفهام الإنكارى ولكنه لم يصرح بالإنكار[1].

أما الإمام أبو السعود فيقول. وهو بصدد الحديث عن ﴿واللهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾: مؤكد للإنكار والتوبيخ ومقرر للإلزم والتبكيت[2].

فالاستفهام عنده: للإنكار والتوبيخ والتبكيت. وذهب الألوسى مذهبًا قريبا من مذهب أبى السعود[3] أما ابن عاشور فقال: «والاستفهام للتوبيخ والتغليط مجازًا»[4].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام محتمل لكل ما قيل فى بيان المراد منه.

يبد أن المعنى الرئيس المراد منه هو الإنكار الشديد وليس مجرد الإنكار لقبح المعصية المرتكبة وشناعتها من حيث أنها تتعلق بأصول عقيدة التوحيد، والزيغ فيها أعظم الذنوب على الإطلاق.

وقد قال الله أكثر من مرة: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾: تصدير الجملة الاستفهامية بفعل الأمر **(قل)** للإيذان بأهمية (المقول) لأنه - كما قلنا مرات - رسالة خاصة ينبغى الأهتمام بها وتبليغها

(١) الكشاف (١/ ٦٣٤).
(٢) تفسير أبى السعود: (٣/ ٦٨).
(٣) روح المعانى: (٦/ ٢١٠).
(٤) التحرير والتنوير: (٦/ ٢٨٨).

فـوراً. وهذه سمـة مطردة فى كل الجـمل التى تُصَـدَّر به (قل) فى بلاغة القـرآن والهمزة فى (**أتعبدون**) للإنكار، والمنكر ليس مجـرد العبادة ولكن عبـادة غير الله، ولذلك يتـحقق الإنكار بقـوله: (من دون الله)، دون التوقف عـل ذكر «المفـعول» وإيثار المضارع (تعبدون) على الماضى: عبدتم. ليقع الإنكار على عبادتهم لغير الله فى الحال والاسـتقـبال معـا. وهو إنكار للواقع لا للوقوع لأن إنكـار الواقع حالاً بمعنى لا ينبغى أن يكون مستلزم لإنكاره مآلاً للاشتراك فى علة الإنكار، وهى كون العبادة لغير الله.

* ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعًا﴾ علة أخرى لتوكيد الإنكار وتقبيح المنكر، لأن المعبود الحق ينبغى أن يكون مهيمنا قادراً على كل شىء منه المبدأ، وإليه المعاد، وله الأمر فيمـا بين المبدأ والمعاد وهؤلاء من جهلهم يعبـدون ما هو فى حكم العدم فى العجـز والافتقار واسم الموصـول (ما) عُبِّـر به هنا - والمراد به عيسى عليـه السلام بدلالة المقام **ولم يصرح باسم (عيسى) لنكتتين بلاغيتين:**

الأولى: ليتناول كـل معبـود غير الله عـيسى أو غـير عيـسى من الأصنام والأوثان والكواكب وبعض البشر.

والثانية: لتحقير أى معبود غير الله أمام الله جل شأنه.

* التنكير فى (**ضراً - نفعًا**) للتحقيـر، أى لا يملك لكم أى ضر وأى نفع تخشونه أو ترجونه.

﴿والله هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله وتوكيد الخبر فيه لأنه حقـيقـة عظيمـة، وتعريض بما يُعْـبد من دون الله بأنـهم فى منزلة الصم - البكم - العمى.

* * *

١٢ - ﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَ مَـا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآية إتماما لحديث بدأ فى الآية قـبلها، وهو ما حكاه القرآن عن بعض القساوسة الذين آمنوا بالقرآن فى عصر النزول وفيهم قال الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَا كْـتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ثم أتممت آيتنا ذلك الحـديث، وقد تصدَّر الآية هذا الاستفهام:

(**وما لنا لا..**) وقد مرَّت لنا صـور من هذا التركيب الاستفهـامى من قبل، وعرفنا المراد منه وإطباق الأئمـة عليه. حيث وسمـوه بأنه للإنكار، وبينوا كيفيـة دلالته على الإنكار. وترجـمـوا هذا التـركـيب حـيث ورد بـ (أى شىء ثـبت لنا، أولى، أوله، أولْهم، أو لكم) على حسب الضمير الذى يدخل عليه اللاَّم.

وضابط هذا الأسلوب أنه يتكون من (ما الاسـتفهامية + حرف الجـر (لـ) + ضمير ظاهر للمتكلم أو المخاطب، أو الغائب) وهذا الضميـر محصور فى (ما لنا - مالى - ماله - ما لكم - ما لهم - ما لها - مالهما - ما لكن - ما لهن) ومعظم هذه الصور واردة فى القرآن وسيـأتى الحديث عنها حسب سورها ثم يـأتى بعد ذلك حرف النفى (**لا**) والملاحظ أن نظم القرآن يستخدم هذا الأسلوب الاستفهامى فى مقامين: أحدهما فِعْلُ شىء كان ينبغى الا يكون. والثانى مقام الظن أو توقع عدم فعل ما من الأفعال، ومنه هذا الاستفـهام الذى معنا الآن: (**ومـا لنا لا نؤمن بالله**) أى: أىُّ شىء يمنـعنا من الإيمان بالله. والقـصد هو نفى الموانع كلها. وعلمـاؤنا - كما تقـدم - يحملون هذا الاستفهام على الإنكار، أى إنكار الأسباب أو الموانع، وفى هذا كناية لطيفة عن وقوع ما ولى النفى، وهو الإيمـان بالله تعالى ووحيـه إلى رسوله الكريم ﷺ وخلاصـة ما يقال عن هذا الاستفهام وأمـثاله: أن الأصل فيه أن يكون للنفى، وقد يرقى هذا النفى إلى الإنكار فى بعض الصور حسب المقام الوارد فيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ كناية عن القرآن، أى كناية عن موصوف. وإيثار هذه الكناية تمهيد لوصف القرآن بالحق.

* **(يدخلنا)** استعارة محسوس لمعقول. فقد استعير الإدخال، وهو حسى للجعل، وهو معنوى. اعتناء به، وتصويرا له بالإدخال المحسوس رغبة فى تأكيد تحقق حصوله، وإيثار (رب) من بين الأسماء الحسنى لما فيه من خاصية الإنعام وحسن الرعاية.

* * *

١٣ - ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ، قَالُوا لاَ عِلْمَ لنَا، إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

الدراسة والتحليل :

اتجهت سورة المائدة فى أواخرها لعرض بعض أحداث يوم القيامة. ومن هذه الأحداث هذا السؤال الضخم الذى يطرحه عز وجل على صفوة خلقه من البشر، وهم الرسل - يسألهم - وهو أعلم بموضوع السؤال منهم - عن إجابات أممهم لما جاءوهم فى الحياة برسالات الله إليهم: ماذا لقوا منهم، ويكون هذا السؤال بمرأى ومسمع من أهل الموقف جميعا، وهم جثاة على الركب صامتون واجمون:

﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾؟ ثم يكون جواب الرسل جميعا: **لا علم لنا؟ إنك أنت علام الغيوب**».

هذا الاستفهام مجازى قطعًا لصدوره عن الله، والله بكل شىءٍ عليم فكان لا مناص من البحث عن المراد منه لأنه استفهام عليم خبير. والبحث عن السر فى موقف الرسل منه.

وقد بدأ الإمام الزمخشرى القول عن بيان المراد من الاستفهام. ومن إجابة الرسل. أما الاستفهام فقال أنه للتوبيخ.

كما أورد عدة تفسيرات لنفى الرسل العلم بمواقف أقوامهم وكلها غير مقنعة إلا واحداً حكاه فى آخرها وبصيغة التمريض، وهو أصحها فيما نرى. وفيه يقول:

(وقيل من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب. ثم يجيبون بعدما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم)[1].

وهذا هو الذى يتعين تقريره فى هذا المجال، أما الآراء الأخرى فلا تُسمن ولا تغنى من جوع، ولمن شاء أن يراجعها ليشاركنا فيما نقول.

وللإمام أبى السعود كلام طويل فى الاستفهام وجواب الرسل عليه، لكنه لا يخرج فى جملته عما قاله الإمام الزمخشرى[2] وينحو الألوسى منحى أبى السعود، وله إضافات لا تدخل معنا فى تحديد المراد من الاستفهام وجواب الرسل عليه[3].

وكذلك صنع الإمام أبو حيان. فالاستفهام عنده - كما قال غيره - لتوبيخ أقوام الرسل. أما إجابة الرسل القاضية بعدم علمهم بما لقوه من أقوامهم فقد ردد أقوالا بعضها ضعيف وبعضها فيه تكلف ظاهر، وذكر هو نفسه أنه أعرض عن أقوال أخرى لأنها لا تصح[4].

أما ابن عاشور فيرى أن الاستفهام استعمل فى الاستشهاد ثم أريد منه الانتقال إلى توبيخ الأقوام الذين كذبوا الرسل.

أما إجابة الرسل فليس له فيهاجديد، بل وقف عمله عند النقل عن الأقدمين[5].

والخلاصة: أن حمل الاستفهام فى الآية على التوبيخ قول سديد، ولكن ينبغى أن يكون هذا التوبيخ تابعا لمعنى آخر مراد من الاستفهام أصالة، وهو التعريض بأقوام الرسل الذين كذَّبوهم ما دام المراد من خطاب الرسل هو إعلان مواقف الذين كذبوهم فى الحياة الدنيا.

على أننا نرى فى هذا الاستفهام وجهًا آخر غير ما تقدم وهو الترشيح لبيان الأهوال المذهلة التى ستحدث يوم القيامة. ليجيب الرسل بما أجابوا فيتبين لنا نحن فى هذه الحياة عسر يوم القيامة، لدرجة أن الرسل، وهم صفوة الله من خلقه، يصيبهم من

---

(١) الكشاف : (٢/ ٦٥٢).
(٢) تفسير أبى السعود: (٣/ ٩٣).
(٣) روح المعانى (٧/ ٥٥).
(٤) البحر المحيط: (٤/ ٤٨).
(٥) التحرير والتنوير (٧/ ١٠٠).

أهواله ما يذهلهم لأول وهلة. وهذا معنى تربوى يحمل النفوس على الاستعداد لذلك اليوم بالإيمان والتقوى والعمل الصالح.

أما إجابة الرسل فإن من عنده أدنى تبصُّر يرفض جمع الأقوال الاجتهادية التى أبداها بعض العلماء فى تفسير عدم استحضارهم لمواقف رسلهم. والصواب فى ذلك هو ما نقلناه عن الإمام الزمخشرى من قبل، من أنهم يذهلون من أهوال يوم القيامة حين يشهدونه لأول وهلة ثم يثوبون إلى رشدهم، ويشهدون على أقوامهم. فهذا كلام طيب، لا يسع المتأمل إلا قبوله، والبشاشة به. وهو غير قادح فى منزلة الرسل وأمنهم يوم القيامة لأنه ذهول عارض سرعان ما يزول.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ كناية عن موصوف هو يوم القيامة «وهى أبلغ مما لو قيل هنا: يوم القيامة يجمع الله الرسل» لما فيها من إعمال فكر فى معرفة هذا اليوم.
* **(ماذا)** استعملت هذه العبارة فى الاستفهام لتفخيم شأن المستفهم عنه. وفى **(أجبتم)** إيجاز بالحذف ببناء الفعل للمفعول. وفيها التفات من الغيبة **(الرسل)** إلى الخطاب **(أجبتم)** ونكتة هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أنهم بعد الجمع صاروا حضوراً فخوطبوا خطاب الحاضر.
* **(قالوا)**: فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى. وإيثار الماضى **(قالوا)** على المضارع إشارة إلى تحقق الوقوع لورود الخبر الصادق به، فكأنه وقع فعلا. وفى هذا استعارة فى زمن الفعل حيث شبه زمن القول فى المستقبل بزمن القول فى الماضى.
* ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ أكد الخبر بـ (إن) واسمية الجملة، وضمير الفصل وتعريف طرفى الإسناد؛ لأن مضمون الكلام من الحقائق العظيمة. وإيثار **(علاَّم)** وهو صيغة مبالغة فى اسم الفاعل ليكافىء **(الغيوب)** جمع **(غيب)** وقد قابل المفرد (غيب) بـ (عالم) فى آيات كثيرة. وهنا قابل (علام) (الغيوب) لكثرتها.

* * *

١٤ - ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واحدة من آيات وردت فى أواخر سورة المائدة يمتن الله فيها على عيسى عبده ورسوله؛ وكان قد بدأ هذا الامتنان بقوله الكريم:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ. . .﴾.

ووجه الامتنان فى آياتنا الإشارة إلى تكريم الله عيسى عليه السلام بإنزال مائدة عليه من السماء لما دعا ربه بإنزالها تلبية لرغبة حوارييه حين قالوا:

﴿يَاعِيسَى ابنَ مَرْيَم هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ولما زجرهم قائلا لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أجابوه فأقنعوه حين قالوا:

﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

وقد أفلح الحواريون فى الاعتذار عن أنفسهم. فليست المائدة مجرد اشتهاء لطعام فريد. وإنما هى توطئة لحصول مقاصد إيمانية رائعة. لذلك سارع عيسى عليه السلام قائلا فى دعاء ربه:

﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ، وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

وكمل الامتنان والتكريم حين قال الله لهم ﴿إِنِّى مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ، فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

والاستفهام الذى فى هذه الآية: **(هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء)** استفهام حقيقى لا مجازى. والمراد منه هو المستفهم عنه، وهو إنزال المائدة من السماء. والاستفهام الحقيقى نادر الوقوع فى القرآن بالنسبة للاستفهام المجازى.

والحواريون لم يكونوا شاكين فى قدرة الله على الإنزال المطلوب. بل هم يؤمنون بقدرته على كل شىء. وإنما أوردوا استفهامهم مورد استفهام الشاك تلطفا وإجمالا فى

الطلب كما يرى الطاهر بن عاشور. يعنى أنهم لم يجـرؤا على قول عبارة تلزم عيسى أو تلزم الله بالإجابة[1].

والذى نميل إليه أن (**يستطيع**) هنا مستعار لـ (**يستجيب**) بجامع التمكن من الحصول على المطلوب فى كل منهـما، أو مـجاز مرسل بـإطلاق السبب (الاستـطاعة) وإرادة المسبب (الاستجابة) وهذا - فيما نرى - أولى مما أشـار إليه ابن عاشور؛ **لأن** فيه شيئا من التكلف.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إضافة (**رب**) إلى المخاطب وهو عيسى عليه السلام (**ربك**) دون ضمير الجمع الجامع بينهم وبين عيسى (**ربنا**) إشارة إلى امتيازه عـليهم بـ «الرسالة» وقربه من الله الذى اصطفاه رسولاً لبنى إسرائيل. وإيثار (**رب**) لما فيه من معانى الرعاية والإنعام.
* (**أن ينزل..**) آثر المصـدر المؤول: (أن ينزل) على الصـريح (إنزال) لتـعلق الرجـاء بالمستقبل، الذى يفيده المصدر المسبوك من (أن) و(ينزل).
* (**قال اتقوا الله**) فصلت هذه الجملة عن الأولى (**قال الحواريون**) لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال؛ لأن الجملة الثانية نُزِّلتْ منزلة جواب على سؤال مقدر نشأ عن الأولى. تقـديره: ماذا قـال لهم عيـسى؟ وليس المراد تحـقق هذا السؤال بصـورته اللفظية، بل المراد وثوبه وإثارته فى الذهن، وخطوره فيه.
* (**إن كنتم مؤمنين**) جملة تعليلية للأمر بالتقوى مع الحث عليها، والترغيب فيها.

وإيثار (إن) على (إذا) لتنزيلهم منزلة الشاك تذكيـرا لهم بأن صدق الإيمان يقتضى ترك مثل هذه الاقتراحات.

وفيها إيجـاز بحذف متعلق (الإيمان) لإن التقـدير إن كنتم مؤمنين بالله ورسالاته، التى رسالتى هى واحدة منها.

* * *

---

(١) ٧٠/١٠٥.

١٥ - ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ من دُونِ اللَّهِ؟، قَالَ سُبْحَانَكَ مَايَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِى بِحَقٍّ، إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَافِى نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّادُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِمْ، وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٍ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

الدراسة والتحليل:

هذا الاستفهام الإلهى، وجواب عيسى عليه، عليه السلام مما سيكون يوم يجمع الله الرسل وتحشر الأمم، ويشهد كل رسول على أمته، وما لقيه من كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، والنصارى أمة من الأمم. يبعثون آملين أن يدخلوا الجنة، كما حكى القرآن عنهم وعن اليهود من قبل، من أن كل طائفة منهما زعمت أنها هى وحدها التى ستدخل الجنة ولن يدخلها أحد سواها.

كما حكى القرآن عنهم وعن اليهود من قبل: أن كل طائفة منهما حصرت الهداية فى نفسها، ورمت من عداها بالضلال، اليهود زعموا أنهم هم وحدهم المهتدون. وعيرهم ضالون وفى مقدمة الضالين النصارى؟

والنصارى زعموا أنهم هم وحدهم المهتدون، وغيرهم ضالون، واليهود فى مقدمة الضالين؟ دعاوى جوفاء هزيلة وتخيلات لم يملها عليهم إلا الشيطان.

هذه هى دعاواهم، وتلك هى أمانيهم. ثم تكون الصدمة الكبرى يوم يجمع الله الأولين والآخرين. حين ينادى الله عيسى عليه السلام ويقول له:

﴿أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ يُلقى هذا السؤال على مرأى ومسمع من أهل الموقف جميعا. والنصارى يرون ويسمعون. وإذا كان السؤال مدهشا ومربكا لهم. فإن الجواب سيكون محبطا لهم وقاضيا عليهم باليأس والقنوط:

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ. . .﴾.

فيالها من خيبة ما مثلها خيبة تحل بالنصارى فى ذلك اليوم لأنهم كانوا يصفون - زوراً - عيسى عليه السلام بأنه سيجلس على يمين «الرب» وله الدينونة والقضاء فى أهل الموقف:

يدخل الجنة من يشاء؟ ويدخل النار من يشاء؟ لماذا؟ لأنه هو «الله» أو على الأقل «ابن الله»؟ فهو «إله» على كل حال، وأمه مريم - رضى الله عنها، إله مثل ابنها؟ هذه هى عقيدة النصارى التى تحطمت بينى فكَّىْ سؤال وجواب. ويندمون ولات ساعة مندم، ويتجلى لهم ضلالهم الأبدى، ولكن بعد فوات الأوان. وكأنَى بالشاعر الحكيم يعنيهم هم فى تلك اللحظة حين يقول:

إن كان منزلتى فى الحب عندكمُ ما قد رأيت فقدضيعت أيامى؟!

ونسأل الآن سؤالا خاصا بهذه الدراسة: ما المقصود من هذا الاستفهام الإلَهى الذى سيوجهه الله إلى عيسى على رءوس الأشهاد:

﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ. . ﴾؟

ليس للإمام جار الله الزمخشرى إسهام فى الكشف عن المراد من هذا الاستفهام - وهذه عادته فى أكثر المواضع. وكان أول من بين ذلك هو الإمام أبو السعود فقد أشار مرات أن الاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع والتبكيت، ولكن لا لمجرد أنه استفهام بل باعتبار إجابة عيسي - عليه السلام - عليه. وله إضافة جيدة حاصلها أن الهمزة ليست لتقرير القول ووقوعه وطلب تعيين القائل، بل إن المتعين هو الاتخاذ، والاستفهام لتعيين هل هو من أمره - عيسى - عليه السلام. أم اتخذوه - أى النصارى - من تلقاء أنفسهم[1].

المعروف عند البلاغيين أن همزة الاستفهام يليها المقرر به أو المنكر فى الاستفهام المجازى، والمسئول عنه فى الاستفهام الحقيقى.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ١٠٠).

فإذا قيل: أأنت قلت هذا الشعر مثلا كان قول الشعر ثابتا لانزاع فيه، وإنما الشك فى قائله من هو؟ ويكون هذا الاستفهام لتعيين القائل من هو؟! أهو المخاطب أم غير المخاطب.

وكان مقتضى هذا أن يكون الاستفهام الذى معنا - هنا - لتعيين القائل. أما القول نفسه فثابت - يقينا - وأبو السعود يذهب - هنا - مذهبا غير ما ذهب إليه البلاغيون فيرى أن الثابت المتعين هو اتخاذ عيسى وأمه الهين من دون الله. وليس القول بالاتخاذ.

ولكن هذا يترتب عليه إشكال، هو أن يكون اتخاذ عيسى وأمه إلهين متردداً بين عيسى والنصارى وهذا لايجوز؛ لأن الفرق بين تردد القول وتردد الاتخاذ كبير كبير. ولعل الذى دفع الإمام أبا السعود على هذا أنه رأى أن محط الإنكار هو اتخاذ النصارى عيسى وأمه إلهين من دون الله وليس مجرد القول. وهذا مع صحته فلا يجوز إشراك عيسى معهم فيما صاروا إليه من ضلال. لذلك ردَّد النظم القرآنى القول - على سبيل الفرض - بين عيسى وبين النصارى مع فارق يلحظ فى معنى القول الثابت عندهم، وهو القول بمعنى الاعتقاد فهم اعتقدوا وقالوا، وقالوا واعتقدوا، وبهذا يكون محط الإنكار هو الاعتقاد لامجرد القول وإطلاق القول على الاعتقاد مجاز مرسل سائغ.

والإمام الألوسى أوجز فأصاب وأراح واستراح، حيث قال:

«.. توبيخا للكفرة، وتبكيتا لهم بإقراره عليه الصلاة والسلام على رءوس الأشهاد بالعبودية لله وأمرهم بعبادته عز وجل»[1].

هذا أصوب ما قيل ويقال فى هذا الموضع، فلله در صاحب روح المعانى، ورحمه الله رحمة واسعة.

وابن عاشور مثل الألوسى، ولكنه دونه فى المعنى. قال:

«فالاستفهام - هنا - كالاستفهام فى قوله تعالى: (ماذا أُجبتم) والله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى»[2].

---

(١) روح المعانى (٧/ ٦٤).

(٢) التحرير والتنوير: (٧/ ١١٢).

والخلاصة: بعــد أن بينا مذاهــب بعض الأئمة، فى المراد من الاســتــفهــام فى هذا الموضع يطيب لنا أن نلخص ما قالوه فى عبارة جديدة هى:

أن المراد من الاستفهام - هنا - هو أن يجيب عيــسى عليه السلام بما أجاب فيظهر ضلال النصــارى فى اعتقــادهم. وهذا هو نوع من الفصل فى الاخــتلاف الواقع بين الطوائف الدينية فى الحياة الدنيا، الذى أرجأ الله الفــصل فيه إلى يوم القيامة فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة:٣].

أسرار النظم وبلاغياته

* إيثار ذكــر الكنية (**ابن مريم**) لاقتضــاء المقام تأكيد بشرية عيــسى عليه السلام، لأنه مقام ادعاء النصارى ألوهية عيسى وأمه.؟

* (**اتخــذونى وأمِّى الــهين من دون الله**) ايثار إظهــار اسم الجلالة (الله) وكان المقام مــقام إضمار (**دونى**) لبيان شناعة هذا الاتخاذ والنعى على قائليه بالحمق والسفه.

* (**قال سبحانك**) فصلت هذه الجــملة عن جملة (**وإذ قال**) الأولى لسببين من أسباب الفصل:

الأول: اعتبار الاستئناف البيانى فيها لتنزيلها منزلة جواب عن سؤال مقدر نشأ عما قبلها. وهذا هو الأظــهر فيها عند المفــسرين. أو هو المتعيِّن إذ لم يذكــروا غيره يعنى شبه كمال الاتصال.

الثانى: كمــال الانقطاع؛ لاخــتلاف طرفى الإسناد فى الجــملتين واختــلاف لواحق الإسناد:

فالمسند إلــيه فى الأولى هو الله عز وجل. والمسند إليــه فى الثانية هو عيــسى عليه السلام.

ومتعلقات الإسناد فى الأولى اتخاذ غيــر الله إلها من دون الله، ومتعلقات الإسناد فى الثانية تنزيه الله عن الشريك والممــاثل فأنت ترى أن كمال الانقطاع ملحوظ - هنا - كما لُحِظ شبه كمال الاتصال. فعلى أى الاعتبارين الفصل واجب بين الجملتين.

* ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. .﴾ فى يكون مجاز مرسل علاقته المسببية. والأصل: ما يجوز لىُ والجواز سبب فى «الكون» فنفى المسبب وأراد السبب. وهو أبلغ فى هذا المقام من نفى السبب. مسارعة منه عليه السلام إلى نفى ما نُسِبَ إليه من النصارى.

وتكرار النفى مرة بـ (لا) وأخرى بـ (ليس) وتنكير (حق) ودخول حرف الجر (بـ) عليه، كل هذه مؤكدات لنفى نسبة القول المذكور إليه، لخطورة ما ينطوى عليه من قبائح وشناعات.

* ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ خبر مستعمل فى تأكيد النفى وإثبات البراءة والتبرؤ من ذلك القول الفظيع وقائليه الحمقى، والمراد نفى علم الله بهذا القول توطئة، ووسيلة لنفى صدور القول عنه؛ لأنه لو كان قد قاله فإن الله يعلمه واقعا منه لإحاطة علم الله بسائر الموجودات موجودات، والمعدومات معدومات.

* ﴿تَعْلَمُ مَافِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ رقى فى سُلَّم البراءة، وثناء على الله بالكمال، وأليق تأويل هدانا الله إليه هو: تعلم ما عندى ولا أعلم ما عندك فكنى بـ(نفسى) عن (عندى) وبـ (نفسك) عن عندك. وهذا أولى فيما نرى مما ذهب إليه بعض المفسرين: تعلم معلومى ولا أعلم معلومك[1]».

ووصلت جملة (ولا أعلم) . . و(تعلم) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين «لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى.

* ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ فى هذه الجملة أربعة مؤكدات كما سبق فى نظيرتها قريبا. والداعى البلاغى لهذا التوكيد هو أن مضمون الكلام حقيقة عظيمة. ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبَّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها. ومحال أن يكون هذا التوكيد لإزالة إنكار عند المخاطب؛ لأنه الله، والله يعلم أكثر من عباده بجلاله وكماله وجماله. أما صيغة المبالغة فى اسم الفاعل (علاَّم) بدلا من عالم فللتكافؤ مع كثرة المعلوم وهو (الغيوب) وهذه هى المرة الثانية فى سورة المائدة تأتى فيها

---

(١) ينظر الكشاف: (١/ ٦٥٣).

كلمة (**الغيوب**) جمعا للغـيب. وفى كلتا المرتين قوبل هذا الجمع (**الغيوب**) بصيغة المبالغة (علاَّم).

أما إذا جـاء الغيب مفرداً فـإن القرآن يقابله بـ (عـالم) لا علاَّم. وذلك كثـير فى التنزيل الحكيم ومنه قوله تعالى:

﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن: ٢٦].

* «**مـا قلت لهم إلا ما أمـرتنى به**» صعـود فى سلم التبرؤ من القول المذكـور. والجملة أسلوب قصـر طريقه النفى والاستـثناء قُصِرت فـيه صفة قـول عيسى لقـومه على موصوف، وهو أمر الله له بما قال.

* ﴿أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فصلت هذه الجـملة عن جملة (**أمرتنى به**) لما بين الجملتين من كمال الاتصال؛ لأن الثـانية نزلت من الأولى منزلة بدل الاشتمال. أو هى جملة مـفسرة لجـملة الأمر قبلهـا. ولا حرج لغويا فى ذلك كـما ذهب بعض المفسرين(١).

* ﴿وَأَنَت عَلَى كُلِّ شَىء شَهِيدٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام الذى قبله.

* ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ العزِيزُ الحَكِيمُ﴾ أكد الخبر - هنا - بأربعة مؤكدات لأنه حقيقة عظيمة كما مرَّ فى أمثاله.

* إذا كان هذا سيكون يوم القـيامة، وهو الصحـيح، فإن جميع الأفعـال الماضية من مادة (**القول**) فيـها استعـارات فى زمن الفعل. وسرها تحـقق الوقوع كمـا فى قوله تعالى:

﴿وتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ، ونُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ [الكهف: ٩٩].

* * *

---

(١) ينظر الكشاف: (١/ ٦٥٥).

سورة الأنعام

١ - ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ، فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

الدراسة والتحليل:

هذا أول استفهام يرد فى سورة الأنعام، وهو مثل كل استفهام يأتى فى أعقاب مواقف متقدمة عليه، أو مقدم هو على مواقف، أو يتخللها. وقد أتى هذا الاستفهام بعد بعض المواقف للذين كفروا وكذبوا بالحق، وجعلوا لله أنداداً فجاء هذا الاستفهام منذراً ومتوعداً، ومشيراً إلى مصارع الطغاة من قبلهم كعاد وثمود وفرعون أنعم الله عليهم فجحدوا نعمته، وعصوا رسله، فطهر الله الأرض منهم، وربك بالمرصاد لكل ظالم.

وموقف الأئمة، من الاستفهام - هنا - فيه كثير من الغموض؛ فالزمخشرى لم يتعرض له قط[١]. وأبو السعود أشار إليه إشارة عابرة بقوله: «وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية»[٢] وأبو حيان والرازى أهملاه[٣].

والألوسى يقول فى إيجاز: «وقيل شروع فى توبيخهم ببذل النصح لهم»[٤]؟

أما الطاهر ابن عاشور فقد أبعد النجعة حين قال: «هذه الجملة يعنى: **(ألم يروا..)** بيان لجملة (فسوف يأتيهم) [الأنعام: ٥]. جاء بيانها بطريقة الاستفهام الإنكارى عن عدم الرؤية[٥].

والخلاصة: أن هذا الأسلوب الاستفهامى الذى تدخل فيه همزة الاستفهام على أداة نفى تقدم مرات أنه يكون استفهام تقرير، وتقدمت لنا عدة صور منه كان الاستفهام فيها تقريراً لا إنكارا. ولهذا وصفنا ما قاله ابن عاشور بأنه أبعد فيه النجعة حيث

---

(١) الكشاف: (٢/ ٦).
(٢) البحر المحيط (٤/ ٧٥) والتفسير الكبير (١٢/ ١٥٨).
(٣) روح المعانى: (٧/ ٩٣).
(٤) روح المعانى (٧/ ٩٤).
(٥) التحرير والتنوير: (٧/ ١٣٧) بتصرف يسير جداً.

جعل الاستفهام فى (ألم يروا) إنكاريا، وهو للتقرير، وسبب هذه المخالفة أنه نظر إلى نفى عـدم الرؤية وكـان حـريا به أن ينظر إلـى ما أدى إلـيه الاسـتـفـهـام جـملة. وقوله: «إنكار عدم الـرؤية» هو التقرير الذى أهمله مخـالفا بذلك جمهور الـبيانيين. وكان أبو السعود أكثر حيطة حين قال:

«وهمـزة الإنكار لتقـرير الرؤية». ولهذا كله نقـول إن الاسـتـفهـام فى (**أَلم يَرَوْا**) استفهام تقرير. أى أنهم رأوا وعلموا مصارع الأمم العاتية وما أحله الله بها من تدمير عقابا على كفرهم وتكذيبهم الرسل.

أما (**كم أهلكنا**) فقد جوزوا فيـها أن تكون استفهامية أو خبـرية. والأظهر - فيما نرى - أنها خبرية. ويكون المعنى حينئذ:

ألم يعلموا كثرة الأمم التى أنزلنا بها العذاب العـاجل زجرا لغيرهم، وعقابا لهم. وهذا إنذار وتحذير لمشركى العـرب من أن يكون مصيرهم هو هذا المصيـر إذا استمروا على كفرهم وعنادهم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (أَلَمْ يَرَوا كمْ أهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ):

* الرؤية هنا علمية، ومحال حملها على الرؤية البصرية. لأن الأمم التى أشار القرآن الأمين إلى هلاكـها بينـها وبين مـشركى العـرب فى صـدر الإسلام أمـد طويل، ولبشاعـة ما حل بها من عقاب أخـذت الأجيال تتناقلها حتى عـصر المبعث، وفى إطلاق الرؤية البـصرية على العلم اسـتعـارة محـسوس لمعـقول، وسرها الـبلاغى الإشارة إلى أن ما حل بالأمم العاتية صار لفظاعـته وهوله كأنه يُرى بالعين الباصرة بعد أماد طويلة من حلوله بالعصاة والفجرة.

و(**من**) الأولى فى قوله تعالى (**من قبلهم من قرن**) للإيذان بقدِم الزمن الذى وقع فيه الهلاك، وليست لمجرد الابتداء كما ذكر بعضهم.

وفى (**قرن**) مجاز مرسل أُطلق فيه الزمن، وهو القرن. وأريد به الحآل فيه.

* ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَـا لَم نُمكِّن لَّكُمْ﴾ التمكين فى الأرض كناية عن التـثبيت فيها بإمداد (الممكَّن) بأسباب البقاء. وفى (**لكم**) التفات من الغيبة إلى الخطاب على

مذهب من لا يشترط اتحاد الجهة فى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب. أما على مذهب من يشترط ذلك فلا التفات لانفكاك الجهة؛ لأن ضمير الغائب فى (مكناهم) للأمم الماضية. وضمير المخاطب فى (لكم) لمشركى العرب ففات شرط الاتحاد فى مرجع الضميرين.

* ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً﴾ فى السماء مجاز مرسل علاقته «الفوقية» حيث أطلق السماء، وهو السقف المعروف على السحاب أو الغيث. لأن السحاب مثل السماء فى الفوقية. والمعروف أن البلاغيين يسمون هذه العلاقة بـ (المجاورة) وهى تسمية غير دقيقة لبعد السماء عن السحاب، لذلك آثرنا أن نسميها «الفوقية» وليس فى ذلك محال؛ لأن بعض البلاغيين جوَّز فى علاقة المجاز المرسل أن تكون «المشابهة» كما هنا.

وفى (مدراراً) كناية عن صفة الكثرة والتدفق.

* ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَار تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ هذه العبارة فى مجموعها كناية عن التنعم والرفاهية. وفى إسناد الجريان لضمير الأنهار مجاز عقلى علاقته المكانية لأن النهر هو مكان جرى الماء. والجارى حقيقة هو الماء. وسره البلاغى تصوير سرعة جرى الماء حتى لكأن أماكن سيلانه هى التى تجرى. ويتولد عن هذا كناية لطيفة، هى عذوبة الماء لتجدده وعدم ركوده.

* وفى هذا كله تحذير ووعيد لمشركى مكة؛ بأن الأمم التى أهلكها الله بكفرها ومعاصيها لم يمنع من هلاكهم كثرة ما أنعم الله به عليها من تثبيت فى الأرض، ومن إمداده إيَّاها بأسباب البقاء والنماء. فليحذر المشركون - وهم أضعف منهم قوة - سوء المصير الذى صاروا إليه. فلم يغنهم ما كانوا فيه من قوة ونعيم وفير.

* * *

٢ - ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، قُل لِّلَّه ،كَتَبَ عَلَى نَفْسِه الرَّحْمَةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَرَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١١-١٢].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان من الآيات اللافتة إلى مواطن العبر فى الوجود. الآية الأولى تدعو إلى الالتفات إلى الماضى والتفكير بجدية وعمق فى أحداثه الواعظة. والثانية تفتح أمامنا صفحة الكون «الحاضر» لنقرأها بوعى لاستقصاء حقيقة من أضخم حقائق الإيمان. وهى خضوع الوجود كله عُلويِّه وسفليه، وما بين العُلوى والسُّفْلى لله مالك الملك والآيتان بدأتا بأمر: (قل) والمأمور بالقول هو صاحب الرسالة العظمى ﷺ. والمقول له هو كل عاقل يدب على وجه الأرض. والمقصود تجلية حقائق الإيمان لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

و(كيف) فى الآية الأولى ليست استفهاما محضاً وإنما هى للدلالة على حال وكيفية عقاب الله للأمم الغابرة التى كذّبت الرسل. وسيأتى حديث عنها فى مبحث أسرار النظم وبلاغياته.

أما قوله تعالى: ﴿لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فهو بلا نزاع استفهام مجازى؛ لأن المستفهم لايطلب به تحصيل علم لم يكن يعلمه، بل له مغزى آخر. والأئمة لم يخصوه ببيان خاص بل اكتفوا باللمح إليه من خلال كلامهم عن بيان نظم الآية، إلا الإمام الطاهر بن عاشور فقد نص عليه بصراحة فقال: «فإن هذا الاستدلال تضمن استفهاما تقريريا، والتقرير من مقتضيات التكرير، والاستفهام مستعمل مجازاً فى التقرير، والتقرير هنا مراد به لازم معناه، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضى إلى معتقدهم الشرك. فهو مستعمل فى معناه الكنائى مع معناه الصريح، والمقصود هو المعنى الكنائى[(١)].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام للتقرير أصلا، أى تقرير المخاطبين بملكية الله لما فى

---

(١) التحرير والتنوير: (٧/ ١٥٠).

السمــوات والأرض، حتى ولو لم يذكر الجــواب الذى بعده: (**قل لله**) وإنما دل على التقرير لأن المسئول عنه قامت الدلائل النقلية والعقلية على أنه لله وحده.

أما قوله تعالى: (**قل لله**) فهو توكـيد لذلك التقرير، وتوجيـه وإرشاد إلى الجواب المتعين ذكره على ذلك الاستفهام» ولا نرى للتبكيت رائحة تشم فى هذا الموضع، وقد أسرف الشـيخ بن عاشــور فى ما ذكره بعــد التقــرير من معانٍ فــيها من الــتكلف ما لايخفى.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا. .**﴾ إيثار (ثم) فى عطف النظر على السير لأن النظر لايكــون إلا عند المرور بمواطن الأحــداث ومكان بدء الســـيــر ناءٍ عن مكان الأحداث وإلا لما أمرنا بالسيــر إليه. فجاءت (**ثم**) للدلالة على مــا بين المكانين من تباعد أو تكون (**ثم**) للتبــاعد فى الرتبة، لأن رتبة الـتأمل والنظر فوق رتبة مــجرد السير. وفى (**انظروا**) استعارة محسوس لمعــقول. استعار النظر بالعين الباصرة،وهو حسى،للتفكر الذهنى، وهو عقلى. . ونكتتــه البلاغية الإشارة إلى أن المطلوب هو التفكر العميق الذى تتولد عنه حقائق الإيمان حتى لكأنها ترى بالعين.

* ﴿**. . انظُرُوا كَيْفَ كَـانَ عَاقِـبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ مجمــوع هذا التركيب مســتعمل فى التعــجيب مما حدث لهم، والتــعريض بمشركى العــرب لمشابهة حــالهم حال الأمم الهالكة.

* ﴿**قُل لِّمَن مَّا فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ فصلت هذه الجـملة عن (**قل سيروا**) مع اتفــاق الجملتين فى الإنشـائية لفظا ومــعنى وأن المسند إليــه فيهــما واحــد.للإيذان باستقلال ما فى حيزها عما فى حــيز الأولى. وأن كلا من الجملتين موضوعها قائم برأسه يصح الاكتفاء به عن الآخر.

* (**قل لله**) إيجاز بالحذف، إذ التقدير: هو الله.

* ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ استئناف لتــقرير حلم الله وسعة لطفــه، فلم يعجل بهلاك مشركى العــرب كما فعل بعاد وثمود وغيــرهم، علهم يثوبون لرشدهم وإلا حلَّ بهم ما حل بغيرهم.

* ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أكد المضارع «يجمع» باللام ونون التوكيد فى مواجهة من ينكر البعث الذى كان متفشيا عند مشركى العرب. وفيه احتراس بديع لدفع توهم غير المراد؛ لأن (**كتب على نفسه الرحمة**) قد يُتوهم منه إهمال العصاة والمشركين. ولكن لما قيل (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) عُلم أن الأمر إمهال لا إهمال.

* ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كناية عن استمرار الكفر والضلال.

* * *

٣ - ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ، قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

الدراسة والتحليل:

بعد أن واجه القرآن دعاوى المشركين، وبين بالبرهان القاطع ماهم عليه من ضلال فى العقيدة والسلوك جرد فى هذه الآية أمرين لرسوله ﷺ.

أولهما فى الرد على من اتخذ غير الله وليا، **والثانى** فى إعلان إسلام الوجه لله، بادئاً - ﷺ - بنفسه، وهو نبى كريم، ليكون غيره ممن هم دونه تبعا له فى الإسلام والانقياد لله؛ لأنه ولى النعم وإليه مصير الكائنات.

وقد صُدِّرت هذه الآية بهذا الاستفهام الماحى لكل ألوان الشرك والولاء لغير الله:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾.

ولا نسأم أن نكرر أنه متى ورد فعل الأمر (قل) فى نظم القرآن فهو مؤذن بأن القول المقول بعده ذو أهمية بالغة، أو هو رسالة خاصة ينبغى الاهتمام بها وتبليغها فور نزولها من لدن رب العزة لاينفك عن هذه الأهمية موضع من مواضع ورودها. وكفى بها فخامة أن تكون - دائما - رسالة مواجهة بين القائل والمقول له. ولهذا صور عدة فى نظم القرآن:

فمرة تكون هذه الرسـالة الخاصة بين البشيـر والمبشَّر، أو بين المنذِر والمنذَر، أو بين المهدِّد والمهـدَّد، أو بين المُعلِّم والمعَلَّم، أو بين الآمر والمأمـور، أو بين الناهى والمنهى. ولكل هذه الصور أمثلة كثيرة فى نظم القرآن الكريم. وآيتنا هذه تحمل رسالة من تلك الرسالات المهمة الخاصة، هى: إعلان التوحيد والتبرؤ من الشرك. والأئمة والبلاغيون مجمـعون على أن هذا الاستفهـام إنكارى، ينكر صاحب الرسالة فيه اتخـاذ غير الله وليـا، سواء كان هـذا الولى مع الله، وهو الإشراك، أو من دون الله وهـو الإلحاد. وهذه خلاصة ما قيل وما يقال فى هذا الاستفهام وما كان على نهجه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* الاتخاذ كيـفما كان مصـدراً أو فعلا له مفعـولان، أول وثان، فإذا قلت: اتخذت أحمد أخا، كان أحمد المفعول الأول؛ لأنه ذات، وأخا المفعول الثانى؛ لأن صفة، ومنه فى التنزيل الحكيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ ابْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥].

ومفعولا اتخذ فى آيتنا (**أغير الله اتخذ وليًا**) هما (غير) و(وليًا) و(غير) هو المفعول الأول. وكان الأصل أن يقال أأتخذ غير الله وليا. بتـأخير المفعولين على الفعل، وقد خولف هذا الأصل فى الآية فقـدم المفعول الأول (**غير الله**) على الفعل وسبب تقديمه - بلاغيا - أنه محط الإنكار؛ لأن المنكر ليس هو اتخاذ الولى مطلقا، بل المنكر اتخاذ غير الله وليًا. فالتقديم فى الآية واجب. قال الشاعر:

أكلَّ امـرىءٍ تحـسـبـين امـرءاً ونـاراً تتـأجـج بالـليـل ناراً

يُنكر على المخاطبة أن تحسب كل امرىء امرأً كامل الصفات. وهكذا كل نار ناراً.

فلما كان «كلَّ» هو محط الإنكار قدِّم على فعله لإفادة الانكار الواقع على المفعول دون الفعل.

* ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ صفة لله سـبحانه جئ بها لتـوكيد الإنكار؛ لأن من يتخـذ غير الله وليا، والله خـالق السموات والأرض أحرى أن يُعَـدُّ مجنونا لامن زمرة العقلاء. ﴿وَهُو يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ (**وهو يطعِم**) كناية عن غناه وافتـقار الخلق إليه، (**ولا يُطْعَم**) كناية عن انتفـاء احتياجه إلى أحـد وفيها توكيـد للإنكار كذلك.

وعطفت جملة (**ولايُطعم**) على جملة (وهو يطعم) للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية والإنشائية وجىء بالصفة الأولى (**فاطر السموات والأرض**) اسمية مفردة وبالثانية (**وهو يطعم...**) جملة خبر المبتدأ فيها فعل مضارع يدل على التجدد آنا بعد آن، لأن الله خلق السموات والأرض مرة واحدة. أما الإطعام فهو يتجدد حينا بعد حين إلى أن تقوم الساعة.

* وفى حذف مفعول (يُطعم) إيجاز بالحذف والمراد حصول الإطعام منه لا منْ يُطْعِمه الله عز وجل.

* ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لم تعطف جملة (قل) على نظيرتها فى أول الآية للإشعار باستقلال موضوعها عن الأولى. وأن كلا منهما رأس بحاله. وحُذِف فاعل (**أمرت**) وبنى الفعل للمفعول للعلم بالآمر، وهو الله تعالى «ولاستثمار أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى» وعُدِل إلى النهى الصريح فى قوله تعالى ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل: ونهيت أن أكون من المشركين «لإمكان حكاية النهى كما تلقاه من ربه. ولإمكان توكيد الفعل المنهى عنه بالنون :للمبالغة فى النهى عن الشرك. وبعض الأئمة يقدر فعلا قبل هذه الجملة هو: وقيل لى . . وعلى هذا ففى العبارة إيجاز بالحذف لدلالة المقام على المحذوف وعلى تعيينه وإن كنا لا نميل إلى هذا التقدير.

* * *

٤ - ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ، شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ، أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية يتوقف كمال فهمها على معرفة سبب نزولها وسبب نزولها - كما يُروى بسنده - أن نفراً من قريش جاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فقالوا ليس لك فى كتبهم ذكر يشهد بأنك رسول الله. فمن يشهد

لك فنزلت هذه الآية، وفيها يقول الله لرسوله قل لهم يامحمد: إن الله يشهد لى، وشهادة الله أكبر الشهادات. ومن شهادة الله لى أنه أوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به عذاب الله إن لم تؤمنوا، وأنذر كل من كان مثلكم وبلغه القرآن فلم ينته عن الشرك. وأنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، وتبالغون فى هذه الشهادة. أما أنا فلا أشهد هذه الشهادة الباطلة بل أعلن أن الله واحد لاشريك له وأعلن براءتى منكم ومما تشركون به من الأصنام التى لاتضر ولا تنفع.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان: الأول فى صدرها **(قل أى شىء أكبر شهادة)**؟ والثانى قبل نهايتها: ﴿أَإِنَّكُم لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾؟

والأئمة مجمعون على أن الاستفهام الأول استفهام تقرير، يعنى أن الله أمر رسوله أن يسألهم هذا السؤال ليقررهم بأن الله أكبر شهادة. بدليل تعيين الجواب **(قل الله شهيد بينى وبينكم)**.

أما الاستفهام الثانى فقد جعله الإمام الزمخشرى للتقرير والإنكار والاستبعاد، ولا غرابة فى هذا لما سنبينه فى الخلاصة. وقد تابع الأئمة جار الله فى هذا، وبخاصة الإمام أبو السعود[1].

والخلاصة: أن الاستفهام الأول **(أى شىء أكبر شهادة)** استفهام تقرير. أما الثانى **(أإنكم لتشهدون..)** فمن قال إنه للإنكار صح قوله. ومن قال إنه للتقرير والإنكار والاستبعاد صح قوله؛ ولا غرابة فى الجمع بين التقرير والإنكار فى موضع واحد، لأن ذلك منظور فيه إلى اختلاف الاعتبارات:

فمن نظر إلى الواقع الذى عليه المخاطبون من اتخاذهم مع الله آلهة أخرى، تتمثل فى أصنامهم قال: إن الاستفهام للتقرير، أى لتقريرهم واعترافهم بهذه العقيدة الفاسدة ليكون اعترافهم بها توطئة لإنكار هذا الاعتقاد الباطل ومن نظر إلى مآل الاستفهام قال بالإنكار وضرب صفحا عن التقرير؛ لأن هذا التقرير لم يُرَدْ لذاته بل ليتوصل به إلى الإنكار، كلا النظرين صحيح.

---

(١) ينظر الكشاف: (٢/ ١٠) وتفسير أبى السعود: (٣/١١٧) وروح المعانى (٧/١١٩) والتفسير الكبير: (١٢/١٧٩) والتحرير والتنوير (٧/١٦٩).

ولكن الذى نراه لا وجه له هــو إضافة الاستـبعاد إلــى الإنكار، لأن الإنكار أشد من الاستبعاد، فلا وجه لذكره معه.

أسرار النظم وبلاغياته:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ الفعل: (قل) كما تقــدم للتنبيه بأن القول المحكى به ذو أهمية بالغة، أو هو رسالة خاصة يجب تبليغها فور تلقيها ومواجهة المقول له بها.

أما الاستفهام : **(أى شىء أكبـر شهادة)** فهو قرع بالعصى ليـتنبه الغافل، ويلتفت المعرض، ويخلو المشغول. أو هو فى عبارة موجزة تهيئة المشاعر وتشويق النفوس إلى عقــبى الكلام ماذا تكون؟ والاستـفهام - هنا - مـجازى والأصل فيـه أنه لا يُذكر له جواب، وإنما يوكل الجواب فيه إلى نفـوس المخاطبين لتذهب فى تصوره كل مذهب. ولكن فى النظم القـرآنى نجد إجابات مـذكورة لاستـفهامـات مجـازية. على خلاف الأصل الذى أشرنا إليه آنفا ولهذا الذكر مقتض بلاغى ربما كان مطرداً فى كل استفهام مجازى ذكرت إجابته، ويحسن بنا أن نقدم هذه القاعدة:

أولاً: فى القرآن الكريم كل استـفهام مجازى ذكرتْ إجابتـه دعا إلى هذا الذكر أن الخيال ليـس له مجال فى تصور الإجـابة وتصويرها كيف يشاء. ومنهـا الإجابة التى معنا: **(قل الله)** جوابا للاستفهام: **(أى شىء أكبر شهادة)**.

* وكل استفهــام مجـازي لـم تُذكر إجابتــه فى نظم القـرآن فـإن للخيــــال دوراً مهما فى تصــور الإجابـة وتصويرهـــا وذلك مثل قــوله تعـالى، وقـد مـرت دراستـه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيـدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾ لم تذكر إجابة هذا الاستفهام، لأن المراد تهويل وتفظيع حال المتحدث عنهم، فليعمل الخيال عمله، ولتتـبـار الخيـالات فى رسـم تلـك الصورة المفزعـة كـما يحلو لها. ولكـن فى إطار التـهـويل والـتـفظيع. ونرجـو أن تكون هذه الملاحـظة من ثمـرات هذه الدراسة.
* ﴿لأُنذِرَكُـمْ بِهِ﴾ به: أى بالقـرآن. والقرآن نزل للتـبشـير والإنذار، لا للتـبشـير فحـسب، ولا للإنذار فحـسب. فلماذا إذن اقـتصـر الخطاب هنا على الإنذار دون التبشير؟ ولم يقل: لأنذركم وأبشركم؟

* إن الاقـتصـار على الإنذار فى هـذه الآية هو المطابق لمقـتضى الحـال؛ لأن القـرآن يخاطـب مشركين بالله مـكذبين برسوله، فـهم ينذرون لضلال مـا هم فيـه أما أن يُبشَّروا فلا؛ لأنه لمَ يُبشرهم، وعلام يبشرهم؟
* ﴿أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَـدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾؟ أكدت الشهـادة على الاشراك بالله توكيدين: إن، ثم لام التوكيد الداخلة على الفعل (تشهدون) وفى هذا التوكيد نعى عليهم بالسفة وخطل الـرأى، ثم دخلت همزة الاستفهام فنسفت بما فـيها من معنى الإنكار كل ما امتلأت به عقولهم -إن كانت لهم عقول- من أوهام.
* ﴿قُل لاَّ أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّماَ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ تكرار فعل الأمر فى مبتدأ الجملتين، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أن الثانى توكيد للأول، فإننا نطبق عليه فهما جديداً أشرنا إليه مرات من قـبل، وهو أن كلا من الجملتين موضوع برأسه. وأن مـا بعد الفعل (قل) رسالة خاصـة ذات أهمية بالغة، تقتضى المـبادرة بتبليغها والمواجـهة بها، ومما يؤيد فـهـمنا هذا ترك الـعطف بين الجـملتين: **(قل- قل-)** مع قـيـام الداعى إلى العطف؛ لأن كلا منهما إنشـائية لفظا ومعنى. فبينهمـا التوسط بين الكمالين» وكان من محسنات الوصل -أى العطف بالوار- فيهما اتحاد المسند **(قل)** والمسند إليه، وهو الضمير المستكن وجوبا فى الفعلين. . والجمع بين **(لا أشهد)** وبين **(إنما هو إله واحد)** لتقرير عقيدة التوحيد سلبا **(لا أشهد)** وإيجابا **(إنما هو إله واحد)** وفى هذه الجملة **(إنما هو إله واحـد)** قصر صـفة الألوهية على موصوف «واحـد» هو الله. قصراً حقيـقيا تحقيقيا.
* ﴿وَ إِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله. وأكد الخبر بـ(أنَّ) واسميـة الجملة لمواجهة التـعدد عند المشركين. وإيثار الـصفة المشبهـة باسم الفاعل **(برىء)** على اسم الفـاعل: **(بارىء)** للإشارة إلـى رسوخ تلك البراءة مـن الشرك وأهله، ودوامها بلا انقطاع.
* ووصلت جملة ﴿وَ إِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بجملة **(إِنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)** لإشراك الثانية مع الأولى فى حكمها الإعرابى، فكلتاهما مقول القول.

* * *

٥ - ﴿وَ مَنْ أظْلَمُ مِـمَّنِ أفْتَـرَى عَلَىَ الَّلهِ كَـذِبًا أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاته إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام : ٢١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تعقيب على مـواقف الجهل والعناد التى عرضتها الآيات الـسابقة. وكان آخرها: (**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعـرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**).

وقبلها مباشـرة كان قوله عز وجل: (**قل أىُّ شىء أكبـر شهادة**) فجاءت آيتنا تحصر مظاهر الكفر فى أمرين:

الأول: إفتراء الكذب على الله، وكان لليهـود والنصارى ضلاعة فى هذا اللون من الكفر، وما أكثـر ما عرضت سور القرآن السابقة على الأنعام واللاحـقة بها من صور هذا الإفتراء المفضوح، فى العقيدة وفى السلوك.

الثانى: التكذيب بآيات الله، وكـمـا ضلع اليهـود والنصـارى فى النوع الأول من الكفـر، ضلعـوا فى هذا النوع، فكذَّبوا بآيات الله البـينات. وكـفاهـم وزراً وخيـانة تكذيبهم بالرسالة الخاتمة كتابا ورسولاً.

وصدِّرتْ هذه الآية بهذا الاستفهام:

(**ومن أظلم..**) وقد عرفنا مذهب أهل العلم فى المراد منه، وهو أنه: للنفى. أى لا أحد أظلـم منه، هذا موضع إجـماع عندهم، وهو خـلاصة ما يقـال فى كل أسلوب استفهام جاء على هذا النمط (**من أظلم**) أى أفعل التفضيل بعد ما يفيد النفى.

بيد أن فى هذا «الأسلوب» مـشكلة، عند البلاغيين والمفسريـن واللغويين. حاصل تلك المشكلة، أن أفعل التفضيل يفيد مـشاركة طرفين أو أطراف فى صفة وأن أحدهما زاد فى تلك الصفة على الطرف الأول (المفضَّل عليه).

وقد ورد هـذا الأسلوب فى القرآن -أول مـا ورد- فى سورة البـقرة التى تقـدمت دراسة الاستفهام فيها. وذلك فى قوله تعالى:

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ الَّلهِ أَن يُذْكَـرَ فِيهَا اسْمُهُ. .﴾ وبناء على دلالة

أفعل التفضيل كان ينبغى أن لا تتكـرر هذه الصيغة فى القرآن مرة أخرى، ليكون من منع مساجد الله وسعى فى خرابها أظلم الظالمين. لكن هذا الأسلوب تكرر فى القرآن كثيراً، مثل آية الأنعام هذه، ومثل:

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَـهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ. .﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَـأَعْرَضَ عَنْهَا. .﴾ [الكهف: ٥٧] وجملة مـرات ورودها فى القرآن بلغت ست عشرة مرة.

هذا هو تصور المشكلة. وقد اختلفت الإجابات عليها فممن قائل إن أفعل التفضيل ليس على بابه، يعنى أنه لا يفيد زيادة فى جانب المفضل،ولا نقصا فى جانب المفضل عليه.

ومن قائل أن المراد بالأظلمية فى كل آية من هذه الآيات مقصور على الموضع الذى وردت فيه فآية البـقرة تعنى أن من منع مساجد الله وسعى فى خـرابها أظلم من غيره فى مقام تعطيل المساجد. وآية الكهف تعنى أن من ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها أظلم من غيره فى مـقام الاستهانة بآيات الله، وأن آية الأنعـام هذه تعنى أن من افترى على الله كـذبا أو كذَّب بآياته أظلم من غـيره فى مـقـام التكذيب والكذب، وهكذا بقيـة الآيات. كل هذه المحاولات نشأت عن تصور مشكلة تتعارض فيها أفعل التفضيل فى نظم القرآن.

وقد صـاحبتنا هذه المشكلة، من وقت طلب العلم إلى وقت إعـداد هذه الدراسة. وكُنَّا -والحق يقال- طوال هذه المدة غير مقـتنعين بما قيل فيها من تأويلات. وفى أثناء هذه الدراسة هدانا الله إلى فَهْم جديد للمسألة شرح صدورنا فحمدنا الله عليه.

لأننا مع طول التأمل ظهر لنا جليًا أنه لا توجد مشكلة على الإطلاق. ولا تعارض قط بين المواضع الستة عشرة التى تكررت فيها أفعل التفضيل (أظلُم) فى آيات التنزيل الحكيم، وهدانا الله، وله الفضل والمنة، إلى **أمرين لا ينازعنا فيهما منصف:**

الأمر الأول: أن المراد من **(ومن أظلم)** هو نفى الزيـادة فى الظلم فحسب أما المساواة فلا تدل أفعل التـفضيل على نفيها، لا بدلالة المنطوق، ولا بدلالة المفـهوم، فإذا قلنا

-مثـلا- لا أحد أعلم من الخليـل بــأوزان الشعر، كـان معنـى هذه العـبـارة نفى أن يكون أحد ما أكـثر علما من الخليل بصناعة الشعـر، وهذا لا يمنع من أن يكون غيره مماثلا ومساويا لـه فى العلم بتلك الصناعة. وإذا طبقنا هذا على أى مـثالين من القرآن كان المؤدَّى نـفس النتيـجة وليكن هـذان المثـالان آيتـى الـبقـرة والأنعـام فآية البـقرة تقول:

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا﴾ أى لا أحد أظلم منه.

وآية الأنعام تقول: **(ومن أظلم ممن أفترى علـى الله كذبا أو كذَّب بآياته..)** أى: لا أحد أظلم منه فـدلالة كل من الآيتين نص قـاطـع على نفى الزيادة فى الظـلم عن هذين المذكورين. أما أن يكـون لهما مماثل أو مُساوٍ فـهذا لا يدخل فى دلالة الآيتين، وعلى هذا نقول بكل ثقـة إن هذين المذكورين فى آيتى البقرة والأنعـام فى درجة واحدة من الظلم، أعلى درجات الظلم، ولا يوجـد من هو أكثر منهـما فى الظلم، بل الذى لا منع من وجوده هو المساوى لهـما فى تلك الدرجة، ولو كانوا مـئات أو ألوفا. وهذا وحده كافٍ بكل قوة ووضوح فى نفى المشكلة أساساً. وإنما نشأت تلك المشكلة، عن قصور فى الفهم كنا نقع فيه جميعا، حتى آذن الله بتجلية الصواب.

الأمر الثانى: لو كان الباحثون قـد نظروا فى نظم الآيات الست عشرة، التى جاءت فيها أفْـعَل التفضيل هذه (أظلم) لانكشف لهم أمر بالغ الأهمـية، ولما تصوروا أن فى هذه الآيات مشكلة قط.

ولكى يتجلى لنا هذا الأمر لابد من ذكر الآيات الست عشرة، وهى حسب الترتيب المصحفى:

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُـهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤].

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ..﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّن أفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١].

﴿وَ مَنْ أظْلَمُ ممَّن أفتَرَى عَلىَ اللَّه كَذبًا أَوْ قَالَ أُوحىَ إلَىَّ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن أفْتَرَى علىَ اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

[الأنعام: ١٤٤].

﴿فَمَنْ أظْلَمُ ممَّن كَذَّبَ بآيَات اللَّه وَ صَدَفَ عَنهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧].

﴿فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ أفْتَرَى علىَ اللَّه كَذبًا أَوْ كَذَّبَ بآيَاته﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ أفْتَرَى علىَ اللَّه كَذبًا أَوْ كَذَّبَ بآيَاته﴾ [يونس: ١٧].

﴿وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ أفْتَرَى عَلىَ اللَّه كَذبًا﴾ [هود: ١٨].

﴿فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن أفْتَرَى عَلىَ اللَّه كَذبًا﴾ [الكهف: ١٥].

﴿وَ مَنْ أظْلَمُ مِمَّن ذُكِّر بآيَات ربِّه فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَ مَنْ أظْلَمُ مِمَّن أفتَرَى عَلىَ اللَّهِ كَذبًا أَوْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾

[العنكبوت: ٦٨].

﴿وَ مَنْ أظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيَاتِ ربِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا. إنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

[السجدة: ٢٢].

﴿فَمَنْ أظْلَمُ ممَّن كَذَبَ عَلىَ اللَّه وكَذَّب بالصِّدْق إذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ، إنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢].

﴿وَ مَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ أفتَرَى عَلىَ اللهِ الكَذِبَ، وَ هُوَ يُدْعَى إلَى الإِسْلاَمِ﴾

[الصف: ٧].

هذه الآيات الست عشرة -كلها- تتحدث عن لون واحد من الناس، هم الكافرون. وهذا نجده صريحا إلا فى أربع آيات هى آيات:

البقرة - اثنتان- والكهف، والسجدة، فالحديث فيها حديث عن الكافرين قطعا، لأن آيتى البقرة أولاهما حديث عن مشركى مكة. والأخرى عن اليهود. أما آيتا الكهف والسجدة فهما حديث عن الكافرين كذلك. فقد كانت آية الكهف هكذا:

﴿وَ مَنْ أظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيَات ربِّه فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَ إن تَدْعُهُمْ إلَى الْهُدَى

﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبداً﴾ وهذه هى أوصاف الكفار بلا نزاع.

أما آية السجدة فإن عجزها يدل دلالة قاطعة على أنها تتحدث -كذلك- عن الكفار، بدليل ما جاء فى آخرها ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

ونتيجة هذا كله أن الآيات الست عشرة -وإن اختلفت بعض عباراتها- إنما تتحدث عن ظالم واحد بلغ أقصى درجات الظلم، وأن ظلم من عداه أهون من ظلمه.

هذا الظالم الذى لا أظلم منه هم الكافرون. وأن أفعل التفضيل فى الآيات الست عشرة (أفعل) = (أظلم) وصف لهم تتكرر فى النظم القرآنى بتكرار موجباته. فحيث جاء فى القرآن **(ومن أظلم)** أو **(فمن أظلم)** فهو وصف للكفار لا لأحد غيرهم.

وهكذا يتبين لنا -والحمد لله صاحب المنة والفضل- أن لا مشكلة أساسا وعلى الإطلاق فى النظم القرآنى الحكيم فى أسلوب الاستفهام **(ومن أظلم)** وأن كل واحد من هذين الأمرين اللذين هدانا الله إليهما، كاف بمفرده فى الدلالة على انعدام المشكلة التى ألجأت إلى تأويلات غير مقنعة، نعم كل أمر منهما كاف للقضاء على ذلك الوهم. فكيف وقد اجتمعا معا؟ أتبقى بعد هذا تلك المشكلة، حتى ولو فى الأوهام؟

أسرار النظم وبلاغياته:

* عرفنا من التحليل الدراسى السابق أن النظم القرآنى أطلق أفعل التفضيل (أظلم) فى الآيات الست عشرة على (الكافر) ولم يرد به سواه. وذلك تقرير وتوكيد لمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افترى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

* فالكفر أعظم ذنب يرتكب فى هذا الوجود. وإذا ناظرنا بين قوله تعالى فى الآيات المذكورة **(أظلم)** وبين قوله فى سورة النساء عن الكافر وكفره: **(ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما)** وجدنا فى **(افترى إثما عظيما)** المعنى نفسه الذى يدل عليه أفعل التفضيل (أظلم) وكذلك وصف الشرك بالظلم العظيم فى قوله تعالى حكاية عن لقمان الحكيم لولده:

﴿. . يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّه، إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

* فوصف الإثم بأنه (**عظيم**) ووصف ظلم الشرك بأنه عظيم هو المعادل لأفعل التفضيل فى الزيادة فى جانب المفضَّل على المفضل عليه. فقد تباينت العبارات الثلاث فى بعض الألفاظ. أما المعنى المراد منها جميعا فهو أظلمية الكفر.

* ذكرت الآية الحكيمة نوعين للكفر: افتراء الكذب على الله. ثم التكذيب بآيات الله، وقُدِّم النوع الأول على الثانى لشناعة الأول؛ ولأنه أقبح من التكذيب بآيات الله. وفيه تَعَمُّد لارتكاب هذا الإثم واختلاق أمور ينسبها المفترى إلى الله وهو يعلم يقينا أنه كاذب فيها. وكثيرا ما يجتمع هذان النوعان فى كافر واحد، مثل افتراء أهل الكتاب الكذب على الله كادعائهم الصاحبة والولد لله -سبحانه- ثم تكذيبهم بالقرآن رسالة خاتم النبيين ﷺ.

* (**إنه لا يفلح الظالمون**) توكيد الخبر بـ(ان) لتأكيد التهديد والوعيد. والضمير فى «إنه» للشأن أى الشأن والحال الذى لا يزول هو خسران الظالمين وقال: (**الظالمون**) ولم يقل: (**الأظلمون**). . جريا على الظاهر. والداعى البلاغى للعدول عن الأظلمية إلى الظالمية أنه لوقيل: لايفلح الأظلمون لكان مفهوم هذه العبارة أن (**الظالمين**) الأقل ظلما من الأظلمية قد يفلحون. وهذا محال. أما وقد قال: (**لا يفلح الظالمون**) فقد اندفع ذلك المحظور وهو فلاح الظالمين. وتأكد من باب أولى خسران الأظلمين. لأن قليلا من الظلم صار سببا فى الخسران. فما بالك بكثير الظلم، إنه أتعس حالا من قليل الظلم.

* * *

٦ - ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَاكُنَّا مُشْرِكِينَ* انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ، وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

الدراسة والتحليل:

الآية الأولى، والآية الثالثة، من هذه الآيات فى كلٍ منهما أسلوب استفهام. أما

الثانية فلا. وقد آثرنا ذكرها معهما لأن الاستفهام فى الآية الثالثة يتوقف كمالُ تصور معناه عليها كما يرى القارىء، والآيات الثلاث لقطة مضيئة لنقل مشهد مأساوى من المشاهد التى يمر بها المشركون يوم القيامة، عرضه القرآن الأمين فى دقة وإحكام للاعتبار والإنذار، ثم التحذير من الشرك وسوء المصير فيه.

يبدأ المشهد بتجميع المشركين فى مكان واحد أذلاء مقهورين، ثم يوجه إليهم هذا النداء الرهيب من قِبَل المهيمن الجبار: أين شركاؤكم (أصنامكم) الذين كنتم فى الحياة الدنيا تعبدونهم من دون الله، وتدَّعون أنهم كانوا آلهة تملك النفع والضر؟ فلا يجدون جوابا ويحارون. ثم تحل بهم فتنتهم التى كانوا عليها فى الدنيا، وتزين لهم كذبا من أقبح أنواع الكذب التى يخدع الإنسان بها نفسه.

(والله ربنا ما كنا مشركين) هذه أردأ بضاعة يحاولون ترويجها فى يوم لا مكان للغش والتدليس فيه.

ثم يهملهم الله فلا يلتفت إليهم، ولكن يلتفت إلى أصحاب الألباب، ويعجبِّهم من حال أولئك المشركين الذين قتلوا أنفسهم مرتين: مرة فى الحياة الدنيا. ومرة فى الحياة الآخرة فتعسا تعسا لهم.

والاستفهام الثانى **(كيف كذبوا)** ليس استفهاما محضا وإن استعملت فيه أداة الاستفهام كيف. بل هو توجيه نظر إلى كيفية كذبهم على أنفسهم.

أما الأول فقد حمله الإمام جار الله على التوبيخ. فقال «وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ»[1].

ويجاريه الإمام أبو السعود فيقول: «أى نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رءوس الأشهاد» **(أين شركاؤكم)**[2]. والألوسى حكى أن المراد منه التوبيخ فى كلام طويل فيه مناقشات لمنقول عن غيره[3].

ويقول الإمام الرازى: «المقصود منه التقريع والتبكيت»[4]. ويوجز أبو حيان فيقول: «سؤال توبيخ وتقريع»[5].

---

(١) الكشاف (٢/ ١٠).
(٢) تفسير أبى السعود: (٤/ ١١٩).
(٣) روح المعانى: (٧/ ١٢٤).
(٤) التفسير الكبير: (١٢/ ١٨١).
(٥) البحر المحيط (٤/ ٩٥).

أما ابن عاشور فيوجز كصاحب البحر: «والاستفهام توبيخى عما كان المشركون يزعمونه»[1].

والخلاصة: أن الأئمة أجمعوا على أن المراد من هذا الاستفهام التوبيخ. وقد أشرنا مراراً على أن التوبيخ وما جرى مجراه معان تردف على المراد من الاستفهام، سواء كان الاستفهام تقريريا أم إنكاريا. وأن التوبيخ وما كان مثله من التبكيت والتقريع يبعد أن تكون معانى رئيسة للاستفهام. لذلك نقرر - هنا - أن المعنى الرئيس فى هذا الاستفهام هو التكذيب. أعنى تكذيب المشركين فى ادعائهم الشركاء. ثم يترتب على التكذيب ما ذكروه من التوبيخ وغيره.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون)** أين أداة استفهام عن المكان. واستعمل هذا الاستفهام فى الآية عن الشركاء وهم أشخاص، أى أن الاستفهام هنا عن المكان والمراد منه ما من شأنه أن يكون حالاً فى ذلك المكان. فهو مجاز مرسل علاقته الحالية وقد تولد عن هذا المجاز كناية لطيفة عن انعدام الشركاء لأن السؤال عن المكان يعنى عدم تعلق علم السائل به، فإذا كان السائل هو الله تحول عدم تعلق العلم بالمكان إلى انعدام الشركاء الذين دعاهم المشركون آلهة لأنهم لو كانوا بهذه الصفة لعلمهم الله، ونفى علم الله بشىء معناه الكنائى انعدام الشىء نفسه. كما فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] فنفى علم الله هنا معناه انعدام الخير فيهم، ولو كان موجوداً لعلمه الله موجوداً.

* ﴿ثُمَّ لَم تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّه رَبِّنَا مَاكُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إيثار العطف بثم إشارة إلى أنهم تحيروا فى أمر الإجابة فدفعتهم حيرتهم إلى الكذب المتعمد لما ضاقت عليهم السبل. وتوكيد الخبر بالقسم دليل على إحساسهم النفسى بأن كذبهم مفضوح لا يمكن تصديقه. فحملهم جهلهم بمعرفة الله فى الدنيا على إعلان الكذب عليه فى الآخرةُ وهم فى الواقع لم يكذبوا إلا على أنفسهم. وفى الآية أسلوب

(١) التحرير والتنوير: (٧/ ١٧٥).

قصر صفة على موصوف. الفتنة مقصور والمقصور عليه هو الكذب الغليظ.

* ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ فى إطلاق النظر على التأمل استعارة تصريحية تبعية، استعارة محسوس، وهو النظر بالعين الباصرة. لمعقول، وهو التأمل الذهنى. وسره إظهار كـذبهم لفظاعته حـتى لكأنه يرى رؤية عين. والمراد من الأمر: (انظر) التعجيب، فهو مجاز مرسل عـلاقته الإطلاق والتقييد، حيث أطلق النظر من معناه وهو الوجوب ثم قُيدَّ باستـعماله فى مطلق التوجيه للتعجب من كـيفية كذبهم على أنفسهم.

* ﴿وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فى ضل استعارة تصريحية تبـعية، حيث استعار الضلال للإخـتفاء بجامع عـدم الرؤية فى كل منهما. وفى التـعبير عن «الشـركاء» بـ(ما) الذى يطلق على غـير العاقل، بعد أن عـبَّر عنهم بـ(**الذين**) الذى يطلق على (**العاقل**) دليل على تحقيـر أولئك الشركاء أو المقصود بـ(مـا) هو الباطل الذى كانوا عليه والواو فى (**وضل**) إما للاستئناف الابتدائى النحوى.. وهذا سائغ جداً فى هذا المقـام.. وإمـا للـعطف على (**كذبوا**) ولكن العـطف يُدخل المعطوف فى حـيـز التعجيب، وهذا لا تعجيب منه لأنه الأصل.

* * *

٧ - ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِما كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

الدراسة والتحليل:

وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة التى يكون المشركون طرفا فيها.

فى المشهد المتقدم جُمعوا فسُـئلوا عن آلهتهم فكذبوا على أنفسهم، وأقسموا -زوراً وبهتانا- أنهم لم يكونوا فى الدنيا مشركين.

وفى هذا المشـهد يقفـون بين يدى الله. ولا مناص لهم من الاعتـراف بالحق الذى يشاهدونه بأبصارهم. ولكن بعد فوات الأوان.

وفى هذه الآية ورد هذا الاستفهام: (**أليس هذا بالحق**)؟

الإمام جار الله يقول إن هذا الاستفهام «تعيير من الله تعالى لهم على الكذب، وقولهم لما كانوا يسمعونه من حديث البعث والجزاء ما هو بحق»(١).

ويستبدل الإمام أبو السعود التقريع والتوبيخ بالتعيير الذى قاله الزمخشرى(٢).

ويجاريه الإمام الألوسى فيقول: «والهمزة للتقريع على التكذيب»(٣).

وكان الإمام الرازى أقرب إلى السداد حين قال: «المقصود من هذه الآية أنه تعالى حكى عنهم فى الآية الأولى(٤) أنهم ينكرون القيامة والبعث فى الدنيا، ثم بين -فى هذه الآية- أنهم فى الآخرة يقرون به، فيكون المعنى أن حالهم فى هذا الإنكار سيؤول إلى الإقرار»(٥).

أما ابن عاشور فقد أصاب المفصل حين قال: «والاستفهام تقريرى، دخل على نفى الأمر المقرر به. . والمقصود: أهذا حق»(٦).

والخلاصة: أن هذا الاستفهام تقريرى بلا نزاع وهو ما فطن إليه الإمامان الرازى وابن عاشور وأما التعيير والتقريع والتوبيخ التى أشار إليها الآخرون فهى معانٍ ثوانٍ متولدة عن المعنى الرئيس وهو التقرير، أى أن الله تعالى قرَّرهم أولا بحقية البعث، فقد أحياهم بعد أن أماتهم وهذا ما كانوا ينكرون فى الحياة الدنيا. فجاء هذا الاستفهام مقرراً لهم بما أنكروا، ومكذبا لهم فى دعواهم استحالة البعث، وموبخا لهم على مواقفهم المخزية، وهذه المعانى محال أن تكون غير ملحوظة عند الأئمة ومبلغ الظن أنهم تركوا القول بالتقرير اعتمادا على ظهوره من سياق الكلام. ولهذا السبب فإننا نرجح موقف أبى السعود الذى لم يصرح بالمراد من الاستفهام هنا إلا ضمن كلام آخر.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ. .﴾ هذا الأسلوب يفيد التهويل والتفظيع كيفما

---

(١) الكشاف (٢/ ١٣). (٢) تفسير أبى السعود: (٤/ ١٢٤).

(٣) روح المعانى: (٧/ ١٣١).

(٤) يريد الآية رقم (٢٩): (وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين).

(٥) التفسير الكبير (١٤/ ١٩٦). (٦) التحرير والتنوير: (٧/ ١٨٨).

وقع. ودلالته على هذا المعنى حذف جواب (لو) لأن فى حذفه إيماء إلى أن الألفاظ لا تكفى فى تصوير معناه، لذلك يُعْدَل عن التعبير عنه بالألفاظ إلى مشاهدته بالحواس حين يقع. أما قوله (وُقِفُوا على ربهم) فكناية عن استسلامهم وخضوعهم أمام الله عز وجل.

* ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالحَقِّ﴾؟ استئناف بيانى جوابا عن سؤال يثور فى الذهن حاصله: ماذا قال لهم؟ واسم الإشارة (هذا) لما يشاهدونه من جمع الناس للحساب بعد بعثهم من قبورهم. وتوكيد اعترافهم بالقسم لما أحسوا به من صدق الخبر بالبعث، فهذا التوكيد مراعى فيه حال المتكلم لا المخاطب.

* ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِما كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ جملة قال مفصوله عما قبلها كنظيرتها السابقة (استئناف بيانى) وفى **(ذوقوا)** استعارة تصريحية تبعية. استعير فيه الذوق للاصطلاء بالنار، بجامع شدة الإحساس فى كل منهما. أو استعارة بالكناية، شبه فيها العذاب بالطعام والشراب الذى يقدم لأهل النار. وأيا كانت ففيها معنى التهكم بالمخاطبين **(وبما كنتم تكفرون)** جملة تعليلية لذوقهم العذاب.

* * *

٨ - ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية جاءت تعقيبا على مواقف منكرى البعث، واغترارهم بالحياة الدنيا، فحطَّ الله من شأن الحياة الدنيا وحصر متاعها فى اللهو واللعب. ثم رفع من شأن الحياة الآخرة التى يكذِّب بها منكرو البعث. وقد ورد فى جملة الفاصلة هذا الاستفهام: **(أفلا تعقلون)**؟

أهمل الزمخشرى توجيه هذا الاستفهام. واكتفى أبو السعود فيه بقوله: «والفاء للعطف على مقدر أى: أتغفلون فلا تعقلون؟ أو: ألا تتفكرون فتعقلون»(١).

أما الألوسى فيرى أن الاستفهام للتنبيه والحث على التأمل(٢).

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/١٢٦).

(٢) روح المعانى: (٧/١٣٤).

ويرى الطاهر بن عاشور أن الاستفهام فى الآية للتوبيخ والتحذير باعتبار المخاطب، فهو بالنسبة للمشرك توبيخ وبالنسبة للمؤمن تحذير[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام الأولى حمله على الإنكار، إنكار عدم العقل مع الحث والاستنهاض على إعمال العقل فى الموازنة بين الحياتين الدنيا والآخرة والسعى إلى العمل للحياة الباقية. أما التوبيخ وغيره فمعان تابعة.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أسلوب قصر موصوف على صفة، أى الحياة الدنيا على اللعب واللهو. وهو قصر تنزيلى[2]. حُمِلَتْ الحياة الدنيا فيه على غالب ما يقع فيها من أهل الزيغ والفجور؛ لأن الآية وردت فى الرد على منكرى البعث وأعمالهم فيها لا وزن لها بل هى كلعب الأطفال ولهو الكبار فى قلة أو انعدام جدواها.

* ﴿وَلَلدَّارُ ٱلآخِرَةُ خَيرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ «الواو للاستئناف الابتدائى (النحوى) وتوكيد الخبر باللام واسمية الجملة. لتقرير حصول الوعد. وأوثر الفعل المضارع **(يتقون)** إشارة إلى أن التقوى التى يكون ثمنها رضوان الآخرة هى التقوى التى هى خلق المسلم تحمله على الطاعات إذا وجبت، وتقيه من المعاصى إذا عرضت. وفى قوله: **(أفلا تعقلون)** التَفات من الغيبة إلى الخطاب اعتناء بشأن الإنكار والحث والترغيب على إعمال العقل فى معرفة الصواب من الخطأ، والحق من الباطل. والمواجهة بالخطاب فى مثل هذا المقام ألزم فى إقامة الحجة.. وقطع الأعذار.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير: (٧/ ١٩٥).

(٢) جرت عادة البلاغيين فى مثل هذا القصر أن يسموه «ادعائى» فهجرنا هذه التسمية إلى «تنزيلى» تأدبا مع كلام الله لأن الأصل فى الادعاء هو الكذب والزور.

٩ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية رسالة بالغة الأهمية؛ لأنها صُدِّرت بفعل الأمر «**قل**» وهو يعنى مواجهة المقول لهم بما بعد الفعل، فينبغى على المأمور بالقول أن يبلغه فور تلقى الأمر من ربه والمأمور بالقول هو محمد ﷺ. والمقول له هم الذين كفروا المكذبون برسالات الله وآياته، المذكورون قبل هذه الآية فى قوله عز وجل:

﴿وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أما آيتنا فقد واجهتهم بهذه الحقيقة: «أن يتصوروا حالهم إذا نزل بهم عذاب من عند الله، أو جاءتهم الطامة الكبرى (الساعة) فإلى من يكون المفزع والدعاء ليكشف العذاب النازل، أو ينجى من أهوال الحشر».

ليتصوروا هذا الموقف الرهيب، ولْيفكروا من بيده تفريج الكروب يتوجهون إليه بالتضرع والدعاء.. والاستفهام على رغم أنه مجازى لا يتطلب جوابا كالاستفهام الحقيقى على رغم ذلك نجد الإجابة (**أغير الله تدعون إن كنتم صادقين**) هذا هو جواب: **أرأيتكم**). وبقى جواب (**أغير الله تدعون**) وهو مجازى -كذلك- لا يحتاج إلى جواب ومع هذا فقد ورد جوابه فى قوله تعالى عقبه مباشرة ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاَء، وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، ويبرز -هنا- هذا السؤال: إن منهج القرآن فى الاستفهام المجازى ألا يذكر له جوابا. فلماذا ذكر الجواب فى هذين الاستفهامين وهما مجازيان؟ لقد سبق لنا أن تعرضنا من قبل لهذا السؤال، وكان الجواب: أن القرآن يذكر أجوبة الاستفهام المجازى إذا كان المطلوب بها حقيقة خارجية ثابتة، ليس لعمل الخيال فيها مجال.

وهنا الأمر كذلك، فلا مجال لعمل الخيال فى تعيين المفزوع إليه فى الشدائد والكُرب الجسام. لإن المفزوع إليه هو الله عز وجل.

وهذه الملاحظة من ثمرات هذه الدراسة، والحمد لله هو الهادى إلى أقوم سبيل.

وهذا الاستفهام (**أرأيتكم**) الذى تدخل همزة الاستفهـام فيه على فعل «الرؤية» نمر به لأول مرة فى هذه الدراسة ولذلك لابد من تقديم كلمة عامة فيه:

معنى الاستفهام مع فعل «الرؤية»:

الاستفهام الداخل على فعل الرؤية قسمان:

الأول: ما دخلت الهمـزة فيه على فعل رؤية مـاضٍ مثبت مثل الاستـفهام فى آيتنا هذه. ويأتى على صور، مثل (**أرأيتكم**) - (**أرأيتك**) - (**أرأيتم**) - (**أرأيت**) وهذا القسم هو الذى نخصه بكلمة هنا قبل التعرض لمعنى الاستفهام فى هذه الآية.

القسم الثانى: ما دخلت فيه الهمزة على فـعل رؤية مضارع منفى. وله عدة صور، مثل (**ألم يروا**) - (**ألم تروا**) - (**ألـم تر**) - (**أفـلا يرون**) وهذا القسم لا يدخـل معنا فى الكلمة التى سنذكرها الآن لأنه جـارٍ على قواعد الاستفهام العـامة. أما الأول فإن له تخريجا عند المفسرين والبلاغيين، رأينا أن فيه نظراً يخالف ما أجمعوا عليه فيه.

كلمة تمهيدية فى الاستفهام عن فعل الرؤية المثبت:

هذا التـركيـب الاستـفـهامى (أرأيت) دار حـوله جـدل طويل عند النحـاة وعند البلاغيين. ولكثـرة وروده فى القرآن الكريم فإن من المستحسن أن نلخص مـا قيل فيه هنا -مرة واحدة- ليكون ذلك معوانا لنا عند الحديث عن صوره فى النظم الحكيم.

أرأيت عند البلاغيين:

كان مما أخذه البـلاغيون عن النحاة أن أسلوب أرأيت معناه: أخـبرنى، وكان أول من قال به من النحـاة على ما ذكره الإمام أبو حـيان -هو سيبويه والأخـفش والفراء والفارسى وغيرهم[1]. ثم شاع ذلك عند البلاغيين ولـم يشذ منهم أحد عن القول بهذا المعنى. وصار قاعدة مطردة عندهم.

وهذا الأسلوب الاستفهـامى مجاز دائما عند البلاغيين ولا يجىء حقـيقيا أبداً. بل يرى الكرمانى وآخرون أن هذا الأسلوب فيـه مجازان. أحدهما: إطلاق الرؤية وإرادة

---

(١) البحر المحيط: (١٢٦/٤).

العلم أو الإخبار. وهو على هذا مجاز مرسل، وثانيهما جَعْل الاستفهام بمعنى الأمر -أخبرنى- بجامع الطلب فى كل منهما. وهو على هذا مجاز استعارى شبه فيه الأمر بالاستفهام.

ولنا على هذا التفسير ملاحظات، فهم قد فسروا أرأيت بمعنى أخبرنى، مع إجماعهم على مجازية هذا التركيب (أرأيت). وطالب الإخبار -فى الأصل- لا علم له بمضمونه، وفى هذا تخليط بين الحقيقة والمجاز؛ لأن العلم بمضمون الخبر حال مقتضاه السكوت. فكان ينبغى عدم الكلام أصلا. فكيف جعلوا المجاز فى هذا التركيب مقصوراً على (أرأيت) دون معناه؟ وهو أخبرنى؟

وإذا كان الأمر كذلك كان (أخبرنى) حقيقة لا مجازاً. ولما قالوا: إن أخبرنى هو معنى أرأيت فإنه يلزم من هذا القول أن مؤدى الاستفهام المجازى حقيقة لغوية. وهذا غير مُسلَّم به لما فيه من الجمع بين الضدين.

أم أن المجاز شامل لـ(أرأيت وأخبرنى)؟ هذا ما تجب الصيرورة إليه؛ لأننا لم نعهد صورة مجازية يتولد عنها معنى حقيقى. فإذا قالوا المجاز يشمل الاثنين (أرأيت-أخبرنى) فما هو نوع المجاز وما هو منزعه فيه؟ إن دلالة أخبرنى حسب الوضع اللغوى هو طلب الإخبار بما ليس معلوما عند المتكلم ساعة قال: أرأيت. وليس الحال كذلك هنا مادمنا قد قلنا إن أخبرنى مجاز مثل أرأيت.

فهل هو من الفن المسمى فى علم البديع: تجاهل العارف وهو مجاز قطعاً.

أم هو من قبيل ما سمى فى علم المعانى بـ(الأسلوب الحكيم) على أن يكون من نوعه الأل، وهو تلَقّى المخاطب بغير ما يترقب لنكتة يقدرها البليغ. وصلة هذا الأسلوب بالمجاز ليست وثقى.

أو هو مجاز مرسل تختلف العلاقات فيه حسب المقامات التى صيغ فيها الكلام؟ هذا هو الأظهر وإن تقدم أنه يصح حمله على المجاز الاستعارى والعلاقة التى نختارها فى هذا المجاز المرسل هى الإطلاق والتقييد دائما. كما بينا ذلك بكل وضوح فى غير هذه الدراسة[1].

---

(١) المجاز فى اللغة وفى القرآن الكريم. مرجع سبق ذكره.

ومن المعانى البلاغية لهذا الأسلوب أنه لا يستـعمل إلا فى الاستخبار عن الحالات العجيبة، والمراد منه استحداث عجب عند المخاطب، لأن المقام يستدعيه.

(أرأيت - أرأيتك):

هاتان صورتان من أسلوب الاستفهام الذى نحن بصدده. وهنا فروق بين الصورتين يحسن الوقوف عليها.

فالصورة الأولى **(أرأيت)** يتبادر إلى الفهم من مجرد النطق بها أن متعلق الرؤية فيها هو شئ منفصل تماما عن المخاطب. ويتضح هذا جليا فى قوله تعالى:

﴿أرأيت الذى يكذب بالدين﴾ [الماعون:١] وقوله تعالى: **﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة﴾** [الكهف:٦٣].

فمتعلق الرؤية فى الأولى هو قوله تعالى: **(الذى يكذب بالدين)** وهو شئ آخر غير المخاطب أما متعلق الرؤية فى الثانية فهو: **(إذ أوينا إلى الصخرة)**، وهو غير المخاطب بداهة.

أما متعلق الرؤية فى **(أرأيتك)** وفى كل ما اتصلت به الكاف بعد التاء. فإن المتبادر إلى الفهم بمجرد النطق بها هو «مدلول» الكاف الذى هو المخاطب، ولا يقدح فى هذا الفهم ما أشار إليه المانعون من موانع، وهم بصدد جَعْل الكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله، والذى أشاروا إليه هناك هو:

(أ) إن المعنى - لو سلمنا أن الكاف اسم - كما يقول الفراء[1]: هو لا محالة: أرأيت نفسك. وهذا عندهم معنى فاسد.

(ب) ولو كان الكاف اسما لكان مفعولا لـ **(أرأيت)** ويلزم عليه أن أرأيت تنصب ثلاثة مفاعيل وهذا لا قائل به.

لأننا نرى أنه ليس بلازم أن يكون المعنى أرأيت نفسك. بل إنه يمكن تخريجه على وجه آخر يصح معه أن يكون الكاف مفعولاً. وسوف نوضح هذا قريبا إن شاء الله.. وقول البصريين أن الكاف حرف خطاب تؤيده القواعد الصناعية وقول الفراء أنه اسم تؤازره تذوقات المعنى.

---

(١) ينظر البحر المحيط (٤/ ١٢٧).

ومما يتصل بالبحث البلاغى أن أرأيت ليس بلازم أن يكون بمعنى أخبرنى. بل قد تتوارد عليه معان بلاغية أخرى هى أقوى اعتباراً من (أخبرنى) وسوف نبين كل هذا قريبا إن شاء الله.

العود إلى آيتنا:

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى آيتنا وهى قوله تعالى:

(قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله، أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين).

الزمخشرى فسر **(أرأيتكم)** بأخبرونى، وسكت عن ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ فلم يبين معنى الاستفهام فيها. أما الجملة نفسها فهى استئناف مسوق للتبكيت. وتقديم المفعول **(أغير)** جعله مفيداً للقصر والمعنى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم عذاب، أم تدعون الله دونها[1].

ويقول أبو السعود: **(أرأيتكم)** معناه: أخبرونى.. والمراد من الاستفهام هو التبكيت ومناط الاستخبار هو «أغير الله تدعون»[2].

ويتابع الألوسى أبا السعود فى أن الاستفهام للتبكيت[3].

* أما أبو حيان فقد فسَّر معنى **(أرأيتكم)** بالتعجب من عقبى الكلام الذى تصدَّره الاستفهام، وتقديم المفعول فى **(أغير الله تدعون)** لإنكار دعاء الأصنام على المخاطبين.. لا لإنكار الفعل **(تدعون)** فى نفسه ولا لإنكار تخصيص الأصنام بالدعاء كما ذهب الزمخشرى من قبل[4].

وبعد أن نقل الرازى كلام النحاة فى **(أرأيت)** أفهم كلامه أن المراد من قوله تعالى: **(أغير الله تدعون)** هو التوبيخ والإنكار عليهم وهذا نص كلامه:

«إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام، والأوثان فلِمَ

---

(١) الكشاف: (٢/ ١٨).
(٢) تفسير أبى السعود: (١/ ٥٠٣).
(٣) روح المعانى (٧/ ١٤٨).
(٤) البحر المحيط (٤/ ١٢٧).

تقدمون على عبادة الأصنام التى لا تنتفعون بعبادتها البتة»[1].

أما الطاهر بن عاشور فيجعل الاستفهام الأول (**أرأيتكم**) للتقرير، ويجعل الاستفهام الثانى (**أغير الله تدعون**) للتعجب من حالهم فى الاستمرار على عبادة الأصنام، وهى لا تضر ولا تنفع[2].

والخلاصة: اختلفت عبارات الأئمة فى المراد من هذا الاستفهام بصورتيه، ولكن المعنى متقارب، ولم يفسر أحد منهم (**أرأيتكم**) بغير أخيرونى ومنهم من لم يذكر هذا التفسير، وانفرد الإمام الزمخشرى بالقول على فى التخصيص فى تقديم المفعول فى (**أغير الله تدعون**) ورفض ذلك أبو حيان - وهو محق - لأن المقام يأباه. والأصوب فيما نرى أن تقديم المفعول لأنه محط الإنكار. فالله تعالى ينكر عليهم دعاء الأصنام التى لا تملك لهم ضرا ولا نفعا. والتخصيص وإن احتمله سياق الكلام فإن أصول الإيمان تأباه. وذلك لأن الإنكار أعم من إنكار التخصيص. وعلى ما ذهب إليه الزمخشرى يكون المعنى أن الله تعالى ينكر على المشركين اختصاص أصنامهم بالدعاء، ومفهوم هذا الإنكار أنه لا ينكر عليهم:

(أ) إشراكه مع أصنامهم بالدعاء.

(ب) اختصاصه هو سبحانه وتعالى بالدعاء.

والأول باطل قطعا. فكيف ساغ للزمخشرى ومن جاراه الوقوع فى هذا الخطأ الفاحش؟

أسرار النظم وبلاغياته:

هذا الأسلوب الاستفهامى (**أرأيت - أرأيتك**) الذى تدخل فيه همزة الاستفهام على فعل الرؤية المثبت، كثير الورود فى كتاب الله العزيز، ويختص كما تقدم بالاستعمال فى الحالات العجيبة. ولذلك نراه يقترن كثيراً بأسلوب شرط، وجملة استفهامية أخرى كما فى آيتنا هذه. وهذا الاقتران أضفى على هذه الجملة (**أرأيتك**) فخامة فى التركيب وفخامة فى المعنى، والبلاغيون مجمعون - كما عرفنا - على أنه بمعنى: أخبرنى أو أخبرونى. وهذا المعنى قلنا فى ما تقدم إنه ليس بلازم، وأن نشأته فى

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٧/ ٢٢٤).

أروقة النحاة كانت أولاً. ثم تلقاها البلاغيون عنهم - بلا نقاش - فيما نعلم.

ونريد أن نطرح وجهة نظر أخرى - هنا - ثم نشير إليها عند مناسباتها إذا شاء الله.

ووجهة النظر التى نبديها - هنا - سبق لنا ذكرها كثيراً لدى طلاب العلم، وفى بعض الأعمال المطبوعة. تلك الفكرة تقوم على ما يأتى:

ليس المراد من (**أرأيت - أرأيتك - أرأيتم**) أخبرنى أو أخبرونى. وإنما المراد هو استحضار الأمر المستفهم عنه وتصوره فى الذهن ليُحكم عليه، وهو حاضر ماثل فى النفوس. وعُبِّر عن هذا التصور الذهنى بالرؤية - البصرية - فى قوة الظهور والمثول، أعنى أن الاستحضار الذهنى المطلوب ينبغى أن يكون كاملا حتى لكأن صاحبه يراه ماثلا أمامه كما يكون شخص ماثلا أمامه ينظر إليه بكل وضوح.

وتطبيق هذه الفكرة على آيتنا هذه ميسور، فإن الله تعالى يدعو المخاطبين إلى أن يتصوروا أنفسهم واقعا عليهم عذاب عظيم من فوقهم ومن تحت أرجلهم من ورائهم ومن خلفهم، عن أيمانهم وعن شمائلهم ليتصوروا أنفسهم فى لجة هذا العذاب. وبعد هذا التصور يواجههم بهذا السؤال:

(**أغير الله تدعون**)؟ ثم يستل كل ما فى نفوسهم من أسباب العناد والتكبر فيقول: (**إن كنتم صادقين**) وهذه خطوات حاسمة يخطوها القرآن بهم ليعيدهم إلى الفطرة السليمة التى فطرهم الله عليها، التى تحتم عليهم أن يقولوا بكل اقتناع «لا ندعو غير الله، بل ندعو الله وحده.

هذا هو التفسير الذى يليق بكتاب الله العزيز فى هذا الاستفهام فى جميع صوره. لا تفسير أخبرنى أو أخبرونى حتى ولو كان سائغا: لأننا فى البلاغة، لا نوازن بين خطأ وصواب، وإنما نوازن بين صواب وأصوب ونسوق مثالاً واحداً آخر نؤكد به صحة هذه الفكرة ريثما يجىء الحديث عنها مفصلا عند كل موضع من مواضع ورودها فى القرآن.

والمثال هو قوله تعالى:

﴿أَفَرأيْتَ الَّذِىَ تَوَلَّى * وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أعنَدهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٣ - ٤١].

قصة هذه الآيات ستأتى كاملة فى موضعها. والذى نقوله فيها هنا: أنها تتحدث عن رجل عمل قليلا من الخير ثم توقف (تولى) اعتمادا على أن غيره سيتحمل عنه مسئوليته أمام الله.

هذا الجاهل لم يقص القرآن قصته ابتداء، ولكنه آثار الأذهان حولها قبل قصها، وطلب من المخاطب أن يستحضر فى ذهنه هذه الصورة العجيبة، صورة الذى أعرض وتولى عن عمل الخير، بعد أن قدَّم منه قليلا، معتقدًا أن غيره سوف يحمل عنه اوزاره يوم الدين - وبعد هذا الاستحضار الذهنى، بدأ القرآن إصدار الأحكام على هذا الموقف الغريب العجيب. وسفَّه رأيه، لأنه صادر عن جهل عظيم. ثم قرر القرآن فى غضون التعقيب على هذا الموقف أصولاً من أصول الإيمان وهى:

(أ) لا تحمل نفس وزر أخرى.

(ب) لا ينفع الإنسان إلا عمله هو.

(جـ) كل سَعْيٍ يسعاه الإنسان سيعلن يوم الدين.

(د) كل إنسان يجازى على سعيه من جنس عمله.

هذا التعقيب القرآنى لم يرد إلا بعد لفت الأنظار، وتهيئة النفوس لما يقال، حتى لا يقال ما قيل والنفوس لاهيه والأنظار مغشاة.

وهذا الموضع لا يستساغ فيه أن يقال: إن (**أرأيت**) بمعنى أخبرنى وإن أجمع عليه المفسرون.

* * *

١٠ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىَ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ، انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ - ٤٧].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان تواجهان المشركين مواجهة إثر مواجهة وتخلصان لهم فى النصح والتوجيه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

الآية الأولى: تقول لهم تصوروا إذا وجدتم أن الله سلب عنكم الحواس التى بها تبصرون وتسمعون، وحجَّر قلوبكم فلم تحس بشئ. من هو إله آخر غير الله يرد عليكم ما أخذه الله منكم.

والآية الثانية تقول لهم: تصوروا أن عذابا فظيعا حل بكم من الله مداهما لكم ومفاجئًا، أو قدَّم بين يديه إنذارات. تصوروا من الذى يهلك فيه إلا الظالمون. وأنتم فى مقدمة من يهلك لأنكم ظالمون وفى الآيتين أربعة أساليب استفهامية:

(أرأيتم) - (من إله غير الله) - (أرأيتكم) - (هل يهلك).

وقد تقدم المراد من: **(أرأيت)** وما كان على غرارها فهى عند الجمهور بمعنى أخبرنى - أخبرونى. وعلى طريقتنا أن المراد من هذا الاستفهام - كيفما وقع - هو إثارة الذهن ولفت الأنظار وتهيئة النفوس لتلقى ما يقال بعد هذا الاستفهام، بعد بعث المشاعر من غفلتها توطئة لتمكين المعنى فى القلوب.

أما الاستفهام الثانى من الآية الأولى **(من إله غير الله...)** فهو بالإجماع للإنكار، أى إنكار الوقوع لا إنكار الواقع لأن الواقع **(لا إله إلا الله)** والوقوع الذى سلط عليه الإنكار هو نفى أن يقع فى المستقبل إله آخر غير الله، وأما الاستفهام الثانى فى الآية الثانية ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهو للتقرير باعتبار وللنفى باعتبار آخر.

للتقرير باعتبار الظالمين الذين لن ينجوا من ذلك العذاب، وللنفى باعتبار غير الظالمين، وهم الصالحون فهؤلاء فى مأمن من العذاب. والمراد به عذاب الآخرة قطعًا.

وهذه هى خلاصة ما يقال فى هذه الاستفـهامات الأربعة. وهى صالحة لأن يضاف إليها معان أخرى تردف عليها.

فيضاف إلى (**أرأيتم**) التخـويف، ويضاف إلى (**أرأيتكم**) الترهيـب، وهو أقوى من التخويف ويضاف إلى (من إِلَه غير الله يأتيكم به) التيئيس والإقناط من آلهتهم.

ويضاف إلى (**هل يهلك إلا القوم الظالمون**) الوعيد الشديد.

والمعانى الثوانــى المردوفة على المعانى (الأصول) فى الاستـفهام كثـيرة، وقد ينوب بعضها عن بعض مثل التوبيخ والتقريع مع شدة لذعة التقريع ووقعه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تكرار فـعل الأمر (**قل**) فى كل من الآيتين إيماء إلى اسـتقلال كل منهـما بمواجـهة خاصة لدحض البـاطل، وللإيذان بأنهما رسالتـان بالغتا الأهمية فى مـجال الدعوة ومحاجة الخصوم، ويؤكد هذا فصل (**قل**) الثانية عن (**قل**) الأولى مع قيام دواعى وصلها بها، لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين.

* جاء فى الأولى (**أرأيتم**) وفى الثانية (**أرأيتكم**) بزيادة الكاف فى الثانية، وفـيه مزيد عناية بمتعلق الرؤية. والسبب أن مجى العذاب الأخروى بغتة أو جهرة أهول وأفظع من سلب الأبصـار والسـمع والطمس على القلوب. وزيادة المـبنى دليل على زيادة المعنى سواء كانت الكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التـاء قبله، أو كانت اسما مثل التاء. فكان خلو (**أرأيتم**) من الكاف، وذكره فى (**أرأيتكم**) للدلالة على التفاوت بين متعلقى الرؤية فى الموضعين.

* وفى (**أخذ**) فى قوله تعالى ﴿إِنْ أَخَذَ اللهُ سَـمْعَكُمْ﴾ استعارة محـسوس لمعقول، حيث استعير الأخذ، وهو فعل حـسى، لتعطيل السمع والبصر. وهو أمر معنوى. وسر هذه الاستعارة زيادة التيئيس والتقنيط، لأن الشئ إذا أخذ من مكانه وذُهب به أوقع لليأس والقنوط من وجوده مع إصابته ببعض العطوب.

* وفى إسناد الإتيان إلى العذاب مجاز عقلى، لأن الآتى به هو الله تعالى. وسر هذا المجاز التهـويل والتفظيع حتى لكأن العـذاب نفسه تحرك نحوهم مـن شدة الغضب

عليهم وغرابة حالهم من قضايا الإيمان. وقيل: (**هل يهلك إلا القوم الظالمون**) ولم يقل إلا أنتم. للإذان بسبب الهلاك وهو الظلم. ولإفادة عموم الحكم.

* * *

١١ - ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ، إِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يعلن على الملأ أنه بشر رسول لا يملك من أمر الله شيئا. وليست وظيفته فى الحياة أن يقسم الأرزاق ولا يطلع على غيب من غيوب الله. بل هو بشر رسول يتبع وحى الله إليه، ثم يبين لهم بيانا خاصا أن الجاهل لا يستوى مع العالم العارف بالله كما لا يستوى الأعمى والبصير، وينكر عليهم عدم تمييزهم بين الحق والباطل، وتعطيل ملكاتهم الذهنية عن التفكير السليم.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان الأول: (**هل يستوى الأعمى والبصير**)؟ والثانى (**أفلا تتفكرون**) وقد عرفنا مرات مواقف الأئمة من مثل هذين الاستفهامين فلا نشغل أنفسنا بذكر ما قالوه مفصلا. ويكفى أن نقرر على هدى ما عرفناه عنهم، وما قرره البلاغيون أن ندلى بخلاصة للمراد منهما:

* فالاستفهام الأول: (**هل يستوى**) للنفى، وهذا حكم بدهى يدركه جميع الناس. فمنزلة الأعمى. سواء كان عمى جهل، أم عمى باصرة منزلة منحطة عن منزلة البصير.

أما الاستفهام الثانى (**أفلا تتفكرون**) فهو كما يرى الأئمة فى أمثاله: للإنكار. إنكار الواقع الذى هم عليه من عدم التفكر الهادى إلى الحق. ونحن نضيف إلى هذا الإنكار معنيين:

التوبيخ على تركهم التفكير. والحث والترغيب فيه علهم يهتدون.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى الصفات التى نفيت فى: ﴿لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ فى نفى هذه الصفات تجريد لمعنى الرسالة، وأن الرسول - أى رسول - لا يملك شيئا من أمور الله. وفيها - كذلك - تأكيد لمعنى البشرية ردًا على ما آثاره المشركون من أن الرسالة تنافى البشرية وأن الله لو كان مرسلا رسولا لكان من الملائكة. ثم حُصِرَ معنى الرسالة فى الهداية والتبليغ عن الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ﴾.

وقرن نفى «عندية خزائن الله» ونفى «ملكية» الرسول بالجار والمجرور **(لكم)** وجُرِّد منها نفى «علمية الغيب» لما سبق من دعاوى المشركين. ففى الإسراء حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩١].

وفى الفرقان حكى عنهم ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

لهذا تأكد نفى هذه الصفات بـ **(لكم)** أما نفى علمية الغيب فهى مما اقتضى المقام ذكره - بتجريد معنى الرسالة مما ليس لها - ولم تكن من مزاعم المخاطبين.

* ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىَ إِلَىَّ﴾ أسلورب قصر: قصر صفة الأتباع على موصوف هو وحى الله إليه.

وتقديم الأعمى على البصير ليلى حرف الإنكار. لأن المراد نفى مساواة الأعمى بالبصير، لا مساواة البصير بالأعمى.

* وفى الأعمى والبصير استعارتان تصريحيتان تبعيتان، فقد استعير الأعمى للجاهل، والبصير للعالم بجامع الرؤية وعدم الرؤية فى كل منهما. ويجوز أن يكون المستعار له فيهما الضال والمهتدى، أو الكافر والمؤمن.

* كما أن فى الجمع بين الأعمى والبصير طباقا إيجابيا لا تكلف فيه. وإيثار المضارع

فى (**تتفكرون**) للحث واستحداث التفكر فى خلق السموات والأرض، وما خلق الله من شئ، ليزول عمى القلب، والجهل بحقائق الإيمان فينجو المهتدى من سوء المصير.

* * *

١٢ - ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

الدراسة والتحليل:

قبل هذه الآية وردت آية هذا نصها: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فدلت هذه الآية على صراع كان بين جماعتين متفاوتتين فى المنزلة:

جماعة ثرية من علياء القوم، وجماعة فقيرة ليس لها حظ من الوجاهة. سارعت هذه الجماعة إلى الإسلام وتباطأت الجماعة الأولى. وهم سادة قريش وقادتها والمعروف أنهم كانوا يستنكفون عن الدخول فى الإسلام بحجة أن الذين أسلموا مساكين وفقراء وسوقة، وإن كان فيهم سادة وسراة. وكانوا يشترطون على صاحب الرسالة ﷺ أن يخصص لهم مجلسا لا يجلس معهم فيه أولئك المؤمنون الفقراء، وكان الرسول ميالاً لتأليف قلوبهم ليعز الله الإسلام بشوكتهم. فجاءه هذا التوجيه الإلهى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ثم بيَّن لرسوله - وللناس - الحكمة من اختلاف أوضاع الناس فى هذه الحياة فقال: (**وكذلك فتنا بعضهم ببعض**) أى اختبرناهم بتفاوت حظوظهم هذا غنى وهذا فقير، هذا مؤمن وهذا كافر.

ومن نتيجة هذا التفاوت: أن يشير بعضهم إلى بعض ويقول: (**أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا**) والغالب أَنَّ قائلى هذا الكلام هم صناديد مكة وعظماؤها الذين ظلوا على كفرهم فى بداية الدعوة. والمشار إليه بـ (هؤلاء) هم المؤمنون الأولون. وهذا

الاستفهام (أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا) قصد منه قائلوه: الإنكار والتعجب ينكرون على المؤمنين أن يكونوا أهل فضل عليهم لفقرهم وتواضعهم، ويتعجبون من اختصاصهم بامتنان الله عليهم. كما حكى عنهم القرآن قولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

أما الاستفهام الثانى ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ﴾ فهو للتقرير كما سبق مراراً؛ لأن الهمزة فيه دخلت على نفى فعاد المعنى إثباتا، وهذه خلاصة ما يقال فى هذين الاستفهامين الأول: للإنكار والتعجب، والثانى للتقرير(١).

أسرار النظم وبلاغياته:

* أول ما يفاجؤنا من بلاغيات النظم التشبيه فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ وجل المفسرين على أن المشار إليه بـ (ذلك) فى (كذلك) هو مصدر الفعل الذى بعده، أى مصدر (فتنا) وهو الفتن أو الفتون. ومن قال بهذا الرأى قال ليس فى النظم مشار إليه قبل الكاف. ولذلك يرى أبو السعود أن الكاف زائدة للتأكيد وأن أصل الكلام: فتناهم ذلك الفتن فحدث فى النظم تقديم وتأخير. وابن عاشور يعترف بأن فى هذا التأويل تشبيهاً للشئ بنفسه، ويلتمس لذلك وجها فيرى أن المشبه لغرابته لم يكن له مشبها به إلا هو نفسه نظير قولهم والسفاهة كاسمها. ولكن من الميسور إخراج الكلام على غير ما ذهبا إليه فيحمل التشبيه على ما يفهم من الآية (ولا تطرد. . .) فإن فيها تفاوتا بين الجماعتين كما تقدم، فيكون المشبه به هو الفتنة التى وردت فيها. وهى فتنة فى تفاوت الحظوظ، أما المشبه فهو الفتنة فى المشاعر التى بعثت المفتون، وهم المشركون، على أن يقولوا ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْننا﴾ وبهذا نفلت من المحاذير التى ترتبت على التأويل المذكور من القول بزيادة الكاف، ثم تشبيه الشئ بنفسه.

* وفى اسم الإشارة (هؤلاء) دلالة على ما كان المشركون يضمرونه فى أنفسهم من احتقار للمؤمنين، فعبروا عنهم باسم الاشارة الموضوع للمشار إليه فى المكان القريب

---

(١) ينظر الكشاف (٢/ ٢٢) - تفسير أبى السعود (٣/ ١٤٠)، وروح المعانى (٧/ ١٦٢) والتحرير والتنوير (٧/ ٢٥٤).

تنزيلا لقرب المكانة منزلة قرب المكان.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ دخول حرف الجر (الباء) فى خبر ليس للتأكيد وقوة الربط بين المسند إليه والمسند. والجملة استئناف لتقرير علة عدم الطرد فى الآية الأولى، وكون أن الله يمن على من يشاء من عباده لعلمه بأحوال الشاكرين منهم، وأحوال الجاحدين. وما الله يريد ظلما للعالمين.

* * *

١٣ - ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية فى سلسلة آيات سابقة عليها ولاحقة بها، كلها تتحدث عن كمال قدرة الله تعالى وقهره للمخلوقات، فلا يشذ منها شئ عن الخضوع لله. وقدرته على كشف الضر هى قدرته على الانتقام من المجرمين المصرين على إجرامهم.

وقد صُدِّرت هذه الآية بهذا الاستفهام ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ وقد أجمع الأئمة أنه استفهام تقرير. أى أن صاحب الرسالة المأمور بمواجهتهم بهذا يقررهم أن المنجى هو الله ولم يشذ أحد من الأئمة عن هذا المعنى(١).

والخلاصة: هذا هو إجماع المفسرين على المراد من هذا الاستفهام. ولكن أبا حيان أضاف إلى التقرير معانى أخرى إذ يقول:

«وهو استفهام يراد به التقرير والإنكار والتوبيخ والتوقيف على سوء معتقدهم..»(٢).

وهذا فهم طيب من أبى حيان، لأن المراد تقريرهم بأن الله وحده هو المنجى من الشدائد، والإنكار عليهم لقصدهم الانجاء من الأصنام ثم توبيخهم على هذا السلوك الخائب، ثم توقيفهم على ضلال اعتقادهم بترك اللجوء إلى الله، والاعتماد على أصنامهم.

(١، ٢) ينظر تفسير أبى السعود (٣/ ١٤٥)، وروح المعانى (٧/ ١٧٩)، والبحر المحيط: (٤/ ١٤٩)، والتحرير والتنوير (٧/ ٢٨٠).

أسرار النظم وبلاغياته:

* تعودنا أن النظم القرآنى الحكيم إذا جاء فيه فعل الأمر (قل) كان ذلك إشعاراً بالأهمية البالغة للكلام المقول. والأمر كذلك هنا. لأن المقول يقرر أصلا عظيما من أصول الإيمان، وهو: أن النافع والضار هو الله وحده.

* وفى قوله تعالى: (ظلمات) استعارة تصريحية أصلية، شبهت فيها الشدائد والمحن العظام بظلام الليل الحالك، بجامع عدم الرؤية والرهبة فى كل منهما. وقد جرت عادة العرب على وصف أيام الشدائد بالسواد والقرآن بلسانهم نزل، وعلى طرائقهم فى البيان نظم معانيه.

* وفى توكيد الشكر على الانجاء بالقسم، وتوكيد جواب القسم باللام والنون إضاءة كاشفة لما جبلت عليه النفوس البشرية من هلع إذا تعرضت للكوارث وإنابتها إلى الله طوعا واضطراراً.

* * *

١٤ - ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنَ دُون الله مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا، وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ٧١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية المبدوءة بفعل الأمر (قل) رسالة مواجهة وتثبيت: مواجهة للمشركين الذين كانوا يحاولون ارتداد بعض المسلمين عن إسلامهم، كأقرباء المشركين، ومن كانت لهم عليه سلطة أو لهم به علاقة. ويبدو أن هذه الظاهرة تفشت فى مكة، قبل الهجرة. فنزلت هذه الآية لتثبيت المؤمنين على إيمانهم، ولتيئيس المشركين من تحقيق ما يحاولون من فتنة المسلمين عن دينهم. لذلك استهلت الآية بهذا الاستفهام:

﴿أَنَدْعُـواَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَـعُنَا وَلاَ يَضُـرُّنَا. . .﴾ وهو استفـهام إنكار عند جميع الأئمة[1] إنكار الوقوع لا إنكار الواقع. لأن المسلمين ما كـانوا يدعون غير الله، وإنما كان المشركون يتـوقعون منهم أن يدعوا غير الله وهذا التـوقع الذى كان المشركون يرجون تحوله إلى واقع، هو الذى أنكرته الهمزة فى (**أندعو..**).

والخلاصة: أن هذا الاستفهـام يختلف المراد منه باعتبارين فـهو بالنظر إلى المشركين تيئـيس. وبالنظر إلى المسلمين تثبـيت. وهذان المعنيان تابعـان للإنكار الذى هو المراد الرئيس من هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* تكرر فعل الأمر (**قل**) فى الآية مرتين مفـصولاً ثانيهما عن الأول. لاشـتمال الآية على رسالتين خاصتين بالغتى الأهمية:

الأولى: إعلان التبرؤ من الشرك. والثانية تقرير أن الهدى الحق هو هدى الله.

* ﴿ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا. . .﴾ كناية عن موصوف هو الأصنام، وهى أبلغ مما لو قيل: أندعو الأصنام. لاشـتمال الكناية على علة إنكار دعائها. وفى العـبارة طباق إيجاب واقع مـوقعه من البلاغـة، وداخل فى التطبيق على مقتـضى الحال، وليس تحلية للفظ، ولا زينة لمعنى.

* ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ إمـا كناية عن الكفر بعد الإيمان أو اسـتعارة تمثيلية شبـه فيها من يكفر بعـد إيمانه بهيئة من يسيـر فى طريق آمنا ثم سرعان ما سـقط على ظهره فهلك. وهذا التعبير - مهما كان نوعـه بلاغيا - فيه تصوير حسى منفر من الكفر، يقع أمـام السـمع والبصـر وإخـراج المعنويات فى صـورة الحـسيـات أمـثل للنظر والاعتبار.

* ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ تأكيد لعدم دعوة الأصنام وتقبيح للإرتداد على الأعقاب.

* ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ. .﴾ تشبيـه بديع صورت فيه حالة المرتـد إلى الكفر بعد الإيمان

---

(١) ينظر - مثلاً - الكشاف: (٢/ ٢٩)، وتفـسير أبى السعود (٣/ ١٤٩)، وروح المعانى (٧/ ١٨٨)، والبحر المحيط (٤/ ١٥٦)، والتحرير والتنوير (٧/ ٣٠٠).

بحالة العاقل الذى فقد عقله فـأخذ يهيم على وجهه فى الأرض، لا يدرى من أين أقبل ولا أين يريد، ولم ينفعه نصح الناصحين لغلبة الجنون عليه.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ هذه هى الرسالة الثانية فى هذه الآية «صُدِّرت» بـ (قل) مفصولاً عن (قل) الأول مع دواعى الوصل بينهما للتوسط بين الكمالين، إيذانا بمالها من أهمية فى المعنى، وسرعة التبليغ والمواجهة وهى أسلوب قصر موصوف على صفـة، فالموصوف المقصـور هو هدى الله. والصفة المقـصور عليهـا هى (الهدى) أى الذى لا هدى سواه.

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الواو لعطف جملة (**أُمرنا**) على جملة (**إن هدى الله..**) فهى من مقول القول: أى أن النبى ﷺ أُمر بأن يقول: إن هدى الله هو الهدى. وأمرنا لنُسلم لرب العالمين وإيثار (رب) مضافا للـ (العالمين) على اسم الجلالة (الله) لما فى الإضافة من خصوصية ملكية الله لجميع العوالم علويها وسفليها.

* وتوكيد الخبر فى (**إن هدى الله**) لمواجهة إنكار المشـركين الذين يدعون إلى ولاية غير الله (الأصنام) وعبادتها ودعائها لجلب المنافع ودفع المضار.

* * *

١٥ - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِـذُ أَصْنَامًا آلِهَةً، إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

الدراسة والتحليل:

هذا شروع فى عرض مشهد من مشاهد دعوات الرسل الأولين؛ دعوة إبراهيم عليه السلام، وهو يواجه قومه لأول مرة، وفى هذا العـرض تثبيت لصاحب الرسالة الخاتمة ﷺ. فقد عرضت سـورة الأنعام - هذه - مواقف مشركى العرب، ومـعاناة صاحب الرسالة من عـنادهم وغبائهم، وكـأن الله يقول له هنا: لست بدعـا من الرسل، ولا قومك أول من طغى وأدبر. ولكنهـا سنة لله فى عباده. وكمـا نصر الله إبراهيم وأيده فسـينصرك ويؤيدك. فامض فى سـبيلك على هدىً من الله. واصبـر كما صـبر أولو العزم مـن الرسل، وواجه البـاطل كما واجـهوه بكل قـوة وحزم. ولا يشـقَّنَّ عليك

صدود قومك، ومن فيهم من عشـيرتك الأقربين. لأن إبراهيم واجه أباه، وهو أقرب الناس إليـه، لما رآه على الكفـر والضلال. وقـد جاء فى آيتـنا هذه هذا الاستـفهـام الغاضب: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً. .﴾؟.

وقد أجمع الأئمـة، وهم محققون، على أنه استـفهام إنكار[1]، وزاد ابن عاشور: التوبيخ.

والخلاصة: إن الإنكار هو المعنى الرئيس الذى استعمل فـيه هذا الاسـتفهـام. أما المعانى التابعة فـقد ذكر منها ابن عاشور التوبيخ، وبقى مـعنى آخر يُقدَّم على التوبيخ وهو: التسفيه.

وإبراهيم عليه السلام يرمى أباه وقومه على اتخاذهم الأصنام آلهة بالطيش والسفه. لأن من كان عنده عقل رشيد يبرأ من هذا الضلال البيِّن.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ. .﴾ إيثار ذكر (أبيه) وتقديمه على (آزر) إشارة إلى أن الباطل ينبغى عـلى الدعاة، وفى مقدمتـهم الرسل، أن يقاوموه مهمـا كان المتصف به، وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام، فلم يمنعه مانع من أن يواجه أباه وينكر عليه الباطل.

كما أن فـيه - كما تقـدم - مواساة لصاحب الرسـالة على ما كان يلقـاه من قومه وبعض عشيرته الآدنين، وفى هذا المعنى روى الترمذى حديثا ورد فيه:

* لا يمنعنَّ أحدكم مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه.

* ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً. .﴾ الإنكار مسلط على الاتخاذ المتعلق بـغير الله. سواء كان المُتَّخَذ (اسم مفعول) فرداً أو مـثنى أو جمعا. وذكر الجمع **(أصناما آلهة)** ليس معناه جواز اتخاذ الصنم الواحـد إلهًا، وهو ما يسمى بدلالة المفهـوم عند علماء الأصول وأهل المنطق، لأن إبراهيم عليه السلام كان ينكر الواقع الذى عليه أبوه وقومه، فهم

---

(١) ينظر الكشـاف (٢/ ٣٠)، وأبو السـعود (٣/ ١٥١)، وروح المعـانى (٧/ ١٩٤)، والبحر المحيط: (٤/ ١٦٤)، والتحرير والتنوير (٧/ ٣١٢).

كانوا يعبدون جمعا من الأصنام لا صنما واحداً، لذلك ذكر إبراهيم الجمع كما هو فى الواقع. ولو كان أبو إبراهيم وقومه يعبدون صنما واحداً لقال لهم: أتتخذ صنما إلهًا؟.

* ﴿إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ تعليل للإنكار والتوبيخ. والتسجيل عليهم بالضلال بعد إنكار شركهم بالله. وتوكيد الخبر بـ (إن) واسمية الجملة لأن المخاطب وهم أبوه وقومه من شأنهم إنكار ما قاله إبراهيم فى آلهتهم وشدة حرصهم على عبادتها. فواجههم بهذا البيان الفخم علَّهم يثوبون إلى رشدهم.

* * *

١٦ - ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ، وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ* وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨١].

الدراسة والتحليل:

بعد أن رفض إبراهيم عليه السلام عبادة الكواكب: النجم، القمر، الشمس، وبيَّن لقومه فى تجربة عملية العيوب التى تمنع من اتخاذ تلك الكواكب أربابا تُعبد من دون الله. أملى لهم الشيطان أن يحاجوا إبراهيم فى شأن آلهتهم التى عبدوها من دون الله.

والمحاجَّة: هى تقارع الحجج بين الخصوم، يأتى هذا. بحجته وهذا بحجته، وهى الجدل. والمحاجة تكون مقبولة أحيانًا ومرفوضة أحيانا. وهذا الموقف ليس من المواقف التى يُقبل فيها المحاجة. لذلك أنكر إبراهيم على قومه أن يحاجوه فى شأن أصنامهم وهو يدعو إلى عقيدة التوحيد. فليس الإنكار مسلطا على مطلق المحاجة، بل على المحاجة فى الله: وجوده - وحدانيته - تفرده بالعبادة.

ثم دعا قومه إلى التذكر، وأكد لهم أنه لا يخشى أصنامهم التى دعوها آلهة. ونعى على قومه هذا الافتراء الفظيع ثم دعاهم إلى التفكر مرة أخرى عساهم يميزون بين الحق والباطل. ومن هو أحق بالأمن عند الله. هذا. وقد وردت فى الآيتين أربعة

أساليب استفهامية **(أتحاجُّونى)** - **(أفلا تتذكرون)** - **(وكيف أخاف)** - **(فأى الفريقين)**.

وجولة سريعة فى أسفار التفسير ترينا أن المراد من الاستفهام الأول (أتحاجُّونى فى الله وقد هدان) هو الإنكار: إنكار الواقع منهم فعْلا، وهو الجدال الفارغ فى شئون المعبود الحق وهو الله تعالى.

أما الاستفهام الثانى فى الآية الأولى **(أفلا تتذكرون)** فلم يصرحوا بالمراد منه، وسبق تفسيرهم لمثله بأن المراد منه إنكار عدم التذكر والتوبيخ عليه.

أما الاستفهام الأول من الآية الثانية فهو لإنكار الوقوع، أى لا أخاف أصنامكم لا الآن ولا بعد الآن أما الثانى ﴿فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾ فقد قال أكثر من واحد أنه للإلجاء إلى الجواب الصحيح، كما أشاروا إلى أنه من الكلام المنصف، وهو أن يُرَدَّدَ وصف بين اثنين مع العلم بأنه - يقينا - لأحدهما، أو يُرَدَّدَ وصفان بين اثنين بدون تعيين مع العلم- يقينا- بصاحب كل وصف منهما. وسيأتى بيانه فى بلاغيات النص.

والخلاصة: أن ثلاثة استفهامات وهى ماعدا: **(أى الفريقين)** مسوقة للإنكار بوجه عام مع فروق من موضع إلى موضع.

فالأول: (أتحاجونى) لإنكار الواقع. **والثانى: (أفلا تتذكرون)**: لإنكار الواقع كذلك.

أما الثالث: (وكيف أخاف) فلإنكار الوقوع، ويضاف إلى ما قاله الأئمة معان تابعة يقتضيها المقام فالإنكار فى **(أتحاجونى)** يتبعه الزجر.

وفى **(أفلا تتذكرون)** يتبعه التوبيخ. والحث على التذكر. وفى **(وكيف أخاف..)** يتبعه التسفيه. أما الرابع: فيتبع الإلجاء فيه الاستعطاف[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ..﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لشبه كمال الاتصال. لوقوعها جوابا عن سؤال مقدر نشأ عن الأولى. وفى (فى الله) إيجاز بالحذف، أى فى شئون الله وما يجب له من صفات الكمال والجلال والجمال.

---

(١) ينظر فى المراد من هذه الاستفهامات: الكشاف (٢/ ٣٢)، أبو السعود: (٣/ ١٥٤) روح المعانى (٧/ ٢٠٤)، البحر المحيط (٤/ ١٦٩)، التحرير والتنوير: (٧/ ٣٢٧).

* **(وقد هدان)** حال مؤكدة للإنكار فى (اتحاجونى) وفى إيثار المضارع (تحاجونى) تصوير لتوالى جدالهم وبيان لحرصهم على الباطل.

* ﴿وَلاَ أَخَافُ مَآ تُشْرِكُونَ به﴾ استئناف ابتدائى (نحوى) للرد عليهم حيث خوفوه بأنه سيكون عرضة للإصابة من آلهتهم بسوء. وإيثار المضارع **(أخاف)** إشارة إلى توالى عدم الخوف من آلهتهم.

* **(ما تشركون به)** كناية عن موصوف هو **(الأصنام)** وهى أبلغ من التصريح للتسجيل والنعى عليهم بالإشراك به زورًا وبهتانًا.

* ﴿إِلاَّ أَنَ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا﴾ هذه العبارة تأولها المفسرون على وجوه غير سديدة (تراجع فى مواطنها من كتبهم)، والذى نراه أصوب فيها أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يظهر لهم كمال الانقياد لله سبحانه. أى ولو شاء الله - والله لن يشاء هذا - أن يخاف من آلهتهم لخاف منها، ووزان هذا قوله تعالى موجها رسوله الكريم محمدا ﷺ كيف يرد على قومه بعض جدالهم:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقوله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ. . .﴾ [القصص: ٤٩].

* ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىءٍ عِلْمًا﴾ استئناف ابتدائى(نحوى) لتعليل التفويض فى قوله ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا﴾ والمعنى ومَنْ كان هذا هو شأنه فجدير بأن نفوض إليه كل الأمور».

وفى تكرار **(ربى - ربى)** مع أن مقتضى الكلام كان أن يقول **(وسع كل شىء علمًا)** إظهارًا لكمال الإنابة والتفويض.

* ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ إيثار التذكر على التفكر - هنا - للإيذان بأن الكمال القدسى لله ظاهر، يكفى مجرد التذكر لمعرفته وحضوره فى القلوب. أما التفكر فلما كان موضوعه استجلاء الحقائق التى فيها خفاء أو عمل فكر عميق. فلم يصح أن يكون فاصلة لهذه الآية.

﴿وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ، ولاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ تُشْرِكُونَ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا. .﴾ هذا توكيد لنفى الخوف فى الآية الأولى، وغوير بين المضارع والماضى فيهما للإشارة فى الأول إلى إنشائهم الشرك بالله. وفى الثانى (**أشركتم**) الماضى لشركهم الذى داموا عليه بعد أن أنشأوه فى الأول، وإيثار المضارع فى (**وكيف أخاف**) - (**ولا تخافون**) إشارتان إلى توالى عدم الخوف عنده، وتوالى عدم الخوف عندهم من شركهم. وفى هذا تعريض بهم، حيث أمنوا فى محل الخوف. وكانوا أحوج ما يكونون أن يخافوا عاقبة شركهم بالله.

* وفى تقديم (**به**) على (**عليكم**) إعلام بعموم النفى أى أن الله لم ينزل به سلطانا قط. لا عليهم ولا على غيرهم. ولو قيل: «لم ينزل عليكم به سلطانا. . لجاز أن يكون قد نزَّل ذلك السلطان على غيرهم، ولكان لهم عذر فى الإشراك.

* وفى إطلاق السُّلْطان على الدليل والبرهان استعارة تصريحية أصلية. شُبِّه فيها البرهان بالسلطان - يعنى الحاكم - بجامع ما فى كل من الهيبة ووجوب الخضوع والانقياد له. وتنكير (**سلطان**) للتحقير بالنسبة لمقام الكلام الذى ورد فيه. أى لم ينزل به سلطانا ما يذكر ويعتبر.

* ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ الفريق الأحق بالأمن هم المؤمنون الموحدون، وقد ردده إبراهيم عليه السلام أى الأحقية بالأمن بين فريق المؤمنين، وفريق المشركين لا جهلا بمن هو الأحق بالأمن، وإنما لحمل المخاطب على أن يفكر ويصل عن طريق تفكيره إلى تعيين الفريق الآمن فيكون ذلك أوقع فى أنفسهم مما لو قيل لهم: أنتم الذين لا أمن لكم، ويسمى علماء البلاغة هذا الأسلوب (الكلام المنصف) وهو فن من فنون أساليب الدعوة، فيها حكمة بليغة وتليين للنفوس، واستمالة للقلوب إلى الحق والصواب ثم الاهتداء إلى سواء السبيل.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تهييج وإلهاب لمشاعرهم يساعدهم على التغلب على العناد، والميل إلى سماع صوت الدعاة والمصلحين.

* وحذف معمول (**تعلمون**) لموافقة الفواصل من جهة، ولقصد التعميم. أى كل ما يستطاع من معلوم نافع أو القصد تحقق العلم فى نفسه: أى إذا كنتم علماء.

* * *

١٧ - ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ؛ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً، وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللهُ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية حكت عن قوم أنهم قالوا: **(ما أنزل الله على بشر من شىء)** ولم يُعيِّن القرآن من هم القائلون، وفى غير هذه السورة نجد هذه العبارة فى سورة (يس) منسوبة إلى أصحاب القرية. وفى سورة (المؤمنون) نجدها منسوبة لقوم بعد قوم نوح عليه السلام.

لذلك اختلف المفسرون حول قائل هذه العبارة هنا هل هم مشركو العرب. وهذا هو الراجح عندهم. أم هم قوم من اليهود؟ وهذا مرجوح.

لكن نظم الآية فى الرد يقوى أن قائله هم اليهود لا مشركو العرب، ولا النصارى؛ لأن ذكر التوراة وجعلها قراطيس وإبداء بعضها وإخفاء بعضها هذا عمل اليهود لا عمل مشركى العرب، ولا عمل النصارى والأصوب أن يراد بالقائل هنا مشركو العرب واليهود معا، لا مشركو العرب وحدهم، ولا اليهود وحدهم، لأن الآية اشتملت على أوصاف للفريقين. ولا يقال: كيف يقول اليهود هذا القول وبين أيديهم التوراة أنزلها الله على موسى وهو بشر فاليهود لا يستغرب منهم القول بالنقيض والنقيض فى وقت واحد. والآية صريحة فى الاحتجاج عليهم بالتوراة التى أنزلها الله على بشر. فاليهود لهم ضلاعة مع مشركى العرب فى ترويج هذه المقولة. وهم مستعدون - فى كل وقت - أن يقولوا ما لا يقوله عاقل فى سبيل القضاء على الإسلام أو التشكيك فيه.

أما ما يختص بمشركى العرب من الأوصاف فى الآية فهو قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ﴾ لأن هذا الوصف لاينطبق على اليهود لسبق رسالات الله إليهم ووجود كتب أنبيائهم بأيديهم.

أما لماذا جمع القرآن بينهم فى خطاب واحد. فله تفسيران:

الأول: إما على الطريقة التى أشرنا إليها من قبل من التعويل على قرائن الأحوال وعمل العقل، حيث يميز بين المعنى والمراد وصفه به بمعونة القرائن، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فالخطاب الأول للأزواج، والخطاب الثانى لأولياء أمور النساء. وهذه الطريقة كثيرة الورود فى القرآن وتطبيقها على آيتنا هذه ميسور كما تقدم، فجعل التوراة قراطيس مع الإبداء والإخفاء عمل اليهود، والعلم بما لم يكن معلوما للمخاطبين ولا لآبائهم من قبلهم قبل نزول القرآن، وبعد نزول القرآن أوصاف خاصة بمشركى العرب.

الثانى: أما التفسير الثانى لجمع القرآن العرب واليهود فى خطاب واحد فعلى اعتبار أنهم فرقة واحدة جمع بينهم الجهل والضلال والعناد. فأُسقطت خواص «الجنس» وحلَّت محلها خواص الزيغ عن الحق.

أما المراد من الاستفهام ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فخلاصة ما قيل فيه عند الأئمة أنه استفهام تقرير. تقرير ما أنكره القائلون: **(ما أنزل الله على بشر من شىء).**

يعنى: أن الله أنزل التوراة على موسى، وموسى بشر. فالله - إذاً - أنزل على البشر شيئا. بل أشياء. وبذلك أبطلت الآية تلك المزاعم التى تفوهوا بها. ويجوز حمل الاستفهام على الإفحام.

أسرار النظم وبلاغياته:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ - **(ما أنزل الله ..)** جريمة قولية شنيعة **(وما قدروا الله حق قدره)** حكم على مرتكب تلك الجريمة. والظاهر كان أن يقال: **(إذ قالوا..)** ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ بتقديم موجب الحكم على الحكم نفسه. لكنّ هذا «التعكيس» كان - فيما نرى - لشناعة الحكم وغرابته والاهتمام به وشد الانتباه إليه والتشويق لمعرفة موجبه، وهو **(ما أنزل الله على بشر من شىء).**

وزيادة (من) قبل المفعول (..شىء) لإفادة استغـراق النفى. وهذا من زيادة التشنيع عليهم، حيث عمموا إنكارهم لأن يكون الله أنزل على أى بشر أى شىء؟

(قل من أنزل الكتاب..) رسالة خاصة، ومواجهة ضرورية وفورية أمر الله بها رسوله بقوله: **(قل من أنزل الكتاب)** وفى **(نوراً)** استعارة أصلية شبـه فيها العلم بالنور بجامع الهداية فى كل، ثم فى الإخبار بـ **(هدى)** وهو مصدر مبـالغة فى وصف التوراة التى أنزلت على موسى بالهداية وحسن التوجيه، وعطف هدى على نور من عطف المسبب على السبب؛ لأن النور سبب فى الهداية.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا..﴾ إيجـاز بحـذف الفـاعل وبناء الفـعل فى **(علمتم)** للمفعول. وهو كناية عما جاء به القرآن من علوم ومعارف صاروا بعدها (علماء) بعد أن كانوا أميين، وهو خبر مستعمل فى الامتنان عليهم مع جحد النعمة من قِبَلِهِمْ.

﴿قُلِ اللَّهُ..﴾ هذا جواب الاستفهـام المجازى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ وكان الأصل أن لايذكر له جواب، وسبب ذكره هنا - كـما تقدم مرات. أن الخيال ليس له مجال فى تصويره لأنه من حقائق الإيمان.

﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الخوض هو السيـر فى الماء. شبه به اعتـقادهم وسلوكهم الباطل المؤدى إلى الهلاك. بجامع التعرض للخطر والضرر فى كل.

وشبـه عملهم فى قلة جـدواه باللعب، الذى لايكون - عـادة - إلا من الأطفال، نعيا عليهم، ورميا لهم بقلة الفهم والإدراك.

* * *

١٨ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّنِ افْتَـرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَـالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَـا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ، وَالمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

[الأنعام: ٩٣].

الدراسة والتحليل:

عدَّدَتْ هذه الآية نماذج من صور الكفر:

افتـراء الكذب على الله. إدعاء النبـوة. الزعم بمحاكاة الـقرآن، وكلها من أعـمال الكفر. والاستفـهام الذى صُدِّرت به الآية **(ومن أظلم)** للإنكار أو النفى: أى لا أحـد أظلم أى أشد ظلماً من هذه الأصناف.

وكنا قد عالجنا فى ما تقدم ما أثيـر حول هذه الصورة من الاستفهام **(من أظلم)** ما شاع فى كتب التفسير من أن فيها «مشكلة» ، لأن هذه الصورة وردت فى القرآن ست عشـرة مرة - كما تقـدم ذلك تفصيلاً. وكـان ينبغى أن لا تأتى إلا مرة واحـدة حتى يسلم أفعل التفضيل الذى فيها من الاعتراض.

ناقشنا هذا من قـبل. وأثبتنا أن المشكلة، التى توهموها لا وجـود لها أصلاً: لأن أفعل التفضيل **(من أظلم)** فى جمـيع مواضع ورودها فى القرآن تتـحدث عن **(أظلم)** واحد لا اثنين ولا ستة عشـر. وإنما تكرر الحديث (١٦ مرة) عن ذلك الأظلم الواحد بسبب تكرار صفاته التى أقتضـى تكرارها مقام الحديث. ولا داعى - هنا - لإعادة ما قلنا من قبل [١].

أسرار النظم وبلاغياته

قُدِّم افتراء الكذب على الله لأنه أشنع أنواع الكفـر، وقُدِّم ادعاء النبوة على الزعم بمحاكاة القرآن؛ لأنهـا نوع من افتراء الكذب على الله . . . ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ

(١) انظر (١/ ٢٨٠) من هذه الدراسة.

فِى غَمَرَاتِ المَوْتِ. .﴾ أسلوب تهويلى للرؤية المحذوف جواب (لو) معها. إشارة إلى أن اللغة تضيق عن تصويرها لشناعتها. وفى (**غمرات**) استعارة؛ لأن الغمر يكون بالماء حتى يغيب المغمور فيه، ولما كانت شدة وطأة الموت تُغَيِّبُ وعى المحتضر استعير غمر الماء لغياب وعى من حضرته الوفاة استعارة محسوس لمعقول. . وهذه الاستعارة توحى بما هو أخطر من الموت، وهو سوء المصير.

﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ فعل الأمر (**أخرجوا**) للإهانة والتحسير، حيث تأمرهم الملائكة، بإخراج أرواحهم من أجسادهم، وكفى بذلك حسرة وندما.

﴿اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ خبر المراد منه التيئيس والتشئيم.

وإيثار المضارع (**تقولون**) - و (**تستكبرون**) لاستحضار صورة الحدثين اللذين كانا سبباً فى سوء مصيرهم ليقفوا على ما جنت أنفسهم ويعلموا فساد ما كانوا فيه من قول وعمل. وفى (**تستكبرون**) فوق ما تقدم توافق الفواصل. حيث كانت الفاصلة قبلها (**يحافظون**) وجاءت الفاصلة بعدها (**تزعمون**) وتوافق الفواصل فى آيات القرآن هى السمة الغالبة فيه لتيسيره للذكر والتدبر.

* * *

١٩ - ﴿بَدِيعُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٠١].

الدراسة والتحليل:

فى بعض الآيات التى تقدمت حكى القرآن ما قاله المشركون من نسبة الولد إلى الله - سبحانه - فجاءت هذه الآية لتبطل تلك الدعاوى الفارغة بالطريق البرهانى المزيل لكل شبهة. فبدأت الآية بالثناء على الله ذى الملك والملكوت:

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، أى موجدهما - بقدرته - من العدم فهو الغنى القادر. وفى هذا توطئة لنفى نسبة الولد إليه، لأن الولد يحتاج إليه المحتاج إليه ليكون له عونا. ومالك الملك غنى بذاته. فما الذى يدعوه إلى الافتقار إلى غيره؟

ثم قال: (**أنى يكون له ولد**) أى كيف ولأى حال يكون له ولد؟ أو من أين يكون

له؟ ثم أكد هذا الإنكار بما ثبت من تنزيهه عن اتخاذ الصاحبة (الزوجة) وما عُلِمَ عقلاً ولا نقلا أن الولادة تحدث من غير «أم».

وسادتنا المفسرون مرُّوا على هذا الاستفهام مراً خفيفاً، فلم يقولوا- مثلاً - المراد منه كذا. وربما كان ما قالوه فى مثله من قبل قد أزهدهم فى إعادته هنا. ولكن تحليل الغالبية منهم لنظم الجملة يفيد أنهم يرون أن هذا الاستفهام للاستحالة..

حيث تكرر لفظ الاستحالة فى هذا الموضع. والاستحالة مثل الإنكار وإن كانت للنفى أقطع من الإنكار.

وهذا أول موضع نسمع منهم فيه مصطلح «الاستحالة» غرضاً من أغراض الإستفهام المجازى فى آيات الذكر الحكيم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بديع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو بديع... أو مبتدأ خبره (**أنى يكون له ولد**) وعلى كلٍ ففى العبارة إيجاز بالحذف، وإيثار (**بديع**) فى هذه الآية ونظيرتها فى سورة البقرة آية [١١٧] على (خالق) لأن (بديع) صفة مشبهة باسم الفاعل فالوصف بها متمكن أمكن لا ينقطع. فإذا قيل ما معنى استمرار الوصف هنا وقد بَدَعهما من قديم؟ فالجواب أن حفظهما وإمساكهما أن تزولا، ينزل منزلة إبداعهما لأول مرة. كما قال عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ، وَلَإِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَد مِّن بَعْدِه، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

* ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُن لَّه صَاحِبَةٌ﴾ غوير بين الفعلين (يكون) و (تكن) فجاء الأول مضارعاً فى اللفظ والمعنى (**يكون**) والمراد نفى ذلك الكون فى جميع الأزمان.

وجاء الثانى (**لم تكن**) مضارعا فى اللفظ، ماضياً فى المعنى. لأن الثانى سبب فى الأول. فإذا انتفى السبب انتفى المسبب. ولم يقع الثانى (**ولم تكن له صاحبة**) فى حيز

الاستفهـام الإنكارى، لأن المشركين لم يدَّعُوا له صاحبـة. وتقديم الجار والمجرور فى الجملتين، وهما خبران، على اسمى كان: (ولد - صاحبة) لإفادة القصر به.

أى أنى يكون له ولد لا غـيـره. ولم تـكن له صـاحـبـة لا غيـره فـنفى الولدية والصاحـبية مقـصور على اللّه عز وجل وتنكيـر (ولد) و (صاحبة) تأكـيد للنفى لأن المنفى لا يكون معروفاً.

* ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ معطوف على (بديع) لما فـيه من معنى الايجـاد، عطف عام على خـاص، لدفع توهم أن خلق مـا عدا السـمـوات والأرض ليس للّه. وهذه الجـملة من أثرى صـور الإيجاز الـقصـرى. لأن الكون كله بما فـيـه من أجناس المخلوقات وأنواعها وأفرادها مندرج تحت مدلول هذه الجملة.

* ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله، وهو فى الإيجاز مثل **(وخلق كل شىء)** وفيه احتراس بديع، لرفع ما قد يتوهم من أن كثرة المخلوقات قد يترتب عليـها عدم تعلق علم اللّه بهـا. ويدخل فى معنى الاحتراس بوجـه خاص الصفة المشبهة باسم الفاعل (عليم) للدلالة على أن علمـه بشئون مخلوقاته - مهما كثرت - علم وثيق لا يعذب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

* * *

٢٠ - ﴿وأَقْسَـمُوا بالله جَهْـدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ جَـاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهـا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تضـمنت حكاية دعوى ادعـاها المشـركون. ثم رداً من اللّه على لسـان رسوله الكريم على تلك الدعوى. ثم خطاباً موجهاً لجـماعة المؤمنين تعقيباً على تلك الدعوى فى صورة استفهام والدعوى المحكية عن المشركين هى:

﴿وأَقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾.

وأما الرد عليها فهو: ﴿قُلْ إِنَّما الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾.

وأما التعقيب على الدعوى فهو الخطاب المشتمل على الاستفهام.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وقد ظهر للمفسرين - وغيرهم - إشكال فى هذا التعقيب حاصله:

أن حرف النفى (لا) المسلط على الفعل **(يؤمنون)** كان الأصل أن لا يكون؛ ليكون المعنى: وما يشعركم أنهم عند مجيء الآيات يؤمنون. ولكن لما اشتمل نظم الآية على حرف النفى مسلطاً على فعل الإيمان هكذا **(لا يؤمنون)** ظهر الإشكال فى المعنى؛ لأن نفى الإيمان يصبح مترتباً على مجى ء الآيات، وهذا غير مراد؛ لأن من شأن الآيات - المعجزات - أن تولد الإيمان فى القلوب، لا عدم الإيمان؟

ومن أجل ظهور هذا الإشكال أكثر المفسرون واللغويون الكلام فى البحث عن مخرج يزول به الإشكال. وذكر ما قالوه - هنا - يخرج بنا عن الاعتدال والتوسط الذى ألتزمناه فى هذه الدراسة. لطول ما قالوه، حتى سماحة الشيخ ابن عاشور أطال كما أطالوا رافضا ما قالوه. ومع هذا فإن محاولاته للخروج من هذا «المأزق» باءت - فيما نرى - بالفشل[1].

لذلك نستهدى باللّه فى ما هدينا إليه فنقول:

لا إشكال فى المعنى مع وجود حرف النفى (لا) نافياً لفعل الإيمان **(يؤمنون)**، هذا يتضح لنا من النظر الآتى:

أولاً: الخطاب فى قوله عز وجل: **(وما يشعركم)** لجماعة المؤمنين، وينبغى أن لا يُنازع فى هذا لأنه من المستحيل أن يكون للمشركين. لأن النظم التزم التحدث عنهم بضمير الغائب: **(أقسموا - أيمانهم - انهم - جاءتهم - ليؤمنن)** ثم قوله بعد النفى: **(لا يؤمنون)**. وكون الخطاب فى **(وما يشعركم)** لجماعة المؤمنين هو المدخل الصحيح لنفى الإشكال أصلاً.

وذلك لأن المشركين لما أقسموا ذلك القسم شاع أمره بين المؤمنين، ومن المسلَّم به أن شعوراً حدث عندهم بأن اللّه تعالى سيريهم معجزة على يد رسوله الكريم الذى ما بعث الا هادياً إلى صراط اللّه القويم فلما نزلت هذه الآية وفيها:

---

(١) ينظر التحرير والتنوير: (٧/ ٤٣٤ - ٤٤٠).

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ فإن شعوراً آخر حدث عند جماعة المؤمنين يتساءل عن وجه الحكمة فى إمساك اللّه معجزاته عنهم. وها هم قد بالغوا فى الأيمان على أن يؤمنوا إذا جاءتهم آية؟ هذا الشعور - فيما نرى - بل ونجزم - جعل النظم القرآنى يلتفت إلى المؤمنين ليزيل ما عندهم من تساؤل عسى أن يحدث لو توقف النظم عند: ﴿قُلْ إِنَّمَا الأَيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ التفت النظم القرآن إلى المؤمنين. وخاطبهم هذا الخطاب البليغ الحكيم **(وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون)** يعنى أن مجىء الآيات وعدم مجيئها سواء فى بقائهم على كفرهم هذا ما يعلمه الله - علام الغيوب - عنهم فلماذا يريهم آيات لن تجدى عندهم شيئا. وفى هذا إشارة إلى وجه الحكمة فى إمساك الآيات عنهم كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِها الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، فالنفى - كما ترى - فى قوله تعالى:

(.. **لا يؤمنون**) هو المتعين، ولا إشكال فى النظم. فما كان أغنى سادتنا العلماء من المفسرين واللغويين عن تلك المحاولات التى بذلوها لمعالجة الإشكال والتى وصفها العلامة ابن عاشور بأنها تكلفات والحق يقال: إن الإمام جار الله الزمخشرى قد أومأ من بعيد إلى ما هدانا اللّه إليه هنا، ولكنه لم يستقص. ولم يصب فى التعليل[1].

وفى أوائل سورة الأنعام - هذه - ورد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

وليس هذا تقصيرا فى حقيقة الدعوة. بل لأن القرآن العظيم هو معجزة الإيمان الكبرى، ومن لم يهتد إلى الايمان عن طريقها ، فلن تجد فيه معجزات أخرى. وفى هذا قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِّن رَّبِّهِ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

---

(١) ينظر الكشاف (٢/ ٤٤).

لذلك لم يلتفت اللّه إلى مطالبهم هذه؛ لأن طلب معجزة بعد معجزة القرآن أشبه ما يكون بلعب الأطفال.

هذا والاجماع قائم على أن هذا الاستفهام (وما يشعركم) للإنكار، أو النفى، وهذا هو أصوب ما يقال فيه. ورحم اللّه سادتنا العلماء على ما بذلوا من جهدٍ فى خدمة كتاب الله العزيز.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ عبارة قرآنية خالصة تفيد أن المقسم (اسم فاعل) بالغ فى القسم، ولم يأل فى توكيده وتكراره وتوثيقه، فهو كناية عن حرصهم الشديد فى الإقناع.
* ﴿جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ استعير المجىء لظهور الآية استعارة محسوس لمحسوس، لما فى المجىء من قصد الجائى وسعيه وفى إسناد المجىء إلى الآية مجاز عقلى لأن الذى يأتى بها ويظهرها هو اللّه تعالى. وسر هذا الإسناد إظهار الآية فى معرض العقلاء الحكماء. وتنكير آية للتعظيم كما يفهم من المقام.
* ﴿إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ قصر صفة مجىء الآيات على موصوف (اللّه) قصراً حقيقياً تحقيقياً وتصدير هذه الجملة بفعل الأمر (قل) لما تقدم مرات وهو أهمية (المقول) وفورية تبليغه.

* * *

٢١ - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً، والَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّك بِالْحَقِّ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

الدراسة والتحليل:

كثر جدال المشركين فى الدفاع عن معبوداتهم الباطلة وقدمت سورتنا هذه - سورة الأنعام - نماذج مختلفة من دفوعهم الساقطة، ليجدوا لهم مكانا ما فى ظل التوحيد الذى أشرقت شمسه بظهور الإسلام ولم تكن مواجهة الإسلام لدعاوى الشرك والمشركين قرع عصى، ولا طعنة رمح، ولا بترة سيف، بل كانت مواجهته أدلة

وبراهين قاطعة، يخاطب بها العقل، ويمتع بها العاطفة، ويهز بها المشاعر، ويثرى بها الوجدان.

وها هو ذا القرآن يواجه دعـوى من دعاويهم، وسلاحه فى هذه المواجـهة حروف تتألف منها كلمات، وكلمات تتكون منها جمل، وجمل يتألق منها بيان.

اللّه - واللّه وحده - هو الحكمُ فى هذا الوجـود كله وهذا ما أعلنه رسوله الكريم وحيا عن ربه:

(أفغير الله أبتغى حكما)؟ وهذا الاستـفهام للإنكار عند جميع الأئمة. والإنكار - كمـا نعلم نفى شديد، والمعنى: لا ابتـغى حكما إلا الله وقد يـضاف إلى هذا المعنى الرئيس معان أخرى كالتوبيخ والتسفيه، ومع هذا فـإن خلاصة ما يقال فيه أنه استفهام إنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أصل التركيب: أأبتغى غير اللّه حكمـا» «غير» مفعول (**ابتغى**) وقد قُـدِّم على عامله، لأن الإنكار ليس مـسلطاً على مطلق الابتـغاء، بل على ابتغـاء مخصوص هو المتـعلق بغير الله، لذلك قـدم ليلى حرف الإنكار وهو الهمزة.

وأوثر (**حكما**) على (حـاكم) لأن (حـاكم) وصف يطلق على من حكم ولو مـرة واحدة. أما (**حكما**) ففيه خصوصيتان من أجلهما آثره النظم القرآنى:

الخصوصية الأولى: رسوخ الوصف فى الموصوف ودوامه **والخصوصية الثانية**: العدل فى الأحكام. وهذا الوصف لا يتصف به حقيقة إلا الله، لعدله فى حكمه، ولرسوخ هذا الوصف فى الذات الآلهية ودوام حكم اللّه فى الوجود كله أزلاً وأبداً.

* ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ استئناف مسوق لتأكيد الإنكار. فاللّه له كتاب بسط فـيه أصول الحكم وفروعه. ومـا يدعون من دون اللّه ليس لهم شىء. بل هو وَهْم من أوهم الأوهام.

* ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ استئناف ثان لبيان شهادة الخصـوم بحقينة القرآن. وفى التـعبير بـ (**يعلمون**) دون (يؤمنون) تعـريض بأهل الكتاب الذين ظلوا على كـفرهم بالإسلام، مع علمـهم بأن القرآن منزل من

عند اللّه حقاً. بل يـعلمون تفاصيل تنزيله وأسبـاب نزوله. والذى أوحى لنا بهذه (المعانى) قوله تعالى (مُنَزَّل) ولم يقل: نزل نازل. وصيغة التفعيل (مُنَزَل) جيء بها للتناسب التـام بينها وبين (مفـصلاً) ولا نزاع أن عِلْمَ أهل الكتـاب بحقيـقة نزول القرآن لا يقتضى الإيمان به. وإن أمن به بعضهم، فجمهورهم لم يؤمن به، لذلك قال (يعلمون) ولم يقل (يؤمنون) ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبـله، والخطاب وإن كان موجـهاً إلى صـاحب الرسالة - صلى اللّه عـليه وسلم -. فإن المقصود به الأمة، والسر فى توجـيه الخطاب اليه، والمقصود غيره، تفـخيـماً لشـأن النهى، وليكون - صلى اللّه عليـه وسلم - قدوة للأمـة فى هذا المجال.

وفيه خصوصية أخرى حـاصلها أن اللّه تعالى إذا كان قد نهى رسوله عن الارتياب والشك فى حـقيـقة القـرآن. فإن مـن عداه من أفـراد الأمة، وهم دونه فى الفـضل والمنزلة، أولى منه بهذا النهى.

وأكد المضارع بنون التوكيد الشديدة إشارة إلى التشديد فى النهى لخطر المعنى المنهى عنه.

* * *

٢٢ - ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْـهِ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

الدراسة والتحليل:

سـبق هذه الآية قوله تعـالى: ﴿فَكُلُوا مِـمَّا ذُكِـرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْـهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. وهاتان الآيتان جـاءتا ضمن آيات تشريعـية مختـصة، بما يؤكل من ذوات الروح من الأنعـام، وكان المشـركـون يروجـون أفكارا تثـير شـبـهـات عند المسلمين ويقولون:

لِمَ نأكل مـا قتلناه - أى ذبحناه - نحـن، ولا نأكل ما قـتله الله - يعنى الميـتة - فوقعت كراهية فى نفوس بعض المؤمنين وتحرجوا من أكل ما يذبح مع ذكر اسم الله. فعالجت هاتان الآيتان هذه الظاهرة التى طرأت على حـياة بعض المؤمنين، فأمرهم الله تعالى فى الآية الأولى بالأكل مما ذكر اسم الله عليه.

وأنكرت عليهم الآية الثانية امتناعهم عن الأكل مما ذكر اسم الله عليه بعد أن فصَّل الله الحلال والحرام وحذَّرهم من الاغترار بما يقوله المشركون من تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم. مبينا لهم أن الله - وحده - هو العليم بالمعتدين الذين يتبعون الهوى فى كل ما يقولون. ويعرضون عن وحى الله الأمين.. ويخضعون لوحى الشياطين.

والمراد من الأستفهام عند الأئمة، هو النفى والإنكار أو العتاب. لأن امتناعهم عن الأكل مما ذكر اسم الله عليه كان تحرجا من أن يكون فيه شبهات مثلما كان يروِّج المشركون.

وقد سبق نظير هذا الاستفهام مرات. وكيفية دلالة هذا التركيب على النفى والإنكار أن فيه سؤالا عن سبب الامتناع عن الأكل المذكور. والسؤال عن هذا السبب كناية لطيفة عن عدم وجوده.. فترتب على هذين العملين وهما: السؤال فى نفسه وما يترتب عليه من جهالة المسؤول عنه. تلك الكناية اللطيفة التى أشرنا إليها. وهذا خلاصة ما يقال فى كل استفهام كانت الأداة فيه ما فى هذا التركيب: مالك، وبقية صوره اللفظية.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(وما لكم..)** أسلوب استفهام فيه تطرية وليونه فى الخطاب، من شأنه أن يتسلل إلى طوايا النفوس فى لطف ليمليها إلى الإذعان والطاعة. وهو أبلغ مما لو قيل: لماذا لم تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه. لما فى هذه العبارة من الصرامة والشدة. وقد علمنا فى التقديم لهذه الآية: أن المخاطبين مؤمنون مبالغون فى الطاعة. وما تركوا الأكل مما ذكر اسم الله عليه إلا خشية من الله. وهم بهذا يناسبهم - بلاغة - ليونة فى الخطاب، ورفق فى التوجيه.
* **(مما ذكر اسم الله)** لحظ المفسرون أن «مِنْ» فى «مما» والتى أصلها (من ما) تبعيضية، ثم التسموا وجها لتأويل الاقتصار على أكل البعض دون البعض الآخر. وقالوا إن الذى لايؤكل منه هو الذى يذبح تقربا للأصنام مع ذكرهم اسم الله. هذا ما قالوه. وفى المسألة توجيه آخر حاصله أن المذبوح مع ذكر اسم

الله عليه إنما يؤكل ماطاب منه للنفس، ويترك ما لم يطب كالعظام والجلود والأظافر وغيرها.

* وفى تعدية (**فصَّل**) بـ (**لكم**) لما فى التفصيل من نفع عائد على المخاطبين، أما تعدية (حرم) بـ (عليكم) فإنه لما فى التحريم إذا انتهك من ضرر يقع على المخاطبين فصُوِّر فى صورة حِمْل ثقيل ينوء به حامله.

* ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَيُضِلُّونَ﴾ تحذير للمؤمنين من الانقياد لأراجيف المشركين. وقد أكد الخبر بـ (إن) واللام تفخيما لشأن التحذير، وتنزيلا للمخاطبين منزلة من يعتقد صدق المشركين فيما روجوه من إشاعات لم ينزل الله بها من سلطان.

وفى إيثار المضارع (**يضلون**) على الماضى (**ضلوا**) إشارة إلى تعاقب ضلالهم حالاً فحالاً، وأنهم لم ولن يخلوا من الضلال الناشىء عن أهوائهم وجهلهم.

* ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله. وأكد الخبر فيه بـ (أن)- «واسمية الجملة. و(ضمير الفصل) تثبيتا لقلوب المؤمنين، وتأكيدا للإنكار بمعنى: أن الله وحده يجب أن يطاع لأنه-وحده-هو العليم بالمعتدى والمستقيم.

* * *

٢٣ - ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الأنعام: ١٢٢].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية تمثيل للكفر والإيمان، والضلال والهدى، والجهل والعلم، لأن الموت والحياة أو الإماتة والإحياء تضرب أمثالا لهذه المعانى المتقابلة فى آيات الذكر الحكيم، والآية تعقيب كاشف عن أحوال المؤمنين والكافرين الذين تعرضت لهم سورة الأنعام كثيرا قبل هذه الآية.

والاستفهام الذى استُهلت به الآية أجمع أهل الذكر على أنه لنفى المساواة بين الفريقين: المؤمنين والكافرين بمختلف ضلالاتهم وعماياتهم:

يقــول الإمام أبــو السعــود: «والهــمــزة - يعنى فى أوَ من كــان ميــتــا - للإنكار والنفى. . »[1].

وكذلك قال الألوسى: «والهمزة للإنكار. . »[2] وعبَّر أبو حيان عن نفى المساواة بين الفريقين بقــوله: «لايستوى من أخرج من الظلمــات ومن ترك فيها فكذلــك لايستوى المؤمن الذى يبــصــر الحق ويعــمل به والــكافــر الذى لايبــصــر» وعــزا هذا الكلام للماتريدى[3] ويقول ابن عاشور:

«والهمزة لإنكار تماثل الحالين»[4].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَوَمَن كَانَ مَـيْتًـا فَأَحْيَـيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْـشِي بِهِ فِي النَّـاسِ﴾ فـى ميـتـا واحيــيناه استعــارتان تصريحيــتان، أولاهما «ميــتا» فقــد اســتعيــر الموت للجهل أو الضلال أو الكفر، بوقوع التشبيه أولاً بين المصدرين: وهما الكفـر والموت ثم اشتق من الموت (ميتا) بمعنى «كافر» كمــا استعير الإحيــاء للإيمــان ثــم اشــتق منــه **(أحيينا)** بمعنى هديناه للإيمان، والعلاقة فى الأولى «انعدام النفع، وفــى الثانية حصول المنافع على كمالها فى كل منهما. والمـراد هو بيان حال من كان كافرا فأسلم.

والجمع بين **(ميتا - أحيينا)** طباق إيجــاب، ويتولد عن هاتين الاستعــارتين كنايتان إحداهمــا ذم الكفر والتنفير منه، والأخــرى: مدح الإيمان والترغيب فــيه وفى **(نوراً)** استعارة للعلم الذى جــاء به الوحى فأوضح معالم التكليف، وهى استعــارة تصريحية أصلية والعلاقة بين طرفيها هى كمال الاهتداء وتنكير **(نوراً)** للتفخيم والتعظيم. وقوله **(يمشــى به فى الــناس)** ترشيح للاســتعــارة لأنه من ملائمــات المشبه به. وفى التــعبــير بالمضارع **(يمشى)** إشارة إلى تتابع هذه النعمة وعميم أثرها.

* ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الكاف حرف تشبيه، (ومَنْ) مشبه به، أما المشبه فهو مجموع **(من كان ميتا فأحييناه)** وهذا التشبيه من النوع الذى أطلقنا

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ١٨٠).

(٢) روح المعانى: (٨/ ١٨).

(٣) البحر المحيط (٤/ ٢١٤).

(٤) التحرير والتنوير: (٨/ ٤٣).

عليه مصطلح (التشبيه السلبى) فى دراسة أخرى[1] وضابطه أن يكون وجه الشبه منفيا بين الطرفين ويكون التشبيه السلبى رداً على من اعتقد مماثلة بين أمرين ولا وجود لتلك المماثلة. فيأتى التشبيه السلبى لنفى المماثلة، المدعاة. وهو كثير فى القرآن الكريم ومنه ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [مريم:٣٦].

وقد فصلنا القول فى هذا التشبيه وأوردنا صوراً كثيرة مما جاء منه فى القرآن فى الدراسة المشار إليها بالهامش.

و(**مثله**) أى صفته العجيبة التى هو عليها، و(**الظلمات**) استعارة تصريحية أصلية، استعيرت للجهل والضلال والكفر بجامع عدم الإدراك فى كل و﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كناية عن دوام تلك النقمة التى أحل الكافر فيها نفسه بإصراره على كفره. وإذا قابلنا بين هاتين العبارتين (**يمشى به فى الناس**) و(**ليس بخارج منها**) ظهر لنا معنى دقيق بديع للغاية ذلك المعنى البديع أن الخيال يصور لنا المؤمن المهتدى بهدى الله صورة جميلة رائعة: إنسان يحمل فى يده نورا صافيا يتنقل به فى كل مكان مع أمنه على نفسه وتحقيق مآربه فى أرض الله الواسعة. منشرح الصدر باسم الثغر.

أما الكافر فيصوره الخيال محبوسا فى مكان تحيط به فيه الظلمات من كل جهة، ضيقة أنفاسه كالح وجهه منقبض صدره، وزيادة حرف (لفظا) وهو الباء فى خبر ليس (**بخارج**) لزيادة فى المعنى هى تأكيد عدم الخروج من ذلك «السِّجن» الذى حبس الكافر فيه كفرُه. وأحاطت به خطيئته.

* ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كثير من المفسرين المولعين بالتفسير البلاغى للنظم القرآنى الحكيم، قالوا إن هذه العبارة (**كذلك..**) استئناف بيانى. وهذا فهم طيب. وقد عرفنا من قبل مرات أن الاستئناف البيانى إنما هو إجابة على سؤال مقدر (ملحوظ ذهنيا) نشأ عن الكلام السابق. ونريد من جانبنا أن نوضح منشأ هذا السؤال الملحوظ من الكلام السابق، فنقول: إن منشأ هذا السؤال هو قوله تعالى: (**ليس بخارج منها**) والتعبير باسم الفاعل (**خارج**) يدل أن البقاء فى هذه

---

(١) هى رسالتنا لنيل درجة «الدكتوراه فى البلاغة والنقد وعنوانها: خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية» مكتبة وهبة.

الظلمات باختيار الباقى فيها. فينشأ هنا سؤال حاصله: وكيف يرضى عاقل لنفسه أن يظل فى هذا الجو الخانق ولا يحاول الهروب منه؟ فكان الجواب:

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ..﴾ أى أنهم بقوا فى هذه الظلمات لفساد فطرتهم التى أرتهم السيء حسنا، والقبيح جميلا، وفقدوا القدرة على التمييز بين المنافع والمضار، لما أفسدوا فطرتهم بالكفر والمعاصى وللناس فيما يعشقون مذاهب كما قال الشاعر الحكيم.

وفى هذا التشبيه **(كذلك زين)** دقة جعلت بعض المفسرين يذهبون فيه مذهب تشبيه الشيء بنفسه، منهم الإمام أبو السعود، وسماحة الطاهربن عاشور. حيث قالوا: إن المشبه والمشبه به هو المصدر المفهوم من الفعل (زُيِّن) المذكور بعد اسم الإشارة **(كذلك)** أى مثل ذلك التزيين العجيب، وهو بقاء الكافر فى الظلمات، زينا للكافرين أعمالهم والسبب فى هذا التأويل عدم وجود مشار إليه قبل اسم الإشارة يصلح أن يكون طرف تشبيه ويلتمس ابن عاشور نكتة بلاغية فيقول: لغرابة هذا التزيين لم يُعثَر له على شبيه يُشبَّه به إلا هو نفسه، ويستدل على هذا بقول العرب:

(والسفاهة كاسمها). وهذا - فيما نرى - تأويل اضطرارى لعدم توفر طرفى التشبيه فى النظم من حيث اللفظ الظاهر.

وفى نظرنا أنه يمكن الاستغناء عن هذا التأويل وتخريج النظم على محامل أخرى:

- منها أن يكون المشار إليه هو **(ليس بخارج منها)** وهو يقع قبل اسم الإشارة مباشرة، ويكون هو المشبه به فى المعنى. أما المشبه فهو المصدر المفهوم من الفعل (زُيِّن) ويكون المعنى هكذا: مِثْل ما زُين لهؤلاء بقاؤهم فى الظلمات زُيِّن للكافرين جميعًا اعمالهم أى: أن المشبه به خاص. والمشبه عام فى جميع الكافرين. ومنها أن يكون المشبه به المشار إليه بـ(كذلك) هو ما قُصَّ فى السورة من قبل من أحوال الكفار وجدالهم عن كفرهم. ويكون المشبه هو تزيين بقاء المتحدث عنهم فى الظلمات وتُزيين كل ما يعملون. وبناء الفعل (زُيِّن) للمجهول لتكثير الفائدة من جهة، إذ يُفَسَّرُ بأن الفاعل هو الله حقيقة، أو الشياطين مجازا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن المعوَّل عليه هو حصول التزيين فى نفسه. أيا كان فاعله. هذا والحديث

فى هذا التشبيه عن الكفار الذين بقوا على كفرهم وأعرضوا عن الحق بعد ما لاحت لهم علاماته.

بين التمثيل والاستعارة

سرنا فى تحليلنا لنظم الآية على تجزئة الصور المجازية:

الكفر هو الظلمات - والموت هو الضلال، والنور هو العلم، والإحياء هو الإيمان. أى تشبيه كل معنى بما يناسبه على سبيل الاستعارة المفردة. وفى المسألة توجيهات بلاغية أخرى. فالقطب الرازى فى شرح الكشاف اعتبر ما فى الآية من باب التشبيه التمثيلى الذى تظل فيه الألفاظ على حقيقتها ويرى سعد الدين التفتازانى أنهما استعارتان مركبتان (تمثيليتان) وعلى هذا يكون طرفا التشبيه السلبى فى هذه الآية مجازيين ولا مشاحة فى هذا. وقد مهّد له الإمام الألوسى بقوله:

أيكون الأسد كالثعلب، فالأسد مجاز فى الرجل الشجاع (استعارة) والثعلب مجاز فى الرجل الجبان (استعارة أخرى) وهما فى الوقت نفسه طرفا تشبيه سلبى: الأسد مشبه، والثعلب مشبه به. والمراد نفى المساواة بين هذين الطرفين.

* * *

٢٤ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

الدراسة والتحليل:

هذا مشهد من مشاهد الآخرة يوقِّف الله فيه المجرمين من الجن والإنس على سيئات أعمالهم فى الدنيا، وقد حشروا لا حول ولا طول لهم، ويعترفون طواعية بذنوبهم التى حُشرتْ معهم. ويسألهم ربهم سؤال تحسير وتوبيخ: ألم تأتكم رسلى فى الدنيا وتبلغكم كلامى وتنذركم لقائى فى هذا اليوم العصيب؟

وهذا الاستفهام عند الأئمة للتقرير، وقد بدأ الزمخشرى القول فيه:

«الهمزة الداخلة على نفى إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريراً لهم»[1].

---

(١) الكشاف: (٢/٥١).

يعنى: أن الهمـزة للنفى، ولما دخلت عل نفى (لم) نفت ذلك النفى فـعاد الكلام إثباتا؛ لأن نفى النفى إثبات وكلام أبى السعود غير صريح لكن يفهم منه أن الاستفهام للتقريع والتوبيخ الناشئين عن التقرير[1]. وأبو حيان يوجز هكذا: «والاستفهام للتوبيخ والتقريع»[2].

وكذلك صنع ابن عاشور حيث قال: إن الاستفهام فى (**ألم يأتكم**) تقريرى[3].

والخلاصة: أن هذا الاستـفهام المـراد به أصلا هو التقـرير ويتبع هذا الأصل مـعان مردوفة، وقد نص علـيها بعضهم وهى: التقريـع والتوبيخ، ويضاف إليهما التـحسير فيما نرى.

أسرار النظم وبلاغياته

* ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ نداء تخويف وترهـيب. ونودوا نداء واحدًا (**يا معشر**) لموالاة بعضـهم بعضا فى الحيـاة الدنيا كما جـاء فى الآية التى قبل آيتنا هذه. وفى تقديم الجن على الإنس لأنهم أكثر غواية.
* ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ تنكير «رسل» للتعظيم والتكثير.
* ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْـكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يقصون.. كناية عن تبليغ ما أنزل الله، وإيثار (**عليكم**) دون (**لكم**) إشـارة إلى الالزام بما جـاءت به الرسل، و(**لقاء يومكم**) كناية عن يوم القـيامة. وإيثـار اسم الإشارة (**هذا**) الموضوع للقريب للدلالة على إحاطة اليوم بهم وتلبسهم به.
* ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ أوثر الماضى (**شهدنا**) للدلالة على أنهم جزمـوا بأنهم كانوا ضالين لما عاينوا قوارع الحق بقلوبهم وأبصارهم.
* (**وغرتهم الحياة الدنيا**) اعتراض كاشف لسبب ضـلالهم وسوء مصيرهم، وفى إسناد (**غرتهم**) إلى الحياة الدنيا مجاز عقلى علاقته السببية.

﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ استئناف مبين لكيفية شهادتهم على

---

(١) تفسير أبى السعود (٣/ ١٨٦).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٢٢).

(٣) التحرير والتنوير: (٨/ ٧٤).

أنفسهم. وتوكيد الخبر فى (**أنهم كانوا كافرين**) بـ (أن) واسمية الجملة إشارة إلى تيقنهم من كفرهم، والتسجيل عليهم بهذه المقابح التى حذرتهم منها الرسل، وكانوا فى فسحة من الأجل، فلم يقيموا لتوجيهات الرسل وزنا حتى ماتوا وهم كافرون.

* * *

٢٥ - ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ، نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

[الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

الدراسة والتحليل:

هاتان الآيتان جاءتا للرد على مزاعم المشركين وتكذيبهم فيما حرَّموا وحلّلُوا من الأنعام من عند أنفسهم، ولم يكن لهم فى هذا (التشريع الجاهل) من علل وجيهة إلا اتباع الهوى وتزيين الشيطان وكانت سورة الأنعام (هذه) قد حكت عنهم نماذج مماحرموا وحللوا قبل هاتين الآيتين مباشرة[١] وقد ورد فى الآيتين ثمانية أساليب استفهامية ثلاثة فى الأولى وهى:

(آلذكرين حرَّم - أم الأنثيين - أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين)؟

وخمسة فى الآية الثانية، وهى:

(آلذكرين حرَّم - أم الانثيين - أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين - أم كنتم شهداء - فمن أظلم). وهذه الاستفهامات الثمانية اشتركت فى الدلالة المجازية فى معنى واحد ينتظمها جميعا مع إضافات لمعان أخرى تولدت عن ذلك المعنى «الأم» وهى تختلف فى بعض الصور أحيانًا.

فالمعنى العام الذى ينتظمها جميعا هو الإنكار بإجماع المفسرين والبلاغيين[٢].

---

(١) الآيات (١٣٨، ١٣٩، ١٤٠).

(٢) الكشاف (٢/ ٥٩) أبو السعود (٣/ ١٩٢) روح المعانى (٨/ ٨١) البحر المحيط (٤/ ٢٣٩) دلائل الإعجاز (٩٠) ط. رشيد رضا. التحرير والتنوير (٨/ ١٣٢) تفسير المنار (٨/ ١٢٤).

فالاستفهامات السّتة الأولى يتولد عن الإنكار فيها التكذيب والتوبيخ.

أما الاستفهام السابع **(أم كنتم شهداء)** فالسائغ فيه أن يكون للنفى لا للإنكار؛ لأنهم لم يدعوا شهود هذا الإيصاء من الله لهم، ويكون المعنى المتولد عن هذا النفى هو التوبيخ أما الاستفهام الثامن **(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا)** فهو للنفى. والمعنى الذى يردف عليه - فيما نرى - هو التكبيت والتحسير، يجعلهم أظلم الظالمين وأطغى الطغاة.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذه الاستفهامات الثمانية، اكتفينا بعرضها فى هذا الايجاز لطول كلام أهل العلم فيها من سادتنا المفسرين، مع ما فى ما قالوه من تفريعات وتداخلات لو ذكرناها لأثقلنا على القارئ، وقد ندفعه إلى الملل، ومن أراد الرجوع إلى مصنفاتهم فقد يسرنا له تلك المهمة بالإشارة المذكورة فى الهوامش.

ومع هذا فإننا آثرنا أن ننقل كلاما نفيسا للإمام جار الله الزمخشرى فى معنى الآيتين سلك فيه مسلك التوسط بين الإيجاز والإطناب. قال رحمه الله: «الهمزة فى **(آلذكرين)** للإنكار، والمراد بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز، والأنثيين: الأنثى من الضأن والأنثى من المعز. . . والمعنى: إنكار أن يحرم الله تعالى من جنسى الغنم ضأنها ومعزها شيئا من نوعى ذكورها وإناثها، ولا مما تحمل إناث الجنسين، وكذلك الذكران من جنس الإبل والبقر، والأنثيان منهما، وما تحمل إناثهما، وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً وإناثًا ومختلطة تارة. وكانوا يقولون قد حرمها الله، فأنكر ذلك عليهم.

(نبئونى بعلم) أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتم. . **(أم كنتم شهداء)** بل أكنتم شهداء، ومعنى الهمزة الإنكار، يعنى: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم. وذكر المشاهدة على مذهبهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول، وهم يقولون الله حرَّم هذا الذى نحرمه، فتهكم بهم فى قوله: **(أم كنتم شهداء)** على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرسل».

يعنى أن هؤلاء المشركين ادعوا أن الله حرَّم ما حرموه هم: أى أعلمهم الله بتحريمه

ما حرَّموه. ومحال - جدلا - أن يكون رسول ما من رسل الله أخبرهم بهذا التحريم عن الله. لأنهم لم يؤمنوا بالرسل. فلم يبق لهم طريق لمعرفة هذا التحريم عن الله إلا أن يكونوا شاهدوا هم الله حين أوصاهم بهذا. وهذا أكذب الكذب.

أسرار النظم وبلاغياته:

للنظم فى هاتين الآيتين مرام دقيقة، وإيماءات رائعة، وتطويق محكم للخصم، لتبوير حججه وتكذيب مزاعمه. وطابع الإيجاز الذى تتسم به هذه الدراسة يأبى علينا الاسترسال فى تتبع كل ما احتوى عليه النظم الحكيم من الدقائق والأسرار. لذلك آثرنا أن نغترف ولا ننزح. ومن تلك الأسرار والدقائق ما يأتى:

* الإجمال والتفصيل فى (**ثمانية أزواج**) هذا هو الإجمال أما التفصيل فقد بدأ من قوله: (**من الضأن اثنين ومن المعز اثنين**) ثم: (**ومن الإبلِ اثنين، ومن البقر اثنين**) ولما كانت هاتان الآيتان قد نزلتا لإبطال مدعيات المشركين فى التحريم والتحليل اللذين أحدثوهما فى مجال ما يؤكل من الأنعام كان هذا الإجمال والتفصيل تمهيدًا لتطويق تلك المزاعم بواسطة ما أورد عليها النظم من استفهامات. وهى طريقة بارعة فى جدل الخصوم. حيث حصرت أنواع الأنعام ذكورها وإناثها. ثم كرَّ عليها فى صورة استفهامات إنكارية وُوجه بها الخصم صورة إثر صورة، حيث لم يترك للخصم منفذا ينجو منه.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ كان المشركون يحرمون الذكور حينا، والإناث حينا. وما فى بطون الإناث من ذكور وإناث حينا آخر، ويدعون أن الله حرَّم ما حرموا. فجاءت هذه الاستفهامات ناسفة لدعاويهم هكذا:

أىُّ هذه الأنواع حرمه الله. أحرم ذَكَرى الضأن والمعز (الكبش والتيس)؟ أم حرم أنثييهما (الشاة والعنز) أم حرم ما تحمل هذه الإناث فى أرحامها؟ والمراد من هذه الإنكارات إنكار التحريم المذكور من الأساس، وكان الأصل أن يقع الإنكار على التحريم مباشرة لأنه هو المنكر دون الذوات الواقع عليها فلما أنكر التحريم المذكور فى

نفسه خـرجت الذوات (الذكور والإناث) من دائرة التحـريم إلى دائرة التحليل. وفى العدول عن هذا الأصل يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى: «أُخرج اللفظ مخرجه: إذا كان قـد ثبت تحـريم فى أحد أشـياء ثم أريد مـعرفـة عين المحـرم مع أن المراد إنكار التحـريم من أصله ونفى أن يكون قد حُـرِّمَ شىء مما ذكروا أنه محـرم و ذلك أن كان الكلام وضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ثم يقال لهم:

«أخبرونا عن هذا التحريم الذى زعـمتم فيم هو؟ أفى هذا أم ذاك؟ أم فى الثالث؟ ليتبين بطلان قولهم، ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى»[1].

يريد الإمام أن يقول إن سـر العدول عن دخول الاستفهـام على الفعل (حرَّم) إلى الدخول علـى المفعول (آلذكـرين) لإظهار غلط المشـركين، بطريق برهـانى، وهو ما يسمى فى أدب البـحث والمناظرة: إرخاء العنان للخصم ومجـاراته على ما يدعى مع التدرج فى كشف زيفه ليرجع هو إلى نفسه ويتـبين غلطه فيرتدع أو يؤمن بقيام الحجة عليه. وهنا لم ينكر القرآن عليهم التـحريم الذى ادعوه ابتداءً بل سُلِّم به، ثم طولب الخصم بتعيين محل التحريم من الذوات المذكـورة لإفحامه عن تعيين شىء منها. فإذا انعدم المحل الذى يتعلق التحريم به انعدم الحالُّ، وهو التحريم نفسه.

ثم يقول الإمام فى توضيح هذا المعنى:

«كقـولك للرجل يدعى أمرًا وأنت تنكـره: متى كان هذا أفى ليل أم نـهار؟ تضع الكلام وضع من سَلَّم أن ذلك قد كان، ثم تطالبه ببيان وقـته ليتبين كذبه إذا لم يقدر أن يُبيّن لك وقتا ويفتضح»[2].

كان طريق الإنكار فى الأول نفى المحل الذى يلزم منه نفى الحالِّ.

أمـا طريق الإنكار فى هذا المثال الذى ذكـره فهـو نفى الزمـان الذى يلزم منه نفى الوقوع فيه.

وهذا - كما سبق مرات - من الكنايات اللطيفة - المتعلقة بالاستفهام الإنكارى فى نظم الكتاب العزيز وما قيل فى آية الضأن والمعز يقال فى آية الإبل والبقر.

---

(١) دلائل الإعجاز (٩٠) ت : رشيد رضا.

(٢) المصدر السابق.

* ﴿نَبِّئُونِى بِعِلْـمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ المراد من الأمر هنـا التعجـيز، ويتـرتب عليه التكذيب والإفـحام والتبـكيت لأنهم لن يستطيـعوا أن يقـيموا دلـيلا علميـا على مدعـياتهم. وهذا الدليل قـولى منعدم، لأنه إمـا أن يكون من القرآن أو من الخـبر النبوى، وهما يخلوان من نص يحرم ما ذكروه هذه واحدة.

والثانية أنهـم لا صلة لهم بالقرآن ولا بالسنة، وهكذا تم تطويقهم ومـحاصرتهم. فبان كـذبهم، وثبت إفحامهم وحل بهـم التبكيت الذى هو مصيـر كل مهزوم، و(**إن كنتم صادقين**) تذييل مقرر لمضمون الكلام الذى قبله، وهو صلاعتهم فى الكذب على الله ورسوله.

وقد شملت صور الاستفهام فى الآيتين جـميع حالات التحريم التى كان المشركون يمارسـونها حسب أهوائهم فـأنكرها الله عليهم مـحاصراً لهـا بهذه الأساليب السـتة الأولى.

ولم يتعرض النـظم الحكيم للتحليل الذى كانوا يقرونه فى مـثل ما حكاه الله عنهم فى قوله تـعالى: (**وقـالوا ما فى بطون هذه الأنـعام خـالصة لذكـورنا**) - أى حـلال - ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] لم يتـعرض النظم للتـحليل؛ لأنه باق على أصله، فهو حلال سواء أقروه أو لم يقروه.

* ﴿أَم كُنتُمْ شُهَـدَاءَ إِذ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾؟ أم منقطعة بمعنى بل والهمـزة، والهمزة فيهـا للإنكار أو النفى، وبل للاضراب الانتقـالى من تكذيبهم فى ما ادعوا حـرمته والتـوبيخ عليه إلـى تبكيتـهم والإنكار عليـهم أن تكون لهم وصـية من الله كـانوا حاضرين صـدورها منه لهم. والمعنى: إن كان الله قد وصاكم بهـذا فكيف علمتم بهذه الوصـية التى لم ينزل بها وحى، ولا أخـبركم بها رسول: هل كنتم حـضوراً أمام الله فشافهكم بها؟

وهكذا يتسلل القرآن إلى سرائرهم ليظهر لهم كذبهم بحكم صادر من أنفسهم.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تذييل مؤكد لمضمون الكلام قبله.

والتعبير بـ (**الظالمين**) بعد قوله تعالى: (**فمن أظلم**) وعيد شديد للمشركين؛ لأن الله

إذا كان شديد الانتقام من الظالمين فما عساه أن يفعل بـ (الأظلمين) الذين افتروا على الله الكذب بقصد إضلال الناس؟

* تصدير الجمل الاستفهامية بفعل الأمر (قل) للإيذان بأهمية المقول ومواجهة الخصوم به فور تلقيه إفحاما لهم وإلزاما بقيام الحجة عليهم.

* الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ﴾ بعد قوله تعالى ﴿أم كنتم شهداء﴾، ونكتة إخراج الحكم من الخصوص «على المشركين المتحدث عنهم» إلى عموم من سلك مسلكهم وبيان أن غضب الله على جميع أهل الظلم سنة مطردة له فى العباد.

* والتعبير باسم الإشارة الموضوع للقريب مكانا (هذا) فى قوله تعالى: ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾ بدل الضمير «به» للدلالة على انحطاط مزاعمهم تنزيلا لقرب المكانة منزلة قرب المكان، ولتوقيفهم على جريمتهم وهى ماثلة أمامهم.

* وإظهار اسم الجلالة (الله) فى قوله تعالى: ﴿افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بدل الإضمار (عليه) لتقدم ذكره مظهراً إشارة إلى التشنيع عليهم بقبح معاصيهم؛ لأن الكذب على الله أشنع الأكاذيب وأقبحها.

* * *

٢٦ - ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا من شَيْءٍ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

الدراسة والتحليل:

لو أن مجرما مثل بين يدى قضاء عادل فى جريمة قتل بشعة ارتكبها عدوانا وظلما مع سبق التعمد والإصرار والمعتدى عليه مصون الدم، ثم ترافع عنه محامون وطالبوا القضاء ببراءته وقالوا: إن هذا القاتل ليس مجرمًا؛ لأنه منفذ لمشيئة الله. فالله تعالى شا أن يموت فلان (المقتول) بسبب القتل، وبنفس السلاح الذى نُفِّذت به الجريمة، وفى نفس الزمان الذى قُتِل فيه، وفى نفس الزمان. كما شاء أن يكون فلان (القاتل)

هو الذى يقـوم بمهمـة القتل. لـو حدث هذا فى أى دولة من دول العـالم، وفى أى محكمـة، وفى ظل أى قانون عقـابى سمـاويا كان أو وضعـيا. فمـاذا يكون موقف القضاء المعروض عليه الفصل فى هذه الخصومة الدموية؟

هل يستـجيب لمطالب «الدفـاع» فيحكم بالبـراءة المطلوبة؟ أم يرفض ويحكم بإدانة القاتل؟

الذى نتوقع صدوره من الـقضاء ليس هو الحكم بإدانة القاتل فـحسب، بل وإحالة هيئة الدفاع إلى مستشفى المجاذيب، ولبادرت نقابة المحامين إلى شطبهم من سجلاتها لفقدهم أهلية العمل فى هذا المجال الذى ينبغى ألا يعمل فى ساحته إلا العقلاء.

هذا التمثـيل ينطبق بكل دقة على أولئك المشركين الذين تتـحدث عنهم آيتنا هذه. فهم قـد ملأوا قراب الأرض خطايا وآثاماً، وبلغـوا الذروة فى الجهل والحماقـة حتى تربعوا على «نعوش» الكفر والإشراك. ثم راحوا فى غير حياء ولا خجل يدافعون عن أنفسهم وعن آبائهم فى كفرهم وشـركهم، وتحريمهم ما أحل الله بأنهم أبرياء، لإنهم ينفذون مشيئة الله ويقولون لو شاء الله ما أشركنا به شيئا من الأصنام، ولوشاء الله ما حرَّمنا ما حـرَّمنا من أكل لحوم الأنعام؟ ولوشاء الله ما أشـرك أباؤنا من قبل، ولوشاء الله ما حرَّموا من دونه من شىء؟

وهذا هو ما حكاه القرآن عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُـوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾

وهذه المقولة التى أنبـأ الله بها رسوله قبل أن تقع وقـعت بالفعل كمـا جاء الإنباء بها. وقد سجلها الله فى سورة النحل بعد أن قالوها:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ، كَـذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْـلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

هذه الشبهة التى تذرع بها المشركون لم يخض القـرآن معهم فى الرد عليها تفصيلا كما رد عليهم مـن قبل فى تحريم ما حرَّموا من الأنعام، وإنما رد علـيهم بذكر ما حل

بالذين من قبلهم ممن قال مثل قولهم، وكان ما حل بهم إنزال البأس بهم فى هذه الحياة الدنيا فقال:

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وأوثر هذا الرد العملى عليهم لتخويفهم عساهم أن ينزجروا ويرعووا ويتوبوا إلى الله. وإنما كان هذا رداً عليهم لتكذيب ما قالوا؛ لأن الذين قالوه من قبلهم أهلكهم الله، ولولا أن ما قالوه كان باطلا لما عجَّل الله الانتقام منهم. فكان فى ذكر عقوبة من قبلهم أخلص نصيحة، لهم، وأدعى إلى أن يفيقوا من غفلتهم وعنادهم.

ثم وجه إليهم هذا السؤال المفحم فأمر رسوله الأمين أن يطالبهم بالدليل على صحة دعواهم:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾؟ وأقرب معنى يفسر به العلم هنا هو الدليل. أى هل عندكم من دليل فتظهروه لنا.

والمراد من هذا الاستفهام مهما اختلف أهل الذكر فى تقديره فإنه يؤول إلى معنى (أم) واحد:

يقول الإمام جار الله: (.. **من علم**): من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم (**فتخرجوه لنا**): وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة»[1].

وعند الألوسى: «إنما استوجبوا التوبيخ على قولهم ذلك لأنهم كانوا يهزؤون بالدين»[2].

وعند أبى حيان: (**هل عندكم من علم..**): استفهام على معنى التهكم به، وهو إنكار، أى ليس عندكم من علم تحتجون به فتظهروه لنا»[3].

وعند الشيخ رشيد رضا: (**قل هل عندكم من علم..**): والاستفهام هنا للتعجيز والتوبيخ»[4].

وعرض الطاهر بن عاشور الحديث عن هذا الاستفهام (**..هل عندكم من علم**)

(١) الكشاف: (٢/ ٥٩).
(٢) روح المعانى (٨/ ٥١).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٢٤١).
(٤) تفسير المنار (٨/ ١٥٦).

مرتين، ومجموع ما ذكره فى الموضعين أن الاستفهام للإفحام والتهكم[1].

والخلاصة: أن المراد من هذا الاستفهام هو الإنكار، وهو المعنى الرئيس فيه، أما ما يردف عليه من معان فهى: التكذيب - الإفحام - التوبيخ.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إيثار (لو) فى (لو شاء الله) لمطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ لأن المشركين مصرون على أن مشيئة الله بعدم الإيمان بعقيدة التوحيد معدومة. وهذا يناسبه «لو» من بين أدوات الشرط لاستلزامها انتفاء شرطها.

* ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ فى هذه العبارات إيجاز بالحذف فى عدة مواضع، والمعنى: لو شاء الله عدم إشراكنا به شيئا ما أشركنا به شيئا ولا أشرك آباؤنا به شيئا من قبل، ولو شاء الله عدم تحريمنا ما حرمناه من أكل لحوم بعض الأنعام ما حرمنا نحن ولا آباؤنا ما حرمناه وما حرموه هم. فانظر إلى بلاغة الإيجاز فى كتاب الإعجاز وتقديم موضوع الشرك على موضوع التحريم لأن الشرك أهول شأنا من التحريم. كما أن تقديم أنفسهم على آبائهم لأن القرآن يخاطبهم هم ويواجه مفترياتهم فكانوا أولى بالتقديم. وفى ذكر آبائهم معهم وكان يمكن الاكتفاء بذكر أنفسهم، ليتخذوا من ذكر آبائهم عذراً لهم فى أن ماهم عليه عريق لا وليد الساعة.

* ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ كذلك كذب: تشبيه معقول بمعقول: المشبه هو تكذيب الذين من قبلهم، والمشبه به هو تكذيب مشركى العرب فى عصر نزول القرآن. ووجه الشبه هو الشناعة والقبح وإيثار اسم الإشارة «ذلك» الموضوع للبعيد للدلالة على بعد قولهم عن الصواب حتى كأنه لشناعته لم يعهد له وجود.

وفى (ذاقوا بأسنا) توجيهان بلاغيان. فإما أن يكون: «الذوق» استعارة لشدة الإحساس بأثر نزول البأس بهم بجامع قوة التأثر فى كل. فهى استعارة تصريحية تبعية.

---

(١) التحرير والتنوير: (٨/ ١٤٩).

أو هى استعارة مكنية بتشبيه البأس بمطعوم ثم حُذِف المشبه به ورمز له بإحدى خواصه وهو الذوق وهى استعارة تهكمية على هذا التفسير.

وفى إضافة (البأس) إلى ضمير اسم الجلالة (**الله**) تهويل وتفظيع له.

* ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ تصدير هذه العبارة بفعل الأمر (قل) للإيذان بمالها من أهمية بالغة، وكونها رسالة خاصة يجب مواجهة الخصوم بها.

وإيثار هل دون الهمزة إشارة إلى أن المطلوب بالاستفهام يجب تحقيقه لدى الخصوم وأن المأمور بالقول ينبغى أن يشدد على الخصوم بالإتيان بالمطلوب، وهو دليل زعمهم. وأنْ لايفرِّط فيه بغية إظهار عجزهم وتحسيرهم.

وفى دخول (من) على (علم) فى قوله تعالى: (من علم) كناية عن عجزهم فى الإتيان بأى أثر من علم ولو كان تافهاً وعجزهم عنه يستلزم من باب أولى عجزهم عما له اعتبار من العلم.

* وفى (**فتخرجوه**) استعارة تصريحية تبعية شُبّه فيها الإظهار بالإخراج بجامع حصول الرؤية فى كل منهما وفيها زيادة تحسير فوق تحسير لعدم تمكنِّهم من سوق أدنى دليل على صدق زعمهم.

* ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ أسلوب قصر. قُصر موصوف هو اتباعهم على صفة هى الظن، قصراً حقيقياً تحقيقياً ويتولد عنه كناية لطيفة عن ركاكة عقولهم وسفههم وفى (**تتبعون – الظن**) استعارة مكنية، حيث شبه الظن بدليل يقودهم وهو غير مؤهل للقيادة. ثم حذف المشبه به ودُلَّ عليه بخاصة من خواصه هو الاتباع أو استعارة تصريحية تبعية شبه فيها استسلامهم للظن الكاذب بالاتباع الحسى فى طريق، تشبيه محسوس بمعقول، وسرها أن استسلامهم للظنون وهواجس النفس الكاذبة قد سيطر على أفكارهم سيطرة كاملة، حتى لكأنه يرى بالعين الباصرة.

* ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ وصلت هذه الجملة بما قبلها لإن كلاً منهما خبرية فى اللفظ والمعنى، فبينها علاقة التوسط بين الكمالين.

وهى جملة قصرية كسابقتها قصر فيها موصوف (أنتم) على صفة (تخرصون) قصرا حقيقيا تحقيقيا.

والخرص هو التقدير العشوائى فى الحسيات، وقد استعير هنا للمعنويات استعارة محسوس لمعقول للتشنيع عليهم، وفضح طرائقهم فى الاستدلال والاعتقاد.

تعقيب:

هذا تعقيب موجز عن الشبهة التى أثارها المشركون ويثيرها العصاة والملحدون فى كل مكان وأوان، فالمشركون الذين تحدثت عنهم آية الأنعام السابقة علَّلوا شركهم ومعاصيهم بأن الله شاءها، ولم يكن لهم أن يشركوا أوْ يعصوا الله إلا إذا كان الله قد شاء أن يشركوا وأن يعصوا.

وكذلك يقول بعض المفتونين إذا أجرموا: إن هذه الجريمة قد كتبها الله علىَّ، ولو لم يكتبها علىَّ ما ارتكبتها فلِمَ إذن يعاقبنى الله على شرك هو أراده، وعلى معصية هو أرادها؟ ولماذا لم يُحل بينى وبين المعاصى إذا هو لم يرد شيئا من ذلك.

ونريد أن نسأل سؤالا ثم نجيب عليه باختصار شديد لدفع الأخطاء التى وقع فيها المشركون، والتى يقع فيها العصاة فى كل حين. ذلك السؤال هو:

هل كتابة مقادير العباد تعفيهم من المسئولية عن الجرائم التى يرتكبونها سواء كانت شركا أو معاصى دون الشرك؟

والجواب:

نعم: كتب الله الشرك على المشركين، والمعاصى على العصاة ومع ذلك فإنهم مسئولون مسئولية كاملة عن شركهم ومعاصيهم. ولماذا؟

لأن كتابة تلك الأمور على مَنْ سيقوم بها ليست لأن الله يجبرهم جبراً على ارتكابها، بل لأنه علم ما سيصدر من كل إنسان حين يخلق ما سيقع منه حال حياته فسجل ذلك فى كتاب قبل أن يخلق الإنسان. فلما جاء إلى الحياة فإن ما علمه الله منه كائنا لابد أن يكون. لصدق علم الله عز وجل. أما شرك من أشرك، ومعصية من عصى، فإنها اختيارات المكلف ولا جبر فيها من الله، الله علم ما سيختاره الإنسان فى حال حياته. ثم كتب ما علم من سلوكيات الإنسان التى يعملها باختياره الحر. إذاً

فمشيئة الله ليست مجبرة على الشرك أو المعصية ولو أراد الله عدم شرك المشرك، وعدم معصية العاصى لما كان شرك ولا معصية، لكن الله يترك المكلف يختار ما يختار من إيمان أو كفر، طاعة أو معصية. ثم يثيب المؤمن الطائع على إيمانه وطاعته لاختياره الإيمان والطاعة.

ويعاقب الكافر والعاصى على كفره ومعصيته لأنه اختار الكفر والمعصية. فليس للمشرك أن يعتذر عن شركه ويقول: الله شاءه لى، لأن الله لم يجبره على الشرك، بل هو الذى اختاره. وليس للعاصى أن يعتذر عن معصيته ويقول: إن الله شاءها له. بل هو الذى اختار المعصية أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام:١٠٧]. فهاتان الآيتان - ونظائرهما - معناهما الإعلان عن كمال قدرة الله. وأنه إذا أراد شيئا كان ذلك الشيء لايمنع قدرة الله منه مانع، وليس معناه جبر المؤمن على الإيمان، وجبر المشرك على الشرك، أو الطائع على الطاعة والعاصى على المعصية. بل إن الله أرسل رسلا، وأنزل كتبا وبين طريق الحق ليتبع، وطريق الباطل ليجتنب. ليهلك من هلك عن بينه. ويحيا من حيى عن بينة. وبقى معنا برهان يحسه كل إنسان مهما كان حظه من العلم: هل منا أحد يحس فى نفسه إذا عمل طاعة أن الله أجبره عليها؟! أم هى اختياره الحر؟ وهل منا أحد إذا عمل معصية يحس فى نفسه أن الله أجبره عليها؟ أم هى اختياره الحر؟.

* * *

٢٧ - ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً، قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧-١٥٨].

الدراسة والتحليل:

الخطاب فى هاتين الآيتين ظاهر أن المخاطب فيه هم مشركو العرب، والآية الأولى معطوفة على ما قبلها وهى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾

[الأنعام: ١٥٥، ١٥٦].

والآيات فى مجموعها تقطع أعذار العرب فى شبه الجزيرة لما كانوا عليه من جاهلية. فقد بينت الآيات أن الله تعالى أنزل الكتاب المبارك - القرآن - ولئلا يعتذر العرب عن جاهليتهم بأن الله لم ينزل عليهم كتابا هاديا كما أنزل على من قبلهم. وأنهم غير ملزمين بما أنزل على اليهود أو النصارى لأنهم - أى العرب - لم تتح لهم فرصة دراسة التوراة والإنجيل.

هذه هى الأعذار التى كان يمكن أن يتذرع بها المشركون عند الله يوم القيامة. فقطع الله هذه الأعذار بقوله عز وجل ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ثم ذكر الأعذار التى كانوا سيتعللون بها لو لم يبعث الله فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته.

وجاء فى الآيتين هذان الاستفهامان **(فمن أظلم..)** و**(هل ينظرون)**؟

أما الأول **(فمن أظلم)** فقد تقدم الحديث عنه مرات. والذى نكتفى بقوله فيه هنا أن المقام الذى استعمل القرآن فيه هذه الصيغة (افعل التفضيل من الظلم) جاء وصفا فى جميع آياتها الست عشرة لموصوف واحد هم المشركون. لأنهم أظلم الظالمين. فلا

إشكال فى الآية كما قدمنا ذلك مفصلا فيما سبق[1].

أما الثانى (**هل ينظرون**)؟ فهو استفهام نفى أو إنكار:

- وفيه يقول أبو السعود: «أى، ما ينتظرون»[2].
- ويقول الألوسى: «هل للاستفهام الإنكارى»[3].
- وقال أبو حيان: «أى ما ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة»[4].
- وهكذا ذهب ابن عاشور حيث قال: «وهل للاستفهام الإنكارى»[5].

والخلاصة: أن (هل) للاستفهام الإنكارى أساسا، ويـردف عليه معان مجازية أخرى من أبرزها الوعيد والتهديد.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾. هذا التركيب فى مـجموعه كناية عن موصوف هو القرآن وهى أبلغ مما لو قيل: جاءكم القرآن. فقد عُدِل من الكناية عن الموصوف إلى الوصف؛ لأن الوصف هو الـذى عليه المعوَّل فى الهداية وإقـامة الحجة وهى البينة والهُدى والرحمة. وهذا هو حقيقة القرآن فهو بنية فارقة بين الحق والباطل، هادٍ للتى هى أقوم، رحمة لمن آمن به واتبعه.

وفى إسناد المجىء إلى البـينة مجـاز عقـلى من الإسناد إلى المفعـول؛ لأن الله هو الذى آتاهم تلك البـينة وتنكير بينة وهُدى ورحـمة للتعظيم، وتقـديم بينة على هدى ورحمة لأنها الأصل فيهما. وتأخيـر رحمة على هدى لأنها من ثماره. وإضافتها إلى (ربكم) للترغيب والتفخيم، وإضـافة (رب) إلى ضمير المخاطبين للتلطف فى الخطاب واستمالة مشاعر المخاطبين.

* (**وصدف عنها**) عطف هذا الفـعل (**صدف**) على (**كذَّب**) للتشنيـع والتغليظ؛ لأن الجمع بين التكذيب بآيات الله والإعراض عنها من أقبح الآثام أو هو أقبحها.

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْـدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا..﴾ خبـر مراد به التهديد الشـديد. وإيثار المضارع والاستغناء به (**يصدفون**) عن التكذيب لأن الإعـراض عن آيات الله يسـتلزم

---

(١) انظر (١/ ٢٨٠) من هذه الدراسة.
(٢) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٠٣).
(٣) روح المعانى (٨/ ٦٣).
(٤) البحر المحيط (٤/ ٢٥٨).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١٨٤).

التكذيب بها. ولاستحضار صورة الإعراض فى الذهن لأنه ديدنهم، و(**بما كانوا يصدفون**) الباء للسببية. أى بسبب إعراضهم عن آيات الله.

* (**هل ينظرون**) استعملت «هل» فى الإنكار بدل الهمزة لتحقيق ما بعدها من صور الترقب والانتظار. وإيثار (ينظرون) على: ينتظرون، وهو المراد لتشبيه انتظارهم المعنوى لوقوع ما هُدِّدوا به بالنظر الحسى. للإيذان بأن ما هُدِّدوا به واقع لامحالة. وكأنهم ينظرون إليه بالعين الباصرة قبل وقوعه.

وجملة الاستفهام جملة قَصْرية: قصر موصوف على صفة: فالمقصور هو نظرهم (انتظارهم) والمقصور عليه هو الإتيان بحسب متعلقاته. وإسناد الإتيان إلى «ربك» فى (أو يأتى ربك) مجاز عن عذابه والعلاقة الفاعلية وسره البلاغى التهويل والتفظيع من شأن المنْذَر به.

* (**لاينفع نفسا..**) تنكير «نفسا» المراد منه التعميم لا نفس معينة. وهى كل نفس لم تؤمن قبل مجىء أكبر علامات الساعة وهى خروج الشمس من المغرب. أو نفس آمنت قبلا ولكنها لم تعمل صالحا قط.

* ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تصدير الجملة بفعل الأمر (**قل**) لبيان أهمية المقول. والأمر فى (**انتظروا**) مستعمل فى التهديد والإنذار.

* * *

٢٨ - ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىء، وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واحدة من آيتين ختمت بهما سورة الأنعام خير ختام. فقد بدأت هذه السورة بالثناء الجليل على الله. مشيرة إلى كفر بعض الناس بربهم، وجَعْل شركاء له فى الملك، وهو الخالق العظيم.

﴿الحَمْدُ للَّه الَّذى خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ثم كانت الخاتمة:

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد مهد لهذا الختام آيتنا:

* ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فناسب الختام البدء. فى البدء كانت إشارة إلى جَعْل الكفار لله ندا ومثيلا. وفى الختام جاء الإنكار الشديد لجعل ذلك الند والمثيل. وهذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ كما تقدم فى مثله فى هذه السورة المباركة، وهذه خلاصة ما قيل فيه فلا داعى للتكرار.

فإن كان لابد من كلمة فيه. فإن تقديم المعمول (غير) على العامل (أبغى)، لما مرَّ من أنه محط الإنكار فلذلك قدم.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ صدرت هذه الجملة الاستفهامية بفعل الأمر (قل) لأهمية المقول، وسرعة تبليغه والمواجهة به لأنه رسالة خاصة.
* ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أسلوب خبرى جىء به لإفادة أمرين:
  (أ) تأكيد الإنكار ببيان مالكية الله لكل موجود.
  (ب) استحالة ابتغاء غير الله ربا، لأن ماعدا الله مربوب لله فكيف يتخذ المربوب مربوبا مثله ربا له. وبخاصة أن يكون المتخذ ربا هو الأصنام التى دعا المشركون صاحب الرسالة ﷺ أن يتخذها أربابا؟

﴿وَلاَتَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الجملة الأولى قصرية فيها قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيقيا - وهى خبرية- لفظا ومعنى، لذلك عطفت عليها جملة: **(ولا تزر وازرة وزر أخرى)** لأنها خبرية مثلها. فبين الجملتين توسط بين الكمالين.

* **(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)** أوثر العطف بـ **(ثم)** لما بين الحياة الآخرة والحياة الدنيا من تراخٍ. وفى **(إلى ربكم مرجعكم)** قصر صفة الرجوع على **(ربكم)** أى إليه هو لا إلى غيره وطريقه تقديم ما حقه التأخير (تقديم المسند على المسند إليه)، والقصر حقيقى تحقيقى. فإلى الله ترجع الأمور.

* * *

سورة الأعراف

١ - ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف ١٢].

الدراسة والتحليل:

سورة الأعراف مكية النزول، وعدد آياتها (٢٠٦) آيات فهى من السور الطوال، وترتيبها فى النزول الثامنة والثلاثون، نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن) وجميع مانزل قبلها كان من قصار السور وأطولها سورة (ص)[١].

وهذه الآية أول آية فى الأعراف يرد فيها أسلوب استفهام أما الآية التى قبلها رقم (٤) وهى : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فإن (كم) فيها ليست استفهاما، بل هى خبرية بمعنى كثير، وقد مرَّ بنا مثلها كما فى سورة البقرة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ..﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وآيتنا هذه تحكى ما قاله الله لإبليس حين امتنع عن السجود لآدم امتثالا لأمر الله (اسجدوا لآدم) وقد ورد فيها الاستفهام على هذه الصورة (مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ)؟ وقد حمل الأئمة هذا الاستفهام على التوبيخ بدأ بذلك الزمخشرى فقال:

«فإن قلت لِمَ سأله عن المانع من السجود وقد علم ما منعه؟ قلت للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وأفتخاره بأصله، وإزدرائه بأصل آدم وأنه خالف أمر ربه»[٢]

وكذلك ذهب أبو السعود [٣] والألوسى [٤] وقال أبو حيان : «وبَّخه وقَرَّعه على امتناعه عن السجود» وما استفهامية تدل على التوبيخ كما قلنا» [٥].

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (١/ ١٩٣)

(٢) الكشاف (٢/ ٦٨)

(٣) تفسير أبى السعودة (٣/ ٢١٦)

(٤) روح المعانى: (٨/ ٨٨)

(٥) البحر المحيط (٤/ ٢٧٢)

أما ابن عاشور فقال: إن المراد من الاستفهام إظهار مقصد إبليس للملائكة [1]

والخلاصة : أن المراد من الاستفهام هو الإنكار وإن لم يقل به أحد من الأئمة مكتفين بالمعنى المتولد عنه وهو التوبيخ.

وهذا الإنكار ظاهر فى المقصود من الاستفهام فالله سبحانه وتعالى ينكر على إبليس عصيانه أمره بترك السجود الذى أمره به، ثم ترتب على هذا الإنكار توبيخه وتقريعه وهما معنيان يأتيان تابعين دائماً إما للإنكار، وإما للتقرير.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(قال ما منعك)**، فصلت هذه الجملةُ عما قبلها لأنها استئناف بيانى وقع جوابا عن سؤال نشأ عما قبلها لأنه لما قال: **(الا ابليس لم يكن من الساجدين)** ثار فى النفس، ويثور، تساؤل: فماذا قال الله له حين اعرض عن السجود؟ فكان الجواب: **(قال ما منعك.. ألاَّ تسجد إذ أمرتك)** وورود **(لا)** النافية بعد **(أن)** آثار جدلاً بين المفسرين؛ لأن الذى أنكره الله على إبليس هو عدم السجود؛ كما جاء فى غير هذا الموضع **(أن تسجد)** أى ما منعك من السجود، وليس ما منعك من عدم السجود.

قال كثير من المفسرين فى المواضع المشار إليها قبلاً: إن (لا) مزيدة لتحقيق معنى الفعل: أى ما منعك أن تحقق السجود الذى أُمرت به.

وقال بعضهم إن (منع) مُضَمَّن معنى (صرف)، أى ما صرفك إلى عدم السجود؟ أو مضَمَّن معنى (دعا) أى ما دعاك إلى عدم السجود: ؛ لأن الداعى إلى شىء صارف عما سواه. والصارف عن شىء داع إلى ماسواه ومنع الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى أن تكون (لا) هنا لتحقيق معنى الفعل، وهى هنا تنفيه. ولا تكون (لا) مؤكدة للنفى الا إذا كان ورودها بعد نفى صريح كقوله تعالى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَبِّكُم﴾.

[البقرة ١٠٥].

أو كا لصريح، ولاشىء منهما هنا، والأصوب حمل الفعل فيها على التضمين

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/٣٨)

لسلامته من القول بالزيادة.

* (**إذ أمرتك**) تجريد الخبر هنا بأن الأمر كان لابليس وهو موجه إلى الملائكة، لا له وحده، للتغليظ على إبليس وتصويره فى صورة من خصه الله بالأمر فعصاه

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لوقوعها جوابا عن سؤال حاصله:

ماذا قال إبليس لما قال الله له هذا الكلام. وهذا ما يسميه البلاغيون: شبه كمال الاتصال ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ تفصيل بعد إجمال فقد أجمل (الخيرية) فى قوله: (أنا خير منه) ولم يفصل أسباب هذه الخيرية. ثم فصلها فى هذه العبارة بأن أصل خلقه هو النار، وأن أصل خلق آدم هون (الطين) طاويا فى هذه العبارة علة التفضيل وهى: أن النار أفضل من الطين؟

والتنكير فى (نار) و (طين) حسب قصد اللعين هو التعظيم فى (نار) والتحقير فى (طين) لدلالة المقام على هذا.

وبين النار والطين طباق إيجاب داخل فى دلالة مقتضى الحال فلا تكلف فيه.

* * *

٢ - ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية يحكى القرآن ما وقع من إبليس لآدم وحواء من إغراءوخداع بعد أن طرد الله إبليس من رحمته وأسكن آدم وحواء الجنة، فوسوس إليهما إبليس وأقسم لهما كذباً أن الله ما حرَّم عليهما الشجرة إلا خشية أن يصبحا ملكين أو خالدين لايموتان. فوقعا فى شراكه وأكلا من الشجرة المحرمة.

فقال الله لهما: ﴿أَلَم أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾؟ وهذا استفهام مجازى لاريب وهذه الصيغة التى تدخل فيها همزة الاستفهام على آداة نفى أيا كانت، ويكون ما

بعدها منفيا بها، هذه الصيغة لها محمل واحد عند البلاغيين والمفسرين فهم مجمعون على أن الاستفهام بها يراد به التقرير، أى إثبات ما كان منفيا بأداة النفى مثل:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ - ﴿أَلَم تَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ - ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾- ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهكذا الحال هنا.. يقول الإمام جار الله «**ألم أنهكما**)؟ «عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ، حيث لم يحذرا مما حذرهما الله من عداوة ابليس»[1].

ويختصر الإمام أبو السعود ويبن المقصود من الاستفهام بعد النداء قائلاً: (**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا**) مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ (**ألم أنهكما**)[2].

الألوسى: «عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو »[3] وأشار أبو حيان إشارة خاطفة إلى التوبيخ[4] ويقول رشيد رضا : «الاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ[5] أما ابن عاشور فيقول: «والاستفهام فى (**أَلَم أنهكما**) للتقرير والتوبيخ»[6].

والخلاصة: أن الأئمةُ الخمسةٌ الأولين اكتفوا بالمعانى التى تأتى تابعة للمعنى الأصلى، والذى ذكروه منها ثلاثة معان:

(العتاب- التوبيخ- التنبيه) ولم يذكروا أصل المراد من الاستفهام هنا وهو التقرير.

أما الشيخ ابن عاشور فقد جمع بين الأصل والفرع كما ترى وترك الأئمة للنص على التقرير وذكر المعانى التابعة له يكرر عندهم كثيراً فهم ينظرون إلى المعانى التابعة لأنها من أجلها يكون التقرير والإنكار.

أسرار النظم وبلاغياته:

* (**فدلاهما بغرور**) دلاهما: أنزلهما إلى أسفل، وهو من التدلية بمعنى النزول. أى مازال الشيطان يزين لهما الأكل من الشجرة المحرمة حتى استجابا وفى هذا التعبير: (**دلاهما**) إيماء إلى أنه أنزلهما من كمال الطاعة ورفعتها إلى حضيض المعصية

---

(١) الكشاف (٢/ ٧٣)

(٢) تفسير أبى السعود: (٣/ ٢٢٠)

(٣) روح المعانى (٨/ ١٠١)

(٤) البحر المحيط (٤/ ٢٨٠)

(٥) تفسير المنار (٨/ ٣١١)

(٦) التحرير والتنوير: (٩/ ٦٦)

ونقصها. وهذا مجاز استعارى استعير فيه الهبوط الحسى للهبوط المعنوى، إظهاراً له وتمثيلاً والباء الأظهر أنها للسببية، أى بسبب الغرور، وعلى رأى بعض أهل العلم الذى شبه التدلية هنا بإرسال الدلو فى البئر لإزالة العطش بالماء، يكون التعبير من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت صورة احتيال إبليس وإغرائه لهما حتى دفعهما إلى المحظور معتقدين أن فيه نفعا لهما بصورة العطشان يدلى بالدلو إلى البئر ليروى عطشه.

* ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ فى الذوق استعارة تصريحية تبعية؛ وأصله فى اللغة أول وجود أثر الطعام والشراب فى الفم، وهو مستعار للأكل وسر هذه الاستعارة أن المحظور الذى من أجله نهاهما الله عن الأكل من الشجرة وقع بمجرد الذوق قبل أن يدخل المأكول فى جوفيهما. وفيه بيان لعظمة حكمة نهى الله عن الأكل.

وفى إيقاع الذوق على الشجرة مجاز عقلى علاقته السببية، لأن المذوق هو ثمارها لاهى، أو مجاز مرسل علاقته الكلية، حيث أطلق الكل (الشجرة) وأراد الجزء (الثمار).

وفى التعبير بالمضارع (**يخصفان**) استحضار لتلك الصورة وتكرارها منهما.

* (**وناداهما ربهما**) أصل النداء يكون برفع الصوت للمنادى البعيد، ولا بعيد على الله، وإنما أوثر النداء على القول إشارة لطيفة إلى بُعْدِهما هما بسبب المعصية التى وقعت منهما.

* ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ فصلت هذه الجملة عن جملة (**وناداهما**) لكمال الاتصال بينهما، حيث نزلت الثانية منزلة عطف البيان من الأولى.

﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عطفت هذه الجملة بالواو على جملة (ألم أنهكما) للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الإنشائية لفظا ومعنى؛ لأن الاستفهام مقدر فى الثانية.

وتوكيد الخبر فى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لشدة التذكير والتوبيخ.

وتكرار (**لكما**) حيث لم يستغن بالأولى عن الثانية مبالغة فى الزجر والتنديم.

* * *

٣ - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَائَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِها، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأمُر بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية حديث عن المشركين المقلدين لآبائهم، وقد مرَّ الحديث عنهم فى الأنعام وتعليل إشراكهم بأنه مشيئة الله، وأنه لو لم يشأ لآمنوا.

والظاهر أن قولهم **(وجدنا عليها أباءنا)** كانوا يقولونه فى الرد على من ينكر عليهم فعل الفواحش وقد أرجعوا فعلها إلى أمرين:

الأول: تقليد آبائهم، **والثانى:** الزعم بأن الله أمرهم بفعل الفواحش. فأمر الله رسوله أن ينكر عليهم زعمهم أن الله أمرهم بها.

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّه مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾؟

وقد أجمع الأئمة؛ على أن هذا الاستفهام للإنكار أى إنكار الواقع، وهو قولهم **(والله أمرنا بها)**.

والخلاصة: أن الإمام أبا السعود كفانا النص على أقوال المفسرين واحدا واحداً بعبارته الجامعة:

والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وتوجيه الانكار والتوبيخ إلى قولهم عليه تعالى **(ما لا يعلمون)**[1].

أسرار النظم وبلاغياته

* ﴿وإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة الموصول وصلته قبلها وهى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن معنى الموصول وصلته: هم المشركون أو الكافرون.

وإيثار (إذا) على (إن) للإيذان بأن المشركين لاينفكون عن عمل الفواحش، وأن وقوع الفواحش منهم أمر محقق. والمقام يوحى بأن تنكير (فاحشة) للتهويل والتفظيع.

* ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيهَا آبَاءَنَا، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهاَ﴾ قالوا وجدنا لايصح جعله وحده جواب (إذا) الا أن يقدر الكلام: إذا فعلوا فاحشة ونهاهم عنها ناه قالوا، ففى

---

(١) تفسير أبى السعود : (٣/ ٢٢٣)

العبارة إيجاز بالحذف دل على المحذوف سياق الكلام وهذا كثير فى النظم الحكيم، كما أن فى (عليها) إيجاز آخر لأن التقدير: وجدنا على فعلها آباءنا: وقدم اعتذارهم بفعل آبائهم على اعتذارهم بأمر الله لهم بها- حسب زعمهم- وهو أقوى فى الاعتذار لو كان صدقا، ليدخلوا آباءهم فى الاعتذار عنهم معهم بأن الله أمرهم جميعاً بالفجشاء؟ وفى (بها) إيجاز، والتقدير آمرنا بفعلها؟

* ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ تصدير هذه الجملة بفعل الأمر (قل) لما تقدم مرات من الاهتمام بالقول وكونه رسالة خاصة تجب المواجهة بها وتؤدى فور تلقيها من الله عز وجل وتوكيد الخبر بـ (إنَّ) وأسمية الجملة ، لتوكيد الإنكار فى الإستفهام الذى وليها.

وإيثار الفعل المضارع المنفى بـ (لا) على الماضى ذو دلالة غاية فى البلاغة؛ لأن الفعل الماضى لايدل إلا على النفى فيما مضى، ويبقى الأمر فى الحال أو الاستقبال مسكوتا عنه، ومحتمل الوقوع. فلما قال: (لايآمر بالفحشاء) صار نفى الأمر بالفحشاء سنة مطردة لله فى جميع الأوقات، وزان ذلك إذا قلنا: فلان ما أكل اللحم، وفلان لا يأكل اللحم. فالعبارة الثانية «لايأكل اللحم» دلت على أن فلانا هذا دأبه وعادته الدائمة، عدم آكل اللحم. بخلاف العبارة الأولى فإن النفى بها محدود النطاق.

* (أتقولون على الله مالا تعلمون) المضارع (تقولون) دال على تجدد هذا القول المفترى منهم، وأن هذه الجريمة لم تقع منهم مرة واحدة، بل مرات ومرات ووضع المظهر (اسم الجلالة) موضع المضمر (عليه) لتقديم ذكره صورة من الإخراج على خلاف الظاهر ونكتته البلاغية المبالغة فى استقباح هذا القول.

* وفى (أتقولون) التفات من الغيبة (فعلوا) إلى الخطاب زجراً لهم وتأنيباً.

* * *

٤ - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

الدراسة والتحليل:

إذا بدىء كلام فى القرآن بفعل الأمر (قل) فبالإضافة إلى الخصائص البيانية التى تقدمت مراراً مما يتصل بهذا الأسلوب فإن له فى نظم القرآن الحكيم خصوصية أخرى، هى أن يكون الكلام المصدَّر به (قل) رداً على زعم أو قول غير صحيح، وهذا الموضع من هذا القبيل.

فكما كان المشركون يحللون ويحرمون ما يشاء لهم وهمهم من بهيمة الأنعام، كانوا يحرمون بعض الملابس والمآكل والمشآرب، ويبدو أن أمر هذا التحليل والتحريم الناشىء عن الوهم والهوى كان قد فشا أمره، مما استدعى أن ينزل الله فيه قرآنا. فكان هذا الاستفهام الهادر:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وهو استفهام إنكار كما قال الأئمة، فهذا جار الله الزمخشرى وأبو السعود تكاد عبارتهما فيه أن تكون واحدة:

«ومعنى الاستفهام فى مَنْ إنكار تحريم هذه الأشياء» (١) وعبارة الألوسى: «الاستفهام لإنكار تحريمها على أبلغ وجه »(٢)

ويخطو أبو حيان بالبحث خطوة جديدة فيقول:

«ومعنى الاستفهام انكار تحريم هذه الأشياء وتوبيخ محرميها. . . . «والاستفهام إذا تضمن الإنكار لاجواب له » (٣) ويقول الشيخ رضا: «قل من حَرَّم» إنكارى يدل على أن هذا التحريم من وساوس الشيطان» (٤)

وقال ابن عاشور: «والاستفهام إنكارى قصد به التهكم إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يطلب منهم البيان» (٥)

---

(١) الكشاف (٢/ ٧٦) وتفسيره أبى السعود (٣/ ٢٢٤)
(٢) روح المعانى: (٨/ ١١١)
(٣) البحر المحيط والنهر الماد (٤/ ٢٩٠)
(٤) تفسير المنار (٨/ ٣٤٥)
(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٩٦)

والخلاصة: الإنكار الذى أجمعوا عليه فى هذه الصورة ناشىء عن إنكار الفاعل أصالة لا إنكار الفعل. وهذا هو الوجه الأبلغ فى الإنكار الذى أشار إليه الإمام الألوسى من قبل.

ووجه الأبلغية أن النظم الحكيم لم يسلط النفى على الفعل (حرَّم) مباشرة، بل أخرجه مخرج الثابت غير المنفى، ثم سلَّط الاستفهام على ما هو فاعل له فى المعنى، وهو «من» بمعنى أن هذا التحريم ليس له فاعل، ويترتب على ذلك نفى التحريم بطريق الكناية التى اقترنت فيها الدعوى بالدليل. والكناية أبلغ فى موضعها من التصريح.

وهذه الطريقة شائعة فى استفهامات القرآن كأن ينفى السبب توصلا إلى نفى المسبب، مثل : ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ أو بنفى الحال توصلاً إلى نفى صاحبه، مثل ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ..﴾ التصدير بـ (قل) قد عرفنا مغزاه البلاغى مرات. وإضافة الزينة إلى اسم الجلالة (**الله**) للتشريف.. ومن دقائق مايفهم من هذه الإضافة أن الزينةٌ غير المحرمة، هى الزينة التى شرعها الله من التجمل باللباس وحسن السمت وليست زينة الشيطان كارتداء اللباس اختيالاً وتكبراً، وما دأبت عليه النساء المتبرجات.. فهذه كلها زينات محرمة، وكذلك الإسراف فى التزين وإن كان أصله الإباحة، ويدخل فى زينة الله تزين الزوجين كل منهما للآخر.

﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فى الطيبات إيجاز قِصَر وهى كناية عن أمرين:

- الحلِّية.. فالرزق الطيب هو الحلال..
- الاستلذاذ؛ لأن كل ما يتناول الانسان من مطعوم أو مشروب له حظ من اللذة والاشتهاء.

* ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تعريض بغير المؤمنين

بأنهم ليس لهم حظ أصالة فى نعم الدنيا وأنهم لولا المؤمنون مارزقوا، ولحرموا منها مثلِ حرمانهم منها فى الآخرة.

* وفى ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إيجاز بالحذف، والتقدير ولهم خالصة يوم القيامة.

وفى (يوم القيامة) كناية عن الخلود الدائم فى الجنة «أى هم يستمتعون بها خالدين فى الجنة وليس يوم القيامة فقط.

وسر هذه الكناية أن رحمة الله ستحل بالمؤمنين من لحظة الخروج من القبور.

* ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تشبيه مرسل مجمل المشبه به هو المشار إليه بـ (ذلك) وهو التفصيل الوارد فى تحليل زينة الله والطيبات من الرزق وكونها للمؤمنين أصالة ولغيرهم تبعاً فى الحياة الدنيا، وخلوصها للمؤمنين فى الآخرة.

وعُبِّر عن هذا التفصيل باسم الإشارة (ذلك) الموضوع للمكان البعيد تفخيماً لشأنه بتنزيل بُعْد الدرجات أو المكانة منزلة بُعَد المكان.

أما المشبه فهو تفصيل جميع ما يحتاج إلى تفصيله العباد مما أحل لهم وحرَّم عليهم.

* **(لقوم يعلمون)** الجار والمجرور(لقوم) متعلق بـ **(نفصل)** تنويها بفضل العلم وتعريضا بانحطاط الجهل وأهله.

وفيه تحريك لمشاعر المخاطبين، وتهييج وإلهاب ليصحوا من غفلتهم ويصححوا ما هم فيه من أخطاء علهم يثوبون إلى رشدهم.

وتنكير قوم - كما يدل المقام- للتعظيم والثناء بسبب اتصافهم بالعلم الهادى إلى أقوم طريق.

* * *

٥ - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

[الأعراف ٣٧].

الدراسة والتحليل:

الاستفهام **(فمن أظلم)** فُصِّل القول فيه بجميع صور وروده فى النظم الحكيم، وقد بلغت ستِ عشرة صورة وبينَّا فيما تقدم أن لا إشكال فى هذا التكرار؛ لأن جميع ما ورد منه يتحدث عن (أظلم) واحد، هو الكافر المشرك فهو (الأظلم) ولا أظلم منه ولامساوٍ له فى هذه الأظلمية.

فلا داعى إذاً لتكرار ما بُسط القول فيه من قبل [١] وبقى لنا فى الآية استفهام آخر هو قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا الاستفهام سكت عنه الأئمة إلا أبا حيانٍ وابن عاشور فأبو حيان يرى أنه للتقرير والتوبيخ [٢].

وابن عاشور يقول إنه للتهكم والتيئيس[٣].

والخلاصة: أن هذه المعانى التى ذكرها الامامان فإن مالانزاع فيه منها هو التهكم والتوبيخ. أما التقرير الذى رآه أبو حيان فلا أراه سائغاً، وكذلك التيئيس الذى ذكره ابن عاشور.

أما التقرير فإن المقام يآباه اللهم الا إذا كان مراده تقريرهم باعتقادهم فى ألوهية الأصنام وأما التيئيس فإنه حاصل لهم من فقدهم شركاءهم سواء سئلوا عنها أو لم يُسْألوا. اللهم إلا إذا كان المراد إظهار قنوطهم، والذى نراه أن هذا الاستفهام للإنكار، أى إنكار وقوع أن تكون لهم آلهة أخرى شركاء الله ينفعونهم أو يضرونهم وقد دُلَّ على هذا الإنكار بطريق الكناية حيث توُصِّل إلى إنكار الحالِّ فى المكان بانكار المكان المحلول فيه، وهو إنكار الآلهة المدعاة على أبلغ وجه كما قال الإمام الألوسى من قبل

---

(١) انظر (ص ٢٨١) من هذه الدراسة.

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٩٤).

(٣) التحرير والتنوير (٩/١١٧).

فى (من حرَّم) غير أن ذاك تُـوُصِّل فيه بإنكار فاعلَ التـحريم إلى إنكار التحريم نـفسه وهذا تُوُصِّل فـيه بإنكار المكان إلى إنكار الحـالِّ فى المكان، وهم الآلهة المـدعاة وهذا الإنكار صالحِ لأن تردف عليه معان ثانية مثل التوبيخ والتهكم والتحسير وغيرها.

أسرار النظم وبلاغياته

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيـبهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ التعـبير باسم الاشـارة (أولئك) الموضوع للبعيد إيماء إلى بُعْد المتحدث عنهم عن الهداية وعن ألطاف الله. وأنهم من حق الناس أن ينكروا وجودهم ويستغربوا أنتماءهم إلى بنى آدم. وخلو الفعل (**ينالهم**) من حرف التنفيس (السين- سوف) للإيذان بأن نصيبهم الذى ينالهم هو جريان أحكام الله عليهم فى هذه الحياة الدنيا وخـضوعهم لإرادته وقدرته من غنى وفقر وصحـة ومرض وحياة ومـوت، وأن معنى الكتـاب على هذا هو كـتاب القـضاء والـقدر النافـذ فى جمـيع المخلوقات.. وهذا أولى مما ذكـره بعض المفسرين من أن الكتـاب ؛ هو القرآن ، وأن نصيبهم منه هو الوعـيد، لأن الأول أعم، وهذا أخص والأول يشمله، وهو لايشمل الأول.

* وإسناد التوفـية (الموت) إلى الرسل (الملائكة) مـجاز عقلـى علاقتـه السببـية، لأن المتوفى الحق هـو الله سبحـانه وتعالى. والمضـارع (يتوفونهم) للـدلالة على تجدد التوفية وتكرارها نفسا نفسا.
* ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ فصلت هذه الجـملة عما قـبلها ﴿قَالُوا أَيْنَ..﴾ لأنها جواب للاستفهام (**أين مـا كنتم**) أما حـمل فصلها على الاسـتئناف البيانى بـتنزيلها منزلة جواب عن سؤال مقـدر نشأ عن الأولى- وهذا هو اختيار المفـسرين- فلاوجه له؛ لأن السؤال الصريح (**أين ما كنتم**) أولى بالجواب من سؤال مقدر لم تدع إلى تقديره ضرورة عقلية أو بلاغية.

وقد مَّرتْ بنا صور أخرى من هذا القبيل لم نسجل عندها هذه الملاحظة وشاء الله تسجيلها هنا.

والذى نميل إليـه أن مثل هذه الجملة إذا سبقها سؤال صريح كانت هى جوابا له،

ومن الإسراف الذى لايحمد أن نتكلف تقديرسؤال آخر يجعل مثل هذه الجملة جوابا له، فإذا ورد غير هذا فى كلامنا فهو مجاراة لما قالوه وإن لم نرضه.

وفى (ضلوا) كناية عن (العدم) فالآلهة المدعاة لم يكن لها وجود بهذا المعنى حتى تضل طريقها إلى عابديها مصداق هذا قوله تعالى: فى غافر حكاية عن المشركين: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ، قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئاً﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤]، فقد أقروا أنهم كانوا يدعون العدم والوهم.

* ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون الكلام قبله.

ووصلت هذه الجملة بالواو بما قبلها قالوا ضلوا «للتوسط بين الكمالين وتوكيد الخبر فيها للدلالة على اعترافهم بكفرهم يقينا بعد أن عاينوا الحق بكل جلاء وقوة.

* * *

٦ - ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، قَالُوا نعَمْ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَينَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واحدة من الآيات التى تصور الحوار الذى سيدور بين أهل الجنة وأهل النار. بعد أن يستقر مصير كل منهما.

وهنا ينادى أصحاب الجنة أصحاب النار يسألونهم سؤال عالم بما لقوا من سوء مصير، فلا يسع أهل النار إلا أن يعترفوا بسوء مصيرهم، فقد فات وقت الكذب. وبينما هم يتحدثون إذ بملك يأمره الله فيعلن أن لعنة الله على الظالمين، ويعرف أصحاب النار أنهم هم الظالمون فيزداد غيظهم، وتشتد حسرتهم على ما فرّطوا فى جنب الله فى الحياة الدنيا. وفى آيتنا هذه جاء هذا الاستفهام خطابا من أهل الجنة إلى أهل النار:

- (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا)؟

وسياحة سريعة فى مصنفات سادتنا المفسرين تريك أن المراد من الاستفهام إظهار الشماتة بأصحاب النار وتحسيرهم بما صاروا فيه من عذاب أليم مقيم[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام صالح لما حمله عليه السادة المفسرون، بيد أنه لايقف عند حد ما ذكروه لذلك فإن أبا حيان أجاد فهما عندما أردف على المراد منه: التقريع والتوبيخ وتوقيف أصحاب النار على التفاوت بين الفريقين.

أسرار النظم وبلاغياته:

* التعبير بـ (**أصحاب**) فى الجانبين للدلالة على خلود أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، بحيث لاينفك فريق منهما عما هو فيه. فالمصاحبة هى الدوام.

* ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير لشأن محذوف: أى الشأن والحال وجود النعيم الذى وعدنا ربنا به، وأكدوا ذلك بـ (قد) المفيدة لتحقق الوقوع. وإيثار (رب) من بين أسماء الله الحسنى لما فيه من جميل الألطاف وكريم الإنعام وحسن الرعاية.

﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ الفاء للتفريع على ما تقدمها وإيثار (هل) على الهمزة إيحاء لهم بصدق الإجابة، وتحقيق واقعهم فيها. وحذف المفعول فى (**وعد ربكم**) إيجاز بالحذف لدلالة الأول (وعدنا) عليه. وفصلت جملة (**قالوا نعم**) لأنها جواب عن الاستفهام. وفى الجواب إيجاز بالحذف إذ التقدير: نعم وجدنا ما وعد ربنا حقا . . وسر الحذف - فيما نرى - ضيق أهل النار وشغلهم بما هم فيه. أو هو تصوير وإيحاء إلى ذلك الضيق الخانق.

* ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ تنكير (**مؤذن**) للتهويل والتفخيم كما يقتضى المقام، وفى (**الظالمين**) كناية لطيفة عن أهل النار.

* * *

(١) الكشاف (٢/ ٨٠) أبو السعود (٣/ ٢٢٩) البيضاوى (١/ ٣٣٩) روح المعانى (٨/ ١٢٣) البحر المحيط (٤/ ٣٠٠) تفسير المنار (٨/ ٣٧٨) والتحرير والتنوير (٩/ ١٣٦).

٧ - ﴿أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَيَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

الدراسة والتحليل:

ما يزال الحديث متصلا بالحوار الذى يدور بين رجال الأعراف وأهل الموقف يوم القيامة. وقبل هذه الآية قوله تعالى: (**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، قالوا: ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون**) ثم جاءت آيتنا: ﴿أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَيَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ فهذه الآية من مقول القول المسند إلى أصحاب الأعراف. أى أنهم قالوا لهؤلاء الرجال: ما أغنى عنكم جمعكم ولا استكباركم أهؤلاء الذين...؟

فما المراد من هذا الاستفهام: أهؤلاء؟ جميع الأئمة، لم يقولوا فيه شيئا إلا الشيخ الطاهر بن عاشور فقد قال إنه للتقرير[1].

والخلاصة: أن التقرير وحده لا يفى بما فى هذا الاستفهام من معان لأنه بعد أن قررهم بموقفهم من المشار إليهم بـ (هؤلاء) انتقلوا إلى تكذيبهم فيما قرروهم به، وهو حرمان المشار إليهم عندهم من رحمة الله ورضوانه.

وهذا كان زعمهم فى الحياة الدنيا. فالتكذيب والتوبيخ والتحسير معان لازمة فى هذا الاستفهام والتقرير منشؤها ومبدؤها.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى إيثار اسم الإشارة (**هؤلاء**) الموضوع للقريب مكانا تناسب رائع للمقام الوارد هو فيه؛ لأن هذه الإشارة حسية، المطلوب فيها إيقاع نظر المخاطبين على الذين أشير إليهم. وهذا يناسبه القرب لتمكين الرؤية من المرئى.
* (**ادخلوا الجنة**) أمر تكريم للمخاطبين الذين كانوا مشاراً إليهم فى قول أصحاب الأعراف. وأمر إهانة بالنسبة لمن أقسموا أنهم لاينالهم الله برحمة. وزيادة تبكيت لهم بعد تكذيبهم وتوبيخهم على ما زعموه فى الحياة الدنيا من أن فقراء المؤمنين

---

(١) التحرير والتنوير (٩/١٤٦).

لايرحمهم الله ولايستحقون الرحمة لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا.

* ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فصلت هذه الجملة **(لاخوف عليكم)** عن: **(ادخلوا..)** لكمال الانقطاع لاختلافهما إنشاء وخبرا. وعطفت جملة **(ولا أنتم)** على ما قبلها بالواو للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما معاً فى الخبرية، وفى خطاب المؤمنين بعد خطاب أهل النار التفات على مذهب من لا يشترط اتحاد الضمير.

* * *

٨ - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ، قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الدراسة والتحليل:

هذا مشهد حى من المشاهد التى سيعيشها المكذبون بما أنزل الله يوم القيامة. فهؤلاء المكذبين ليس أمامهم بعد كفرهم إلا شىء واحد. فلا رسول يبعث من جديد بعد محمد ﷺ ولا كتاب ينزل بعد القرآن ولا معجزات تظهر فقد كفى الله الإنسانية بيانا وهدى بالرسالة الخاتمة، إذن لم يبق أمام هؤلاء المكذبين إلا شىء واحد، هو معاينة صدق ما كذَّبوا به وهو ماثل بين أيديهم ومن خلفهم، ويومئذ سيؤمنون بما كفروا به، ولكن بعد فوات الأوان، ثم يتمنون لو كان لهم شفعاء من النار، أو العودة إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ما أفسدوه، وما لهذا من سبيل. يتبين لهم هذا بعد أن يدركوا أنهم خسروا أنفسهم، ولم يروا شركاءهم إلا وهما من أكذب الأوهام.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان: **(هل ينظرون؟)** ثم **(فهل لنا من شفعاء)**.

والاستفهام الأول للإنكار أو النفى بإجماع أهل العلم أما الثانى **(فهل لنا من شفعاء)** فيحتمل أن يكون حقيقيا يوجهه بعضهم إلى بعض.

وأن يكون إنكاريا يقرون هم به فيما بينهم: أى ليس لنا شفعاء، ويحتمل أن يكون للتمنى[1].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: (٩/ ١٥٦).

والخلاصة: أن **الاستفهام الأول** متـردد بين الإنكار والنفـى، والذى نميل إليـه هو النفى؛ لأنه لايواجه من يدعى ثبوت غيره. **أما الثانى:** فنرجح أنه للتمنى لشدة الهول الذى هم فيه، ويتبعه معان أخرى كالتحسر والتندم وخيبة الآمال.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ التأويل فى الأصل هو عودة الشىء إلى مآله وحـقيقته. ويستعـمل فى الكلام الدقيق المعنى إذا فُسِّـر معناه بوجه من وجوه الحـمل والبيان. وأيا كان فالتـأويل هو الكشف والظهور. وقد استـعمل - هنا - مجازاً حـيث شُبِّه ظهور ما أنبأ الله عنه أنه سيكون من وقائع يوم القـيامة بالشرح والبيان لمعنى الكلام الغامض، بجامع إزالة الخفـاء فى كل. فهو استعارة تصريحـية أصلية، وفى الجملة قصر إضافى بالنسبـة للمتحدث عنهم وأيا كان فالكلام مستـعمل فى التهديد لا فى مجرد الإخبار؛ والاستفهام وإن كان إنشائيا فهو للإنكار أو النفى، وهما خبران فى المعنى.
* ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُـولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ فصلت هذه الجـملة عما قبلها لأنـها منها بمنزلة عطف البيان، فبين الجملتين كمال اتصال.
والنسيان مـجاز عن الإعراض أو الكفر، استـعارة معقول لمعقـول والجامع هو عدم الاكتراث فى كل.
(قد خسروا أنفسهم) كناية من أبدع الكنايات عن الضـياع والمَحْق، لأن من يخـسر نفسه فقد خسر ما عداها من كل شىء.
* ﴿وَضَلَّ عَنهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ التركيب كله كناية عن الإحباط والفجيعة. حيث وجدوا أنفسهم صائرين إلى الهلاك. مع اليأس القاتل. والمصير المشئوم.

* * *

٩ - ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

الدراسة والتحليل:

لما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قال رؤساء قومه وسادتهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ متهمين إياه بالضلال فقال فى الرد عليهم: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم التفت إليهم التفاتة زاجرة موبخة، فقال:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أى هل فى ذلك عجب واستغراب أن جئتكم رسولاً من عند ربكم ليخوفكم إن استمررتم فى كفركم من عذاب الله راجيا هدايتكم لتكونوا أهلا لرحمة ربكم فتعجب من عجبهم واستبعد أن يكون.

وهذا الاستفهام: (**أوعجبتم**) أطبق أهل العلم أنه للإنكار(١).

وخلاصة ما يقال فيه أنه للإنكار والتوبيخ والتهديد لأن من يستبعد أن يكون لله رسل لايُقَر على هذا الاستبعاد ثم يكون أهلاً للتوبيخ والتهديد بالمصير السىء الذى سيصير إليه.

وهكذا سلك نوح عليه السلام مع قومه، لم يقرهم على عجبهم؛ لأنه عجب فى غير موضع العجب.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾** أصل التركيب: أعجبتم.. فدخل حرف العطف (**الواو**) فكان الأصل أن يقال: (**وأعجبتم**) ولما كان الاستفهام له الصدارة فى الكلام قدِّمت الهمزة من تأخير فصار التركيب (**أوعجبتم**) وهذا هو مذهب الجمهور الذى أشرنا إليه من قبل مرات، أعدناه هنا للتذكير.

أما على رأى الزمخشرى - وجماعة - فلا تقديم ولا تأخير والعطف عنده على

---

(١) أبو السعود (٣/ ٢٣٦) البيضاوى (٢/ ٣٤٤) روح المعانى (٨/ ١٥٣).

مقدر ينسحب عليه الكلام، كأن يقال هنا: أقلتم ما قلتم وعجبتم. وقد تقدم أن من أشهر من تابع الزمخشرى على هذا الرأى أبا السعود والألوسى، وهم الثلاثة لم يلتزموا به فى كل موضع.

* ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو المتعجب منه عند قوم نوح. وإسناد المجىء إلى «ذكر» مجاز عقلى علاقته المفعولية والتقدير: أن أتاكم ربكم ذكرا. وسر هذا الإسناد المجازى الإشارة إلى تدفق ذلك الذكر ووفرته وسرعة حصوله، حتى لكأنه أتى بنفسه لإنذارهم وهدايتهم وتنكيره - كما يدل المقام - للتعظيم ونسبة هذا الذكر إلى (ربكم) بإضافة (رب) إلى ضمير المخاطبين تودُّد من الداعى وتلطف فى الخطاب ليستميل قلوبهم ويرغبهم فيه، ولإقامة الحجة عليهم إذا أعرضوا، كما أن فى هذه الإضافة تفخيماً لهذا الذكر.

* وفى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إيجاز بالحذف فى ثلاثة مواضع: والتقدير: لينذركم عذابه، ولتتقوا ذلك العذاب وليرحمكم ربكم.

* * *

١٠ - ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

الدراسة والتحليل:

هذه بداية الحديث عن قصة هود مع قومه عاد فى سورة الأعراف، والحديث عنها معطوف على بداية الحديث عن قصة نوح فى هذه السورة.

واجه هود قومه بأن يعبدوا الله، مُعللا هذا الأمر بأن عاداً - وغيرهم - ليس لهم إله غيرُ الله. ثم ورد هذا الاستفهام:

(أفلا تتقون) ويبدو أن ما ورد هنا فى مواجهة هود عليه السلام لقومه تكرار للدعوة، وأنه لحظ عليهم مع تكرار دعوتهم أنهم معرضون، فاستبعد هذا الموقف منهم، وضاق بهم قائلا: **(أفلا تتقون)**.

وفى المراد من هذا الاستفهام قال الأئمة:

- أبو السعود: (**أفلا تتقون**) إنكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد أن علموا ما حل بقوم نوح. والهـمزة للعطف على مقدر يقتضيـه المقام: أى ألا تتفكرون أو أتفعلون فلا تتقـون فالتوبيخ على المعطوفين معاً أو: أتعلمون فلا تتـقون. فالتوبيخ على المعطوف فقط»[1]، يعنى أن الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أما الألوسى فبعد أن جارى أبا السعود على أن الاستفهام للإنكار أردف قائلاً: «وقيل الاستفهام للتقرير والفاء للعطف»[2].

القول فى موضع استفهامى واحد أنه للإنكار أو التقرير قول سائغ باختلاف النظر: فمن نظر - هنا - إلى مآل الاستفهام وحكمه عند العـقلاء قال إنه للإنكار، لأن عدم التقوى بعد هذه النصائح لا يتولد عنه غير التقى.

ومن نظر إلى مبدأ الاسـتفهام وأن المستـفهم يريد أن يعترف المخـاطب بما يصفه به المتكلم قال بالتقرير. وعلى كل منهما تتبع هذا الاسـتفهام معان أخرى لاتختلف عند من قال بالإنكار ومن قال بالتقرير ومن أبرز هذه المعانى التوبيخ والتحذير.

وخالف الإمـام أبو حيـان فى المراد من الاستفـهام فـقال: (**أفلا تتقون**) استعطاف وتحضيض على حصول التقوى»[3] ونرى أن ما ذكره أبو حيان ليس مستقلا بنفسه، بل هو من المعـانى التى تردف على المراد من الاسـتفـهام أصـالة إذ لا تزاحم ولا تدافع بينها.

ويقول الشيخ رشيـد: الاستفهام للإنكار، واستبعـاد عدم الإيمان والإذعان بعد أن كان من عقابه تعالى قوم نوح ما كان»[4].

أما ابن عاشـور فيقول: (**أفلا تتقون**) جملة استفـهامية معطوفة بفـاء التفريع على جملة (ما لكم من إله غيره)[5].

والخلاصة: أن الذى نميل إليـه أن المراد أصـالة من هذا الاسـتفـهـام هـو الإنكار، ويردف عليه من المعانـى ما يناسب المقام من التوبيخ والزجر، ثـم الحث على تحصيل التقوى.

---

(١) أبو السعود (٣/ ٢٣٧) وقوله المعطوفين خطأ والصواب: المتعاطفين.
(٢) روح المعانى (٨/ ١٥٥).
(٣) البحر المحيط: (٤/ ٣٢٣).
(٤) تفسير المنار (٨/ ٤٤٢).
(٥) التحرير والتنوير (٨/ ٢١٢).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ الواو لعطف جملة (أخاهم هودا) على جملة (**لقد أرسلنا نوحا**) أى وإلى عاد أرسلنا أخاهم هودا. فهو إيجاز بالحذف. وعاد مجاز مرسل عن القبيلة التى تفرعت من صلبه؛ لأنه الجد الأعلى لهم، والعلاقة السببية. وفى (**أخاهم**) مجاز استعارى حيث شبه مطلق القرابة بقرابة الأخ الصلبى بأخيه. وفى إيثار هذا الوصف «الأخوة» تسجيل على عاد بقبح الإعراض عن دعوته؛ لأنه منهم والرائد لايخدْع أهله، و(**هوداً**) بدل أو عطف بيان على (**أخاهم**) وفى تقديم (**أخاهم**) على (**هوداً**) للاهتمام بالوصف الذى تقوم به الحجة عليهم. وتقديم الجار والمجرور (**إلى عاد**) على (**أخاهم هوداً**) لئلا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة لو قيل أخاهم هوداً إلى عاد. فإن الضمير كان حينذاك سيعود على (**عاد**) وهو متأخر فى اللفظ وفى الرتبة.

(**قال ياقوم**) فصلت هذه الجملة عما قبلها فلم تعطف لا بالواو ولا بغيرها. وفى هذا الفصل عدة تفسيرات أشهرها أنه للاستئناف البيانى لوقوعها جوابا عن سؤال مقدر.

ويرى ابن المنير فى تعليقاته على الكشاف أن ترك الوصل هنا إشارة إلى استقلال كل من الجملتين عن الأخرى. قال والوصل يقتضى جعلهما شيئا واحداً. أما ابن عاشور فله مذهب قد أشرنا إليه من قبل خلاصته أن سبب ترك الوصل - أى العطف بالواو - هو وقوع هذه الجملة فى أسلوب المحاورات.

والذى نميل إليه هو مذهب البلاغيين، وهو أن هذا الفصل لشبه كمال الاتصال والاستئناف البيانى ومن المباحث المتعلقة بهذه الجملة، هذا التساؤل: لماذا عطفت جملة نوح قبيل هذه بالفاء (فقال) ولم تعطف جملة هود بالفاء مثلها؟

وفى هذا إجابتان:

الأولى: ما ذكره الألوسى من سرعة مواجهة نوح لقومه بالتبليغ، وبطء هود فى ذلك؟ وهذا وَهْمٌ - فيما نرى - لا دليل عليه.

الثانية: فى قول نوح كـان ابتداء كلام عن الرسل فى سـورة الأعراف . . فلم يك هناك داعٍ لنشوء سؤال فى الذهن تُفصَل من أجلـه الجملة. وفى قول هود تثنية للكلام فمن الوجيه أن ينشأ هذا السؤال. عرفنا ما قاله نوح فماذا قال هود؟

* ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ النداء: يا قوم بالإضافـة إلى ضمير المتكلم «المنادى» تليين وتـلطيف فى الخطاب رغبـة فى الإقـبال عليـه وتصديق مـا يقول. والأمر فى **(اعبدوا الله)** للإيجاب متضمناً معنى التوحيد، ودخول **(من)** على **(إله)** مسند إليه لإفادة الاستغراق والاستـقصاء، أى الدلالة على انعدام ألوهية غير الوهية الله انعداما كاملاً.

* * *

١١ - ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٦٩-٧٠].

الدراسة والتحليل:

لقطة سريعـة، ولكنها ذات بال، من المواجهـة بين هود عليه السلام وقومـه عاد، تعرضهـا هاتان الآيتان: تذكير وإرشـاد مخلص من هود وتحدٍّ حاد من قـومه ذكرَّهم بنعم الله عليهم، وأبصرهم مكان المنة فيها، وحثهم على الاستقامة وشكر المنعم لكى يفلحـوا عاجلا وآجـلا. ولكنهم - لجـهلهم - أغلظوا له القول، وأوصلوه إلـى غاية التيئيس منهم. كذّبوه وآذنوه أن يأتيهم بالعذاب الذى يتوعدهم به، إن كان صادقا فيما يقول.

وقد ورد فى الآية الأولى هذا الاستفهام **(أوعجبتم)** وقد مرَّ بنا مثله فى قصة نوح منذ قليل. والقول فـيهمـا سواء فكلاهما للإنكـار والتوبيخ فلا داعى لتكرار مـا قيل فيهما. أما الاستفهام الثانى فى الآية الثانية:

﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ فهو للإنكار عند الأئمة[1] أى إنكار الواقع الذى كان هود يدعو إليه. وهو إفراد الله بالعبادة. ومحط الإنكار هنا هو دعوة هود إلى التوحيد. مع ترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم من قبل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ هذه العبارة وردت فى كلام نوح وكلام هود عليهما السلام. وفيهما لمحتان بلاغيتان: إحداهما وضع المظهر **(رجل)** بدل المضمر **(علىَّ)** وسره البلاغى التجرد عن الأنانية، ولاشتماله قلوبهم إلى مايدعو إليه. ولإمكان دخول «من» البيانية على ضمير المخاطبين (كم) وتنكير (رجل) لإظهار التواضع والتودد إليهم.

والثانية الإيجاز بالحذف فى **(على رجل)** والتقدير على لسان رجل منكم.

* ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ الواو للاستئناف والانتقال من إنكاره تعجبهم من إرساله إلى تذكيرهم بنعم الله عليهم. والجمل المعطوفة عليها للترقى فى التذكير. وفى ﴿زَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ كناية عن صحة الأجسام وقوتها والسلامة من العلل.

﴿فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ﴾ عطف عام، وهو الآلاء والنعم، على خاص، وهو الخلافة وبسطة الخلق وسره الترقى فى التذكير والشكر. وبيان أن نعم الله عليهم الواجب شكرها لم تقف عند الخلافة وقوة الأجسام.

وفى **(اذكروا)** كناية عن الشكر؛ لأنه يستلزم الذكر، وإضافة الآلاء إلى الله للتعظيم والتفخيم.

* ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لشبه كمال الاتصال. وفى (جئتنا) استعارة تصريحية تبعية شُبّه فيها بعث هود نبيا فيهم، وهو أمر معنوى بالمجىء، وهو أمر حسى، والجامع بينهما هو مطلق الحضور فى كل منهما.

والمنكر بالهمزة هو مجموع الأمرين: - عبادة الله وحده.

---

(١) الكشاف (٢/ ٨٧) أبو السعود (٣/ ٢٢٩) روح المعانى (٨/ ١٥٧) البحر المحيط (٤/ ٣٢٥) البيضاوى (٢/ ٣٤٥) التحرير والتنوير (٨/ ٢٠٧).

- ثم ترك عبادة الأصنام، وكأنهم بهذا يلوحون له بأن الجمع فى العبادة بين الله والأصنام ليس منكراً عندهم.

* ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ الأمر للسخرية والتكذيب لاعتقادهم أنه كاذب فى ما يقول من تهديد ووعيد.

* ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تهييج وإلهاب ليحملوه على أن يفعل ما أمروه به. وهذا ينادى عليهم بكمال البلاهة والحمق. لأنهم يستعجلون حتفهم وهلاكهم ويلحون عليه فى إنزال البلاء من عند الله بهم وهذا قمة الحماقة والجهل.

* * *

١٢ - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

الدراسة والتحليل:

لما حملت الحماقة قوم هود أن يُلحوا عليه لينزل بهم ما أوعدهم به على استمرارهم فى كفرهم، بعد أن ذكرهم بنعم الله عليهم، وحذَّرهم من عقابه، قال لهم قد حلَّ بكم من ربكم ما استعجلتموه، ثم التفت إليهم محذراً وموبخاً فقال:

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾؟

وفى هذا الاستفهام وردت التفسيرات الآتية:

أبو السعود: «أتجادلوننى: إنكار واستقباح لإنكارهم مجيئه عليه السلام.. أى أتجادلوننى فى أشياء سميتموها آلهة..»[١].

وردد الألوسى عبارة أبى السعود نفسها[٢].

أبو حيان: (**أتجادلوننى**) هذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لاينبغى فيه خصام[٣].

والخلاصة: لاريب أن هذا الاستفهام للإنكار ولكن هذا الإنكار تتبعه معان أخرى هى الزجر والتوبيخ والتجهيل. فهو يُنكر مجادلتهم إياه فى الأصنام ويزجرهم على

---

(١) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٤٠). (٢) روح المعانى: (٨/ ١٥٩).
(٣) البحر المحيط: (٤/ ٣٢٦).

وقوعها، ويوبخهم على شناعة دعواهم وينسب إليهم الجهل الذى غيَّب عنهم الرؤى الصحيحة لحقائق الأمور:

أسرار النظم وبلاغياته:

* من البديه أن فصل جملة (قال) عما قبلها لشبه كمال الاتصال. فإن النفس لتسأل بعد ذلك التحدى العنيف من قومه: (**فأتنا بما تعدنا**) ماذا قال لهم هود لما أغلظوا هذا القول. فجاءت جملة (قال) إجابة على ذلك التساؤل المخبوء.

* ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ هذا الخبر مراد به التهديد الشديد ليكافىء ذلك العناد الذى أبدوه، وقد أكده بـ (**قد**) مؤذنا بأنه واقع لامحالة.

وتقديم (**عليكم**) على (**من ربكم**) لتعجيل المساءة إلى هؤلاء القوم المتمردين، ونسبة الوعيد إلى (**ربكم**) لتفخيم وتهويل شأنه.

والفصل بين الفعل (**وقع**) والفاعل (**رجس**) بالظرفين (**عليكم من ربكم**) تأكيد للمسارعة بما يقرع أسماعهم من الأهوال. ولو جاء النظم بتأخير الظرفين لفات هذا التعجيل، لاحتمال وقوع الغضب على غيرهم ابتداءً.

* وفى (**وقع**) استعارة فى زمن الفعل، حيث شُبِّه الوقوع فى المستقبل بالوقوع فى الماضى فى تحقق الوقوع فى كل منهما وزانه قوله تعالى (**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**) وأمر الله هنا هو البعث من القبور[1].

* وفى الجمع بين الرجس والغضب جمع المسبب والسبب بتقديم المسبب وهو الرجس «على السبب، وهو الغضب.

والرجس هو الاضطراب، ولايكون نقمة إلا إذا كان منشؤه غضبا من الله، وتنكير (**رجس وغضب**) للتهويل والتفظيع.

* ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ...﴾ إيثار المضارع للإعلام بأن المجادلة تتكرر منهم مصرِّين عليها حينا بعد حين وعبَّر عن الأصنام بـ (أسماء) كناية عن عدمها فهى مجرد أسماء لامُسمَّى لها هو إله. بل هى جماد أو فى حكم الجماد.

---

(١) يرى بعض المفسرين أن «وقع» هنا بمعنى حق وثبت وعلى هذا الرأى فلا مجاز فى هذا الفعل.

وعطف (**آباؤكم**) على ضمـير المخاطبين (أنتم) لاحـتجاجهم فـيما تقدم بالاقـتداء بآبائهم. والمراد بالآباء الآباء الأدنين والأجداد الأقـربين والأبعدين. ففى العـبارة الفن البـلاغى المسمـى بـ (التغليب) وغَـلَّبُوا وصف الأباء علـى الأجداد لقـرب الآباء من المجادلين زمنا وأقواهم بهم صلة.

﴿مَانَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ كناية عن بطلان الاعتـقاد فيـها. والسلطان الدليل والبرهان. وفى تشبيـه الدليل بالسلطان استعارة تصريحية أصلية والجـامع بين المستعار منه والمستعار له (**السلطان - الدليل**) هو قوة النفوذ ووجوب الانقياد ودخول (**من**) على (**سلطان**) لاستغراق النفى الشامل لجميع أفراد الأدلة عظيمها وحقيرها.

* ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّى مَـعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ الأمر للتهديد وشـدة الوعيد، وفى انتظروا استعـارة تهكمية لأن الانتظار والترقـب الأصل فيهما أن يكونا لـلشىء المحبوب.

واستعمل هنا فى المكروه. وفى حذف مفعول (**انتظروا**) تهويل لشأنه وإيماء إلى أن اللغة لاتكفى في تصويره لفظاعته.

وفى توكيد الخبر فى ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ إشارة إلى تحقق وقـوع المتوعد به. فانتظارهم له عذاب، وانتظاره هو عليه السلام شماتة.

* * *

١٣ - ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّـذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف: ٧٥].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية واحدة من آيات الحـوار بين صالح عليه السـلام وقومه من جـهة، وبين قومه بعضهم بعضا من جهة أخرى.

والملأ هم علية القوم، وقادة الرأى فيها. ولما حاصرهم صالح عليه السلام بالدعوة إلى التـوحيد ضـاقوا به ذرعـا فالتـفت هذا الحشـد من قومـه إلى عامـة الناس، أو المستضعفين الذين لا حول ولا قوة لهم فى المجتمع، وكان منهم فريق قد آمن برسالة صالح، فتوجه لهم السادة من قوم صالح قائلين:

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ؟﴾.

قال أولئك الضعفاء: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ولكن السادة صاحوا قائلين: ﴿إِنَّا بِالَّذِى آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وبهذا انتهى اللقاء بين من كفر مـن قومه ومن آمن ولكن ماذا أراد الذين كفروا من هذا الاستفهام.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ؟﴾.

الإمام جار الله يقول: إن المراد منه - حسب مقصدهم -: السخرية[1].

وكذلك أبو السعود[2] والألوسى[3]. وأبو حيان[4].

وعبارات هؤلاء الأئمة الأربعة موجزة وشديدة التقارب.

أما الشيخ رشيد رضا فيقـول: «قيل: إن السؤال للتهكم والاستهزاء. ولا مانع من جعله استفهاماً حقيقياً»[5].

وقال ابن عاشور: «والاستفهام للتشكيك والإنكار»[6].

والخلاصة: أن ستة من الأئمة جـعلوا الاستفهام - هنا - مجـازيا، وحصروا معناه فى الإنكار، ما عدا واحداً، هو رشيد رضا، جوَّز أن يكون استـفهاما حقيقيا. ولكن كون السائل هم السادة والأشراف والمسئول عامة الناس، أو الإذلاء فى المجتمع يحول دون حمل هذا الاستـفهام على الحقيـقة؛ لأن أشراف الناس فى كل عصـر ومصر لا يرون لأحدٍ معـهم وجوداً فكيف ينزلون من عليائهم وغـرورهم ليسألوا «العـبيد» فى نظرهم عن موضوع له خطورة بالغة.

فالأقـرب إلى الواقع أن هذا الاسـتفهـام كان بقـصد زعـزعة إيمان المسـتضـعفين وتشكيكهم فى صـدقه، لئلا يلتـفوا حوله ويكونوا له أعـوانا يهدد بهم أمنهم. فـهو استفـهام إنكار وسخرية وتشكيك. ويدل على هذا إصرارهم على تكذيبـه بعد إعلان المستضعفين إيمانهم به.

---

(١) الكشاف (٢/ ٩٠).

(٢) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٤٣).

(٣) روح المعانى (٨/ ١٦٤).

(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٣٠).

(٥) تفسير المنار (٨/ ٤٤٨).

(٦) التحرير والتنوير: (٨/ ٢٢٢).

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ هذه الجملة جاءت مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال. حيث نُزّلت منزلة الجواب على السؤال الذى نشأ عن محاورة صالح لقومه ودعوتهم إلى الاستقامة ونهيهم عن الإفساد فى الأرض فى الآية التى سبقت هذه الآية مباشرة.

والملأ فى كل أمة هم ذوو السطوة فيها. بما كان من جاه وسلطان ومال ورياسة. وهم أعداء الرسل فى عصرهم وأعداء دعوات الإصلاح من بعدهم إلا من عصم الله منهم.

وقد وصفهم القرآن بـ (**الذين استكبروا**) ولهذا الوصف مغزى بيانى رائع. إذ هو احتراس جميل لدفع معنى غير مراد.

ذلك أنه لو لم يذكر هذا الوصف لفهم أن جميع «الملأ» كانوا قد كفروا برسالة صالح. وهذا لاوجود له، لأن من الملأ من قد آمن به. فهذا الوصف جاء للتخصيص أى تخصيص الكفر بالذين استكبروا من قوم صالح، دون الذين لم يستكبروا من أشرافهم.

* ﴿أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أُكِّد الخبر فى جملة الاستفهام لأن (الملأ) كانوا ينكرون على المستضعفين أن يكونوا مؤمنين حقا بصالح عليه السلام. وإيثارهم (**مرسل**) على (**رسول**) تصوير لما فى طوايا أنفسهم من كراهية إثبات الرسالة لصالح لأن (**رسول**) أثبت معنى من (**مرسل**) فالأول شبيه بمعنى المصدر (**الرسالة**) وهو أثبت من المشتقات. و(**مرسل**) من الفعل: (**أرسل**) ففيه حدوث وطروء.

وكذلك فإن (**رسول**) اسم يدل على الثبوت المستمر و(**مرسل**) اسم مفعول شبيه بالفعل، وهو لاثبات فيه.

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فصلت هذه الجملة لأنها جواب الجملة الاستفهامية. ولا داعى لتقدير سؤال آخر تكون هى جوابا عليه كما تقدم[1].

---

(١) انظر (٣/٤٨) من هذه الدراسة.

والآية: أشبه ما تكون بالأسلوب الحكيم؛ لأنهم سألوهم عن صحة الرسالة فأجابوهم بما هو أولى، وهو الإيمان بها.

* * *

١٤ - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية صرخة مدوية من صرخات المعلمين الكبار ، وهم الرسل، نرى فيها لوطاً عليه السلام ينبرى لقومه لا ليدعوهم إلى عقيدة التوحيد كما صنع نوح من قبله، وهود وصالح، ولكن ليعيدهم إلى الفطرة الألهية السليمة وينتشلهم من بحر الرذائل والقبائح الخلقية. حين رآهم ينتكسون ويفسدون فى الأرض إفساداً لم تعرفه الكلاب تلك المخلوقات الخسيسة، المضروب بها المثل فى الامتهان والحقارة.

وقوم هذا شأنهم أحقر من أن يُدْعَوْا إلى شرف الإيمان بالله، حتى يعودوا إلى مصاف الإنسانية التى انسلخوا عنها فهَوَوْا أسفل سافلين. لذلك بدأ لوط بالصيحة المدوية يكشف لهم قذارة سلوكهم، وانفرادهم بهذه المعصية التى لا سابق لهم فيها:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾؟ والفاحشة التى كانوا يرتكبونها اعلنها لوط عليه السلام فى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فما أقبح الفاعل والمفعول به؟

وهذا الاستفهام يجمع الأئمة أنه استفهام مجازى المراد منه: شدة الإنكار والاستقباح. وهذه خلاصة ما قيل وما يقال فيه.

ولم يسم النظم قوم لوط ولا قوم نوح كما سمى قوم هود (عاد) وقوم صالح (ثمود) لأن قومى نوح ولوط لم يكن لهما اسم محدد يعرفون به.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ «لوطا» منصوب بالعطف على نوح فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقد مرت قصته منذ قريب. ففى العبارة إيجاز بالحذف،

حذف العامل (أرسلنا) وبقاء المعمول (لوطا) ولم يوصف (لوط) بالأخوة لقومه، كما وصف (هود وصالح) لأن لوطا لم يكن من أهل قرية (سدوم) الذين أرسل إليهم، فلم تكن بينه وبينهم قرابة نسب تشبه بعلاقات الأخوة. ومثله نوح عليه السلام.

أما هود وصالح فكانا من قوميهما، فوصفا بالأخوة، وهذا من الأسرار الدقيقة التى يرمز إليها النظم القرآنى الحكيم.

* ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ فى أتأتون كناية لطيفة عفيفة عن ممارسة الفعل القبيح. والفاحشة اسم لما يستقذر من المعاصى الخُلُقية. من فحُش الشىء إذا قبح واستقذر ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ هذا التركيب برمته تبشيع وتفظيع لبدعة قوم لوط. ودخول (من) على (أحد) لإفادة استغراق النفى، أى لم يسبقهم بها أحد قط.

و (**العالمين**) جمع عالم بفتح اللام. وسر وروده جمعاهنا للدلالة على أن فاحشة قوم لوط لم يفعلها قبلهم فاعل من جميع العوالم. الإنس والجن، وجميع الحيوانات والدواب والحشرات. فهم أوْحديون فيها. مبتدعون إياها لذلك أطاح اللّه بهم شر إطاحة. فأمطر اللّه عليهم مطر السوء. وقلب قريتهم فجعل عاليها سافلها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

* * *

١٥ - ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

الدراسة والتحليل:

وهذه لمحة من ملامح قصة شعيب عليه السلام مع قومه حين دعاهم إلى عبادة اللّه وحده. ونهاهم عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن صدهم عن سبيل اللّه، وإفسادهم فى الأرض كما ورد فى الآيات السابقة على آيتنا هذه، وضاق به قومه ذرعا فصرخوا فى وجهه، وهددوه بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم، إلا إذا اختاروا الدخول فى ملتهم المعوجة. فلما سمع شعيب قولهم قال: (**أولو كنا كارهين**).

وهذا الاستفهام عند الأئمة استفهام مجازى للإنكار أى يُنكر عليهم شعيب أن يدخل هو والمؤمنون معه فى ملة القوم.

يقول أبو السعود: «الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه لا لإنكار الواقع واستقباحه»[١].

وكذلك فسره الألوسى فقال: «أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة إنكاراً لما تفيده كلمتهم الشنيعة» [٢].

وأبو حيان ذهب نفس المذهب مع زيادة التوقيف على شناعة المعصية الواردة فى تهديد قومه[٣]، وكذلك البيضاوى[٤].

اما ابن عاشور فهو عنده للتعجيب من الإكراه على دخولهم فى ملتهم [٥].

والخلاصة: أن حمل هذا الاستفهام على الانكار والاستقباح بل والتعجب مذهب صحيح. فهو صالح - هنا - للإشعاع بكل هذه المعانى. وفيه - فوق ذلك - تلبيين فى الخطاب وإنباء عن سعة صدر رسول اللّه شعيب عليه السلام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ أكدوا الفعل باللام والنون لبيان إصرارهم على ما هدَّدوا به طامعين أن يحقق لهم هذا التهديد العنيف مطلباً من مطالبهم تجاه المؤمنين.

والتصريح باسم (**شعيب**) وإبداله من الضمير المستكن فى (**لنخرجنك**) زيادة فى التحدى وأنهم لا يقصدون بالمخاطب فى (**لنخرجنك**) غير شعيب والظرف (**معك**) يحتمل أمرين:

- أن يكون للمصاحبة فى الإخراج. أى نخرجنك أنت ونخرج معك الذين آمنوا.
- أو يكون للمصاحبة فى الإيمان، أى نخرجنك ونخرج المصاحبين لك فى الإيمان.

وعلى هذا يكون الإيمان هو علة الإخراج.

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ٢٤٨).
(٢) روح المعانى (٩/ ٢).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٣٤٢).
(٤) تفسير البيضاوى (٢/ ٣٤٩).
(٥) التحرير والتنوير: (٩/ ٦).

وتقديم (المُخرُج) وهم شعيب والمؤمنون. على المُخَرج منهُ وهو القرية؛ لأن الإخراج هو الأهم عندهم لما فيه من شفاء صدورهم من رؤية المؤمنين.

* ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها إستئناف بيانى: أى أتخرجوننا على كل حال رضينا أم كرهنا؟

* * *

١٦ - ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ، فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

الدراسة والتحليل:

جاءت هذه الآيات الثلاث ضمن آيات وردت فى أعقاب قصص أقوام نوح وهود وصالح، ولوط وشعيب. وهى أقوام غلب عليها الجهل والكفر بما أنزل اللّه، وشقوا عصى الطاعة فى وجه كل رسول بعث إليهم وكانت هذه الآيات قد بدأت عقب قصة شعيب وهى آخر القصص التى ذكرت فى تلك المجموعة المشار إليها. بعدها ورد قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وبعد هذه الآيات مباشرة جاءت آياتنا الثلاث التى صُدِّرتْ كل آية منها بالاستفهام على الوجوه الآتية:

(أفأمن) - (أو أمن) - (أفأمنوا)؟

فالاستفهام الأول متعلقه مجىء العذاب ليلاً. والاستفهام الثانى متعلقه مجىء العذاب نهاراً. والاستفهام الثالث متعلقه مكرُ اللّه.

والهـمزة فى المواضع الثـلاثة للإنكار والنفى، أى أن اللّه تعـالى ينكر عليـهم أمن عذابه أن يأتى فى الوقت الذى يريده لا معقب لما أراد. وهم فى غفلة منه.

فالإمام جار اللّه يقول: «والفاء والواو فى (أفأمن) و(أو أمن) حرفا عطف، دخلت عليهما همزة الإنكار»[١] وقال الإمام أبو السعود: «والهمـزة لإنكار الواقع واستقباحه لا لإنكار الوقوع ونفيه [٢]. يعنى أن القوم متلبـسون بذلك الأمن لا أنهم يتوقع منهم فى المستقبل.

وينقل الألوسى عبارة أبى السعود لفظاً ومعنى [٣] ويقول أبو حيان: «الهمزة دخلت على أمن للاستـفـهام على جـهة التـوقيف والـتوبيخ والإنكار، والوعـيد للكافـرين المعاصرين للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك»[٤].

وهذا كلام طيب. ولكن يبدو أن (التوقيف) مـقحم على هذا الموضع. أما ما عداه من المعانى المذكورة فإن المقام يشفع لها.

أما الشيخ رضا فقد أطال الكلام فى بيـان المراد من الاستفهام فى المواضع الثلاثة، وفرَّق الحديث عنه تفريقاً واضحاً. وحاصل ما أورده أنه للتعجيب والتذكير. هذا أول ما ذكر. ثم عاد فقال: الهمزة للإنكار، ثم قال: «والمراد أنه لم يكن لهم أن يأمنوا لو كانوا يعلمون »[٥].

ومعنى هذا الكلام أن الاستـفهام فى المواضع الثلاثة لمجـرد النفى . وقد عرفنا أن الإنكار والنفى قريبان والفرق بينهما أن النفى لا يكون فى مواجهة من يدعى الإثبات، أما الإنكار فهو للرد على من يدعى الإثبات فعلاً. فهو أشد من النفى.

وجارى الطاهـر بن عاشور الشـيخ رشيـد رضا فى أن الاستـفهـام للتعـجيب من غفلتهم. هذا بالنـظر إلى الاستفهامين الأول والثـانى. أما الثالث وهو ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ فهو - عنده - لتقرير التعجيب. وهذا فهم جيد [٦].

والخلاصة: الاستفهـامان الأول والثانى صالحان للمـعانى التى رُدِّدت عند الأئمة،

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٩٨).
(٢) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٥٤).
(٣) روح المعانى (٩/ ١١).
(٤) البحر المحيط (٤/ ٣٤٨).
(٥) تفسير المنار (٩/ ٢٥).
(٦) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢).

وعمدة تلك المعانى هو الإنكار والنفى. أما التوبيخ والاستقباح والتعجيب والتذكير والوعيد فهذه معان تابعة.

أما الاستفهام الثالث فما قاله فيه الشيخ الطاهر سائغ وهو تقرير التعجيب الوارد فى الأول والثانى، وهو فى نفس الوقت توكيد للإنكار فيهما. والفرق بينه وبين الأولَيْنَ أنهما خاصان، وهو عام جامع لمعناهما ولما هو أكثر من معناهما.

وهذه خلاصة ما يقال فى صور هذا الاستفهام الثلاث.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ الهمزة مقدمة من تأخير لما للاستفهام من حق الصدارة فى الكلام، والفاء للعطف على **(فأخذناهم)** فى الآية التى قبل هذه الآية. وسر العطف بالفاء لما فيه من معنى التعقيب والترتيب والسببية. وهذه المعانى ملحوظة هنا فبعد أن قص القرآن أخبار الأمم الغابرة. وما حل بهم من انتقام، كان هذا بمثابة السبب فى أن يُنكر على مكذبى الإسلام أن يأمنوا عذاب اللّه مثلما وقع بنظرائهم قديما. وأن يساق هذا الإنكار بسرعة عقب ذكر ما حل بأولئك المكذبين، وترتيبه عليه ترتيب السبب على المسبب.

وإيثار الماضى فى المواضع الثلاثة: **(أمن - أمن - أمنوا)** لأن المقام مقام إنكار، وإيقاع الإنكار على الواقع المحقق أمس رحما من إيقاعه على المتوقع، وتكرار **(أهل القرى)** فى الأول والثانى»، حيث لم يقل فى الثانى: (أمنوا) لتأكيد الإنكار نظراً لاختلاف المتعلق، ففى الأول كان مجىء العذاب ليلاً، وفى الثانى كان مجىء العذاب نهاراً.

وأما فى الثالث فجاء الضمير: **(أفأمنوا)** لأن المتعلق عام، وهو مكرُ اللّه. ففيه جمع لما تفرق فى الاستفهامين السابقين عليه.

وخولف فى عطف الثانى فجاء بالواو **(أوَ أمن)** على قراءة الجمهور بفتح الواو. لأن المراد من السببية والتعقيب والترتيب قد حصل بعطف الأول بالفاء» وعطف الثانى عليه بالواو يشركه مع الأول فى المعانى الثلاثة، مع ما فى العطف بالواو من تلوين الخطاب.

* ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ البـأس هو العذاب الشـديد، وفى إسناد الإتيان إليـه مجـاز حكمى (عقلى) علاقته المفعـولية. لأن الذى يسلط الباس هو اللّه. وسر هذا المجاز تصوير سـرعة مـجىء البأس، حـتى لكأنه يسعى نحـوهم باختـياره وإرادته. وفى إضافة البأس إلى ضمير اسم الجلالة **(نا)** تهويل وتفظيع لشأنه.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ مكر اللّه استعارة لتـدبيره الخفى مع غفلة من يرزيهم به عنه. واختار الطاهر بن عـاشور أن تكون استعارة تمثيليـة. شُبّه فيها كـيد الله وهم غافلون حتى يفاجأوا به بصورة المكر الذى يدبر فى الخفاء مع غفلة الممكور ضده عما يراد به، ثم يفاجأ بما لا تحمد عقباه. وفى إضافة المكر إلى اللّه تهويل لشأنه ليرتدع المكذبون.

* ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الفاء للتفريع العطفى من **(أفأمنوا مكر الله)** وإيثار المضـارع فيه **(يأمن)** للإعـلام بتسلط الإنكار على الأمن المتـوقع، وهو يتضمن إنكار الأمن الواقع من بابٍ أولى.

وإظهار اسم الجلالة **(الله)** مضافاً إليه **(مكر)** لتربية المهابة فى النفوس، وكان الأصل أن يقال **(مكره)** فأُظهر إخراجًا له على خلاف ظاهر الحال للمعنى المذكور.

وفى العبـارة قصر مـوصوف من **(يأمـن مكر الـلّه)** على صـفة **(الخاسرون)** قصراً حقيقياً تحقيقياً.

والآيات الثلاث - برمتـها - تعريض بمشركى العـرب الآمنين - بكفرهـم - عذاب اللّه العاجل والآجل ووعيد وتهديد لهم. حتى لكأنه قيل لهم:

أبعد ما علمتم ما حل من انتـقام الله لمكذبى الرسل وتواترت أخبار هلاكهم تظلون على تكذيبكم رسولنا مـحمداً - صلى اللّه عليـه وسلم -. وتأمنون أن يسلط عليكم بأسه فـى أى وقت من أوقاتكم. وفى أى حـال من أحوالكم، وتخـصيص البـيات والضحى والنوم والنشاط بالذكر؛ إعلام بأن بأس اللّه قد يأتيهم فى وقت غفلتهم، أو فى وقت وعيهم، فإنه ليس له دافع إذا جاء. وهذان الوقتان ينتظمان جميع الأوقات.

* * *

١٧ - ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَـا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية امتداد للزجر والوعيد فى الآيات الثلاث قبلها، والتى فرغنا من الحديث عنها. والوعيد فـيها عام يتناول كل الذين يعثون فى الأرض مـفسدين. والمعنى: الم يعلم الذين يتعاقـبون فى الأرض جيلا عقب جيل أن اللـه قد يصيب المذنبين بذنوبهم ويعجل لهم العذاب، ويمنع عنهم ألطافه فلا يهتدون.

وفى هذا تحذير من التمادى فى الضلال وعدم الاتعاظ بالأحداث الزاجرة. والمعنى العام التى تشترك فى تأديته الآيات الأربع هو ذم الغفلة والإعراض عن أخذ العبرة من حركات التاريخ.

وقد صدِّرتْ آيتنا هذه بهذا الاسـتفهام: **(أولم يهد)** ولـم أر أحداً من الأئمـة، قال شيئاً عن المراد منه، وهو استفهام مجازى قطعا. اللهم إلا الطاهر بن عاشور فقد قال: إنه للتعجيب [1].

ومعروف أن التعجيب معنى تابع لغيـره من قسمى الاستفهام التقريرى والانكارى. فيصح ردفه على التقرير، ويصح ردفه على الإنكار.

والخلاصة: أن هذا الاسـتـفهـام مجـازى المراد منه التقـرير أصالة، ثم يردف عـليه التعجيب، ومما يصح ردفه عليه التوبيخ والتهجيل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* **(أو لم يهد..)** هذا الإستفـهام ورد فى سورتين أخريين احـداهما سورة طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِى النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

والثانية سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنِ القُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/٢٦).

والنظر فى آيات الأعراف وطه والسجدة يضع أمامنا سمة من سمات النظم القرآنى المعجز، يرشح لنا أن نخالف ما قاله سادتنا المفسرون فى معنى (يهد) فى الآيات الثلاث.

وخلاصة النظر: أن هذا التركيب الاستفهامى فى السور الثلاث اطرد وروده فى لفت الأنظار إلى مصارع الأمم التى عتت عن أمر ربها، وأن المراد هو استحضار صورة ما حل بها من عقاب لأخذ العبرة منه حتى لا يكون مصير المخاطبين هو ذلك المصير المؤلم. فالقرآن يلفت أنظارنا إلى ذكريات فاجعة وقعت فى غابر الأزمان، ولكن حديثها مما سارت به الركبان.

وسادتنا المفسرون قالوا إن: (يهدِ) عُدّى باللام لأنه ضُمِّن معنى التبيين. وهذا كان يقتضى أن يأتى (يهدِ) على صيغة المبنى للمفعول. وهو لم يأتِ كذلك لهذا فإننا نرى أن الأنسب أن يكون (يهدِ) مضمنا معنى الفعل (يصل) وتعديته باللام مما لا ينازع فيه يعنى: الم تصل إليهم أخبار الأمم التى كفرت بالله وعصت رسله فأهلكم الله، وهم لا يحصون عددًا؟

ويكون السر البلاغى فى هذا التضمين أن ما وصل إلى مشركى العرب من تلك الأخبار إنما هو وصول هادٍ للتى هى أقوم لو كانوا أحسنوا الفهم والاعتبار.

* ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ فى (يرث) استعارة تبعية. شبه فيها تعاقب الأجيال جيلا بعد جيل بالتوارث. وسرها البلاغى التمكين فى الأرض وكونه ناشئا بيسر كما ينتقل المال الموروث إلى الوارث بعد فناء المورِّث.

وفى قوله: **(من بعد أهلها)** فإن (من) دخلت على الظرف **(بعد)** لتأكيد فراغ الأرض من الجيل السابق. وفى هذا إلماح إلى معنى اليسر فى انتقال النفوذ من سابق إلى لاحق.

* ﴿أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ إيثار الماضى **(أصبناهم)** على المضارع «نصيبهم» لتحقق وقوع الإصابة إذا تعلقت بها مشيئة الله. والباء فى **(بذنوبهم)** للسببية: أى بسبب ذنوبهم.

* ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أوثر المضـارع هنا (**نطبع**) على الماضى (طبعنا) لخصـوصية بيانية رائعة، وهى أن الطبع على القلوب عـقوبة على الإصرار على المعاصى. يمنع الله فيها القلوب من نفاذ الحـق إليها، ومن التفقه فيه حال حـياتهم، والمضارع يفيد تجدد ذلك الطبع وحدوثه ما داموا أحياء، ويزداد بازدياد كفرهم ومعاصيهم.

وفيه استعارة تبعية حيث شبه قسوة قلوبهم وعدم تأثرها بالحق، بالختم الذى يحول دون دخول شىء فى الإناء المختوم.

* ﴿فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ تركيب بلاغى يفيد توكيـد نسبة الجهل اليهم. وهو أبلغ مما لو قيل (**فلا يسمعون**). وأبلغية مـا فى النظم على العبارة المناظرة ترجع عند الجـمهور إلى تكرار الإسناد، يعنى أن الخبر يُسْنَد فيها إلى المبتدأ مرتين:

فـ(هم) هو المسند إليه. وقد وقع خبره جملة (**لا يسمعون**) وفاعل يسمعون هو واو الجماعة العائد على المسند إليه (هم) فهذا إسناد، والإسناد الثانى هو إسناد جملة الخبر برمتها إلى المبتدأ، وتكرار الإسناد يجعل المعنى هكـذا: فهم لا يسمعون لا يسمعون، أما عبارة (**فلا يسمعون**) فليس فيها إلا إسناد واحد وللإمـام عبد القاهر مذهب ثان فى أبلغية هذا التركيب (**فهم لا يسمعون**) وما جاء على طريقته. حاصله أن البدء بالمحدَّث عنه يقتضى تأكيد الخبر وتحققه. وساق على ذلك كثيراً من الأمثلة[١].

وإيثار السمع هنا على الـبصر؛ لأن المعارف التى تحجب عنهم طريقـها السمع، إذ هى أحداث وذكريات لأمم مضت، وحـذف مفعول يسمعون لإفـادة التعميم، أى لا يسمعون شيئًا قط.

* * *

---

(١) دلائل الإعجاز (١٠٢) ط: رشيد رضا.

١٨ - ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

الدراسة والتحليل :

هذه الآية مما دار من حوار بين قوم فرعون بعد أن بعث الله إليهم موسى عليه السلام، وأراهم آية العصى التى صارت حية، وبراءة يده من العلة التى كانت حيث ادخلها فى جيبه ثم أخرجها بيضاء للناظرين. وقبل هذه الآية وردت هذه الآيات؛ وفيها يبدأ فرعون الكلام وموسى يرد عليه:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

والاستفهام - هنا - حقيقى، يتساءلون فيه عما يتخذونه من إجراء لمواجهة هذا الساحر فى زعمهم.

أسرار النظم وبلاغياته :

هذا الكلام المحكى عن آل فرعون حكاية معانٍ لا حكاية الفاظ. يعنى أن القرآن صاغ العبارات المحكية. عنهم حسب المعانى التى كانت تجول فى أذهانهم، وليس بلازم أن تكون الألفاظ وطرائق نظم الكلام مما قالوه هم فِعْلا وكل ما فى الكلام المحكى عن (الغير) فى القرآن فإن بلاغته ومزاياه البيانية تنسب إلى مصدر القرآن لا إلى الأقوال الصادرة عنهم.

وقد عرفنا من قبل أن هذا الأسلوب (ماذا) يُسأل به مجازيًا وحقيقيًا عن الأمر المهم. وووروده - هنا - محكيا عنهم ترجمة قرآنية أمينة لمنزلة ما يواجهون به موسى عليه السلام من حيل ومواقف، فهو - عندهم - كان أمرًا بالغ الاهتمام.

* * *

١٩ - ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ، قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾
[الأعراف: ١١٣].

الدراسة والتحليل:

وَهِم فرعون وقومه أن الذى أظهره الله على يد موسى عليه السلام من انقلاب العصى حية، وبراءة يده من العلة، وهموا أنه سحر وليس معجزات خارقة لكل معهود. ولذلك كان اقتراحهم أن يحشدوا له مهرة السحر الذين كان لهم سلطان فى المجتمع الفرعونى الجاهل فكوَّنوا فريقا منتخبا من أبرزهم، ووكلوا إليهم مهمة مواجهة سحر موسى. واجتمع السحرة عند فرعون قبيل بدء المباراة، ليحددوا معه المكافآت التى يحصلون عليها إن غلبوا موسى، فتعهد لهم فرعون بها، ووعدهم أن يكونوا من حاشيته المقربين عنده، وصاغ السحرة مطالبهم فى هذا الاستفهام الذى حذفت همزته: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾.

وهذا الاستفهام حقيقى لا مجازى. أرادوا به معرفة ما سيحصلون عليه من أجزية.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا﴾ فصلت هذه الجملة عما قبلها للاستئناف البيانى. وتوكيد الخبر فى (**إن لنا لأجرًا**) للاستيثاق من تخصيصه لهم. وتنكير (**أجرًا**) للتعظيم والتفخيم. وتقديم الجار والمجرور (**لنا**) على (**أجرًا**) لإفادة القصر. أى أجرًا خاصا بهم لا يشركهم فيه غيرهم. وإيثار (**إن**) فى الشرط على (**إذا**) لأنهم لم يكونوا واثقين من الغلبة على موسى عليه السلام، وضمير الفصل (**نحن**) لتوكيد النسبة بين طرفى الإسناد.

* * *

٢٠ - ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

الدراسة والتحليل:

بعد أن وقعت المباراة بين موسى والسحرة، وأبطل الله على يد موسى سحرهم، هالهم ما حدث، وأدركوا أن موسى ليس ساحرًا بل هو رسول حق من عند الله. فخروا ساجدين لعظمة الله، وأعلنوا على الملأ إيمانهم برب هارون وموسى فاشتد فرعون غضبا، وظن بموسى والسحرة ظن السوء وآتهم السحرة بالتواطؤ مع موسى لتخريب المدينة (مصر) وإخراج أهلها منها. وأنكر على السحرة الذين كانوا أعوانه قبل المباراة. ثم سرعان ما آمنوا بالحق لما لاحت لهم أماراته أنكر عليهم إيمانهم بموسى، وتهددهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، فصاح بهذا الاستفهام الذى حذفت همزته: ﴿آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ وفى المراد منه قال الأئمة: «أى أفعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخا لهم وتقريعًا»[(١)] هذا ما قاله الإمام جار الله. أما أبو السعود فقال: «قال فرعون منكرًا على السحرة موبخا لهم على ما فعلوه: «آمنتم به» بهمزة واحدة. إما على الإخبار المحض المتضمن للتوبيخ، أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة»[(٢)].

يعنى أن العبارة إذا حملت على الخبر الذى لا استفهام فيه (آمنتم) فالخبر مستعمل فى التوبيخ. وإذا قُدِّرت همزة الاستفهام (أآمنتم) فالاستفهام مجازى محمول على الإنكار والتوبيخ، والأظهر أنه استفهام وليس خبرًا.

وردَّد الألوسى العبارة بين الخبرية والاستفهامية. قال: «والمقصود من الجملة الخبرية التوبيخ؛ لأن الخبر إذا لم يقصد به فائدته ولا لازمها تولد منه بحسب المقام ما يناسبه» والمقام يفيد التوبيخ والتقريع. ويجوز أن تقدر فيه الهمزة بناء على اطراد ذلك. والاستفهام للإنكار، بمعنى أنه لا ينبغى ذلك»[(٣)].

---

(١) الكشاف (٢/ ١٠٤).

(٢) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٦٠).

(٣) روح المعانى (٩/ ٢٧).

وأبو حيان بعد أن جوَّز الخبرية والاستفهامية ذهب إلى أن الاستفهام للإنكار والاستبعاد[1] وجزم البيضاوى أن الاستفهام للإنكار[2] وعزا الشيخ رشيد رضا إلى جميع القراء أن الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ[3].

ويقول ابن عاشور: «والاستفهام للإنكار والتهديد»[4].

والخلاصة: أن هذه العبارة (آمنتم به) تحتمل الخبرية والاستفهامية. والاستفهام فيها أرجح، وهو يؤدى معنى رئيسا هو: الإنكار، ومن أبرز المعانى المتولدة عنه - هنا - التهديد، وقد أفصحت عنه الآية التى بعد هذه الآية:

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم لأصلبنكم أجمعين) ولا مانع من ردف التوبيخ لأن المقام يستدعيه.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال لأنها استئناف بيانى.
* ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أكد الخبر فى **(إن هذا لمكر)** بـ **(إن)** واللام تمهيداً لتغليظ التنكيل بالسحرة، وأن ما سوف يفعله بهم إنما هو عقوبة على جريمة محققة ظهرت أدلتها.
* **(لتخرجوا منها أهلها)** تعليل للمكر الذى توهمه فرعون حين صرعته قوارع الحق، وأدهشه التحول السريع عند السحرة من الكفر إلى الإيمان.
* ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خبر مستعمل فى التهديد مجازًا مرسلاً علاقته الإطلاق والتقييد.

وحذف معمول العلم إشارة إلى تهويل ما سيقع بالمؤمنين من فرعون. كما أفصحت عنه الآية التى تلتها من قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم فى جذوع النخل.

والضمير المجرور فى (به) يحتمل الإيمان بالله. أو الإيمان بموسى عليه السلام. وكلا الإيمانين متضمن للآخر. فالإيمان بالله يستلزم الإيمان برسوله موسى عليه السلام.

---

(١) البحر المحيط: (٤/ ٣٦٥).
(٢) تفسير البيضاوى (٢/ ٢٥٤).
(٣) تفسير المنار (٩/ ٦٢).
(٤) التحرير والتنوير (٩/ ٥٣).

والإيمان بموسى يقتضى الإيمان بصحة رسالته. وهذا هو الإيمان بالله.

* * *

٢١ - ﴿وَقَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىَ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

الدراسة والتحليل:

لم ينفذ فرعون شيئا مما توعد به السحرة الذين آمنوا فلم يرد فى القرآن أنه تجاوز القول إلى العمل. وهذا ما يؤكده ضجيج الملأ من قوم فرعون، حيث أنكروا عليه سكوته عن موسى وقومه. ولكن اللعين هداه جهله إلى حيلة شيطانية. هى تعقب من تلد من نساء قوم موسى. فإن كان المولود ذكراً ذبحه أعوانه فور ولادته وإن كان أنثى تركوها.

إنه كان يخشى تكاثر بنى إسرائيل. وأن يصبحوا دولة داخل دولته. ولكن حين يُقتل الذكور من مواليدهم تضعف شوكتهم وربما انقرضوا تماما. وحين تبقى إناثهم فسَيَكُنَّ خَدَمًا فى بيوت الفراعنة، يقمن بأعمال الطهو والتنظيف فى بيوت النبلاء؟.

ولكن هذه الآفة كانت قد تفشَّت قبل ميلاد موسى وقد وُلِد هو عليه السلام فى ظلها، لذلك وضعته أمه فى اليم تنفيذًا لوحى الله إليها، لينجو من القتل ويؤدى دوره المرتقب فى الحياة.

والجديد هنا هو تكثيف عمليات الإبادة بدليل قول فرعون (**سنقتِّل أبناءهم**) لأن تضعيف التاء فى الفعل للدلالة على تكثير القتل والمبالغة فيه.

وهذا الاستفهام (**أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض**)؟ استفهام إنكار وتعجب من تباطؤ فرعون فى التنكيل بموسى وقومه. والإنكار عند الأئمة مسلط فى هذا الاستفهام على مجموع أمرين كما نص على ذلك كثير منهم:

الأمر الأول: تَرْكُ فرعون موسى وقومه للإفساد فى الأرض على زعمهم.

الثانى: ترك موسى وقومه ملة فرعون الوثنية.

ولم نر من تعرض للمراد من الاستفهام هنا إلا الطاهر بن عاشور فقد حمله على الإغراء بالتنكيل من موسى وقومه، والإنكار لتباطؤ فرعون فى ذلك[1].

والخلاصة: أن هذا الاستفهام مجازى المراد منه الإنكار أصالة، ويتبعه الحث والإغراء على قيام فرعون بالتضييق على موسى والمؤمنين معه.

أسرار النظم وبلاغياته :

* إسناد القول إلى (**الملأ**) إعلام بأن ذلك كان رأى رؤسائهم وأشرافهم وذوى الكلمة، فيهم.
* وفى (**ويذرك وآلهتك**) تهييج وإلهاب لفرعون ليعجل البطش بموسى ومن آمن معه من السحرة وغير السحرة.
* ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لم تعطف هذه الجملة لأنها جواب الاستفهام. والتضعيف فى (**سنقتّل**) للدلالة على تتبع قوم موسى وقتلهم أينما كانوا، وكثرة القتل لا معنى لها فى نفسها، وإنما معناها كثرة المقتولين.
* ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ فى (فوقهم) استعارة تبعية حيث شبه فوقية المكانة بفوقية المكان بجامع العلو فى كل. لأن فرعون هو المحكوم بأمره، وبنو إسرائيل قوم موسى غرباء. وفرعون هو السلطان الجاهل. ومن شر البلايا فى الدنيا السلاطين الجهلة فإذا انضم إلى جهلهم الكفر بالله كانوا شرا مستطيرًا فى الأرض.
* وتوكيد الخبر (**إنَّا فوقهم قاهرون**) لبث الطمأنينة فى قلوب مَلَئه. ولشفاء ما فى صدورهم من أحقاد على موسى والمؤمنين معه.

* * *

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥).

٢٢ - ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلهًا، وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

الدراسة والتحليل:

لما عبر موسى عليه السلام، ومعه بنو إسرائيل البحر إلى أرض سيناء، أبصر اليهود قومًا يعبدون أصناما يدعونها آلهة، فسرعان ما انتكسوا ولم يعتبروا بما حدث لهم من معجزات، وإنجائهم من آل فرعون فقالوا لموسى:

﴿اجْعَل لَّنَا آلهًا كَمَا لَهُمْ آلهَةٌ﴾ فزجرهم عليه السلام فقال لهم:

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وبعد هذا جاءت آيتنا التى صُدّرتْ بهذا الاستفهام (.. **أغير الله أبغيكم إلـهاً وهو فضلكم على العالمين**).

وقد مرَّ بنا هذا التركيب مرات، وذكرنا مذاهب الأئمة فيه. ولا بأس بإعادة ما قاله بعضهم للتذكير؛ يقول الإمام جار الله:

«ومعنى الهمزة الإنكار والتعجب من طلبتهم مع كونهم مغمورين فى نعم الله عبادة غير الله»(١).

وقال ابن عاشور: «والاستفهام فى قوله: **(أغير الله)** للإنكار والتعجب(٢).

والخلاصة: أن الاستفهام هنا معناه - أصالة - هو الإنكار، ويتولد عنه ما يناسبه من معان ثانية مثل التعجب والتقريع والتجهيل.

أسرار النظم وبلاغياته:

* فى تكرار الفعل الماضى **(قال)** فى عجز الآية (١٣٩) وهى ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ثم كرر فى آيتنا: **(قال أغير الله أبغيكم إلهًا)** وكان يمكن - لغة وبلاغة - أن تكون هذه الآية من مقول القول، ولكن النظم الحكيم جعلها مقولاً لقول خاص بها، تفخيمًا لشأن الإنكار الوارد فيها، وهو استقباح اتخاذ غير الله معبودًا مع الله، أو مخصوصًا بالعبادة.

---

(١) الكشاف: (٢/ ١١١).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٨٣).

* وفى تقديم المعمول (غير) على العامل (أبغيكم) إشعار بأن محط الإنكار هو اتخاذ غير الله معبوداً وليس الاتخاذ فى نفسه.

وهذه النكتة البلاغية كافية فى تعليل تقديم (غير) أما ما قاله بعض الأئمة[1]، من أن تقديم (غير) مفيد للأختصاص فنرى أنه غير سديد، لأنه يترتب عليه أن موسى ينكر عليهم إفراد غير الله بالعبادة. أما أن يشركوا ذلك (الغير) مع الله فى العبادة فغير منكر عنده، وهذا لا يليق.

* أما قوله ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فلتأكيد الإنكار وتشديده.

* * *

٢٣ - ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[الأعراف: ١٤٨].

الدراسة والتحليل:

المعروف عن اليهود فى كل زمان أنهم قوم هوائيون ليست لهم مبادئ، كثيرو الحيل، تسيطر على سلوكياتهم النزوات، يتلاعبون بالقيم كأنها قطع شطرنج؟ يعيشون لحظتهم الحاضرة حسبما تمليه عليهم الظروف الطارئة.

وهذه الآية تكشف لنا عن مدى الحماقة والرعونة، التى أذهبت عنهم وعيهم إن كان لهم وعى.

فقد كان موسى عليه السلام قد زجرهم وعنفهم بعد خروجهم من مصر، حين رأوا قوما يعبدون أصناما على صورة البقر، فسألوه أن يجعل لهم صنما يعبدونه إلهًا من دون الله.

ثم ها هم - وفى زمن قصير - نسوا زجر موسى إيَّاهم فى المرة الأولى، وانتهزوا فرصة غيابه لتكليم ربه، وتلقى الألواح المقدسة. فصنعوا عجلا من ذهب جوَّفوه ليمر الهواء فيه فيسمع له دَوِىّ، واتخذوه من دون الله إلَهًا معبودًا، وكادوا يبطشون بهارون

---

(١) انظر التحرير والتنوير فى الموضوع السابق ذكره.

عليه السلام لما همَّ بنهيهم عنه. وظلوا يعبدونه حتى رجع موسى عليه السلام من ميقات ربه. وكان منهم ما كان.

وهذا الاستفهام كان أبلغ رد عليهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾؟.

فهو تمثال صنعوه هم، وهو جماد لا روح فيه ولا عقل ولا يملك نفعا ولا ضرا، وهم يعلمون هذا عنه فكيف يتخذونه إلَهًا معبودًا من دون الله أو مع الله؟ وقد عرفنا أن هذا التركيب الاستفهامى - وهو ما دخلت فيه همزة الاستفهام على نفى - لا ينفك عنه التقرير، ونقول هنا: ولا ينفك هو عن (المجازية) فهو حيث كان استفهام تقرير، وهو حيث كان استفهام مجازى.

فالقرآن - هنا - يقررهم بالرؤية المذكورة، أعنى علمهم بجمادية هذا «الشكل» وخلوه من كل علامات الحياة، فضلا عن أن يكون له كلام وهداية وقد رأينا الأئمة يمرون على هذا الاستفهام مرورًا لا يمس تحديد المعنى المجازى المراد منه، إلا الطاهر بن عاشور فقد قال فيه:

«والاستفهام للتقرير والتعجيب من حالهم»(١).

والخلاصة: أن التقرير هو المعنى الرئيس لهذا الاستفهام ومما يناسبه التعجيب والتجهيل. لأن الذى فعلوه لا يصدر عن ذى عقل وعلم. فهو فى غاية الانحطاط والجهل والسفه.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ إيثار ذكر الجار والمجرور (من حليهم) ضرب من أضرب تسفيههم وتحميقهم حيث اتخذوا إلهًا صنعوه من مادة ماثلة بين أيديهم فهو إله محدث هم الذين صنعوه، فكيف يتقربون إليه ويعبدونه ويلتمسون عنده جلب المنافع ودفع المضار؟ أهذا يفعله من عنده مثقال ذرة من تمييز؟

---

(١) التحرير والتنوير: (٩٠/ ١١٠).

* ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ وهذا ضرب آخر من أضرب التسفيه والتحميق. إذ كيف يكون «العجل» المنكس التكوين الهًا لمن خلقه الله وكرمه وصوره فى أحسن تقويم، وأودع فيه عقلا يميز به بين الصواب والخطأ والحق والباطل، والواقع والوهم.

وفى وصف (**عجلا**) بـ (**جسدًا**) احتراس رائع لدفع توهم غيـر المراد. فهذا العجل شكل جمادى لا روح فيه (**جسد**) يمر فيه الهواء من جانب ويخرج من جانب فيحدث صوتا فراغيا ومع ذلك اتخذوه إلهًا يعبد.

* ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ ضرب ثالث من ضروب التسفيه والتحميق، فهذا الشكل (الجاف) لا يرد عليهم إذا دعوه، ولا يهديهم إذا استهدوه. فكيف يكون الهًا إلا عند قوم سيطر عليهم السفه والحُمْق والجهل.

* ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ استئناف للانتقال من تجهيلهم باتخاذهم العجل إلهاً إلى تجـهـيلهم بما ظلمـوا به أنـفسـهـم من قـبل، وإعـلام بأن هذا الاتخـاذ ليس أول حماقاتهم. فهم غارقون فيها من قبل ومن بعد.

* * *

٢٤ - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلاَ تُشْمِتْ بِىَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الدراسة والتحليل:

كان اتخاذ العجل إلهًـا فى غيبة موسى طعنة أليمـة من الخلف سدَّدها بنو إسرائيل لرسالة أكبر رسول بعث إليهم وعاد إلى قومه الذين صاروا (فراعنة) آخرين فى الجهل والوثنية، بعد أن أراح الله موسى من (فراعنة) مصـر. تجمعت فى صدر موسى هموم وغموم، وامتلأ غضبـا واحترق أسًى وزجر المرتدين وألقى الألواح التى تلقاها من ربه توًا بعد أربعين ليلة قضاها فى انتظارها. ألقاها على الأرض وفيها هدىً ونور، وصب جام غضبه على أخيه هارون الذى استـخلفه فى قومه مدة غيابه عنهم، ولم يمنع بنى

إسرائيل من الانتكاسة والأرتدادة. قبض - بقوة - على شعر رأسه ولحيته، وأخذ يسحبه على الأرض.

يا سبحان الله؟ رسول كريم «يُمرمط» رسولاً كريمًا؟ فما الذى حدث؟

إنه جهل اليهود. وحماقة اليهود، ورعونة اليهود؟ يقضمون الأصابع التى تطعمهم. ويقطعون الأيدى التى تسدى إليهم المعروف. ويكفرون بالخالق ولو كانوا يرونه جهرة.

ما أنقذ هارون من بطش موسى إلا إظهاره لما وقع من بنى إسرائيل له لما نهاهم عن الارتداد. لقد هموا بقتله لعنهم الله فقبل موسى عذر أخيه وتوسله. وبقى جهل اليهود مسئولا عن كل ما حدث. وسيظل مسئولا حتى يرث الله الأرض وما عليها.

إن صلتنا بهذه الآية هى هذا الاستفهام الذى صاح به موسى فى وجه قومه، وهو فى قمة الاستياء ﴿أَعَجِلْتُم أَمْرَ رَبِّكُم﴾؟

ولم نر أحداً من الأئمة أفصح صراحة عن المراد من هذا الاستفهام بل اكتفوا جميعهم بتقدير المعنى الجُمْلى فيه. وهذه التقديرات تنبىء عن أنه استفهام إنكار.

والخلاصة: أن الاستفهام - هنا - للإنكار - أصالة - وتتولد عنه معان أخرى يستدعيها المقام وهى التوبيخ والتسفيه.

أسرار النظم وبلاغياته :

* ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى﴾ أسلوب ذم، وتقدير المعنى بئس الاستخلاف الذى خلفتمونى به من بعدى. ومن بعدى تحتمل أمرين:

الأول: من بعد صعوده الجبل لتلقى الألواح وهى مدة الأربعين ليلة.

الثانى: من بعد موتى الذى ظننتم: أننى قَدْ مِتُّ ولم يعد إليكم «شخصى».

* ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ عجلتم إما بمعنى سبقتم، والأمر على هذا هو عودة موسى إليهم من الطور، وإما بمعنى تركتم أمر ربكم ناقصا ولم تتموه، وهو إخلافه على حسن السيرة فى عبادة الله. والحفاظ على معالم الرسالة.

ويجوز أن يكون المراد من (أمر ربكم) الوعد الحسن الذى ذكر فى سورة طه ﴿أَلَمْ

يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْـدًا حَسَنًا، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْـدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَنَ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [طه: ٨٦].

وفى إضافة (أمر) إلى (ربكم) مضـافًا إلى ضمـير المخاطبين زيادة تـشنيع عليهم بالجحود وكفر النعمة مع كفرهم بالمنعم بها.

* ﴿أَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾ تخلى عن حملها بعد انتظارها أربعين ليلة ونكتة ذكر هذه العبارة تصوير شدة الغضب الذى حل بموسى من ارتداد قومه وبلادة طبعهم.

* ﴿أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ كناية عن اشتداد غضبـه. وقد رسمت هذه العبارة صورة حيـة موحية لآثار الغضب، وصـورت هارون فى قبضة موسى يسـحبه على الأرض، وهو يتوسل إليه ويسترحم.

* وفى (أخذ) استعارة تبعية. حيث شُبِّه الإمساك بالأخذ وسرها أن الممسك بشىء قد يبقـيه فى مكانه، أما الآخذ به فـقد يزيله عن مكانه، وهو الذى حدث هنا. فـقد أمسك موسى برأس أخـيه ساحبًا له علـى الأرض. وبهذا تظهر أ بلغية الاسـتعارة على المعنى الحقيقى لو قيل: وأمسك برأس أخيه.

فـإن قلت: إن النقل من مكان إلى مكان مـفـهوم من الفـعل (يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) فالمقام مستغن عن (أخذ)؟ قلت: لو لم يُسْتَـعَرْ (أخذ) للإمساك لكان السَّـحب مدلولاً عليه بـ(يَجره) مرة واحـدة. ولكن لما استعـير (أخذ) لأمسك صـار السحب مـدلولاً عليه بطريقين. وهذا أبلغ مما لو دُلَّ عليه بطريق واحدة.

وفى إيثار الصفة (أخيه) على العلمية (هارون) إظهار لقوة الغـضب التى سيطرت على مـوسى غَيـرةً على الدين حـتى كـاد يبطش بـ (أخيه) والأخوة تقتـضى الرأفة والرفق، لو قيل (هارون) بدل (أخيه) لفات هذا المعنى.

* وفى (يجره) بإيثار المضارع عـلى الماضى لتصوير المشهـد، وكأنه يحدث الآن، ثم لإفادة طول (الجر) وحدوثه مرة بعد مرة. ولو قيل (فجرَّه) لفهم أن الجر حدث مرة واحدة.

* ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ فصلت هذه الجملة لأنهـا نزلت منزلة الجواب لسؤال ثار فى النفس

من بطش موسى بأخيه حاصله:

ماذا قال هارون لموسى وهو يجره على الأرض. فكان الجواب: «قال يا ابن أم».

وفى نداء هارون أخاه موسى بالصفة **(يا ابن أم)** دون العلمية (يا موسى) تذكير له بالروابط الحميمة التى تربط بينهما، ومقتضاها البر والإحسان لا العنف والهوان.

وكذلك أوثر النداء بـ (يا ابن أم) على النداء بـ(يا ابن أبى) لأن التذكير بالاشتراك فى الأمومة أدعى للعطف والرفق من النداء بالاشتراك فى الأبوة.

* ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى﴾ توكيد الخبر - هنا - بـ (إن) واسمية الجملة رغبة فى شدة الدفاع عن النفس، وإزالة لما عساه أن يكون قد علق بمشاعر موسى من تواطؤ أخيه مع قومه، أو تراخيه فى زجرهم والإنكار عليهم، وتقديم الاستضعاف على إرادة القتل من تقديم الأسباب على مسبباتها.

* ﴿فَلاَ تُشْمِتْ بِى الْأَعْدَاءَ، وَلاَ تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم، وللمسببية فيما بعدها فقد جعل الاستضعاف والهم بالقتل سببا فى الحصول على العفو من أخيه.

والنهى فى: **(لا تشمت)** - **(لا تجعلنى)** للالتماس وتقديم ترك الشماتة على ترك الجعل مع القوم الظالمين تدرج وتلطف فى الطلب من الأدنى الخاص (الشماتة» إلى العام (الكون مع الظالمين).

* وإيثار **(القوم الظالمين)** على (بنى إسرائيل الذين اتخذوا العجل إلهاً) كناية اقترن فيها الدليل بالدعوى أى: لا تجعلنى فى عداد الظالمين الذين اتخذوا العجل، ولهذه الكناية نكتة أخرى هى الاحتراز من العزل عمن هو صالح من بنى إسرائيل، وإدخال من هو ظالم من غير بنى إسرائيل.

* وإيثار المخفف من الفعل (تُشْمِتْ) على المشدد لا تُشَمِّتْ ليجنبه موسى عليه السلام أدنى مقادير الشماتة فضلا عن أغلظها وأعظمها.

* وفى إيثار **(الأعداء)** على الاسم الصريح (بنى إسرائيل) للنص على علة النهى صراحة، ولإفادة العموم فى معنى العداوة أيا كانت.

* * *

٢٥ - ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

الدراسة والتحليل:

حين واعد الله موسى لميقاته وتلقى أوامره ونواهيه أمره أن يصطحب معه سبعين رجلا من شيوخ قومه الذين تجاوزوا سن الشباب والجهالة، وأن يصوموا ويتطهروا للقاء ربهم، ليسمعوا كلام الله لموسى عليه السلام، ويكونوا شهداء بما سمعوا عند قومهم. فسمعوا أوامر الله إلى موسى ونواهيه:

أفعل - لا تفعل. ولما انتهت المناجاة طلبوا من موسى أن يروا - هم - الله جهرة، وإلا فلن يؤمنوا. فدعا موسى ربه قائلا: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فسمع الرد وسمعه معه قومه: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

ولكن موسى أفاق بإذن الله، أما الرجال السبعون فقد صُرِعوا جميعا ليكونوا عبرة لمن عداهم؛ لأنهم جعلوا رؤية الله جهرة شرطاً فى بقائهم مؤمنين. فلما أفاق موسى وتاب إلى ربه قال:

* ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؟ وصيغة هذا الاستفهام، والمقام الذى وردت فيه يدلان على أنه استفهام إنكار، لكن المفسرين تحاشوا أو تحاشى من عرض له منهم أن يقول بالإنكار نظرا إلى قائله، وهو رسول كريم، والرسل لا ينكرون أمراً ما قضاه الله عز وجل:

فهذا أبو حبان يقول فيه: «قيل هذا استفهام على سبيل الإدلاء بالحجة فى صيغة استعطاف وتذلل»[1] ورواية هذا النقل بصيغة التمريض (قيل) دليل على أن أبا حيان غير مُسَلِّم به.

---

(١) البحر المحيط: (٤/ ٤٠٠).

أما أبو السعود: «فيتوسط فى العبارة إذ يقول: «والهمزة إما لإنكار وقوع الإهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قال ابن الأنبارى، أو للاستعطاف كما قال المبرد»[1].

وردَّد الألوسى كلام أبى السعود الذى نقله عن ابن الانبارى والمبرد لفظًا ومعنى[2].

وكذلك سلك هذا المسلك الحذر الشيخ ابن عاشور حيث قال:

«والاستفهام فى (**أتهلكنا**) مستعمل فى التفجع أى أخشى ذلك؛ لأن القوم استحقوا العذاب، ويخشى أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المستحقين وإن لم يشاركهم فى سبب العذاب»[3].

هؤلاء أربعة أئمة سلكوا هذا المسلك الحذر، أما الباقون ممن تعودنا الرجوع إليهم فقد التزموا فيه الصمت؟.

وقد وسعنا دائرة الإطلاع قليلا فى هذا الموضع فرجعنا إلى تفسير الإمام الطبرى، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وغيرهما، فلم نجد من قال فى هذا الاستفهام أنه للإنكار، وإن فسره بعضهم مرات نقلا عن أئمة السلف تفسير الاستفهام الإنكارى دون أن يصرحوا بالإنكار لما تقدم من أن قائله هو موسى عليه السلام. والرسل لا ينكرون شيئا من قضاء الله.

ونحن نحمد لسادتنا المفسرين رعايتهم لمنازل رسل الله الكرام، وصونهم عما لا يليق بمكانتهم، ومع هذا فأننا لا نرى أى مساس بمنزلة موسى عليه السلام إذا أجرينا الاستفهام على ظاهرة من إرادة الإنكار.

بيان ذلك: أن فى طبع موسى عليه السلام حدة تعتريه إذا وجدت بواعثها، ثم سرعان ما يتنبه ويعود إلى هدوئه.

وقد عرض علينا القرآن الأمين، كما عرضت السنة الشريفة نماذج من آثار تلك الحدة، أما القرآن فقد قص علينا اشتداد حدته حين وجد رجلين يقتتلان فى مصر، أحدهما إسرائيلى والآخر من آل فرعون، ولما استغاث به الذى من شيعته (الإسرائيلى) وكز موسى الرجل المصرى فقضى عليه ولم يقصد أن يقتله، ومن المؤكد

---

(١) تفسير أبى السعود: (٣/ ٢٧٦).

(٢) روح المعانى: (٩/ ٧٤).

(٣) التحرير والتنوير: (٩/ ١٢٦).

أن الذى دفـعه إلى هذا تغلُّب المصـرى على الإسرائـيلى، بدليل ما حكاه القـرآن من استـغاثة الإسـرائيلى به، والذى يستـغيث هو الضـعيف المغلوب لا القـوى الغالب. فالاعتذار عن موسى - هنا - ميسور. وقد غفر الله لموسى لما استغفره، ثم قص علينا القرآن أن هذا الموقف تكرر مرة ثانية، واستغـاث الرجل نفسه بموسى فهم موسى عليه السلام أن يبطش بالخصم لولا تذكير المصرى له بما حدث منه بالأمس.

والواقعتان واردتان فى سورة القصص من الآية رقم (١٥) إلى الآية رقم (١٩).

كما قص علينا القرآن الأمين حدة غضبـه لما رأى قومه يعبدون العجل آلهاً من دون الله، فألقى الألواح علـى الأرض، وفيهـا هدى ونور، بعد أن تهيـأ لتلقيـها عن الله أربعين ليلة كاملة.

ثم إقباله على أخيه هارون وأخذه من شـعر رأسه ولحيته وجره على الأرض، وهو رسول كريم مـثله، وأكبر منه سنا. ولم يفلته إلا بعد توسل واعـتذار، وهذه الوقائع وردت فى أكثر من سورة. ومنها سورة الأعراف آية (١٥٠).

كما قص علينا القرآن الأمين اعتراض موسى عليه السلام على العبد الصالح، بعد إعطائه العـهـود المتكررة على عـدم الاعتـراض. وقد وردت هـذه الوقائع فى سـورة الكهف فى الآيات من آية (٦٥) إلى الآية (٧٨).

كما قص علينا القـرآن الأمين مجادلة موسى عليه السـلام ربه فى شأن إرساله إلى فرعون وملئه. وذلك فى الآيات الآتية:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَـافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِـيقُ صَـدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَـانِي فَـأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١٤].

كـما يقص عـلينا القرآن الأمـين قول مـوسى لربه فى شـأن إغنائه لبنى إسـرائيل وإغداقه النعم عليهم:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَـلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَـن سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَـى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِـمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا

حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وأما السنة فلا يغيب عنا الحديث الوارد فى صحيح البخارى فى موقف موسى عليه السلام من ملك الموت، حيث فقأ عينه؟ ومهما كان فى الحديث من تأويلات أبداها سادتنا العلماء فإن الواقعة التى يرويها الحديث كان الباعث عليها تلك الحدة فى طبع موسى عليه السلام.

كل هذا يشفع لنا إذا قلنا إن الاستفهام فى قوله عليه السلام ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ إنه استفهام إنكار بادر موسى عليه السلام إلى إبدائه كما سيأتى.

وهذا الإنكار له باعث معلوم. لأن السبعين رجلا الذين أخذتهم الرجفة فصعقوا كانوا كما أجمعت كل الروايات على أنهم من خيار بنى إسرائيل، وكان موسى نفسه قد صعق معهم لما تجلى ربه للجبل ثم أفاق ورأى الرجال السبعين صرعى، وهو يعلم فضلهم. فقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ولا ننسى أنه حين قال هذا كان لتوه مفيقا من الصعق، بسبب ذلك الحدث الجليل وهو تجلى الله للجبل. فعذر موسى هنا أمران:

* أثر الصعق عليه، ورهبة الموقف العظيم حقا.
* خيرية الرجال السبعين الذين رآهم صرعى، يضاف إلى هذين الأمرين الضعف البشرى أمام الشدائد الجسيمة إذا ادلهمت حتى فى الأنبياء.

وتوبة موسى عليه السلام من هذه «الهفوة» العابرة ومن غيرها، وهى التجرؤ على طلب رؤية الله فى الحياة الدنيا وردت فى موضعين كلاهما فى سورة الأعراف أولهما فى الآية (١٤٣):

﴿. . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والثانية فى الآية (١٥٥) التى معنا:

﴿. . أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

ولهذا - كله - فلا ضير علينا، ولا مساس بما لموسى عليه السلام من منزلة

سامية، إذا قلنا إن الاستفهام المحكى عن موسى عليه السلام فى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؟ استفهام إنكارى عارض، حمله عليه هول الموقف، ورهبة الأحداث. ثم رجع عنه واستغفر ربه فغفر له.

ونظير هذا الاستفهام فى بعض الوجوه قوله تعالى المحكى عن الملائكة فى سورة البقرة.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [الآية: ٣٠] وقد مر بيانه هناك.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام لإنكار طارئ له بواعثه النفسية عند موسى عليه السلام، ومع ثنائنا على سادتنا المفسرين الذين التمسوا مخارج لإبعاد الاستفهام - هنا - عن الإنكار تحاشيا لعدم المساس بمكانة قائله النبوية مع هذا الثناء نأمل أن يكون لما فهمناه وعرضناه وذكرنا أسبابه نصيب من الصواب. فإن لم يكن فشفيعُنا أننا اجتهدنا بصدق نية فلنا - إن شاء الله - أجر إذا لم يكن لنا أجران.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا﴾ أعرب سادتنا المفسرون (قومه) أنه منصوب على نزع الخافض. والتقدير (**من قومه**) فلما حذف الجار انتصب قومه. ونسأل ما سر هذا الحذف، ولماذا صير إليه. فإذا جاز لنا أن نجتهد - مرة أخرى - فى تصور الداعى البلاغى لهذا الحذف، فإننا نرى أن السبعين رجلا إنما كانوا ممثلين لقوم موسى، فكانوا بمنزلة كل قومه هذا وجه. والوجه الثانى أننا خطرت لنا فكرة هى أن يكون (**سبعين رجلا**) بدل اشتمال من (قومه) والسر البلاغى هو هو الذى ذكرناه.

* ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فى هذه العبارة مجازان:

الأول: لغوى فى (أخذ) حيث استعير الأخذ للإهلاك والجامع الاستيلاء فى كلٍ. وسرها البلاغى أن آخذ الشيء يسيطر عليه ويواريه عن الأنظار فلا يُرى له وجود.

والثانى: إسناد الأخذ بمعنى الإهلاك إلى الرجفة، وهو مجاز عقلى (حكمى)

علاقته السببية. لأن الآخذ هو الله حقيقة والرجفة سبب. وسره تهويل شأن الرجفة، حتى لكأنها هى التى بطشت بهم.

* ﴿. . لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ فزع ولجوء إلى الله من هول ما حدث. وتجرد من كل حول وقـوة وطول إلا حول الله وقوته وطوله، وتمهيد لمعـرفة حكمة الله فى ما حدث للسبعين رجلا المختارين من قوم موسى عليه السلام.

* ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ استفهام إنكارى عـارض دفعت موسى إليه شدة الهول وغرابته، وتأثره بالصـعق الذى غيبه عن الوعى. والسفهـاء هم عبدة العجل من بنى إسرائيل. فهو استبعاد منه أن يأخذ الله البرىء بإثم الآثم.

* ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ أسلوب قصر: قُصِرَ فيه موصوف (هى) أى الواقعة التى حدثت بالسبعين المختارين عـلى صفة هى (فتنتك) والفتنة الاختبار والابتلاء.

* ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ أى بسببها. والإضلال هو ما يحدث لمن لا يعتبر بالابتلاء والمحن. ويحتسب صبره فيها لله.

* ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ لم يذكـر الجار والمجرور (بهـا) فى جانب الـهداية؛ لأن الله يهدى من يشاء ابتداء. ولو كُرِّر الجار والمجرور، فقيل: (وتهدى بها من تشاء) للزم أن الهداية تكون عقب الفتنة. وهذا غير واقع.

* ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ثناء وتضرع استعمل فيهما الأسلوب الخبرى على سبيل المجاز المرسل.

وتقديم الولاية على المغفرة توطئة - بعد الإقرار بالولاية - لطلب المغفرة والرحمة.

وتقديم المغفـرة على الرحمة من باب تقديم التـخلية (محو الذنوب) على الـتحلية (حلول رحمة الله) بالداعين وخـاطب موسى ربه بالضمير الجـمعى (نا) لينتظم الدعاء قومه معه، وكانوا كثيرى الخطايا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ تذييل مقرر لما تضمنه الكلام قبله.

ووصل جملة: ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بالواو على جملة: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ لما بين الجملتين من

التوسط بين الكمالين، لاتفاقهما فى الإنشائية لفظا ومعنى، والنداء بـ(ربنا) لما فيه من معانى حسن الرعـاية والإنعام. ولإمكان إضافته إلى ضمـير الداعين ولو (قيل): الله لامتنعت هذه الإضافة وهى مما يقتضيها مقام التضرع والاستعطاف.

* * *

٢٦ - ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً، قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية الكريمة تشير إلى انقسام بين دعـاة بنى إسرائيل إلى التمسك بما أنزله الله إليهم، فـقد كثرت مـخالفاتهم أوامـر الله وكان أقربها من ذكـر هذه الآية عدوان بنى إسرائيل فى السبت باصطياد الحيتان، وكان العمل يوم السبت من المحظور عندهم.

واستمـر فريق من الدعاة فى وعظ هؤلاء المارقين، الذين لم يستجـيبوا لداع قط، حينئذ قال فريق (أمة) من الدعاة لبعض الدعاة الآخرين:

لِمَ تستمرون فى وعظ قوم لم يُجْدِ فيهم الوعظ، وقد استحقوا أن ينزل الله عليهم غضـبه؟ إما بالإهلاك أو التـعذيب فقـال لهم إخوانهم: نعظهم مـعذرة لنا عند الله، وعسى أن يحدث الله فيهم أمراً فيهتدوا.

وقد سـجَّل النظم القـرآنى هذه الواقعـة فى هذا الاسـتفهـام (**لِمَ تعظون قـومـاً الله مهلكهم، أو معـذبهم عذاباً شديداً**)؟ وقد مَّـر بنا هذا الأسلوب الاستفهـامى مرات من قبل، وعرفنا مذاهب أهل العلم فيه، وفى المراد منه.

وخلاصة ما قيل فيه: أنه للإنكار، وهذا حق وصواب، ومما قاله الأئمة، من قبل فى كيفية الدلالة على الإنكار فى هذا الأسلوب (لِمَ؟) ونعيـده هنا للتذكير أن السؤال فيه تعلق بالسبب، والسؤال عن أى شئ يـكون ناشئاً عن غيابه أو عدم وجـوده فلما كان الاستفهام هنا عن سبب استمـرار وعظ المخالفين، كان ذلك السبب غير موجود، وإذا انعدم السبب لزم من انعدامه انعدام المـسبب، وهو استمرار الوعظ المذكور، وهذا هو معنى الإنكار المفهوم من هذا الاستفهام (لِمَ؟) أين ومتى وجد.

وهذا من الكناية اللطيفة التى تُوُصِّل فيها إلى نفى المستفهم عنه بنفى علة وجوده.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ إيثار المضارع **(تعظون)** إشارة إلى تكرار الوعظ غير المجدى، وتنكير **(قوماً)** للتحقير كما يدل عليه المقام.

ومجئ جملة الإهلاك والتعذيب اسمية لا فعلية دلالة على أن الدعاة المنكرين على بعضهم استمرار وعظهم قد عاينوا من المعاصى ما يوجب عقوبة الله لهم، فالعقاب عندهم ثابت وليس احتمالاً، وفى هذا تشنيع على القوم العصاة.

وفى تقديم الإهلاك التام على التعذيب، توكيد لتسجيل شناعة معاصيهم، حتى كان المرجح عند الدعاة هو أن يفنيهم الله ويدمرهم تدميراً، فإن لم يكن هذا فلا مناص من تعذيبهم عذاباً شديداً.

* ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ جملة قالوا: جواب الاستفهام، فصلت عن جملته ليتعين أنه الجواب، ولو قيل: (وقالوا) للزم أن المعطوف من مقول الأمة المنكرة لوعظهم، وفى هذا خلل بالمعنى.

وقد شمل الجواب النص على علتين أو سببين لاستمرار الوعظ عند الواعظين فى تلك الواقعة:

الأولى: ليكون استمرار الوعظ عذراً للدعاة عند الله.

والثانية: رجاء أن يحدث عند الموعوظين تغيير فيتقوا الله ويطيعوا أمره، وهذا الجواب فى قمة البلاغة والحكمة، لأن المستفهمين تساءلوا عن سبب استمرار الوعظ توسلاً إلى إنكاره لإنعدام ما يستدعيه.

فجاء الجواب مشتملاً على وجود سببين وجيهين لاستمرار الوعظ: الاعتذار إلى الله، ثم توقع الهداية والتقوى، وفى العبارة إيجاز بالحذف فى موضعين: حذف عامل النصب فى «معذرة» وحذف معمول الفعل: (يتقون).

* * *

٢٧ - ﴿فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ، وَالدَّارُ الأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلاَ تعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

الدراسة والتحليل:

هذه الآية استمرار للحديث عن اليهود، وبيان لبعض مخازيهم طائفة تعقب طائفة، وهذه الطائفة التى تتحدث عنها هذه الآية كانت بعد موسى عليه السلام، وقد رجح بعض العلماء أن تكون هى طائفة اليهود الذين عادوا من النفى البابلى بمساندة من ملك الفرس المعروف بـ«قُورَش»، حيث سمح لهم بالعودة إلى القدس، وكان حريًّا بهم أن يتعظوا ويتوبوا إلى الله لئلا يسلط عليهم جباراً مرة أخرى مثل بُخْتنصَّر ملك بابل الذى نكلَّ بهم فى القرن السادس قبل ميلاد عيسى عليه السلام، ولكنهم سلكوا مسلك سلفهم بعد علمهم بما أنزله الله إليهم على لسان موسى - عليه السلام - ومَنْ بعده من الأنبياء.

وخلاصة ما وصفتهم به الآية: أنهم رغم وجود كتاب الله بين أيديهم فإنهم لم يقيموا له وزناً، ولم يحرموا حرامه، بل أحبوا حطام الدنيا، وكلما عرض لهم مطمع أخذوه وإن كان حراماً يعلمون هم أنه حرام، ويقولون عقب كل جريمة من جرائمهم سيغفر الله لنا، سواء تابوا أو لم يتوبوا، وهذا جهل وغرور صاحبهم فى جميع مراحل حياتهم، فى ظل الرسل، وبعد الرسل، وإذا سنحت لهم فرصة لاحقة لما أجرموا فيه من قبل لم يتورعوا عن اقتناصها مع شدة حرمتها. بعد هذا العرض من الجرائم ينعى القرآن عليهم نقضهم لميثاق الله، وتطاولهم على الله، ونسبة الباطل من القول إليه عن علم لا عذر لهم معه لا عن جهل ونسيان.

ثم يبين الله - تعريضاً بهم - أن الدار الآخرة التى باعوها بالدنيا الفانية هى الخير كل الخير للذين يتقون الله فيطيعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ولكنهم قوم محرومون من التعقل المثمر ديدنهم الرعونة والسفه.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان: أحدهما: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ والثانى ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾؟

وهاتان الصيغتان مرتا بنا كثيراً فى صور الاستفهام المتقدمة، وعرفنا المراد من كل منهما بلاغياً.

فالاستفهام الأول: (**ألم يؤخذ**) استفهام تقرير، وكل صيغة استفهامية على غرار هذه فهى للتقرير أصالة: وضابط هذه الصيغة هى: همزة استفهام + نفى = (تقرير) ثم يضاف إليه من المعانى ما يناسب المقام، ومن أبرز ما يُردف على التقرير - هنا - التوبيخ والتقريع.

مع ملاحظة أن أداة النفى (لا) بعد الهمزة يظل معها النفى على حاله فلا يكون الاستفهام بها تقريراً، لأن حرف العطف ينبىء عن مدخول آخر للهمزة هو المعطوف عليه، سواء كان ذلك مذكوراً أو مقدراً ومن ذلك الاستفهام الثانى فى هذه الآية (**أفلا تعقلون**) وهو استفهام إنكار وتوبيخ أى: أغفلتم فلا تعقلون، وإن اعتبرا المعطوف عليه شيئاً مما هو مذكور فى الآية، فالأمر كذلك: وهذا هو الفارق بين دخول الهمزة على النفى مباشرة وبين دخولها عليه فى اللفظ فحسب (أى الدخول الصورى لا الفعلى).

فالقاعدة التى أشرنا إليها - هنا - وفيما تقدم نعنى بها دخول همزة الاستفهام على النفى بلا فاصل، كما فى ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾؟ وكما فى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ الفاء للعطف والتعقيب والترتيب، ونكتة العطف به دون (**الواو**) أو (**ثم**) مثلاً، لبيان أن انتكاسة هؤلاء «الخلف» جاءت بعد انتكاسة سلفهم مباشرة، وفى هذا إيحاء بأن السلف كانوا قدوة سيئة لمن خلفهم من بعدهم، وإيثار (خَلْف) بسكون اللام على «خَلَف بفتحها؛ لأن خَلْف بالسكون أكثر استعماله يكون فى التابع السئ، أما الخلف بالفتح فلا يكون إلا فى التابع الصالح، ومما يؤكد المعنى الأول قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

* وفى (ورثوا الكتاب) استعارة تبعية شبه فيها معرفة الخلف بالوحى بالإرث، بجامع التمكن فى كل، وقد سيقت هذه الجملة لذم هذا الخلف؛ لأنهم مع معرفتهم بوحى الله إلى رسلهم فعلوا ما فعلوا من قبائح هى المذكورة بعد ذلك فى الآية الكريمة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾ جملة فى موضع النعت[1] أو الحال من «خَلْف»، وهى للتشنيع عليهم بتحقيق مطامعهم وانشغالهم بزخارف الحياة الدنيا بأى وجه لا يتحرون حلالها، ولا يتورعون عن حرامها، وفى إيثار المضارع (يأخذون) إعلام بتكرار انكبابهم على الدنيا حالاً فحالاً.

* وفى التعبير باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب (هذا) لتحقير ما شغلوا به أنفسهم من دنئ المطامع أو دانيها، وهذه العبارة (**عرض هذا الأدنى**) كناية عن متاع الدنيا الزائلة، كناية عن موصوف.

* ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تشنيع عليهم إثر تشنيع، وهو كناية عن استخفافهم بالحرمات، كناية عن صفة، وبناء الفعل (**سيُغْفَر لنا**) للمفعول، بعد حذف فاعله وهو اسم الجلالة (الله) إشارة إلى أن كما خلت قلوبهم من تعظيم الله خلت ألسنتهم من ذكره، مواطئين بأقوالهم خبايا صدورهم.

* ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ فى إسناد الإتيان إلى العرض - والمؤتى هو الله - مجاز عقلى (حكمى) علاقته المفعولية، والتركيب فى جملته كناية عن استمرار تكالبهم على الدنيا، واستمرائهم الحرام من حطامها، وأن إخبارهم عن أنفسهم بالغفران خداع وغرور، لأن الله لا يغفر ذنوب المقيم على المعاصى، المعرض عن طلب المغفرة قلباً ولساناً وعملاً.

* ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ جملة تقريرية مسوقة لتوبيخهم على نقض المواثيق حتى مع الله تعالى.

* ﴿أَلاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ أسلوب قصر موصوف على صفة، قصراً حقيقياً

---

(١) صح اعتبارها حالاً من النكرة «خلف» لأنها وصفت بـ«ورثوا».

تحقيقـياً، وهو عطف بيان لعهد وميثـاق الكتاب الذى أخذ عليهم، والألف واللام فى الكتاب للعهد أى الكتاب المعهود، وهو التوراة.

* ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ نعى عليـهم بالمعاصى التى عـرفوا من دراسـتهم الكتـاب أنها مُحرَّمة، وهذا هـو الضلال عن علم لا عن جهل، وعُطِفَ الماضى **(ودرسوا)** على المضارع **(يؤخذ)** لما فى المضارع من معنى المضى، لأن **(لم)** قلبت معناه ماضياً.

وهذا تقرير لهم بالأمرين معاً:

- أَخْذُ ميثاق الكتاب عليهم، علمهم بما فى ذلك الكتاب من أوامر الله ونواهيه.

* ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ جملة استفهامية انتقل فيها من تسجـيل جرائم اليهود واغـترارهم بالدنيا إلى بيان الخـير الذى حرموا منه أنفـسهم بفجورهم، وهو نعيم الآخرة الذى لا يناله إلا المتقون.

* ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب لمواجـهة اليهود القساة القلوب، بما فى هذا الاستـفهام من تأنيب وتوبيخ وتجـهيل وتسفـيه، وحذف معـمولى **(يتقون)** و**(تعقلون)** للإشارة إلى حصول الـتقوى فى الأول فى نفسها، وتعمـيم عدم تعقل أى شئ عند هؤلاء المتحدث عنهم من اليهود الذين ووجهوا بالخطاب أخيراً.

* * *

٢٨ - ﴿وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْهَـدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَـالُوا بَلَى شَهِدْنَا. أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِـيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الدراسة والتحليل:

تقص علينا هذه الآية حقيـقة إيمانية غيبية، وهى إشهـادنا على أنفسنا ونحن غيب (فى عالـم الذر)، لا وجود لنا إلا فى علم الله الأزلى القـديم، فقـد عرضنا عـرضاً لايعلم كيفيته إلا هو وألقى علينا هذا السؤال الفخم الضخم: **(ألست بربكم؟)** وحكى عنا أننا جميعا قلنا: **(بلى. شهدنا على أنفسنا)** قلنا بلسان حالنا، أو لسان مقالنا. قبل

أن تتلبس أرواحنا بهـذه الأجساد المادية. هتـفنا جمـيعا بكلمـة الإيمان والتوحـيد لم يتخلف مـنا أحد. وهذا هو شأن الأرواح اللطيـفة آمنت بالله إيماناً فـطريا وهى حرة طليقة فى آفاق الفطرة.

ولما تلبست الأرواح بالأجـساد عكست المادة الكثيـفة ظلالها وظلامـها على بعض الأرواح، فحجبت عنها نور الحق حجبا متفاوتا، منه ما بقيت معه الأرواح على إيمانها ولم تلبس إيمانها بظلم، ومنهـا من ألبست إيمانها بظلم، ومنها مـا نسيت ذلك الإيمان جملة. فكان منهـا فرعون والنمـروذ وأبو جهل وأبو لهب وماركس ولينين وسـتالين وغيرهم، ومن الحقائق الرائعة أن هذه الأرواح بعد أن تتخلص من أغلال المادة سيعود إليـها ذلك مـرة أخرى، مهـما ألحـدت وكفـرت فى هذه الحيـاة الدنيا، حـتى أنهم سيحـلفون بحياة ربهم يوم القـيامة. وكانوا من قـبله به يكفرون، وهذا الاستـفهام: «﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ مسوق للتـقرير كما تقدم هذا مـرات. وعند جميع أهل العلم، إذْ دخلت همزة الاستفهام فيه، وهى نافية، على (ليس) وهى نافية مثلها. فنفت الهمزة نفى (ليس) فعاد الكلام إثباتا.

وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾:

قد يقول قائل: ما هذا اللف والدوران (**من بنى آدم من ظهورهم**) ولماذا لم يَقل من أول الأمـر: أخذ من ظهـور بنى آدم؟ أو (**وإذ أخـذ من بنى آدم**) بدون ذكـر (من ظهورهم) أليست كل هذه العبارات تؤدى المعنى المراد. وهى فيه سواء؟

والجواب: أن ما جاء عليه النظم الحكيم هو الأبلغ والأفخم والأنسب للمقام.

فالمقام هنا مقام ينتظم إقرار الوجود الإنسانى كله بوحدانية الله والإيمان به. إجماع رائع لم يعرف له نظيـر وقد أشرنا من قبل مـرات إلى سمة من سمـات بلاغة القرآن المعجزة، وهى التـعبير عن الحقـائق العظيمة بأسلوب فخم عظيم مـثلها. والأمر هنا

كذلك. فإن هذا التعبير القرآنى الحكيم توكيداً للمعنى المراد لانجده فى العبارات البديلة التى اقترحها السؤال. وزان ذلك أن يقول قائل:

أخذت من خالد من فمه عهداً و: أخذت من خالد عهداً.

فالعبارتان تشتركان فى (أصل المعنى) ولكن الأولى تؤكده على أبلغ وجه، توكيداً لا وجود له فى العبارة الثانية.

فأخذت من خالد عهداً يحتمل أن يكون منه مباشرة أو خبراً بلغه عنه قد يكون المخبر به غير صادق فى الواقع، أما الأولى فتفيد صدور العهد عن خالد بكل صراحة قد سمعها القائل عبارة واضحة تخرج من فمه لاتحتمل اللبس.

وفى الآية: أن الله انتزع الأجيال على حسب ترتيبها فى التوالد من بنى آدم، وسألهم ذلك السؤال فأجابوا ذلك الجواب فى صورة حقة لالبس فيها.

* ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ كان يكفى فى الجواب (بلى) لأنها للإيجاب بعد النفى. ولكن زيدت (شهدنا) فى الجواب ليناسب الجواب المقام. فالسائل (العالم) هو الله. والمسئول بنو آدم والمسئول عنه هو (التوحيد) وخلوص العبودية. وجلال السائل اقتضى التوكيد فى الجواب.

* * *

٢٩ - ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥].

الدراسة والتحليل:

بعد الحديث عن اليهود، وقد كانوا من مناهضى الدعوة منذ بدأت، انتقل القرآن إلى الحديث عن مشركى العرب، بعد، قال فى الفصل بين الحديثين:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

ومن بلاغة القرآن المعجزة أن هاتين الآيتين استعملتا تعقيباً على مخازى بنى إسرائيل، ثم مدخلا وتمهيداً لبدء الحديث عن مشركى العرب، فأفادت هذين الغرضين فى براعة رائعة، فمن يحملهما على اليهود فقد صدق وأحسن الفهم، ومن جعلهما توطئة للحديث عن مشركى العرب فقد صدق وأحسن الفهم.

والسبب فى هذه المرونة أن فى أولى هاتين الآيتين الفاصلتين وصفاً مشتركاً بين اليهود وبين مشركى العرب وغيرهما، وهو: **(والذين كذَّبوا بآياتنا)** فاليهود ممن كذَّب بآيات الله، ومشركو العرب ممن كذَّب بآيات الله.

وقد جاء فى آيتنا ثلاثة استفهامات:

* ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾؟ * ﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُوا﴾؟ * ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟

يقول الإمام أبو السعود فى المراد من هذه الاستفهامات:

(أَوَلَمْ يتفكروا...) الهمزة للإنكار والتعجيب والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم.. أى كذبوا بها ولم يتفكروا فى أى شئ من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة[1].

وقال فى **(أولم ينظروا)** والهمزة لما ذكر من الإنكار والتعجب والتوبيخ، والواو للعطف...[2] والمعطوف عليه إما محذوف أو مذكور، وهو الجملة المنفية بلم هنا، وهذا هو مذهب الإمام جار الله كما تقدم.

والتقدير فى الاستفهامين يقول فيه أبو السعود: «أى اكذبوا بها، أو ألم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه خلق السموات والأرض من عظم الملك وكمال القدرة»[3].

أما ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فيقول فيه: «هو إنكار وتبكيت لهم مترتب على إخلالهم بالمسارعة إلى التأمل فيما ذكر»[4].

(١ - ٣) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٩٨)، وانظر معه: الكشاف (٢/ ١٣٣)، وروح المعانى (٩/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٤/ ٤٣٣)، والتحرير والتنوير (٩/ ١٩٣).

(٤) تفسير أبى السعود (٣/ ٢٩٨)، وانظر معه: الكشاف (٢/ ١٣٣)، وروح المعانى (٩/ ١٢٨)، والبحر المحيط (٤/ ٤٣٣)، والتحرير والتنوير (٩/ ١٩٣).

اكتفينا بإثبات ما قاله الإمام أبو السعود - هنا - مع الإشارة إلى مواضع البحث عند الأئمة الآخرين، توخياً للإيجاز وعدم الإطالة بالتكرار، ولأن ما قاله أبو السعود محتو على خلاصة ما قيل عند غيره، وما فى غيره إلا بعض إضافات إلى المعانى المردوفة على الإنكار فى هذه المواضع.

وخلاصة القول هنا: أن المعنى المراد - أصالة - من هذه الاستفهامات هو الإنكار، ويتبعه معان يدل عليها المقام وهى التوبيخ والتسفيه والتهديد، ومما أضافه أبو حيان التوقيف، وهو بمعنى التقرير، والتقرير لا يردف على الإنكار، فكان الأولى أن يقول: وقَّفهم على مخازيهم ثم أنكرها عليهم ووبخهم وهدَّدهم.

ولكن القول بالتقرير - أصالة - هنا لا يتأتى فى **(أولم يتفكروا) (أولم ينظروا)** إلا على مذهب الجمهور الذى يرى أن همزة الاستفهام مقدمة من تأخير، وأن الأصل: **﴿وألم يتفكروا﴾ - (وألم ينظروا..)** لتكون الهمزة داخلة على النفى مباشرة بلا فاصل، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

أما ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتأتى فيه التقرير أبداً، فهو للإنكار قولاً واحداً.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنكر عليهم عدم تفكرهم ثم إصدارهم الأحكام بلا روية، فقدوصفوا رسول الله ﷺ بالجنون، وهذا وصف لم يقم على أساس من الواقع، ولو كانوا قد فكَّروا فى حقيقته ﷺ لظهر لهم كذبهم وأنه فوق ما يقولون، وفى التعبير بـ**(ما بصاحبهم من جنة)** إشارة إلى جهلهم وتعُّسفهم فهم يعرفون محمداً ﷺ حق المعرفة لأنه منهم وبينهم نشأ من عِشيرة من أشرف عشائر العرب، وكانوا يجلونه ويعظمونه قبل البعثة، وما زادته الرسالة إلا شرفاً وكمالاً فما لهم قد انتكسوا وناقضوا أنفسهم؟ ولو قيل: ما بمحمد لفاتت هذه المعانى المفحمة والملزمة بالحجة.

* و(من جنة) التنكير فى (جنة) للتقليل، ودخول (من) عليها للاستغراق فى النفى، أى ما به أى أثر من جنون قط.

* ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أسلوب قصر موصوف على صفة، أى قصر **(صاحبهم)** على صفة النذارة قصر قلب، لأنهم دعوه مجنوناً، وهو أعقل العقلاء، فرد الله عليهم زعمهم بالجنون وأثبت له صفة النذارة وحدها؛ لأن المنذر لا يكون مجنوناً، وهو قصر إضافى كما ترى، لأن لمحمد ﷺ مئات الصفات غير النذارة، وإنما أريد بالنص على إثبات النذارة نفى تهمة الجنون التى رموه بها وكأنهم يثأرون منه بسبب الإنذار.

ولم يذكر صفة (البشارة) مع صفة النذارة، وهما كثيرتا الاقتران فى النظم الحكيم، لأن المتحدث عنهم - هنا - وهم مشركو العرب كفار معاندون، فليس لهم من الرسالة التى كذَّبوا بها إلا الإنذار وهذا من دقائق الأسرار البلاغية فى النظم الحكيم.

﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا﴾ استعارة تبعية، لأن المراد من النظر هنا التأمل فى عجائب الكون الذى يُبَصِّر القلوب بالحقائق كما تكشف العين بالنظر ظواهر الموجودات المادية.

* ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ﴾ عطف تفصيلى على إجمال، فبعد النظر فى ملكوت السموات والأرض نظراً عاماً، جاء هذا النظر التفصيلى الخاص بمفردات ونوعيات من خلق الله عز وجل.

* ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أى بعد القرآن، أو بعد مجئ أجلهم وهو إهلاكهم العاجل، ودلالة هذا الاستفهام على الإنكار هو السؤال عن البديل الذى يصلح للإيمان من غير القرآن، والسؤال عن أى شئ معناه أنه غير موجود، ومن هنا تولد الإنكار عن طريق الكناية اللطيفة.

* * *

٣٠ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى، لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٧].

الدراسة والتحليل:

الخطاب فى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ لصاحب الرسالة ﷺ والمسئول عنه هو يوم القيامة. هذا لاخلاف فيه، وإنما الخلاف فى السائل من هو؟

هل اليهود؟ أم مشركو العرب؟ أم المؤمنون؟ فإن كان اليهود فالسؤال عن الساعة المراد منه الاختبار والامتحان.

وإن كان مشركو العرب فالمراد من السؤال الاستبعاد والإنكار.

وإن كان السائل هم المؤمنين فالمراد من السؤال الاستيضاح والاستعلام.

والواقع أن السؤال عن الساعة لم يقف عند طائفة واحدة لأن من شأن النفوس - جميعا - التطلع إليها والعلم بها. والرسل أقرب الناس إلى الله وعليهم أنزل وحيه. فهم مفزع الناس فيما يتعلق بالغيوب، وفى مقدمتها الساعة. وقد أُسند السؤال عن الساعة فى سورة الأحزاب إلى الناس جميعا فى قوله تعالى ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعةِ﴾ [الأحزاب:٦٣] وكان أصحاب رسول الله ﷺ كثيرى السؤال عن الساعة. وما يتعلق بالجنة والنار وبعض أمور الغيب، حتى نهاهم الله فى سورة المائدة عن هذا الإلحاح فى قوله عز اسمه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١].

ومهما كان الخلاف حول السائل من هو؟ فإن جواب الاستفهام صالح لجميع التقديرات. فهو خطاب كل الأجيال. وليس له مخاطب خاص لايتعداه، وكلام الأئمة، لايخرج عما أشرنا إليه من المراد من الاستفهام على جميع التقديرات فى نوعية السائل. وهى كما تقدم:

* الاختبار والامتحان إن كان السائل اليهود.

* الإنكار والاستبعاد إن كان السائل مشركى العرب.

* الاستيضاح والاستعلام إن كان السائل المؤمنين.

ومن يرجع إلى ما قاله الأئمة يجدهم قد حصروا اهتمامهم على التقديرين الأولين دون الثالث[1].

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؟

إيثار المضارع إشارة إلى أن السؤال عن الساعة لم يقع مرة واحدة، ولا مرتين ولاثلاثا، بل كان يتكرر على ألسنة السائلين. وهذا يرجح أن السائل ليسوا هم اليهود وحدهم، ولا هم مع المشركين، إذ لو كان الأمر كذلك لما عُبِّر عن السؤال بالمضارع الدال على الكثرة والذى أيده ما جاء فى آية الأحزاب ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾.

وفى (أيان) تفخيم للسؤال من أجله عُدِل عن (متى) إلى (أيان) سواء كانت مركبة من (أى) و(آن) بمعنى وقت، أو كانت بسيطة، لأن زيادة المبنى غالبا ما تدل على زيادة المعنى. وهذا الموضع من شواهدها وفى (مرساها) استعارة تصريحية حيث شُبِّه وقوع الساعة واستقرار أمرها بالمُرْسى الذى ترسو فيه السفن. فتُرى - أى الساعة - بالعين ويؤمن بها من لم يكن قد آمن بها من قبل، وينقطع التطلع إليها. والاستفهام هنا عن معرفة الوقت الذى ستكون فيه.

* و(أيَّانَ مُرْسَاها) بدل اشتمال من (**يسألونك عن الساعة**) أو عطف بيان كاشف لما تضمنه السؤال فى «**يسألونك**».

* ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ هذه الجملة أول جزء من الإجابة على هذا التساؤل. وقد صُدِّرت بفعل الأمر (قل) لما تقدم مرات من الإشعار بأهمية «المقول» ومواجهة المأمور بمواجهتهم.

وهى أسلوب قصر صفة على موصوف، والصفة المقصورة هى العلم بوقت قيام

---

(١) انظر مثلا: الكشاف (٢/ ١٣٤) وتفسير أبى السعود (٣/ ٣٠٠) وروح المعانى (٩/ ١٣٢) والتحرير والتنوير (٩/ ٢٠٠).

الساعة. والمقصور عليه هو (ربى) أى الله. وأوثر (رب) مضافا إلى ضمير المخاطب المتكلم[1] لما فى (رب) من صلاحية الإضافة التى يقتضيها المقام - هنا -: أى قل لهم علمها مختص به (ربى) ولو كان الله مطلعا أحداً على أسرار الساعة لأطلعنى عليها لأنه ربى الذى أرسلنى فأنا أقرب منزلة منه.

* ﴿لاَيُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ هذا هو الجزء الثانى من الإجابة. وقد جاءت الجملة مفصولة عما قبلها ولم تعطف عليها بـ (الواو) مع أن الجملتين من مقول القول لأن الجملة الثانية (**لا يجليها لوقتها إلا هو**) بدل اشتمال من الجملة الأولى (**علمها عند ربى**) وهى جملة قصرية قصرت فيها صفة التجلية على ضمير اسم الجلالة (هو) وهذا القصر حقيقى تحقيقى.
* ﴿ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ استئناف مبين لبعض أهوال السَّاعة. وفى ثقلت استعارة تبعية لاشتدت أى اشتد أمرها فى أعلى الكون وأسفلة لغرابة أحوالها وفظاعة أهوالها، واقتراب وقوعها. وفى إسناد الثقل إلى ضمير الساعة، وهى زمن، مجاز عقلى علاقته الزمانية، لأن الثقيل حقيقة هو الأحداث والأهوال التى ستقع فى ذلك الزمن المعلوم لله وحده. وفى هذا إنذار وتخويف من مشقتها لكى يستعد الناس لها ويخشون أحزانها وسوء المصير فيها.
* ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ جملة قصرية قصرت فيها صفة الإتيان على موصوف هو البغت. وفى هذا تيئيس للسائلين عن معرفة وقتها. والاستثناء مفرغ من جميع الأحوال إلا حال المباغتة. وفى إسناد الإتيان إلى الساعة مجاز عقلى علاقته المفعولية أما المؤتى فهو الله تعالى. وسر هذا المجاز التخييل بأن الساعة هى التى تسعى نحو الناس ليجازى كل امرئ بما كسب.
* ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ جملة تشبيهية شبه فيها صاحب الرسالة وهو لايعلم عن وقت الساعة شيئا بمن هو عالم بها. ظانين أنه كان يلح على ربه أن يُعْلِمَهُ وقت وقوعها فأعلمه. وهذا ظن مخطىء لذلك رده الله بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ فأكد بهذا القصر معنى الجملة القصرية الأولى (**قل إنما**

---

(١) وهو النبى ﷺ.

علمها عند ربى) وإيثار اسم الجلالـة هنا (الله) لتربية المهابة فى نفـوس السائلين الذين ألحوا فى السـؤال. وفى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ تعريض بالسائلين والنعى عليهم بالجهل بحقائق الإيمان ولو كانوا عالمين باختصاص الله بها ما سألوا.

* * *

٣١ - ﴿أَيُشْرِكُون مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

الدراسة والتحليل:

فى هذه الآية تعقيب حكيم على ظاهرة الإشراك بالله والمشركين، والنعى على من يتخـذ من نعمة الله وسيلة للـكفر به. وقبل هذه الآية كان قـوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذى** خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَة، وَجَعَلَ منها زَوْجَهَا لِيَـسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمرَّتْ به، فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لإنَ آتَيْتَنَا صَالحاً لَّنَكُونَنَّ منَ الشَّاكِرينَ * فَلَمَّـا آتَاهُمَا صَالِحاً جَـعَلاَ لَهُ شُرُكَاءَ فِيـمَا آتَاهُمَا، فَتَعَـالَى اللهُ عَمَّا يُشرِكُونَ﴾.

وبعد هاتين الآيتين جاءت آيتنا مصدرة بهذا الاستفهام:

﴿أَيُشْرِكُون مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

وهو استفهام إنكارى تجهيلى تـوبيخى عند جميع أهل العلم. والإنكار فيه منصب على الواقع، لأن عبادة الأصنام فى عصر النزول كـانت قد وصلت ذروتها، وبخاصة عند العرب. وهذه خلاصة ما يقال فى هذا الاستفهام.

أسرار النظم وبلاغياته:

* أول ما يلفت نظرنا فى هذه الآية وفاصلة الآية التى قـبلها أول ما يلفت نظرنا تحول الحديث من المثنى إلى الجمع، وقد كانت الآية التى قـبلهما بدأت الحديث بالإفراد، ثم المثنى، ثم ورد الجمع فى فاصلة الآية الثانيـة من هذه الآيات الثلاث. ثم استمر الحديث (جمعيا) بعد ذلك. ومن الخير أن نذكر آيتنا هذه مع ما بعدها كما ذكرناها مع ما قبلها:

﴿أَيُشْرِكُـونَ مَالاَ يَخْلُقُ شَيْـئاً وَهُمْ يُخْلَقُـونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُـونَ لَهُم نَصْراً وَلاَ

أنفُسَـهُمْ يَنصُـرُونَ * وَإِن تَدْعُـوهُمْ إِلَى الْهُـدَى لاَ يَتَّبِـعُـوكُمْ، سَـوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾.

وهدفنا من هذا الجمع بين هذه الآيات الخمس محـاولة لنفى تهمة الإشراك عن آدم وحواء رضى اللـه عنهما، فـإن ظاهر الآية رقم (١٩٠) مع الآية التى قـبلها (١٨٩) يوحى بأن الحديث مسوق عن آدم وحـواء. وأنهما هما اللذان جعلا لله شركـاء فيما آتاهما بعد أن دعواه: **(لإن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين)**.

وقد رأيت مـحاولات كثـيرة عند المفسـرين وأهل العلم لنفى هذه التهـمة عن آدم وحواء، ولكنهـا ليست مقنعة، لأن الانتـقال فيهـا من تبرئة آدم وحواء إلى إلصـاقها بالذين أشركوا من ذريته، هذا الانتقال يبدو تعسفيا إلى أبعد الحدود، ثم رأيت لشيخنا محمد الغزالى فهما رائعا نفى فيه التـهمة عن آدم وحواء نفياً وجيها. وذلك فى كتابه الذى دعاه (التـفسير الموضـوعى للقرآن الكريم) فقد أصـاب فى إقناع القارىء بالرأى الذى أبداه. وخلاصته أن فى أوائل الأعراف آية خوطب بها بنو آدم والمراد هو الحديث عن آدم. وهى قوله تعالى:

﴿وَلَقَدِ خَلَقْنَاكُمْ ثُـمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْـجُدُوا لآدَمَ﴾ لأن أمـر الله الملائكة بالسجـود لآدم كان بعد خلق آدم وتصـويره لا بعد خلقنا نحن فـهذه الآية - فعلا - حديث عن آدم خوطب بها بنوه وهذا ما جعل شيخنا الغزالى رحمه الله يقول فى هذه الآيات التى نحن بصـددها ومنها قـوله: ﴿جَعَـلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِى مَـا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إنها حديث عن بنى آدم أُخرجت مُخْرِجَ الحديث عن آدم وحواء.

هذا مـا ذكـره الشيخ رحـمـه الله، وفى كل من الآيات صـارف قـوى إلى وضع الحديث موضعه من الفهم والاعتقاد فترتيب الأمر بالسجود على تصويرنا وخلقنا نحن صارف عن الحديث عنا، إلى آدم علـيه السلام ونسبة الإشراك بالـله فى آيتنا وجاراتها إلى النفس الواحدة وزوجـها صارف عن الحديث عن آدم إلى من أشـرك من بنيه من بعده.

والذى نضيفه - نحن - هنا إلى ما قاله شيخنا الغزالى أجزل الله له الثواب، دليل آخر يقوى ما ذهب إليه، ويسير فى الاتجاه نفسه وخلاصته: أن الحديث فى هذه الآيات خطاب للناس جميعا، وقد بدأ بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وفى هذا تذكير لنا بمبدأ الخلق حيث بدأ بآدم وهو النفس الواحدة، ثم قال ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ وهذه هى المرحلة الثانية من مراحل الخلق وتطوره وتكاثره. ثم قال:

* ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ وفى هذه العبارة إشارة إلى وسيلة «التكاثر» بعد الخلق المباشر من الطين، ثم من أضلاع آدم. فالتثنية هنا ليس المراد منها آدم وحواء الأوَّلَيْن. بل المراد الزوجين متى وأين وجدا. ومن هنا ينتقل الحديث عن آدم إلى الحديث عن بنيه.

﴿فَلَما أَثْقَلَت دَّعَوا اللَّهَ رَبَّهُمَا لإِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وفى فاصلة هذه الآية بدأت مرحلة الجمع الخَلْقى تظهر (الشاكرين).

إذاً فإن ما فى الآيات تمثيل لسلوك بعض بنى آدم، وليس حديثا عن آدم وزوجه. ومن أدلة هذا قولهم (صالحاً) وهذا الوصف يستساغ الدعاء به من خلال تجربة مرَّ بها الزوجان فى الحياة عرفا منها الصلاح ما هو؟ والطلاح ما هو؟ وهذا لايكون إلا ثمرة مجتمع فيه كثير من الناس.

ومن أدلته - كذلك -: (**لنكونن من الشاكرين**) لأن هذا الوصف لايتحقق إلا فى مجتمع متكاثر فيه شاكرون وغير شاكرين.

وقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إن دلالة هذه الآية تكشف لنا عن مجتمع بينه وبين خلق آدم وحواء بون شاسع. مجتمع عرف عبادة الأصنام وجعلها شركاء لله فى الألوهية. ولم يكن هذا معروفا فى حياة آدم، ولا حياة بنيه الأقربين، وإنما ظهرت فكرة الأصنام فى عصر نوح عليه السلام، ونوح أقدم من إبراهيم أبى الأنبياء، وهو أول رسول بعد نبوة آدم وإدريس.

وهذا كله لاينفى عن آدم وحواء تهـمة الإشراك بالله فحسب بل يـحيلها إلى وهم من الأوهام.

وما تلا هذه الآيات أدلة قاطعة على تبـرئة أبينا آدم؛ لأنها تنسب إلى عُبَّاد الأصنام أنهم كانوا يرجون منهم النصر. وهذا محال نسبته إلى آدم.

فالنظم القـرآنى مزج فى دقـة مراحل تطور الحيـاة البشرية من الـناحيتين الخَلْقـية والفكرية الدينيـة، مُعوِّلاً على أقوى الـدليلين، وهو العقل، فى نسبـة الأحداث إلى فاعليها فى الواقع.

* وإيثار المضارع فى (**أيشركون**) للإشارة إلى واقع الشرك وتكراره عـبر تلك الأجيال التى تحدث عنهـا القرآن كـما أن المضارع فى (مـا لايخلق شيـئا) إشارة إلى عـجز الأصنام عن خلق أى شىء ولو كـان تافهـا كمـا يدل عليه تنكـير (**شيئا**) ومع هذا العجز فهم مخلوقون مقهورون.

* * *

٣٢ - ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾(١) [الأعراف: ١٩٥].

الدراسة والتحليل:

وردت هذه الآية فى سلك الآيات التى يدور الحديث فيـها عن المشركين وأصنامهم بدءاً من الآية رقم (١٩٠) إلى الآية (١٩٨). وقبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أهل العلم مجـموعون على أن المراد من هذه الآيات هو الأصنام التى دعـوها آلهة مع الله أو من دون اللـه. والمتـأمل فى هاتين الآيتين يجـد أن النـظم القـرآنى، وهو يتحدث عن الأصنام، قد استـعمل فى التعبير عنها أساليب التعبـير عن العقلاء مثل:

(١) لم نتحدث عن الآية (١٩٣): «سـواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون» لسبق الحـديث عنها ضمن نظائرها فى أول مباحث الاستفهام فى سورة البقرة. انظر (١/٣) من هذه الدراسة.

(الذين - عباد - فادعوهم - آلَهُم - يمشون - يبطشون - يبصرون - يسمعون). وهذه الصفات الأربع الأخيرة وردت مسلوبة عن الأصنام. وبذلك فإن هذه الآيات لاتخرج الأصنام عن دائرة العقلاء فحسب، بل تخرجها حتى عن دائرة الحيوانات العجماوات؛ لأن لها أرجلا وأيديا وبصرا وسمعا. أما هذه فهى كتلة من المادة الجمادية التى لا صلة لها بأى نوع من الإحساس الإنسانى والحيوانى وهذا الوصف صادق كل الصدق عن الأصنام.

وإذا كان المراد هو الأصنام فما السر فى التعبير عنها بالأساليب التى يُعبَّر بها عن العقلاء؟

إن الإجابات المتعددة التى أبداها السادة المفسرون وغيرهم لم تبلغ درجة الإقناع. وقد أطلعنا على قدر كبير منها فى كتب التفسير المتداولة فلم نحظ بما يشفى الغليل، ومن شاء فليراجع تلك المصادر، وسيرى ما رأيناه من قصور.

ولهذا فإننا - إسهاماً منا - نحاول من جانبنا ما نراه صوابا أو قريبا من الصواب فى هذا الموضوع.

المعروف أن المشركين لم يقتصروا على عبادة الأصنام وحدها، بل كان منهم من يعبد الملائكة، والصالحين من بنى آدم، كقوم نوح، وهذه الظاهرة قد انتقلت إلى مشركى العرب، وكثير من الأصنام التى كانت تعبد كانت رموزاً لرجال صالحين تطاول عليهم الأمد. وإن جهل عابدوها حقيقة أمرهم وعبدوها تقليداً لآبائهم وسلفهم.

إنها تماثيل منحوتة لأشخاص كانوا أحياء يرزقون فزين إبليس عبادتها للجهلاء فعظموها واتخذوها آلهة من دون الله.

ولاتزال هذه الظاهرة - ظاهرة نحت التماثيل - فاشية فى حياة الشعوب، حيث ينحتون تماثيل لرؤسائهم وعظمائهم وينصبونها فى الميادين، رمزا لتخليدهم والتذكير بهم، وهى عادة وثنية حرمها الإسلام لما فيها من مضاهاة خلق الله، وابتداع التخليد بالرمز الجمادى، ولأنها وسيلة من وسائل الشيطان يضل بها هواة الجهل من الناس،

مهما بلغـوا من الثقافة، والمعروف كذلك أن (الصنم) أى (التمـثال) لايعظم ولا يُعْبد إلا بعد موت صاحبه. **فكل تمثال أو صنم له مرحلتان:**

الأولى: مرحلة الأصل، ونعنى بها حياة صاحب التمثال وهو حى يرزق.

الثانية: مرحلة الصورة والشكل. وهى المرحلة التى يتم فيها تعظيم الأموات وإضفاء هالات عليهم من القداسة إلى درجة التأليه، بعـد أن يتخيل مألهوها أن لها سرا وقوة يكمنان وراءها.

ومحـال أن يصنع إنسان - مـهما بلغ من الغـباء أشكالاً ثم يعـبدها دون أن يكون لهذه الأشكال أسطورة عنده ترفعها إلى مستوى الآلهة المدعاة ولهذا فإننا نقول فى سر النظم القرآنى فى الحديث عن الأصنام جامعاً فى التعبـير عنها بين أساليب التعبير عن العقلاء وعن غير العقلاء على النحو الذى مرَّ فى آيات الأعراف السابقة، وغيرها، إن النظم القرآنى جمع بين تلك الأساليب لبيان عقائد المشركين فى جميع العصور:

فى العصـور التى كان من دُعُوا آلهة فـيها أحيـاء يرزقون. كادعاء فـرعون ونمروذ الألوهيـة فى حياتهـما ثم فى العـصور التى انتـقل التأليـه فيـها من الأشـخاص إلى «الشخوص» أو التماثيل والرموز.

ولهذا فلا غرابة أن يصـفهم القرآن بوصف عباد أى مخلوقـون مقهورون لله، ولا غرابة أن يتحدث عنهم بأساليب العقلاء:

يمشون - يبطشون - يبصرون - يسمعون، إلى أوصاف أخرى كثيرة هى خاصة بمن كان ذا عقل؛ لا غرابة فى ذلك لأن هذه الأوصاف كانت قائمة بها باعتبار ما كان.

ولا غرابة أن ينفى عنها الأرجل والأيدى والأعين والآذان، لأن الأصنام أو التماثيل الجمادية تخلو فعلا من وظائف هذه الأعضاء وإن كانت موجودة فيها هيكلاً وصورة.

هذا المزج العجيب بين تلك الخصائص العاقلة وغير العاقلة تأريخ بليغ لنشأة الشرك وتطوره عبر تاريخ البشرية من عهد آدم إلى عصر نزول القرآن وهذا المزج العجيب لم يقتـصر على مـا ورد فى آيات سورة الأعراف هذه، ولـكن له نظائر كثيـرة فى النظم القرآنى الحكيم. فلنسمع لهذه الطائفـة من الآيات وهى تسجل حواراً حيا بين إبراهيم وقومه عليه السلام:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأبيه وَقَوْمِه مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ﴾

[الشعراء: ٦٩-٧٣].

فمن أوصاف غير العاقل (ما) - (أصناما) - (لها) ومن أوصاف العقلاء: (يسمعونكم) - (ينفعونكم - يضرون) وللقارئ أن يتتبع أشباه هذا فى القرآن، وسيحظى منه بنصيب وافر.

وأقول: هذا ما هدينا إليه، وهو - فيما نحسب - صواب أو قريب من الصواب. فيه للخلاف - إن شاء الله - حسم. وللقلوب - إن شاء الله - اطمئنان، وللعقول - إن شاء الله - إقناع.

أسرار النظم وبلاغياته:

* إسناد صفات العقلاء للأصنام عقب الجوارح الأربع (**يمشون - يبطشون - يبصرون - يسمعون**)، مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان. ونفى هذه الأعضاء باعتبار ما هو كائن.

* تعقيب الجوارح بوظائفها احتراس رائع لرفع ما يتوهم ثبوته، فقد يكون للتماثيل أرجل وأيد وأعين وآذان لكنها لا تمشى ولا تُبطش ولا تبصر ولا تسمع، ولولا إضافة وظائفها إليها فى سياق الإنكار والنفى لصح أن يكون الجواب بالإيجاب. فالإنكار فيها مسلط على المقيدات وهى الأرجل والأيدى والأعين والآذان، وعلى القيود وهى: (المشى - البطش - الإبصار - السمع).

وتقديم الأرجل على الأيدى والأيدى على الأعين، والأعين على الآذان لأهمية المقدم على المؤخر بالتدريج. فليس لما يعبدونه قدرة على السير لنفعهم ولرفع الضر عنهم، ولا قدرة لهم على البطش بأعدائهم، ولا يرونهم أين هم، ولايسمعون لهم دعاء. يعنى أنهم لايساوون شيئا إلا «الصفر» المنفرد.

* وتنكير (**أرجل - أيد - أعين - آذان**)، للتحقير، أى ليس لهم شىء من هذه المذكورات ولو كان تافها حقيرا.

* ﴿قُلْ ادْعَوا شُرَكَاءَكُمْ . .﴾ فعل الأمـر (قل) للاهتمام البالغ بالمقـول، ولوجوب مواجهة المشركين بهذا الإفحام والتحـدى والأمر (ادعوا) للسخرية بهم ولتحسيرهم وتفجيعهم.
* (**ثُمَّ كِيدُون**..) زيادة فى السخـرية منهم والاستهـزاء بهم ولإظهار عجزهم وعـجز آلهتهم.
* ﴿فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ كان عطف طـلب الكيد على دعوة آلـهتهم بـ (ثم) لمنحـهم هدنة الدعوة والتجميع لما فى (ثم) من التراخى وجاء عطف المبادرة بالكيد بحرف (الفاء) لما فيه من الفورية. نكاية بهم واستخفافا بكيدهم.

وهذا حديث الواثق بنصر الله أمام ركـام الباطل وتجمعاته ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾.

* * *

سورة الأنفال

١ - ﴿وَمَالَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَيَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

الدراسة والتحليل:

سورة الأنفال لم يرد فيها من صور الاستفهام إلا صورة واحدة هى التى نعرض لها هنا. وهى واردة فى سلك آيات تتحدث عن مشركى مكة. والسورة كلها حديثها مقصور على الواقع الذى كان يُعاش فى عصر نزول القرآن. أو بمعنى أوضح: كل ما جاء فى السورة كان عن الأحداث العربية التى وقعت بعد ظهور الإسلام. إما حديث عن مشركى العرب، أو خطاب للمسلمين فيه تشريع حربى وسلمى ناشىء عن تلك الأحداث المستجدة فى شبه الجزيرة، التى كانت صدى لظهور الإسلام وحركة الدعوة فى الداخل.

وآيتنا هذه ذات صلة وثقى بموقف أحمق وقفه مشركو العرب من الإسلام. هذا الموقف تصوره آية قبل آيتنا وتأتى آيتنا تعقيبا عليه مع الآية التى قبلها مباشرة.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السَّمَاءِ، أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

هذا هو الموقف الأحمق، حيث لم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وانفعنا به. بل جعلوا علامة كونه هو الحق هلاكهم وتدميرهم بأفظع أسباب الهلاك والتدمير:

* أن يمطرهم مطرا غزيرا بالحجارة بدل الماء؟

* أو يسلط عليهم عذابا، واشترطوا أن يكون هذا العذاب أليما؟!

فهل فى الدنيا عاقل يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟ هذا وقد عقب القرآن على هذا الموقف الأحمق بآيتين إحداهما:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

هذه هى موانع العذاب عنهم:

* وجود رسول الله ﷺ بينهم. * التوبة والاستغفار من عباده الصالحين.

ويقيـنا أن الله علم أنهم يريدون عذاب الاسـتئـصال (أى إهلاك الجـميع) فـقابل بحكمته وسعة رحمته جهلهم وحماقتهم.

أما الآية الثانية المعقبة على ذلك الموقف الأحمق فهى آيتنا:

﴿وَمَالَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

يعنى: وأى شىء يمنع من تعـذيبهم وهم يحاربون الله ورسـوله ويصدون المؤمنين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وهم ليـسوا أولياءه ولا القائمين على شئونه؛ لأنهم لم يرقوا إلى هذا الشرف الذى لايؤهل له إلاَّ المؤمنون الأتقياء.

ولولا موانع العذاب التى كرَّم الله بها أمة مـحمد ﷺ لكانوا عرضة لذلك العذاب الذى سألوه، يأتيهم فى لمحٍ بالبصر أو هو أقرب.

والاستفهام فى قول الحق: ﴿وَمَالَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمَ اللَّهُ﴾ قد مرّت بنا صور منه فيما تقدم فى سورة البقرة والنساء. وعرفنا المراد منه بلاغيا. ولا بأس من إيجاز القول فيه هنا مرة أخرى:

يقول الزمخشرى: (**ومـا لهم ألا يعـذبهم الله**) وأى شىء لهم فى انتـفاء العـذاب عنهم، يعنى «لاحظ لهم فى ذلك، وهم معذبون لا محالة»[1].

يريد الإمام جار الله أن المراد من الاستفهام هو إنكار موانع العذاب بهم.

ويتابع أبو السعود الزمخـشرى فيقول: (**وما لهم ألا يعـذبهم الله**) بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيـان أن المانع ليس من قِبَلِهِم، أى، وما لهم فما يمنع تعـذيبهم متى زال ذلك»[2].

يعنى: متى زال ذلك المانع الذى لادَخْل لهم فيه.

---

(١) الكشاف: (٢/١٥٦). (٢) تفسير أبى السعود (٤/ ٢٠).

أما الألوسى فقد مزج بين قولى الزمخشرى وأبى السعود ولم يضف جديداً[١].

وفى إيجاز شديد حاكاهم البيضاوى، أو حاكى الزمخشرى وأبا السعود[٢].

وأبو حيان يصرح بالمراد بالاستفهام - عنده - فيقول:

«الظاهر أن (ما) استفهامية. أى: أى شىء لهم فى انتفاء العذاب، وهو استفهام معناه التقرير. أى كيف لايعذبون وهم متصفون بهذه الحالة»[٣].

وقال الشيخ رشيد: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانعين..»[٤].

أما الشيخ ابن عاشور فقال:

(ما): استفهامية، والاستفهام إنكارى... والمعنى لم يثبت لهم شىء[٥].

أى لم يثبت لهم شىء متصل بهم من موانع العذاب.

والخلاصة: أن هذا الاستفهام إنكارى فعلا، وليس تقريريا كما قال أبو حيان. وعذره أنه نظر إلى جهة غير الجهة التى يُفهم منها الإنكار. فالجهة التى فهم منها الإنكار الذى صرح به الطاهر بن عاشور. وألمح إليها الأئمة هى المعنى المباشر للتركيب الاستفهامى، وهو النفى، أما أبو حيان فقد نظر إلى المعنى المفهوم من التركيب، وهو - كمال قال - التقرير، لأن هذا التركيب دل بلفظه ومنطوقه على نفى الأسباب الخاصة بهم المانعة من تعذيبهم. والمعنى المفهوم هو إيقاع العذاب بهم لا محالة لولا تلك الموانع التى لاتتصل بهم قط.

أسرار النظم وبلاغياته:

* ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ جملة استدراكية لدفع توهم غير المراد؛ لأن الله لما قال: **(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)** قد يفهم من هذا النفى أنهم غير مستحقين العذاب، فجاء قوله تعالى: **(ومالهم..)** مبيناً أنهم أحقاء بالعذاب. وما مُنِع العذاب عنهم لبراءة فيهم، ولكنه منع لحكمة قد بيَّن الله أسبابها.

---

(١) روح المعانى (٩/ ٢٠٠).
(٢) تفسير البيضاوى (١/ ٣٨٢).
(٣) البحر المحيط (٤/ ٤٩٠).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٥٤٠).
(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٣٣٥).

وإيثار اسم الجلالة (الله) لتهويل وتفظيع العذاب الذى يستحقونه بكفرهم وعنادهم.

* ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ جملة تعليلية لاستحقاقهم العذاب. وإيثار المضارع فى جملة التعليل (يصدون) تشنيع عليهم بأنهم لا يكفون عن الصد عن مسجد الله الحرام. وهذا الصد كناية عن مناهضة الإسلام، ومحاربة الداخلين فيه. والقعود لهم بكل طريق.

* ﴿ومَاكَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ تكذيب لدعوى كان المشركون يروجونها:

أنهم سدنة البيت وحماته، والقائمون على شئونه وسبب هذه الدعوى العصبية البغيضة، فكذَّب الله دعواهم، لأن المسجد الحرام لايرثه ولد عن والد. إنه منارة الحق، وليس لأهل الباطل أدنى صلة بالحق. والنسب الذى يؤهل للولاية على البيت العتيق هو نسب الإيمان والتقوى. وأين هؤلاء من الإيمان والتقوى؟.

* ﴿إِن أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ المُتَّقُونَ﴾ جملة قصرية. قصر موصوف (ولاية المسجد الحرام) على صفة التقوى وهو قصر حقيقى تحقيقى.

وفصلت هذه الجملة عما قبلها لشبه كمال الاتصال حيث نزلت جملة: ﴿إِن أَوْلِيَاؤُهُ﴾ منزلة جواب عن سؤال نشأ عن الجملة الأولى، حاصله: مَن هُمْ أولياؤه؟

وإيثار وصف التقوى على وصف الإيمان لأن التقوى تنشأ عن الإيمان وتستلزمه فكأنه قال: إن أولياؤه إلا المؤمنون المتقون.

* ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَيَعْلَمُونَ﴾ تذييل مسوق لتقرير معنى الكلام الذى قبله. وهو خبر مستعمل فى الذم والتحقير.

* * *

الفهـــرس

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
	سورة البقرة		
١	. . . أأنذرتهم أم لم تنذرهم	٦	١٣
٢	. . . قالــوا أنؤمن كمــا آمن السفــهاء	١٣	٣٦
٣	. . . فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً	٢٦	٤٠
٤	كيف تكفرون بالله	٢٨	٤٤
٥	. . . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها	٣٠	٥١
٦	. . . قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض	٣٣	٥٧
٧	أتأمرون الناس بالبر - أفلا تعقلون	٤٤	٥٩
٨	أتستبدلون الذى هو أدنى	٦١	٦٣
٩	أتتخذنا هزواً	٦٧	٦٥
١٠	قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هى	٦٨	
١١	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها	٦٩	٦٧
١٢	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى	٧٠	
١٣	أفتطمعون أن يؤمنوا لكم	٧٥	٦٨
١٤	. . . أتحـدثونهم بما فـتح الله عليـكم - أفـــلا تعقلون	٧٦	٧١
١٥	أولاً يعلمـــون أن الله يعلم مـــا يســرون ومـــا يعلنون	٧٧	٧٤

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
١٦	قل أتخذتم عند الله عهداً - أم تقولون على الله ..	٨٠	٧٥
١٧	أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض	٨٥	٧٨
١٨	أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم	٨٧	٨١
١٩	قل فلم تقتلون أنبياء الله	٩١	٨٦
٢٠	أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم	١٠٠	٨٩
٢١	ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير... ألم تعلم؟	١٠٦، ١٠٧	٩١
٢٢	أم تريدون أن تسألوا رسولكم	١٠٨	٩٤
٢٣	ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه	١١٤	٩٧
٢٤	أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ - ما تعبدون من بعدى	١٣٣	٩٩
٢٥	ومن أحسن من الله صبغة	١٣٨	١٠٧
٢٦	قل أتحاجوننا فى الله	١٣٩	١٠٩
٢٧	أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق - أأنتم اعلم - ومَن أظلم	١٤٠	١١١
٢٨	... ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها	١٤٢	١١٦
٢٩	أوَ لو كان آباؤهم	١٧٠	١١٩
٣٠	هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام	٢١٠	١٢٠
٣١	سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من بينة	٢١١	١٢١
٣٢	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة - متى نصر الله	٢١٤	١٢٣
٣٣	يسألونك ماذا ينفقون	٢١٥	١٢٦

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
٣٤	يسألونك عن الخمر والميسر	٢١٩	١٢٧
٣٥	ألم تر إلى الذين خرجوا	٢٤٣	١٢٩
٣٦	من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً	٢٤٥	١٣٢
٣٧	ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل - هل عسيتم - وما لنا	٢٤٦	١٣٤
٣٨	قالوا أنى يكون له الملك علينا	٢٤٧	١٣٧
٣٩	... من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه	٢٥٥	١٣٩
٤٠	ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه	٢٥٨	١٤٢
٤١	... قال أنىّ يحيى هذه الله بعد موتها - كم لبثت	٢٥٩	١٤٤
٤٢	وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى - أولم تؤمن	٢٦٠	١٤٧
٤٣	أيود أحدكم أن تكون له جنة	٢٦٦	١٥٠
	سورة آل عمران		
١	قل أؤنبئكم بخير من ذلكم	١٥	١٥٣
٢	وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم	٢٠	١٥٥
٣	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب	٢٣	١٥٧
٤	فكيف إذاً جمعناهم ليوم لا ريب فيه	٢٥	١٥٨
٥	قالَ يا مريم أنىَّ لكِ هذا	٣٧	١٥٩
٦	قال رب أنىَّ يكون لى غلامٌ وقد بلغنى الكبر	٤٠	١٦١
٧	قالت رب أنىَّ يكون لى ولَد	٤٧	١٦٣
٨	قال من أنصارى إلى الله	٥٢	١٦٥

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
٩	يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم . . . فلِمَ تحاجون	٦٥، ٦٦	١٦٦
١٠	يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله . . . يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل	٧٠، ٧١	١٦٧
١١	أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون	٨٠	١٦٩
١٢	قالَ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى	٨١	١٧٠
١٣	أفغير دين الله يبغون	٨٣	١٧٢
١٤	كيف يهد الله قوماً كفروا بعد إيمانهم	٨٦	١٧٣
١٥	قل يا أهل الكتاب لم تكفرون . . . * يا أهل الكتاب لم تصدون	٩٨، ٩٩	١٧٥
١٦	وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله	١٠١	١٧٥
١٧	فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم	١٠٦	١٧٧
١٨	. . . ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم	١٢٤	١٧٩
١٩	ومن يغفر الذنوب إلا الله	١٣٥	١٨٠
٢٠	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	١٤٢	١٨٢
٢١	أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم	١٤٤	١٨٤
٢٢	يقولون هل لنا من الأمر من شئٍ	١٥٤	١٨٦
٢٣	. . . فمن ذا الذى ينصركم من بعده	١٦٠	١٩٢
٢٤	أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ..	١٦٢	١٩٤
٢٥	. . . قلتم أنىّ هذا قل هو من عند أنفسكم	١٦٥	١٩٦
٢٦	. . . فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين	١٨٣	١٩٧

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
	سورة النساء		
١	وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ..	٢٠، ٢١	٢٠٠
٢	وماذا عليهم لو آمنوا بالله	٣٩	٢٠٢
٣	فكيف إذَا جئنا من كل أمة بشهيدٍ	٤١	٢٠٤
٤	ألم تر إلى ا لذين أوتوا نصيباً من الكتاب	٤٤	٢٠٥
٥	ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم	٤٩ - ٥١	٢٠٦
٦	أم لهم نصيبٌ من الملك. . . أم يحسدون الناس	٥٣ - ٥٤	٢٠٩
٧	ألم تر إلى الذين يزعمون	٦٠	٢١١
٨	فكيف إذا أصابتهم مصيبة	٦٢	٢١١
٩	وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله	٧٥	٢١٣
١٠	ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم - لِمَ كتبت علينا القتال	٧٧	٢١٥
١١	. . . فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً	٧٨	٢١٧
١٢	أفلا يتدبرون القرآن	٨٢	٢١٩
١٣	ومن أصدق من الله حديثاً	٨٧	٢٢١
١٤	فما لكم فى المنافقين فئتين - أتريدون أن تهدوا من أضل الله	٨٨	٢٢٢
١٥	قالوا فيم كنتم	٩٧	٢٢٤
١٦	فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة	١٠٩	٢٢٦
١٧	ومن أصدق من الله قيلاً	١٢٢	٢٢٨
١٨	ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله		٢٢٩

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
١٩	أيبتغون عندهم العزة	١٣٩	٢٣١
٢٠	قالوا ألم نكن معكم... قالوا ألم نستحوذ عليكم	١٤١	٢٣٢
٢١	أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً	١٤٤	٢٣٥
٢٢	ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم	١٤٧	٢٣٦
	سورة المائدة		
١	يسألونك ماذا أحل لهم	٤	٢٣٨
٢	فمن يملك من الله شيئاً	١٧	٢٤١
٣	قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم	١٨	٢٤٥
٤	قال يا ويلتىَ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب	٣١	٢٤٨
٥	ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض	٤٠	٢٥٠
٦	وكيف يحكمونك وعندهم التوراة	٤٣	٢٥٣
٧	أفحكم الجاهلية يبغون - ومن أحسن من الله حكماً	٥٠	٢٥٦
٨	أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم	٥٣	٢٥٧
٩	يا أهل الكتاب هل تنقمون منا... قل هل أنبئكم	٥٩، ٦٠	٢٦٠
١٠	أفلا يتوبون إلى الله	٧٤	٢٦٣
١١	قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً	٧٦	٢٦٤
١٢	وما لنا لا نؤمن بالله	٨٤	٢٦٧
١٣	... ماذا أجبتم	١٠٩	٢٦٨

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
١٤	إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة	١١٢	٢٧١
١٥	. . . يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس	١١٦ - ١١٨	٢٧٣
	سورة الأنعام		
١	ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن	٦	٢٧٩
٢	ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين * قل لمن ما في السموات والأرض	١١، ١٢	٢٨٢
٣	قل أغير الله اتخذ ولياً	١٤	٢٨٤
٤	قل أى شئ أكبر شهادة	١٩	٢٨٦
٥	ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً	٢١	٢٩٠
٦	أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون	٢٢ - ٢٤	٢٩٥
٧	قال أليس هذا بالحق	٣٠	٢٩٨
٨	وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون	٣٢	٣٠٠
٩	قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله - أغير الله تدعون	٤٠	٣٠٢
١٠	قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم - من إله يأتيكم به. . . قل: أرأيتكم - هل يهلك	٤٦، ٤٧	٣١٠
١١	قل هل يستوى الأعمى والبصير. . . أفلا تتفكرون	٥٠	٣١٢
١٢	ليقولوا أهولاء منّ الله عليهم من بيننا - أليس الله	٥٣	٣١٤
١٣	قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر	٦٣	٣١٦
١٤	قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا	٧١	٣١٧

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
١٥	. . . أتتخذ أصناماً آلهة	٧٤	٣١٩
١٦	قال أتحاجونّى فى الله. . . أفلا تتذكرون	٨٠، ٨١	٣٢١
١٧	قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى	٩١	٣٢٥
١٨	ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً	٩٣	٣٢٨
١٩	أنىَّ يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة	١٠١	٣٢٩
٢٠	وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون	١٠٩	٣٣١
٢١	أفغير الله أبتغى حكماً	١١٤	٣٣٤
٢٢	وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه	١١٩	٣٣٦
٢٣	أو من كان ميتاً فأحييناه	١٢٢	٣٣٨
٢٤	. . . ألم يأتكم رسل منكم	١٣٠	٣٤٢
٢٥	قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين	١٤٣، ١٤٤	٣٤٤
٢٦	قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا	١٤٨	٣٤٩
٢٧	فمن أظلم ممن كذب بآيات الله	١٥٧، ١٥٨	٣٥٦
٢٨	قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ	١٦٤	٣٥٨
	سورة الأعراف		
١	قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك	١٢	٣٦٠
٢	وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة	٢٢	٣٦٢
٣	أتقولون على الله مالا تعلمون	٢٨	٣٦٥
٤	قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده	٣٢	٣٦٧
٥	فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً	٣٧	٣٧٠
٦	فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً	٤٤	٣٧٢
٧	أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة	٤٩	٣٧٤

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
٨	هل ينظرون إلا تأويله	٥٣	٣٧٥
٩	أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم	٦٣	٣٧٧
١٠	اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتقون	٦٥	٣٧٨
١١	أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم... قالوا أجئتنا	٦٩، ٧٠	٣٨١
١٢	أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم	٧١	٣٨٣
١٣	... أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه	٧٥	٣٨٥
١٤	ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة	٨٠	٣٨٨
١٥	قال أو لو كنا كارهين	٨٨	٣٨٩
١٦	أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً	٩٧ - ٩٩	٣٩١
١٧	أو لم يهد للذين يرثون الأرض	١٠٠	٣٩٥
١٨	يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون	١١٠	٣٩٨
١٩	... قالوا إن لنا لأجراً	١١٣	٣٩٩
٢٠	قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم	١٢٣	٤٠٠
٢١	... أتذر موسى وقومه	١٢٧	٤٠٢
٢٢	قال أغير الله أبغيكم إلهاً	١٤٠	٤٠٤
٢٣	ألم يروا أنه لا يكلمهم	١٤٨	٤٠٥
٢٤	أعجلتم أمر ربكم	١٥٠	٤٠٧
٢٥	أتهلكنا بما فعل السفهاء منا	١٥٥	٤١١
٢٦	لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم	١٦٤	٤١٧
٢٧	ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب - أفلا تعقلون	١٦٩	٤١٩
٢٨	ألست بربكم قالوا بلى	١٧٢	٤٢٢

م	الآية موضوع الدراسة	رقم الآية	الصفحة
٢٩	أو لم يتفكروا مـا بصاحبـهم من جنة... أو لم ينظروا	١٨٤، ١٨٥	٤٢٤
٣٠	يسألونك عن الساعة أيان مرساها	١٨٧	٤٢٨
٣١	أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون	١٩١	٤٣١
٣٢	الهم أرجل يمشون بها	١٩٥	٤٣٤
	سورة الأنفال		
١	وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام	٣٤	٤٣٩